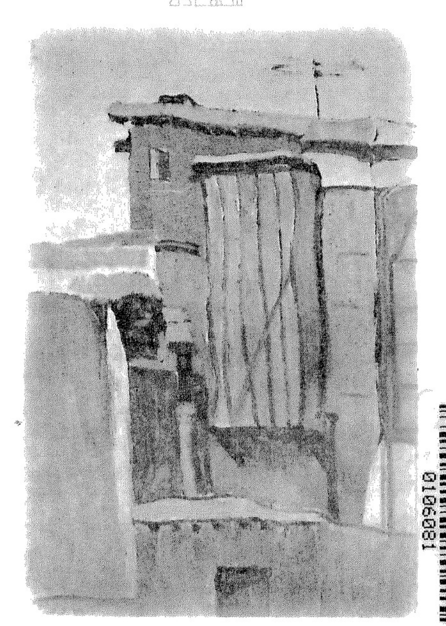
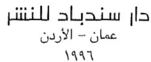
فيصل حوراني

دروب المنفى 2

الصعود إلى الصفر

شهادة





دار سندباد للنشر
عمان - الأردن
١٩٩٦

الصعود الى الصفر

دروب المنفى

شهادة

فيصل حوراني

الصعود إلى الصفر

دروب المنفى

رقم الاجازة ١٩٩٦/٣/٣٣٠
رقم الايداع : ١٩٩٦/٣/٤٤٢
٤٢٤ صفحة
الطبعة الاولى -آب ١٩٩٦
(١٥٠٠ نسخة)

دار سندباد للنشر: شارع مكة ، قرب بنك الاسكان ،عمارة رقم ٣٩ ، الطابق الثالث
ص.ب : ٩٤٠٦٣١ عمان ١١١٩٤ الأردن ، هاتف ٦٨١٠٠٧ فاكس : ٦٩٩٣٥١ ٦ ٩٦٢

فيصل حوراني

الصعود الى الصفر

دروب المنفى

شهــادة

دار سندباد للنشر
عمان - الاردن
١٩٩٦

١

اليــوم الاول فـي دمـشـق اتجـول حـافـيـاً واكـتـشـف

أنهى وصولنا الى دمشق سنة التردد الاولى على دروب الهجرة المتشعبة التي فرضت علينا. وكانت تلك هي نقطة البداية في غربتنا الطويلة عن فلسطين . لم نقصد المدينة التي طالما ملأت أحلامي بأجمل الصور باختيارنا ، فلم ندخلها سائحين أو زائرين او طلاب حاجة ، بل ساقتنا اليها الأحداث القاهرة سوقاً . وقد تم ذلك بعد أن أطفأت هموم التشرد أية قدرة لنا على الابتهاج . وهكذا ، بلغنا المدينة ونفوسنا مسكونة بالبؤس الذي تراكم منذ اقتلعتنا العاصفة من المسمية الصغيرة وطاردتنا رياحها الهائجة فأبعدتنا عن حياتنا المألوفة . ولا بد لك أن تحزر أن وضعاً كهذا لا يبقي مجالاً للإحساس بمتعة الوصول الى المدينة التي سبق لحكايات جدّي أن ملأت مخيلتي بأزهى الصور عنها. لقد غاضت الصور التي في المخيلة ، بل قل إنها غابت تماماً عن البال . أما ما طغى على النفس فهو ذلك الإحساس بالضياع في مدينة كبيرة لا نعرفها ولا نألفها ، ولا ندري

كيف نتصرف إزاء ما فيها من غرائب . لم يكن هذا هو ، إذن ، الإستقرار الذي ينشده من طال تنقلهم ، ولا كان نقلة من ظروف سيئة الى أخرى حسنة أو أقل سوءاً ، بل كان ، ببساطة ، محطة جديدة ، في مشوار سقيم عرفنا أوله ثم لم يتسنّ لنا أن نبلغ منتهاه . فلم يصبح الأمر ، بوصولنا الى هذه المحطة ، أفضل أو أسوأ ، بل بقي هو ذاته .

والحقيقة ان المشاكل داهمتنا لحظة وصولنا الى المدينة الكبيرة ، فواجهنا الهيّن من هذه المشاكل كما واجهنا العسير ، البسيط الذي يمكن حله ، والمعقد الذي تلفنا دواماته الواحدة تلو الأخرى .

بدأ الأمر لحظة وقفت بنا السيارة وسط المدينة . قال السائق الذي قادنا من بيروت الى دمشق : « هذه هي ساحة المرجة ، هنا تسألون عن العنوان الذي تقصدونه » . ولم يكن معنا عنوان ولا كنّا نعلم أن للدور عناوين لا تُعرف إلا بها . وكان في ظننا أنه يكفي أن نذكر اسم عبد المجيد الحوراني حتى يدلنا الناس على داره . وفي حيرتنا التي جمدتنا على الرصيف ، لم نهتد إلى ما يمكن عمله من أجل الوصول الى دار الجدّ ، ولا كان بإمكاننا أن نظل على الرصيف إلى الأبد . وفيما نحن أسرى هذه الحيرة ، وقد بدأ الذين اهتموا بأمرنا وتحلقوا حولنا ينفضون عنّا الواحد تلو الآخر ، تذكّر خالي عمر اسم حيّ العمارة الذي تقع فيه الدار ، فتشبث بآخر المتحلقين حولنا ونطق باسم الحيّ بنبرة الجندي الذي ينطق بكلمة السرّ . وظننا أنها فُرجت ، ليتضح أن العمارة حيّ كبير في دمشق ، فيه أسواق وشوارع وأزقة كثيرة لكل منها اسم خاص به . ولكي نهتدي الى الدار المقصودة ، كان لا بدّ من معرفة اسم الشارع أو الزقاق . ثمّ تبرّع من نصحنا بأن نتوجه إلى قسم الشرطة في الحيّ حيث يمكن أن نظفر بالمساعدة . فَشلْنا صُرَرنا في ذلك المساء وتوجهنا ، مهتدين بإرشادات المارة ، ناحية القسمَ ، وشلنا ، مع الصُرَر ، كلالنا وسوء حالنا ودهشتنا إزاء المشاهد الغريبة المتعاقبة وأملنا بالخلاص وخشيتنا من الخيبة . وبهذا الخليط من المشاعر ، ولجنا القسم ، فوقعنا على شرطيّ وحيد لم يكن في القسم سواه . وأمام هذا الشرطيّ

الذي وشت ملامحه بإعتياده على استقبال امثالنا ، بسط خالي عمر المشكلة . واحتاج الأمر لبعض الوقت . فالشرطيّ الدمشقي لا يفهم اللهجة الريفية التي يتحدث بها الخال . وعندما مزج الخال عباراته بما تحتفظ به ذاكرته من الألفاظ العامية الشامية ، زاد الأمر تعقيداً . وحين لجأ الى الفصحى ، امتعض ذلك الشرطيّ وأنّب الخال : « إحك مثل الناس ! لماذا تحكــــي مثل الإذاعة ؟ » . وقد ظن الشرطي اننا - ونحن لاجئون فلسطينيون - نطلب منه أن يوفر لنا مأوى نقيم فيه ، فتطوع بإفهامنا أن هذا ليس من شأنه . وبنبرَة كليلة ، تشي بضيقه لكثرة ما أعاد الشرح ، بيّن لنا الشرطيّ الممتعض أن الدولة أنشأت مؤسسة لرعاية اللاجئين الفلسطينيين ، فعلينا أن نتوجه اليها في اليوم التالي ، ثم نصحنا بأن ننضم الى جماعة من اللاجئين تقيم في مسجد قريب ، وأن نتدبر امرنا عند الجماعة حتى الصباح . فلما أعاد الخال الشرح ، راجياً الشرطيّ أن يصغي اليه بأناة ، وفهم الرجل ما نريد بالضبط ، قال إن القسم لا يحتفظ بسجلات للاجئين ، ومثل هذه السجلات قد تكون موجودة في المؤسسة التي ذكرها ، وأعاد نصيحته لنا بالتوجه الى المسجد القريب . ثم انشغل الشرطي بأصحاب مشكلة أخرى دخلوا القسم ، ولم يعد ، بعد ، مستعداً لمتابعة الحديث معنا .

لم يكن المكان الذي وجهنا الشرطي اليه مسجدا في واقع الأمر ، بل داراً فسيحة متعددة الحجرات تابعة لأحد المساجد . وكانت الدار تستخدم كمدرسة لطلاب العلوم الدينية ، ثم تحولت الى مأوى خيري . ووجدنا أنفسنا متحلقين حول صررنا في الباحة التي تتوسط الدار ، وقد تسللت من الحجرات المحيطة بالباحة انوار خافتة وضجة غير خافتة . والتمّ نزلاء الدار حول الوافدين الجدد . وبدأ الاستقصاء الحذر لمعرفة مقصدنا ، فقد ظن النزلاء ، كما ظن الشرطي ، أننا طلاب مأوى . ولما كانت الدار مكتظة فوق ما تطيق ، فقد خشي كل نزيل أن يؤدي وصولنا إلى مزاحمته في مأواه . واخترق خالي عمر حذر النزلاء بصوت جهور ، فأعلن أننا لا نقصد الالتجاء إلى الدار بل نبحث عن أقرباء لنا يسكنون داراً في هذا الحيّ

هنا ، اتخذت الاستقصاءات منحىً آخر ، وخالط الاستعداد لتقديم العون نبرات المتحدثين ، وتحرر الحوار من الحرج الذي كبّله في البداية . بعد أخذ ورد ، هتف أحد الرجال : « لا بدّ أنه أبو نافذ » ، فتشبثنا به . وبهدي خطوات الرجل الذي اتضح أنه من معارف جدّي ، سرنا في الازقة التي تتداخل فيها حلكة الليل والأنوار الباهتة لمصابيح كهربائية متباعدة . وأسلمنا زقاق ضيق لواحد أضيق منه ، حتى بلغنا زقاقاً له هيئة النفق ، فهتف مرافقنا : « هذا زقاق بدر ، احفظو الاسم ! وهنا يسكن ابو نافذ » . وامام باب في الزقاق لا يميزه شيء عن الأبواب المجاورة له ، وقف الرجل ، وهتف باسم جدي بصوت مجلجل ، ثم دق مطرقة الباب دقات صاخبة ، وهو يكرر الهتاف . وسمعنا صوت الجدّ من الناحية الأخرى وهو يستفهم عن الطارق ، فهتف مرافقنا بجذل : « البشارة لي ، افتح ! وصل أولادك» .

مسكين جدّي . لقد بذل هذ الانسان المفعم بالحيوية طاقته كلّها كي يأتي بنا الى دمشق ويلمّ شمل اسرته التي شتتتّها الكارثة . فلما امكن ، في نهاية المطاف ، ان نصل اليه ، اتضح ان وصولنا لا يفعل شيئاً سوى زيادة الاعباء التي ينوء بها ولا يجد مخرجاً للفكاك من قسوتها . كنّا ، نحن الوافدين الجدد ، نعيش ، قبل وصولنا الى دمشق في رعاية الجدّة . وقد انفقت جدتي مدللة خلال السنة التي انقسمت فيها الاسرة بين غزة ودمشق جلّ مدخراتها ، وبدا انها ، بذلك ، قامت بكل ما تقدر عليه . ولحظة وصولنا الى الدار الدمشقية ، لحظة الوصول بالذات ، سلكت الجدّة على النحو الذي بيّن ، بأقصى الوضوح ، تصورها لموقفها في الوضع الجديد للاسرة . كان من المنطقي أن يظن المرء أن الاحداث التي عصفت بالاسرة فقلبت حياتها رأساً على عقب سوف تحمل الجدّة على نسيان الاساءة التي سببها لها الزوج الغادر قبل سنوات كثيرة . وكنّا نحن قد نسينا الحكاية كلها وسط الاحداث التي طمرت ما سبقها من مرارات . ولا بدّ ان الجدّ المبتهج بوصولنا اليه قد توقع ان يبدأ صفحة جديدة مع المرأة التي جافته كل تلك السنين منذ ان جاءها بضرّة . والحقيقة ان الجدّ استقبلنا بحرارة

ولهفة كشفا عمق شوقه لنا ومقدار قلقه على مصيرنا حين كنّا بعيدين عنه . لقد احتضنني الجدّ وقبلني ، وقبّل ابنيه عمر وغالب وابنته شفيقة بمودّة غامرة . وحين همّ الجدّ بالسلام على الجدّة ، وهو مقبل عليها بحرارة ظاهرة ، اوقفه البرود والصرامة اللذان افصحت عنهما التعابير السافرة لامرأة اتضح أنها لا تنسى . فسحب الجدّ لهفته الفائضة ، ومدّ يده للمصافحة متهيباً . واستجابت الجدّة لليد الممدودة ، لكن بحركة محسوبة ، فقد لفّت يدها بالحطة التي تجلل رأسها وتنسدل على جانبيها ، قبل أن تضعها في يد الجد ، فأظهرت انها لا تبيح له ان يتعامل معها كقريب . وبهذه الحركة التي ادرك الجميع مغزاها ، ذكرت الجدّة أبناءها بأننا قد نكون ، حقاً ، أبناء اسرة واحدة ، منحدرين من صلب رجل واحد ، إلا أننا ما نزال ، بالرغم من ذلك ، فريقين متمايزين . وفي سلامها على ضرّتها والجمل المقتضبة التي ردت الجدة بها على ترحيبات الضرة ، اظهرت المرأة ذات الطبع الصلد حرصها على الاحتفاظ بالمسافة التي احتفظت بها سابقاً للفصل بينها وبين ام عدنان . كل هذا ، دون ان يشي سلوك الجدّة تجاه الجدّ وزوجته بالضغينة .

وهكذا ، تماوجت العواطف في هذا اللقاء الفريد بين مسلك الكبار المحسوب وعفوية الصغار من الفريقين . وبالنسبة لي ، تجلى هذا الفارق في رد فعل الكبار والصغار إزاء عيني الشوهاء . فقد تجنب الجدّ وزوجته توجيه أي سؤال حول الموضوع ، أما الصغار الذين فاجأهم بياض العين واندلاقها من محجرها فلم يكفّوا عن توجيه الاسئلة الا حين أسكتتهم اشارة صارمة الدلالة من امهم . وبعد السلامات والتحايا ، قدم لنا عشاء عاجل أعدته أم عدنان مما تسميه حواضر البيت ، وتعاون اولادها في نقل الاطباق ووضعها وسط الحلقة التي ضمتنا داخل الحجرة . وشاءت خالتي شفيقة القادمة معنا أن تهب لمعاونة زوجة ابيها ، فأقعدتها عن حركتها التلقائية نظرة ذات مغزى وجهتها لها الجدّة بسفور تام ، فانطفأت لهفة البنت على التصرف بعفوية في منزل ابيها .

وبعد العشاء ، برزت مشكلة مبيتنا نحن الوافدين الجدد الى الدار .

كانت هذه الدار ، كما تبين لنا فور حلولنا فيها ، أصغر بكثير مما تصورنا . فالطابق الارضي لا يعدو أن يكون مدخلاً ضيقاً يلي الباب ولا يكاد يتسع لشيء ، وهو يفضي الى فسحة أضيق تستخدم كمطبخ ، تتراكم فيه الاواني فلا يبقى فيه متسع لأكثر من شخص او اثنين ، وتعبره القناة الصغيرة التي تزود الدار بمائها . وفي طرف هذه الفسحة يقوم بيت الخلاء الذي يسيل ماء القناة فيه باستمرار فيبلل جوه برطوبة مزمنة . اما الطابق العلوي الذي تصعد اليه عبر درج حجري ملتو وضيق ، هو الاخر ، ففيه ثلاث حجرات تتوسطها فسحة مكشوفة يسمونها المشرقة . وقد خصصت اكبر الحجرات للزوار وضمت قطع الصالون الدمشقي والخزن والموائد الملحقة به فامتلأت بها ، فلم يبق فيها متسع الا لمكان يبيت فيه شقيق ام عدنان الذي آلت اليه بالوراثة ملكية نصف الدار . والحجرة الثانية ، وهي التي يسمونها المربع ، وقد اكتسبت هذا الاسم من شكلها متساوي الاضلاع ، حجرة صغيرة تقع عند نهاية الدرج تماماً وتتخذها الاسرة مكاناً لجلوسها وسمرها ومعيشتها اليومية . ومن ينام في المربع يتوجب عليه ان يتحمل المزعجات الكثيرة التي تفرضها حركة اسرة كبيرة العدد ، وخصوصاً قرقعة القباقيب الخشبية على الدرج الحجري . وأما الحجرة الثالثة فهي مستطيل لا تتجاوز ابعاده الامتار الاربعة في ثلاثة وليست لها سوى نافذة واحدة بجوار بابها الذي يصلها بالمشرقة ، مما يجعل لها هيئة كهف قليل التهوية . وقبل مجيئنا ، كان الجدّ يستخدم هذه الحجرة الثالثة لمبيته هو وزوجته وأولاده فيها ، فيما يبيت خالي نافذ في المربع ، متحملاً ، باعصابه المرهفة ، المنغصات التي زادت اعصابه رهافة واسلمته الى مزاج شديد التوفز . والآن ، وقد انضممنا ، نحن الخمسة ، الى قاطني الدار الصغيرة العديدين ، بما بين الفريقين من حساسيات تعرفها ، فقد صار توزيع العدد الكبير على المساحات المحدودة مشكلة معقدة . ولأن الإفصاح عن الحساسيات لا يتم بعبارات مباشرة ، فلم يدخل أحد في جدل مباشر او صريح حول التوزيع الملائم . والذي جرى أن الافكار المتنوعة ، المعبرة عن مواقف أصحابها المتباينة ، طافت في الرؤوس المقفلة على الحساسيات

الخاصة ، وعكستها العبارات المواربة والحركات والنظرات المتبادلة بصورة يفهمها من يعنيهم الأمر دون أن تفصح عن شيء محدد . ولك ان تدرك - ولن تكون بهذا بعيداً عن الصواب - أن نوعاً من الصراع الخفيّ دار حول هذه المسألة ، ليس لأن المبيت ، في حد ذاته ، مهم لكل فرد من افراد الاسرة ، بل ، أيضا ، لأن المكان الذي يخصص لكل فرد ، هو الذي يحدد منزلته فيها .

لا استطيع ان اكرر لك العبارات التي قيلت أو التلميحات التي اطلقت في ذلك المساء . ويكفي ان تعرف ، إذن ، ما انتهى اليه جدل العبارات الملغزة والعيون المترامقة . لقد اوحت تلميحات جدّي برغبته في ان يبيت النساء والاولاد الصغار كلهم في الحجرة المستطيلة ويبيت هو مع ولديه الكبيرين في المربع . هذه الخطة عارضتها جدّتي التي تأبى ان تبيت مع ضرّتها في حجرة واحدة ، وعارضتها الضرة ، ايضاً ، لأنها استكثرت ان ينفصل زوجها عنها ويبيت مع اولاد الجدّة . وفي النهاية ، اختارت الجدّة المبيت في المشرقة . اعلنت جدتي قرارها على طريقتها حين قالت : « احبّ ان اكون حيث أرى وجه الله» . وكان في هذه العبارة أول تعريض تطلقه الجدّة للتعبير عن احساسها بالضيق في هذه الدار الصغيرة ، هي التي اعتادت على الافضية الفسيحة في دور القرية . هذا التعريض التقطته أذنا ام عدنان اليقظتان ، فالدار تخصها ، على نحو ما ، مما يجعل التعريض موجهاً اليها بصورة خاصة . ولم تشأ ام عدنان ان يمرّ تعريض الجدّة بها بغير جواب ، لكنها ، وقد ارتاحت لحقيقة ان الجدّة لن تشاركها المبيت في حجرة واحدة ، اكتفت برد خفيف : « حالنا احسن من غيرنا ، شفتم المحشورين في المسجد ، اسرتان او ثلاثة ، واحياناً أربعة ، في حجرة واحدة ، لنحمد الله ! » .

وفي نهاية المطاف ، احتفظ حيدر شقيق ام عدنان ، وهو تاجر صغير يتوجه مبكراً الى عمله ، بمباته في حجرة الزوار ، وانضم خالي عمر الى شقيقه نافذ في المربع ، وبتنا ، خالتي شفيقة وغالب وانا مع الجدّة في المشرقة ، وبقيت للجد وزوجته واولادهما الصغار حجرتهم المستطيلة .

واستقر هذا الوضع الذي كان البقاء عليه ممكناً ما دام الطقس دافئاً . وتقاسم الجميع المزعجات الكثيرة التي يسببها الاكتظاظ في الدار الصغيرة .

لقد غابت عن ذاكرتي معظم هذه المزعجات . اما ما لم يغب فهو صوت قرقعة القباقيب الخشبية ، وخصوصاً قرقعتها على الدرج الحجري في هدأة الليل اثناء الذهاب الى المرحاض أو العودة منه . وما ازال اتساءل ، كلما طافت برأسي أصداء هذه القرقعة ، عن الحكمة التي جعلت سكان الدور العتيقة في دمشق يستخدمون القباقيب الخشبية ، فلا أجد جواباً . وسواء صدر الأمر عن حكمة أو عن فجاجة في الذوق ، فلك ان تتصور مدى الضجيج الذي يحدثه اثنان وعشرون قبقاباً وهي تتنقل على بلاط المشرقة والدرج الحجري !

ومهما يكن من امر ، فقد اسلمني الإرهاق الى النوم العميق في تلك الليلة . غير ان نومي لم يطل . فجدي عبد المجيد لم يتخلّ ، في المدينة ، عن عادته القديمة في النهوض مبكراً . ثم إن استغراق الجدّ منذ الهجرة في التدين اكثر من المألوف جعله ينهض مع اطلالة الفجر الاولى ليؤدي الصلاة في انسب وقت . وقد نهض الجد وأيقظ الآخرين ، داعياً إياهم الى أداء الصلاة . ونشطت حركة القباقيب ، فصارت قرقعتها ضجيجاً جعل من المستحيل عليّ أن أواصل النوم . وتقلبت في فراشي ، فيما القباقيب صاعدة هابطة ، مؤملاً أن أظفر بإغفاءة جديدة عندما ينتهون من مراسم الوضوء وينصرفون الى الصلاة . لكن الصلاة ذاتها كانت ضاجّه ، اداها كل واحد من الكبار بمفرده ، وأخذ كل واحد منهم يتلو أدعيته واوراده بصوت مسموع . فمنيت نفسي بإغفاءة تعقب الفراغ من الصلاة . غير ان الجدّ لم يلبث ، منذ فرغ من صلاته ، أن اخذ ينادينا ، نحن الذين بقينا في فرشنا ، بأسمائنا ، ويدعونا الى النهوض ، مردداً العبارة التي بدا انها احتلت لسانه : « نوم الضحى يقطع الرزق » . وتوجب عليّ ان استجيب لنداءات الجدّ الملحاحة . والحقيقة اني فعلت ذلك على مضض ، إذ لم أعرف كيف يكون الوقت ضحى اذا كانت الشمس لم تشرق بعد ، وأيّ

رزق موعود هذا الذي سيقطعه استمتاعي بإغفاءة أنا في اشد الحاجة اليها!

وتحلقنا حول الجدّ الذي أوقد بابور الكاز وانصرف الى اعداد الشاي والقهوة . وأخذ الجدّ يحاورنا فرداً فرداً ، رامياً ، في ما يبدو ، الى طرد ما يعلق في عيوننا من نعاس وحملنا على الاستجابة له بصحو تام . وفي حواره معي ، الح الجدّ الى ان مهمة شيقة أقوم بها بصحبته تنتظرني هذا الصباح ، فنجح في اثارة فضولي . ولما استفهمت عن طبيعة المهمة ، قال الجد : « ستعرف ذلك حين تصبح مستعداً للخروج » . وكان هذا كافياً لاجتذابي من عالم النوم الحالم الى عالم الصحو .

كانت المهمة التي ندبني الجدّ لها دون الآخرين شيقة ، حقاً ، بالنسبة لوافد جديد مثلي يرى المدينة لأول مرة في ضوء النهار . تزودنا ، الجد وانا ، بسلّة كبيرة مصنوعة من عيدان القصب ، وغادرنا الدار متوجهين الى ما سماه جدي سوق الهال ، أي سوق الخضار المركزي . وفيما رحنا نعبر الأزقة ، توالت شروحات جدي : ففي زقاق بدر ، على الناحية المواجهة للدار ، تمتدّ المدرسة البدرائية ، وقد اشتق اسمها من اسم مؤسسها في العصر الوسيط ، وهو الشيخ البدرائي . بناء كبير وعتيق يتميز بجدرانه الحجرية وطرازه القديم ، وسط الحيّ الذي بنيت دوره بالطوب . وهنا ، كما تبين لي عندما دخلت البناء بصحبة الجد ، يقوم مسجد له رواق فسيح ، وتقوم على جانبي الرواق من الشرق والغرب حجرات متلاصقة يشغلها طلاب العلوم الدينية ومن في حكمهم من الغرباء الذين تأويهم دمشق ، فيلوذون بهذا النوع من المدارس طلباً للسكن المجاني ويتولون شتى المهام ذات الطبيعة الدينية ، فيكون منهم ، الى جانب طلاب العلم ، وعاظ ، وأئمة ، وقراء قرآن ، وكتاب حجب وتعاويذ ومن على شاكلتهم . وهنا ، مقابل الزاوية الشمالية للمسجد ، تقوم دار كبيرة يقطنها أغنياء من دار القباني وهم من كبار تجار المدينة وسادة اسواقها العتيقة . وفي الزقاق التالي ، الذي لا يقلّ ضيقاً عن زقاق بدر وإن فاقه في الطول ، مدرسة حديثة تشغل واحدة من دور الزقاق الكبيرة . وفي الزقاق ذاته دار اخرى شهيرة تشغلها اسرة من الاشراف يشتغل عميدها في القصر الجمهوري في

معيّة رئيس الجمهورية ذاته . وهنا المركز التجاري للعمارة الجوانية ، القسم الجنوبي من حيّ العمارة الالصق بمركز المدينة القديمة . وفي هذا المركز ما يشبه الساحة ، وهي ساحة تتوزعها ، كما تتوزع الازقة المفضية اليها ، شتى انواع الحوانيت والبسطات لباعة خضار أو لحوم أو بقالة أو حلويات وحلاقين واسكافية ومكوجية . وهنا الطوالع السبع ، او السبع طوالع ، كما يسمونها بالعامية ، حيث تتوالى على امتداد الزقاق الذي يحمل هذا الاسم الحوانيت المتنوعة والمدارس الحديثة والاخرى القديمة . وهنا المدخل الشمالي للجامع الاموي الشهير يجاوره قبر صلاح الدين الايوبي ، وظاهر المكتبة الظاهرية التي تختزن عشرات الالوف من الكتب والمخطوطات القديمة والحديثة . وتتابعت خطواتنا عبر الازقة ، فتوالت الاكتشافات التي ادهشتني : سوق المناخلية وعجائبه ، وسوق النحاسين وحركته الناشطة والايقاعات المنتظمة لشغيلته الذين يطرقون الواح النحاس بدأب فيحيلونها الى اوان متعددة الاشكال ومتنوعة الحجوم ، وسوق الحدادين الذي يتقد فيه الفحّم الحجري وتبرق كتل الحديد المحماة ويتطاير الشرر من حوافها . عالم غني ومتنوع ، يبدأ نشاطه مع الصباح الباكر وتكتظ انحاؤه بالعاملين والمشترين والجبهم المختلط .

وفي نهاية هذا المشوار ، الذي سيصبح تكراره من لذائذ عيشتي القليلة في هذا الحي ، أقبلنا على سوق الهال . وفي هذا المكان ، تنصبّ جلّ منتجات غوطة دمشق من الخضار والفواكه ، تنقلها الدواب والعربات كل صباح . والى هذا المكان ، تصل الشاحنات الآلية الصغيرة والكبيرة حاملة نتاج المناطق البعيدة من الأصناف ذاتها . هنا ، تباع المواد بالجملة والمفرق ، حيث يتوافد أصحاب حوانيت الخضار من أحياء المدينة كافة ليشتروا ما تحتاج اليه حوانيتهم ، ويتوافد الى جانبهم ،كذلك ، بعض أهل المدينة للظفر بحاجاتهم بأرخص الاسعار . ولكثرة ما في السوق من ناس ومعروضات وأنشطة ، توهمت أن المدينة كلها تجمعت فيه ، وظننت ان السوق ينعقد مرة واحدة كل اسبوع ، كما كان الحال بالنسبة لسوق الجمعة في غزة ، الى ان افهمني جدي ان هذا هو حال السوق كل يوم .

تشغل حوانيت السوق وبسطاته شارعاً عريضاً يصل بين شارع الملك فيصل الذي جئنا منه وشارع سوق ساروجة . ويمتد السوق داخل عدد كبير من المنعطفات والشوارع الجانبية فيشكل ، بهذا وذاك ، منطقة فسيحة ، تكتظ فيها مئات وربما آلاف الحوانيت والبسطات ، وتقف فيها ، أو تتحرك ، مئات الشاحنات والعربات والدوابّ ، ويتجول الناس ويتزاحمون ويتدافعون عبر الفراغات القليلة المتاحة لحركتهم ، وتعلو ، الى عنان السماء اصوات الدلالين والمنادين وصخب المتساومين على الاسعار ، وتتكدس اكوام الخضار والفواكه ، مفرودة على الأرض مباشرة أو منسقة في صناديق خشبية ، ويتحلق المشترون حول هذه الاكوام لينتقوا ما يلائم حاجاتهم وقدرتهم الشرائية .

وجلنا السوق من ناحيته الجنوبية وانتهينا الى ناحيته الشمالية عند سوق ساروجة . وفي غضون ذلك ، خاض الجدّ مع الخائضين في المساومة على الاسعار . وراحت السلة تمتلىء ، اولاً بأول ، وتمتلىء معها نفس الجدّ بالتوتر الناجم عن المساومات القاسية . واقبلنا على دكان بقالة يتصدر نقطة التقاطع بين سوق الهال ، وسوق ساروجة . هنا استراح الجد وتبادل تحيات ودودة مع صاحب الدكان وقدمني اليه ، ثم خاض الاثنان في حديث تبين لي منه ان صاحب الدكان لاجىء فلسطيني من أهل الرملة ، وان الجد يشتري حاجات الاسرة من البقالة من هذه الدكان فيسجلها صاحبها على الدفتر ليستوفي الحساب في نهاية كل شهر . وهنا ، اضاف الجد الى السلة ما ملأها تماماً . ثم بدأنا رحلة العودة . وقد اختار الجدّ لعودتنا طريقاً آخر غير الذي جئنا منه ، فعبر بي الزقاق الطويل الذي يحمل اسم شارع سوق ساروجه ، باتجاه الشرق ، مواصلاً تعريفي بالمعالم الرئيسية في الاماكن التي نمر فيها . وهكذا ، عرفت ، في يومي الاول في دمشق ، حيّ العقيبة ، والناس يلفظون هذا الاسم محوّلين القاف الى همزة ومخففين الهمزة ، فيصير اللفظ اقرب الى العيبة ، وعرفت الجامع الشهير الذي يحمل الاسم ذاته . وانحدرنا ناحية اليمين في زقاق منحنٍ ، لنحيط بالقسم البراني من حيّ العمارة ، ثم عبرنا شارع الملك

فيصل من جديد ، وولجنا مدخل العمارة الجوانية الذي يسمونه فم العمارة ، لنعود الى مركز الحي الذي سبق أن رأيته ، ثم الى المنزل . كل هذا ، وانا اتبادل مع جدي حمل السلة او اشاركه الحمل ، فيما انقل نظري من دكان الى آخر ، ومن منشأة الى أخرى ، حيث تراصفت شتى انواع الدكاكين والمحترفات والمدارس والمساجد . ولما دخلنا الدار ، اخرج الجدّ من جيب قمبازه ساعته الأوميغا التي لا تفارقه ، وفتح غطاءها الفضيّ ، وهتف بنبرة من يؤكد اننا قمنا بعمل هام في الوقت المناسب : « انها السابعة » . وكان الفطور قد اعدّ ، وقد وضعت الاطباق التي حوت ، مرة اخرى ، حواضر البيت ، وتميز من بين الاطباق واحد كبير حوى المسبّحة التي هي مسحوق الحمص المجبول بالثوم والطحينة وعصير الليمون والمجلل بزيت الزيتون . وكان أحدهم قد جلب من السوق ، للتوّ ، الخبز الشاميّ المرقد وتوزعت الارغفة حول الاطباق ، رغيفاً لكل آكل . وتحلقنا حول المائدة الممدودة على أرض المشرقة ، وشرعنا في التهام الوجبة الشهية ، فيما سكب الجدّ الشاي من ابريقه الكبير في الاكواب الزجاجية ووزعها علينا واحداً واحداً ، وهو يخص كل واحد بعبارة مرحة أو بوخزة لبقة ، حسب الاحوال . كانت معظم الاطباق مألوفة بالنسبة لي ، أنا الذي ألف ان يأكل مما تعدّه ام عدنان عندما كنّا في قريتنا . الجديد الوحيد الذي استوقفني كان طبق المسبّحة . وهو طبق لم يعدّ في المنزل بل اشتري جاهزاً من دكان الحمصاني وأضيف الى المائدة كبادرة تكريم للوافدين في صباحهم الاول في المنزل . لقد اجتذبني الطعم الشهي لهذا الطبق ، وكان بودي ألا آكل إلاّ منه . غير انّ تزاحم العدد الكبير من الاكلين على طبق المسبحة بالذات ، الزمني بالتعفف ، فاستكملت وجبتي من الأطباق الاخرى .

في غضون ذلك ، دار الحديث عن مهمات هذا النهار . وكشف الحوار المتبادل بين الكبار بعض أحوال الأسرة مما لم اكن قد عرفته بعد . وقد توجب على النساء أن ينصرفن لإعداد وجبة غداء فاخرة احتفاء بقدومنا . وفرحت إذ ادركت أننا سنأكل الكبّة ، وكنت قد نسيتها او كدت ،

واعلنت عن فرحي بعبارة وجهتها الى امرأة الجدّ ، فقالت ام عدنان ، فرحة بفرحي : « تكرم عيونك ، ستذوق كبّة لم تذق مثلها من قبل ! » . كما توجب على خالي نافذ أن يصطحب أخاه عمر إلى وزارة التربية كي يقدم الوافد الجديد طلباً للعمل كمدرس في مدارس الوزارة ، حيث لم يبق سوى وقت قصير من المدة المحددة لتقديم الطلبات . وتبين ان نافذ ، نفسه ، قد قبل للعمل كمدرس وهو ينتظر صدور قرار تعيينه وتخصيص المحافظة التي سيعمل فيها . وأوضح حديث نافذ ، وهو يشرح الامر لأخيه ، أن الحصول على العمل شبه مضمون ، ما دام عمر يحمل الشهادة الثانوية الزراعية ، ذلك انهم اخذوا في سوريا يضيفون مادة الزراعة الى مواد عدد من مدارس الريف ، ولديهم نقص في المعلمين المتخصصين . وفهمت أن الانظمة توجب على المدرسين الجدد ان يعملوا سنتين على الاقل في المحافظات النائية قبل أن يحق لهم طلب الانتقال الى دمشق . وأدركت ، من الاشارات العابرة التي جرى التلويح بها بأدب محسوب ، أن الاسرة تعاني ضيقاً مالياً شديداً ، فهي لا تملك أي مورد ولا تتلقى الا ما تقدمه الجهات الخيرية من معونات عينية للاجئين . وفي السنة التي انقضت قبل انضمامنا الى الاسرة ، غرق الجد في الديون ، ولم يبق له بين معارفه من يقدم له قرضاً جديداً ، والجدّ يعول كل التعويل على العمل الذي سيحصل عليه الخالان الكبيران لانتشال الاسرة من الضائقة وسداد الديون ، او ، كما قال هو نفسه ، اثناء الحديث : « سيشيل نافذ وعمر الحمل الذي شلته ، قبلهما ، ثلاثين سنة » .

فرغنا من تناول الفطور . وطلبت ام عدنان من خالتي شفيقة ، بعبارة صريحة ، ان تساعدها في العمل . وقد تضمن هذا الطلب ، الذي شفعته ام عدنان بنظرة ذات مغزى موجهة الى جدتي ، اعلان الزوجة الدمشقية أنها لا تنوي ان تخدم هذه الاسرة الكبيرة لوحدها وان على المنضمين الجدد الى الاسرة أن يكفّوا عن التصرف كضيوف . وتجاهلت جدتي نظرة أم عدنان ، ولكنها لم تقل شيئاً ، ولم تقم بما يشي بامتعاضها أو اعتراضها . اما شفيقة ، التي يبدو انها لم تنتبه لمجرى الحوار الصامت بين الطرفين ،

فقد شرعت للتو في العمل مطلقة العنان لحيويتها المكبوتة ، فبدأت بلمّ الاطباق ونقلتها الى الطابق الارضي . وبدت الخالة سعيدة بالعمل ، في حين احتفظت الجدّة بجلستها الوقورة في المشرقة ، معلنة ، بذلك ، أنها ، وإن أذنت لابنتها بالمشاركة في العمل ، لن تفعل ذلك هي نفسها ، وراسمة ، على نحو حاسم ، مكانتها بين نساء الاسرة . وصارت هذه ، منذ ذلك الوقت ، هي القاعدة ، فترتب على الخالة المسكينة أن تتولى ، كل يوم ، أعمالاً لا تنتهي منذ ساعة اليقظة الى ساعة النوم .

وفيما انصرفت النساء الى مشاغلهن ، دخل جدّي عبد المجيد حجرته ليخرج منها بعد قليل وقد استبدل الملابس التي ذهب بها الى السوق بملابس أخرى استعاد بها هيأته الأنيقة التي عرفته بها في القرية . ووقف الجدّ ازائي ، وتفقد ساعته ثم اعادها الى جيبه بأناة ، ووجه لي الخطاب « ستذهب معي فترى الجامع الاموي ، اكبر جوامع الأرض ، قاطبة » . اختارني الجد لصحبته من بين أولاد الأسرة فسرّني ذلك . وأدركت أن الجدّ ، بالرغم مما حلّ به من هموم والعصبية الظاهرة التي خالطت مزاجه في السنة الأخيرة ، قادر على أن يكون لطيفاً فيشملني برعايته وحفاوته . لقد استخفتني دعوة الجد لي فسبقته الى هبوط الدرج فيما هبط هو ورائي متأنياً . ورأتني ام عدنان وانا متجه الى باب الخروج ، فسألتني عن وجهتي . ولماعرفت المرأة اني مصطحب الجدّ الى الجامع ، استوقفت زوجها . وتبادل الاثنان حديثاً هامساً لم يصلني الا جرسه ، وبدا لي أنها اقترحت عليه شيئاً يتعلق بي وأنه قبل الاقتراح . ثم اتضح الأمر حين استوقفني الجد ، متشاغلاً بتنظيف حذائه ، وصعدت ام عدنان الى الطابق العلوي ثم عادت وفي يدها حذاء طلبت مني ان انتعله . كنت قد تنقلت حتى ذلك الوقت حافياً في أرجاء المدينة دون أن أفطن الى أن في الأمر ما يعيب ، خصوصاً أن كثيرين غيري كانوا حفاة ، أيضاً . والواضح أن أم عدنان الحريصة على اللياقات استكثرت أن أرافق الجدّ الى الجامع حافياً ، فجاءتني بحذاء ولدها عدنان . وها أنا لا أتذكر . الآن ، كيف كان احساسي إزاء هذه اللفته ، فهل شعرت بالأمتنان ، أم أن تذكيري بسوء

الحال قد أمضّني ؟ كل ما أتذكره أني تبعت الجدّ صامتاً ونحن ننعطف من زقاق ضيق الى آخر، ثم ونحن نشرف على الجدار الشرقي ، هائل الارتفاع ، للجامع ونعبر ساحة النوفرة ، أي النافورة ، التي يرطب رذاذ مائها الأجواء ، ونصعد الدرج الممتد بعرض الساحة والمفضي إلى مدخل الجامع من هذه الناحية . وكان جدي ، خلال الطريق ، يشرح لي ، كعادته ، أهمية المواقع التي نعبر بها ؛ فهذا دكان الحلاق أحمد ، وهو ، كما وصفه الجدّ ، فتى نزق كثير الكلام إلا أن يده خفيفة في العمل وهو يقص شعور أفراد الاسرة بسعر خاص ؛ وهذه دكان الحلوى وصاحبها أبو سمير ، وهو رجل بلا أخلاق ولا ضمير ، يغشّ حلواه ويبالغ في أسعاره ، فلا يتعامل جدي معه ؛ وهذا ابو ضرغام الحمصاني ، رجل طيب النفس كريم اليد يحب الفلسطينيين ويعامل زبائنه من بينهم معاملة سخية ؛ وهنا ، على يمين الدرج الحمّام العمومي الذي يفتح ليلاً نهاراً وتتناوب على الاستحمام فيه جماعات الرجال والنساء في الحيّ ويقصده الناس من الأحياء الأخرى ؛ وهنا مقهى النوفرة ، وهو مقهى عتيق شهير يعزز شهرته الحكواتي البليغ الذي يتلو على رواده حكايات عنتر وعبلة وتغريبة بني هلال ومغامرات علي الزيبق ودليلة المحتالة ، وما شابهها ، كل مساء .

لقد اجتذبني جدار الجامع بارتفاعه الذي لا تكاد العين تطاله وحجارته هائلة الحجم والبوابة الفاتنة التي تتوسطه ، فسبقت جدّي مصعداً الدرج جارياً باتجاه هذا الجدار . ولما هممت بإجتياز البوابة ، استوقفني حارس عجوز جالس امامها بنبرة حازمة : « إلى أين يا ولد ، هكذا بلا حشمة!» ، وأشار الحارس الى حذائي ، فلم أعرف بم اجيبه او كيف اتصرف وانقذني من حيرتي الجدّ الذي بلغ المكان في تلك اللحظة ، فحيّا الحارس تحية معرفة ، وأفهمه اني من ذريته ، فلانت أسارير الحارس ووجه لي عبارة لم أفهم معناها وإن ادركت انه لا بدّ ان يكون معنى طيباً . هنا ، هدّأت اندفاعاتي العفوية واصطنعت سمة الوقار الذي أدركت ان عليّ أن أتسربل به في بيت العبادة هذا . وخلعنا ، جدّي وأنا ، احذيتنا ، وابقيناها عند الحارس . وتخطيت عتبة قليلة الارتفاع وولجت البوابة لأفاجأ مفاجأة

مذهلة بالمشهد الذي انفتح امامي على أوسع مدى : لقد وجدتني امام فناء مكشوف فسيح لا يحيط نظري به ؛ وعلى مدار الاضلاع الثلاثة ، الشرقيّ والشماليّ والغربيّ ، لهذا الفناء رواق مسقوف ينتصب سقفه فوق أعمدة لا حصر لها من الحجر الصواني المصقول ؛ ولكل من هذه الاعمدة قاعدة صخرية كبيرة يرتكز اليها وقمة مقرنصة بأجمل الزينات المنحوتة على نحو ينبئك بأن نحاتين مهرة قاموا بالعمل ؛ وأرض الفناء ، مثلها مثل أرض الرواق ، مكسوة بحجارة صقيلة فيها استواء البلاط ونعومة الرخام الاصلي ؛ اما على الضلع الرابع للفناء فقد قام حرم الجامع ، وهو ، بدوره ، فناء مسقوف لا يحيط النظر باتساعه . وقد قام سقف الحرم على صفين من الاعمدة يعلو أحدهما الآخر ، ويضمّ أوطأ الصفين سلاسل متجاورة من الاعمدة الكبيرة ذات القواعد والقمم المقرنصة ، اما الصف الاعلى فيضمّ سلاسل اخرى من أعمدة أقل حجماً وإن لم تكن أقل أبهة وجمالاً . وأرض الحرم ، على اتساعها الهائل ، كانت مفروشة بأنفس انواع السجاد وأزهاها نقوشاً ، مما لم أر في حياتي قبل ذلك مثيلاً له . وللحرم ابواب عالية وعريضة تفضي الى الفناء وتتراصف على امتداد الضلع الذي يصل الحرم بهذا الفناء . وفوق الابواب ، وكذلك على الناحية المقابلة ، تتراصف نوافذ شاهقة الارتفاع مكسوة بزجاج متعدد الالوان . ومن هذه النوافذ ، يتسرب ضوء النهار الى داخل الحرم بعد ان يتشرب الوان الزجاج المتعددة . ويمتزج هذا الضوء بأنوار تشع من ثريات الكريستال العديدة البديعة التي تتدلى من السقف ، وأخصها وابرزها ثريا هائلة الحجم تتدلى من جوف القبة التي تتوسط هذا الحرم ، وتشغل الثريا مساحة لا تستطيع ان تحيط بها اذرع خمسة رجال .

لقد رأي الجدّ انبهاري بالمشهد الذي احاط بي ، ولعله شاء أن يزيدني انبهاراً ، فطاف بي في أرجاء الجامع ليطلعني على تفاصيل النفائس التي يكتنزها . بدأ الجدّ بالجهة التي على يمين المدخل الشرقي ، فولج بوابة صغيرة في الرواق من هذه الناحية . هنا ، وجدت نفسي داخل مكان يشبه مسجداً صغيراً قائماً داخل الجامع الكبير . وقد فرشت أرض هذا

المكان ، هي الأخرى ، بالسجاد ، واحتلت رائحة بخور نفّاذة أجواءه . وفي وسط المكان طاقة تشبه نافذة مسدودة ، تجللها ستارة من القماش الدمشقي ، (الدامسكو) ، ويتناوب الزوار التبرك بها . وفي صدر المكان مقام يسوّره قفص فضّي وتجلله ستائر خضراء من القماش ذاته ويتبرك الزائرون به ، أيضاً . وأفاض الجدّ في شرح الاهمية الخاصة لهذا المكان : فالطاقة المباركة تضمّ . كما يعتقد المؤمنون ، شعرة من لحية النبيّ محمد جيء بها إلى دمشق في وقت من الأوقات . اما المقام ، فيعتقد الناس أنه يضم رأس الحسين حفيد النبيّ . والحسين هو ابن علي ابن أبي طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ، وآخرهم ، وهو الذي ابتدأت في عهده أكبر حرب أهلية وأعمقها أثراً في تاريخ المسلمين . وكان خصم عليّ في هذه الحرب معاوية ابن ابي سفيان ، والي الشام ، الذي تمرد على الخليفة وأعلن نفسه اميراً للمؤمنين وانشأ دولة بني أمية . وقد قاد الحسين انصار أبيه بعد مصرع هذا الأب . وواصل الحرب ضد معاوية ثم ضد يزيد بن معاوية . وانتهى الأمر بوقوع الحسين وعدد من خلصائه في كمين أعدّه لهم عسكر يزيد في مدينة كربلاء العراقية . وواجه الحسين خيار الاستسلام او القتال الانتحاري ، فآثر القتال ولقي مصرعه فيه . وقد مثّل العسكر الظافرون بجثة الشهيد ، فحزّوا الرأس وأرسلوه إلى سيّدهم في دمشق ، برهاناً قاطعاً على أنهم قضوا على ألدّ خصومه . أما مصير هذا الرأس فإن الرواية التاريخية لا تتطابق مع المعتقد الشعبي بشأنه . فالتاريخ يروي ان يزيد عامل الرأس بامتهان . أما الناس فيعتقدون ان الرأس دفن في هذا المكان . وأغلب الظن أن تسوية ما قد تمت بين حقد الحكام الأمويين على خصمهم وتبجيل عامة الناس للشهيد ، وانتهي الامر الى تأسيس هذا المقام . وقد طلب جدّي مني أن اقرأ الفاتحة على روح الشهيد الكبير ، حفيد النبيّ وأثيره ، فقرأتها بخشوع حقيقي داهمني في تلك اللحظة فحلّ محلّ خشوعي المصطنع . وفرح جدي عندما رأى مظاهر خشوعي ، ومسّد رأسي بحركة حنونة ، وقال ، بنبرة عكست تأثره العميق : « فيك البركة ولا عجب ، فرشاد أبوك ، وجدك سلمان » ، ثم انصرف ، بدوره الى قراءة الفاتحة .

من هذا المكان المفعم بروح التقوى الدينية وعبق التضحية ومجد الاستشهاد من اجل المبادىء ، انتقلنا ، ثانية ، الى الرواق . ثمّ دار بي الجدّ مع انحناءات هذا الرواق حتى بلغنا المدخل الشمالي للجامع ، وهو المدخل الذي مررنا بقربه في الصباح في طريقنا الى سوق الهال .ثم ولج بي الجدّ بوابة أخرى صغيرة أفضت بنا الى حديقة متواضعة ثم الى مقام آخر مجلل بالستائر الخضراء ، وقال الجد : « هذا قبر صلاح الدين الايوبي» . وكان اسم هذا القائد من قادة المسلمين في العصور الوسيطة مألوفاً بالنسبة لي ، إذ طالما رددناه في أناشيدنا ونحن نستحضره كرمز للبطولة المنتصرة وحافز على الكفاح في وجه الغزاة . وقد شرعت من تلقاء نفسي بقراءة الفاتحة ، بينما أدهشني أن يكون ضريح هذا البطل شديد التواضع على النحو الذي أراه . وأردت ان اعبر عن دهشتي واسأل جدّي عن سبب قلة العناية بالضريح ، غير اني لم اهتد الى العبارات المناسبة .

ويبدو ان استغراقي في ما أرى شجع جدّي على الإفاضة في الشرح وهو يطوف بي بين معالم الجامع الاخرى . وقد أفضى بنا الطواف الى البوابة الغربية للجامع ، وهي البوابة التي تصل الجامع بسوق المسكية ، حيث تباع أدوات الكتابة ، الموصول بدوره بسوق الحميدية الشهير . ويمتد بحذاء هذه البوابة صالون ضخم معدّ لاستقبال كبار الزوار الذين يفدون الى الجامع في المناسبات الهامة . وقال الجد ، مفخماً بعض العبارات ليكسبها ما يستحق مدلولها من اهمية : « رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ، والوزراء . وكبار الناس يُستقبلون في هذا الصالون ، عندما يجيئون للصلاة في أيام الاعياد » . لم ادرك لماذا يعدّ الجدّ زيارة هولاء للجامع امراً خارقاً يستحق التنويه به بهذا التبجيل الذي عكسته نبرته . غير أني جاريت الجد في اهتمامه بالأمر ، فرحت أهز رأسي ، متظاهراً بأني افهم . وسر الجدّ إذ ادرك أنه أتحفني بشي جديد باهر ، وشت بسروره هذا حركة يده الودودة التي امتدت وامسكت بيدي ، وهو يقودني الى داخل الحرم . هنا ، توالت معالم كثيرة أخّاذة استتبعت شروحات طويلة جديدة من جدي . كان على يميننا المتوضأ الغربي . وهو مكان فسيح يستوعب

عشرات المتوضئين في وقت واحد ، تتوسطه بركة ماء يستخدمها الذين يؤثرون إغتراف الماء إغترافاً وتتوزع على جدرانه عشرات الصنابير . توضأ الجد ، وساعدني على اتمام مراسم الوضوء التي سبق ان تعلمتها في المدرسة . وفي فسحة في هذا المتوضأ مفروشة بالسجاد ، أديت ، بجانب الجدّ أول صلاة أوديها في حياتي ، ركعتين ، قال الجد ان اداءهما سنّة محمودة بما هي تحية للجامع . وذكرني الجد بما كنت قد تعلمته في المدرسة ، أيضاً ، عن الفرق بين صلاة السنّة وصلاة الفرض ، وأضاف الى علمي ان صلاة السنّة تؤدى إفرادياً أما صلاة الفرض فمن الممكن ان تؤدي افرادياً وان كان من المستحسن ان تؤدى جماعة . ووعدني الجدّ بأن نؤدي صلاة الظهر جماعة في هذا الجامع عندما يحين موعدها .

في هذه الجولة ، تفرجت علي المحاريب الأربعة بفجواتها المزينة بأبدع النقوش التي تتوزع الجدار الجنوبي للجامع . وبيّن لي الجدّ أن كل محراب مخصص لإمام من الأئمة المنتمين للمذاهب السنيّة ، الحنبلي ، والشافعي ، والمالكي ، والحنفي . وذكرني الجد بما ظن أني أعرفه ، وهو أن أهل فلسطين ينتمون بأغلبيتهم الى المذهب الشافعي ، وان كان من الجائز للمسلم أن يصلي وراء أي إمام ، أيا كان المذهب الذي ينتمي هو ، أو الإمام ، اليه . ووقف بي الجدّ أمام المنبر الذي يتوسط الجدار الجنوبي بجوار محراب الحنفية . وأفاض الجدّ في شرح ما يعرفه من التاريخ الطويل لهذا المنبر الذي تعاقب عليه الخلفاء منذ ايام الامويين واعتلاه شتى أصناف الحكام والأئمة ، فيما انجذبت أنا الى التفرج على التكوينات العجيبة للمنبر المصنوع من الرخام والعاج والمزيّن بأبدع المقرنصات وأدقها . وغير بعيد عن المنبر ، اقتادني الجد لاقف تحت القبّة الهائلة التي كنت قد شهدت فخامتها من الخارج . لقد قامت هذه القبة على اربع عضائد ضخمة تحدد مركز الحرم . وتجويف القبّة كما يراه المشاهد من الداخل مزين بنقوش بديعة لا يمكن لأية عبارات أن تصف جمالها وتأثيرها الآسر في النفس . وقد نقشت على مدار هذا التجويف أسماء الله ومحمد والخلفاء الأربعة الراشدين ، بخط جميل وواضح ، بحيث تحس وأنت

تراها من موقفك على الأرض أنك قادر على لمسها . ثم قادني الجدّ الى مقام كبير يتوسط الناحية الشرقية للحرم مسوّر بقفص من القضبان الفضية المذهبة وفي داخله ضريح مكسو بالستائر الخضراء . وقال الجدّ ان هذا المقام يضم رأس نبيّ الله يحيى ، وهذه ، على ما يبدو ، هي التسمية العربية ليوحنّا المعمدان . والناس يعتقدون ، لأمر ما لم اتبينه في أي وقت من الاوقات ، ان رأس هذا النبيّ الذي قطع تلبية لرغبة غانية فتانة ، مدفون في هذا المكان في دمشق ، وهم يزورون هذا المكان للتبرك ويقدمون له النذور . وقد اجتذبني جوّ الخشوع المحيط بالمكان والنساء المحجبات اللواتي يدرن حول المقام ويتمسحن به ويهمسن بالأوراد والرغبات ، وكذلك العدد الكبير من العميان الجالسين حول المقام . وقال لي الجدّ عن هؤلاء العميان إنهم مقرئون يسترزقون بتلاوة القرآن أو قراءة قصة المولد النبوي مقابل ما يجود به عليهم طالبو القراءة . وبدا في نبرة الجد ما يشي بأنه يضيق بوجود هؤلاء العميان ، ثم أوضح هو نفسه السبب حين ختم حديثه عنهم بشتيمة : « هؤلاء جهلة ونصابون يلبسون زي رجال الدين ويطلقون لحاهم ليصطادوا بها البسطاء من خلق الله » . ولأمر ما ، ساءني وصف الجدّ لهؤلاء العميان على هذا النحو ولم أفهم سر نقمته عليهم .

لم يكن في الجامع زوار كثيرون في ذلك الوقت من النهار . ولكن الجد لاحظ ان المكان لن يلبث ان يكتظ بالزوار مع حلول موعد صلاة الظهر . وقد اتجه الجدّ الى عامود بعينه قريب من مقام النبي يحيى ، وجلس قربه وأجلسني بجانبه ، وقال : « هنا أجلس كل يوم » . ثم اخرج الساعة من جيبه ، وأضاف بعد أن عاينها : « سيجيء أصحابنا بعد قليل » . ومن حديث الجد ، فهمت أنه يؤم هذا المكان مرتين في اليوم ، يجيء في الضحى فيتسامر مع أصحابه حتى صلاة الظهر ، ويجيء ، ثانية ، ليؤدي صلاة المغرب ويسمر حتى صلاة العشاء . وقد اختار الجد مجلسه الدائم في هذا المكان لانه قريب من محراب الحنابلة الذي يصلي عنده أقل الناس فلا يزحمه أحد عندما يجيء دور الحنابلة للصلاة وراء امامهم . وبهذا الانتظام وهذا التميز ، صار لجدّي وأصحابه مجلس معروف ، وصار

هذا المكان بمثابة عنوان شخصي لكل منهم . كما صار الجد وأصحابه معروفين لجماعة الجامع من الاداريين والأئمة والخدام . وأنشأ الجدّ مع هؤلاء شبكة من العلاقات فيها الودّي وفيها الجافي ، المريح والمتعب . وصار الجد واصحابه مطلعين على ما يدور في الجامع ، مما هو حسن أو غير حسن ، بل صار من شأنهم أن يتدخلوا في الأمور ، من وقت لآخر ، فيجدوا من يحبّذ تدخلهم ومن يضيق به .

أول من قدم من الاصحاب كان رجلاً في عمر جدي ، وهو فلسطيني من قرية الطيرة . وقد قال الجد وهو يقدم لي صاحبه هذا : « عمك أبو ديّه كان فلاحاً مثلنا ، فأفسدته المدينة ، فلبس هذا الزي الذي لا يليق بعمره » . وشاء الجدّ أن يضيف أشياء أخرى ، إلا ان الرجل ، الذي بدا أنه معتاد على مماحكات الجدّ ، قطع الحديث بنبرة امتزج فيها الدفاع والهجوم : « أتريدني ان اطوف شوارع الشام بالحطة والعقال والقمباز ؟! انا لست عاطلاً عن العمل ولا متفرغاً لهندامي ، مثلك » .

كان أبو دية يلبس بنطالاً وقميصاً كلاهما من الخاكي ولا يضع شيئاً على رأسه . وقد افتقدت في الرجل ، حقاً ، المهابة التي الفتها في مجايليه . غير أن هذا لم يكن كل ما لفت نظري في هيئة صاحب جدي فقد لاحظت للتوّ ان الرجل مبتور اليدين . وفيما تابع جدّي وصاحبه تبادل الغمزات ، شغلني هذا الموضوع ، وثار فضولي لمعرفة السبب ، لكن الحياء منعني من السؤال عنه . وفهمت من الحوار الدائر على مسمع مني أن الرجل اتخذ لنفسه منذ لجأ إلى دمشق مهنة تلائم وضعه كفلاح لا يتقن مهنة مدينية ، فهو يتاجر بالبيض ، فيشتريه من أحد الحوانيت ، ويضعه في سلة ويدور على المنازل منذ الصباح الباكر ويبيعه لربات البيوت . ولما كرّ الجد في إحدى كراته القاسية على جليسنا ، أراد أبو دية ، على ما يبدو ، أن يبدل مجرى الحديث ، فسأل ، فجأة : « ما الذي جرى لعين الولد ؟ » . قال الرجل هذا وهو ينظر الى عيني العوراء ، فتلقى غمزة من عين جدّي أفهمته ان السؤال عن هذا الشأن محرج . غير أن السائل لم يتحرج . بل قال : « لا عيب في ما تفعله بنا إرادة الله » . وقد

شجعني هذا القول فرويت بكلمات قليلة ما جرى لعيني . واستمع أبو دية لروايتي بانتباه وتعاطف ، ثم هتف بنبرة قاسية : « هي الحرب ، انا ، أيضاً ، فقدت في الحرب يديّ » . هنا ، تحدث جدي بنبرة مختلفة ، خالية من الغمز : « عمك أبو ديّة بطل ، بطل حقيقي ، حارب مع الثوار ، وضاعت يداه في انفجار ، ولولا لطف الله لضاع كلّه » . وجللنا صمت قطعه الجد بعد قليل : « كانت تلك ايام ، اين كنّا ، وأين انتهينا!» . وكانت تلك فاتحة لحديث طويل استغرق فيه الجد وصاحبه عن المصاعب التي تكتنف الفلسطينيين في الغربة . ولم يخرجنا من هذا الحديث إلا قدوم صاحب جديد هتف منذ أشرف على مجلسنا ورآني فيه : « أحلف بالطلاق أن هذا هو ابن رشاد ، ما شاء الله ! صار شاباً » .
وباندفاعة الهتاف ذاتها ، داهمني هذا القادم واحتضنني قبل أن أتم وقوفي . ولما افرغ الرجل عواطفه ، اتخذ مكانه في المجلس ، وكان من حسن تصرفه أنه لم يتطرق لحكاية عيني . وقال جدي : « هذا هو عمك جابر ، هو من عمر ابيك وكان من اصحابه » . قدم صابر الى دمشق عن طريق الاردن الذي لجأت اليه اسرته . اختار المجيء لدمشق ، بعد الاردن ، لاسباب غامضة لم اتبينها الى اليوم . ووجد جابر لنفسه عملاً بسيطاً ، فهو أجير في مقهى منعزل قائم على جبل قاسيون شماليّ المدينة ، في المكان الذي ينتهي عنده خط الباص الذي يصل وسط المدينة بحيّ المهاجرين الممتد على سفح الجبل . والناس يسمون المكان ، بسبب ذلك ، اخر الخط . وفقراء المدينة هم الذين كانوا يقصدون المكان للنزهة . وعمل المقهى يبدأ بعد الظهر ويمتد الى منتصف الليل في الايام الدافئة . وكان جابر قد وجد حلاً لحكاية الزي الذي يتخذه في المدينة ، فهو يلبس ، كأهل المدن ، بنطالاً وقميصاً ويحتفظ على رأسه بالحطة والعقال . وقد انخرط جابر في الحديث الدائر بين جدي والرجل الآخر ، مضيفاً الى تشكيهما من سوء الاحوال ما يشتكي هو الآخر منه . ولكن جابر ظل يقطع مجرى الحديث ، بين وقت وآخر ، بتوجيه سؤال لي او توجيه سؤال للجد عني . لقد بدا معنياً ، حقاً ، بمعرفة أحوالي ، وسرني ذلك وجذبني اليه .

بعد جابر ، هذا ، قدم شخص آخر قريب لجابر ، إبن عم له أو شيء من هذا القبيل ، هو ، كما قدمه الجدّ لي ، الاستاذ سعدي . كان سعدي من جيل خاليّ الكبيرين ، وقد ظفر بشيء من التعليم الثانوي دون ان يحصل على الشهادة الثانوية التي حصلا عليها ، وهو ، مثلهما ، أيضاً ، يطمح في الحصول على وظيفة معلم . وقد فطن سعدي الى ما لم يفطن اليه الخالان ، وهو حاجة سوريا الى مدرسين للغة الانجليزية التي بدأت ، منذ استقلال البلاد ، تحل في المدارس محل اللغة الفرنسية ، كلغة ثانية . وتقدم سعدي بطلب لتدريس هذه اللغة ، وإذ كانت الانجليزية تُدرّس في المرحلة الاعدادية ، وليس الابتدائية ، فإن أمل الاستاذ سعدي ، غير المؤهل بشهادة ، في الحصول على الوظيفة ليس كبيراً . بالرغم من ذلك ، ثابر الرجل على مراجعة الوزارة وتوسيط اصحاب النفوذ وتوفير الادلة التي تؤكد كفاءته . وكان سعدي ، خلافاً للذين سبقوه الى المجلس ، يلبس ، حتى في هذا الحر ، بذلة كاملة وربطة عنق ، فكأنه . كما لاحظ الجد ، يريد أن يظهر ، منذ الآن ، بمظهر استاذ المدرسة الثانوية المرموق . وأول ما لفت نظري ، أنا في الوافد الجديد أنه يصطنع في حديثه العادي لهجة يزاوج فيها بين العامية والفصحى ويكسو الحديث بنبرة مجلجلة تجعله اقرب الى الخطابة . لم ينتبه الاستاذ سعدي لوجودي حين انضم لمجلسنا ، بل غرق في الحديث الدائر دون أن يوليني أي اهتمام . جابر ، الذي لم يكفّ عن مرامقتي بمودة ، هو الذي لفت نظر قريبه اليّ . ولم يكد الاستاذ سعدي يسمع اسمي واسم ابي حتى هبّ واقفاً وهو يهتف : « الله اكبر . ابن رشاد ، الاصيل ابن الاصيل ، هنا ، ولا تقولون لي ذلك ، تعال يا حبيبي ! » .

لم ينتظر سعدي أن أجيء اليه ، بل اندفع نحوي فارداً ذراعيه ، دون أن يكفّ عن الخطابة : « تعال يا ابن الاكابر يا ابن سلمان وعبد المجيد !» . واحتضنني ، بل اهتصرني بقوة . ولدهشتي البالغة ، رأيت دموعاً حقيقية تطفر غزيرة من عيني هذا الذي لم اتذكر أني رأيته من قبل . ولم يكتف سعدي بدموعه المنسابة ، بل أجهش بصوت مسموع وراح بدنه كله يهتز ،

وهو يعـول ، لاعناً الغـربة التي فـرقـت بين الاحبّاء . ولم يهـدأ الاجـهاش والعويل إلا عنـدما تدخل الجدّ : « كفى يا سعدي ! » ، قالها جدي بنبرة آمرة وزاجرة . وقد أدهشني ، بل أذهلني ، أن الرجل هدأ فجأة وأن الدموع غاضت للتو ، كأن شيئاً لم يكن . بل إن الاستاذ سـعدي الذي قام بكل هذه العراضة بسبب وجودي ، انخرط ،بعد ذلك ، في حديث الكبار ، ولم يلتفت ناحيتي مرة ثانية .

قدم آخرون ، وكـبر المجلس ، وتمددت الحلقة حتى شغلت المساحة بين عامودين ، وتشعب الحديث فلم يعد بإمكاني أن أتابعه كلّه . وبدأ الحرم يكتظ من حولنا . وامتلأت الناحية التي تواجه محراب الحنفية بالناس ، فـيـمـا توزع الآخـرون هنا وهناك ، أفـراداً وزمـراً . وسـرى في الحـرم هذا الهـسـيس الذي يشكله همس الناس وحـركـتـهم . وكـان من هؤلاء من انصـرف لأداء صـلاة تحـيـة المسـجـد ، ومنهم من عكف على القـراءة في مصحف أو ترديد أوردة محفوظة ، أو تسربل بالصمت . كل هذا دون أن يبلغ الهـسـيس درجـة الضـجيج ، حتى مع اشـتـداد الزحـام . كـان مـعظم القادمين من أصحـاب الحوانيت والبـاعة في الاسـواق العـديدة التي تحيط بالجامع من كل ناحية . وكان رأي جدّي سلبياً في هؤلاء . فهو يعدهم ، دون مواربة ، من المنافقين ، ويفسر حرصهم على أداء الصلاة برغبتهم في التمتع بحسن السمعة كي يتمكنوا من ممارسة الغشّ في البيع : « اسألني عنهم ! » ، قال الجد : « تجارتهم تجارة ، ودينهم تجارة ، وتقواهم خداع» . وكـان بين الـقـادمين فـتـيـان لا بدّ أنهم من تلامـيـذ المدارس الدينيـة ، يتـخـذون ، في سنهم المبكرة ، هذه ، زي رجـال الدين الوقـورين ويطلقـون الشعرات القليلة النابتة على وجوههم ويكسون هذه الوجوه بسمت الجدية والتقوى والاهـمـية ، مـقـلدين كـبار رجال الدين . كـمـا كـان بين القـادمين مشايخ ذوو مـهابة ، عـدد كـبير لم ار مثله في مكان واحد في حيـاتي من قـبل ، تميـزهم الجـبب والعـمـائم وكـذلك اللحى الكثـة التي تتـقـدمـهم والحركات المتأنية التي يصطنعونها في تنقلهم وصلواتهم .

وكنت غارقاً في تأمل ما حولي ومراقبة أنشطة المصلين الذين اقتربت

زحمتهم من مجلسنا ، حين انطلقت من ناحية الفناء صرخة مدوية فتبعها على الفور صوت جوقة تؤدي الاذان . والحقيقة ان الصرخة الغريبة ، وليس الأذان ، هي التي اجتذبتني ، فغادرت المجلس ، دون استئذان ، جارياً الى الخارج ، محمولاً بالرغبة في التعرف على مصدر هذه الصرخة . صرت في الفناء ، وأجلت نظري في أرجائه الفسيحة ، فلم أقع على شيء يدلني على ما أبحث عنه . كان هناك عدد من الناس ملتفين حول بركة الماء التي تتوسط هذا الفناء ، وهم يسمونها البحرة ، يتعجلون الانتهاء من مراسم الوضوء لينضموا إلى المصلين ، وآخرون دخلوا الجامع من ابوابه المختلفة واتجهوا الى الحرم . وعلى شرفة المئذنة الشمالية العالية ، التي تنتصب في مواجهتي باستقامتها الباسقة ، تكاتفت زمرة من الرجال ، عشرة او خمسة عشر ، وهم يتابعون ترديد فقرات الاذان بأداء ملحن واصوات منطلقة على اقصى مدى ، ولا شيء اكثر من هذا . في هذه اللحظة ، أقبل الجدّ عليّ ؛ ظن اني خرجت متهرباً من أداء الصلاة فجاء ليحثني على ادائها . ولما عرف الجد ما اجتذبني الي الخارج ، أشار ناحية شخص يتكوم قريباً مني على الارض في جلباب عتيق قذر حائل اللون فضفاض بحيث لا يبين له زي ، ولحية خالط البياض لون شعرها الاسود ولم تعرف القص منذ نبتت . وقال الجد : « انه سوّست ، هكذا يسميه الناس دون أن يعرف احد اسمه الاصلي أو يعرف أصله وفصله ، درويش يحس وقت الصلاة دون خطأ ، فكأن في رأسه ساعة أوميغا . وعندما يحين الوقت يطلق الرجل تلك الصرخة فتكون الاشارة التي يتنبه لها المؤذنون » . استمعت الى الجدّ وأنا أنظر ناحية الدرويش . وأدرك هذا أن الحديث يدور عنه ، فبدا عليه الامتعاض ، وغمغم بكلام غير مفهوم ثم نهض ونفر مبتعداً عنّا ، كما تنفر طريدة أثار الصيادون شكوكها . ولم ينتبه الجد إلى أن موضوع الدرويش يشغلني إلى هذا الحدّ ، فانتقل الى موضوع آخر . فتحدث عن المؤذنين : « هؤلاء حرفيون يعملون في الدكاكين المجاورة ؛ تدفع ادارة الجامع للواحد منهم عشرة قروش مقابل كل اذان . ومن أجل هذه القروش العشرة ، يصعد واحدهم مائتي درجة ،

إنهم أهل الشام ، معبودهم القرش » . لكم غدا جدي كارهاً لأهل الشام ، فكرت بهذا ، دون أن أبوح به ، وعدت مع الجدّ إلى الحرم . كان الجميع منصرفين إلى أداء ركعات السنة ، فجاريتهم . ثم أديت معهم صلاة الجماعة . لقد طاب لي ، حقاً ، أن انخرط في هذا الجو الذي ينخرط فيه الكبار من حولي . وطاب لي ، أكثر من ذلك ، أن أحظى بالتقدير والثناءات المتكررة على سلوكي . وبدا الجدّ فخوراً بهذا الحفيد المتبع للتقاليد .

وفي طريق العودة الى المنزل ، بدا واضحاً أن شيئاً ما ، خاصاً وحميماً يربط الحفيد بالجدّ . احتفظ جدّي بيدي طيلة الطريق في يده ، وراح يقدم لي مزيداً من الشروح وقد غدت نبرته جذلة تماماً . وكنت سعيداً ، ليس ، فقط ، بازدياد معلوماتي عن الحيّ وناسه ، بل ، أيضاً ، وخصوصاً ، باهتمام جدّي بي . وقد لاحظت ، بين أمور أخرى دغدغت إحساسي بحميمية العلاقة ، أن جدي يناديني بصفتي ابنه ، ووجدتني استجيب له واناديه « يابا » . هذه الحميمية اكد الجدّ عليها ، مرة أخرى ، في النهار ذاته . فحين فرغنا من تناول الغداء ، دعاني جدّي لاصحبه في مشوار اخر من مشاويره اليومية التي الفها منذ اقام في المدينة ، وقبلت العرض دون تردد .

وهكذا ، رافقت الجدّ في السير مجدداً عبر الأزقة . ولكي أرى مزيداً من معالم المدينة ، اختار هو طريقاً يمر عبر سوق القباقبية المحيط بجزء من جدار الجامع الاموي . هنا رأيت دكاكين متراصفة ينصرف ناسها لصنع القباقيب والكراسي والمناضد وما شابهها من الأدوات الخشبية ويبيعونها للزبائن . وقد أفضى بنا هذا السوق الى سوق الصاغة المجاور له : حوانيت اخرى متراصفة تشغل أفناء مبنى كبير غريب الطراز يقال انه كان قصراً للخليفة معاوية ، وتنتصب في الواجهات الصغيرة لهذه الحوانيت خزن زجاجية ، وتبرق على رفوف الخزن شتى اشكال الحلي المصنوعة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وتتجول بينها نساء محجبات ، بعضهن جاء للفرجة والأخريات للشراء ، ترفع الواحدة منهن طرف المنديل

الحريري الذي يغطي وجهها وتمعن النظر في المعروضات الفتانة ، ثم تدخل الدكان او تنتقل للفرجة على واجهة دكان اخرى . وقد أسلمنا هذا السوق الى سوق لبيع الاحذية ، اسلمنا بدوره ، الى سوق المسكية المتصل بسوق الحميدية . هنا في المسكية ، تتراصف ، أيضاً ، دكاكين صغيرة يعمل في كل منها رجل واحد وتمتليء رفوفها بالمصاحف وكتب التراث والكتب المدرسية وادوات الكتابة . وتظهر هيئات الباعة في الدكاكين أنهم يؤدون مهمة دينية اكثر مما هي تجارية . فمعظم هؤلاء الباعة معمم وملتح . ولما ابديت ملاحظتي هذه للجدّ ، علق بإيجاز ، مستخدماً مثلا اسمعهُ لأول مرة : « من الخارج رخام ومن الداخل سخام » .

كان الجد قد انتهى إلى أن يبغض التجار كلهم ، وما كان لشيء أن يحمله على امتداحهم . وفي الحميدية ، تجاورت ، على الجانبين ، تحت السقف المصنوع من الواح التوتياء ، حوانيت معظمها كبير ولها واجهات باذخة تعرض ، بأشكال جذابة ، الاقمشة والملبوسات الجاهزة وأدوات الزينة وكل ما يحتاج اليه الرجل أو المرأة ليؤكد أناقته . والسوق شارع ، أو قل زقاق عريض ، ومديد ، تتفرع منه على الناحيتين أزقة أخرى كثيرة هي ذاتها أسواق تختلط البضائع في واجهاتها ويتخصص بعضها ببضائع بعينها . كنا نجتاز السوق على مهل ، والجد يوالي شروحه : هذا سوق الحرير ، وهذا سوق النسوان ، وسوق تفضلي خانم ! وهذا الزقاق يفضي الى سوق الحريقة ، وهنا سوق المناخلية ، ثم البورصة حيث تباع العملات والاسهم . وسوق الخجة الذي تباع فيه الملابس الرخيصة .

وقد استوقفني في الحميدية محلان فسيحان تتصدر كل منهما واجهة عريضة مشعة بأنوار النيون ، ويقف ازاءها من الداخل صف من الرجال مفتولي العضلات ، وهم يعالجون بمطارق خشبية ، بطول القامة ، شيئاً ما داخل أواني نحاسية لها اشكال البراميل ، فيرفعون المطارق ويهوون بها متبعين ايقاعاً منظماً ، فيما الناس داخلون أو خارجون من امامهم . هنا بيّن لي الجدّ أن هؤلاء الناس يصنعون البوظة ، او الآيس كريم . او الدندرمة كما تسمى ، أيضاً ، بلهجة دمشق العتيقة . وأوضح الجدّ أن

هذين المحلين ، المتنافسين في واقع الامر . هما اشهر محلات المدينة ، والناس يأتون إليهما من كل مكان في دمشق وجوارها . ويقدم المحلان ، بالاضافة إلى البوظة ، شتى أنواع الحلويات المعدة من الحليب . ووعدني الجدّ بأن يجيء بي ، ذات يوم ، مع بقية أفراد الاسرة ، لأتذوق هذه الاطايب « التي لا مثيل لها على وجه الارض » ، على حدّ التعبير الفصيح الذي يستخدمه جدّي حين يمتدح شيئاً يستحوذ على إعجابه .

وحين غادرنا سوق الحميدية من جهته الغربية ، كنّا ، في الواقع ، قد عبرنا القسم العتيق من المدينة . وانفتح أمامنا شارع النصر المتميز باتساعه وبالأبنية الحديثة القائمة على جانبيه . ولفت جدي نظري الى أبنية بعينها في هذا الشارع تميزت مع حداثتها بالتزيينات الشرقية المرسومة على مداخلها وواجهاتها ، فكان منها المبنى الذي تشغله إدارة الاوقاف وإدارة الفتوى ، والآخر الذي تشغله مؤسسة مياه عين الفيجة التي تنظم توزيع ماء هذه العين النقي على الدور . واستوقفني جامع تنكز الذي يشغل جانباً من هذا الشارع ، وقد جدد هذا الجامع وراعى بناؤوه متطلبات العصر مع مراعاتهم فن العمارة الاسلامي القديم ، فجاءت النتيجة مزيجاً من الحداثة وعبق التاريخ . وفي نهاية الشارع ، انتصبت امامي الواجهة الفخمة لمحطة الحجاز . وكانت القطارات ، كما أوضح جدي ، تنطلق من هذه المحطة وتتجه مباشرة الى بلاد الحجاز ، حاملة الحجاج والزوار والبضائع ، وذلك قبل ان يقطع البريطانيون والفرنسيون اوصال البلاد العربية وتتوقف هذه الرحلات . هنا ، قام ، أيضاً ، فندق الأوريانت بالاس ، أو قصر الشرق ، اكثر فنادق المدينة وافخمها وأغلاها سعراً وفي الشارع المواجه للمحطة . انحدر بي الجدّ حتى بلغنا جسر فكتوريا الذي يعلو نهر بردى وسط المدينة ، ثم انعطفنا في الاتجاه المعاكس لمجرى النهر ، في الشارع العريض الذي تسميه البلدية شارع شكري القوتلي ويسميه الناس طريق بيروت او شارع بيروت ، حتى وصلنا الى المكان الذي يقصده الجدّ .

هذا المكان هو حديقة المنشية . وقد بدت/الحديقة لي ، وأنا في تلك

السن ، عظيمة الاتساع باهرة الجمال : مروج من الخضرة ومجموعات من الاشجار واحواض من الورود ، نُسقت ، جميعها ، في تكوينات بديعة تتخللها ممرات محصبة وفسحات زودت بمقاعد خشبية طويلة وزعت في اماكن ظليلة وأخرى مكشوفة للشمس ، لاستخدام المتنزهين . هنا ، الف الجد أن يقضي أوقات بعد الظهر . وقد اتجه بي الجدّ ناحية مقعد بعينه سبقنا اليه واحد من الاصحاب الذين يلتقيهم في هذا المكان . هذا الصاحب هو العم أبو حنّا : رجل بدين ، ينحشر كرشه في بنطال فيبرز أمامه كأنه قطعة مضافة إلى جسده وليست جزءاً من هذا الجسد . ويعلو رأس الرجل طربوش فاقع الاحمرار ، وتكسو وجهه ابتسامة متسامحة لا تفارقه ابداً ، الا حين تتحول الى ضحكة مجلجلة . قدم ابو حنا من حيفا ، وكان فيها تاجراً مرموقاً يملك محلاً كبيراً لبيع السكاكر والمكسرات بالجملة والمفرق . هو ربّ اسرة كبيرة ، فيها شاب واحد ، اختار الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية ، وعدد كبير من البنات بقين في رعاية الأب . والرجل يعول اسرته بما يرسله الابن المهاجر ، ومن ريع اعمال بسيطة يديرها التاجر العتيق الذي فقد رأسماله ، دون ان يكون له مقرّ يعمل فيه . وقد استقبلني أبو حنّا بمودة ، واستمع بحبور وتعاطف ظاهرين الى ما رواه جدي عن نباهتي وتأدبي وحسن سلوكي ، واثنى على ذلك بغير إفراط ، لكن بعبارات مشجعة وتمنى لي التوفيق الدائم .

في غضون ذلك ، انضم الى مجلسنا رجل آخر . أقبل هذا الرجل بخطى وئيدة . وقد لفتت أناقة الرجل المفرطة نظري ، قبل أن اعرف انه قادم الينا ، فهو يلبس بذلة من الصوف الفاخر وقميصاً أبيض ناصع البياض ورباط عنق تتفق الوانه مع الوان البذلة ، وطربوشاً يستقر على رأسه بثبات فكأنه ركبّ على الرأس تركيباً ، وكل هذا نظيف ومكوي للتو ، والحذاء شديد اللمعان . وبدا الرجل ، وهو يسير بقامته القصيرة والمتماسكة ، حريصاً على ان لا يسيء شيء لانسجام هندامه او نظافته . انه أبو نمر ، قدم من اللدّ . وكان فيها وجيهاً معتبراً ، ويبدو أنه شغل في وقت من الاوقات منصب رئيس البلدية في المدينة الفلسطينية . وهو رجل

ودود على العموم ، وإن بدا لي أنه يتقصد أن يحتفظ بمسافة ما بينه وبين مسامريه . وحين انخرط هؤلاء في حديث يخرج الوالغ فيه عن حدّ الوقار الذي يتمسك به أبو نمر ، اكتفى هو بالاصغاء ، ولم يسهم إلا في الاحاديث الجادة ، حين تناولت هذه الاحاديث الشؤون العامة وشجون الحياة في الغربة .

بالرغم من ذلك ، لم يكن حضور الرجل ثقيلاً على الآخرين ، فقد أوغل جدي وابو حنّا بعيداً في احاديث عابثة وممازحات لاذعة فتابعهما ابو نمر الصامت بابتسامة متفهمة . وبدا لي ان الجدّ وصديقه التاجر هذا ، الفا ان يتبادلا الغمزات اللاذعة والصاخبة . وكانت غمزات التاجر الحيفاوي الموجهة الى الجدّ تمسّ كلّها حياة الفلاحين التي يصورها التاجر على أنها أدنى مستوى من حياة أهل المدينة . أما غمزات الجدّ فمست بخل أهل المدن وجشعهم وأنانيتهم وتشبثهم بالعلاقات التي تستجلب منافع شخصية ، دون غيرها . وقد رويت في هذين السياقين حكايات كثيرة وقيلت طرف عديدة قاسية . وكان بين ما قيل حكايات كثيرة تناولت ، لدهشتي الشديدة ، السلوك الجنسي الشاذ لأهل المدن أو أهل الريف . روى أبو حنّا ، في محاولاته لاستثارة جدي ، حكاية عن فلاح كان متزوجاً من أربع نساء ، وكان يتركهن جميعاً ليعلو دابّة من دوابّه ولا ينال متعته الا مع هذه الدابة . فرد الجدّ على الغمزة بحكاية عن مدني تهيء له ظروفه أن يظفر بافتن النساء ، الا انه لا يجد متعته إلا باللواط . كل ذلك دون أن يتأثر جو المسارّة الودودة الذي يطبع المجلس بطابعه . ولا بدّ أنك ادركت اني بقيت ، إزاء هذا النوع من الحديث ، صامتاً . وقد ينبغي أن أضيف اني استمعت بإنتباه شديد ، وأن فرض عليّ التأدب ان اتظاهر بغير هذا . وكنت مأخوذاً ، خصوصاً بسفور التعابير الجنسية التي ينطق بها الجدّ ومحادثه دون مداراة أو تستر .

وكان المتماحكان قد اشتطّا كثيراً في هذا الاتجاه وتحولت ضحكة الرجل البدين إلى جلجلة متصلة ، حين تدخل أبو نمر فانعطف بالحديث ناحية الشؤون العامة . بدأ ابو نمر بالشكوى من العطالة التي تصبغ حياته

بالرتابة والكآبة ، ثم تحدث عن سوء أحوال اللاجئين وافتقار جمهورهم إلى ما هو ضروري من متطلبات العيش الكريم ، وانتقل إلى التذمر من إهمال القيادة الفلسطينية لشؤون جمهورها المشتت ، وغمز من قناة الحاج محمد أمين الحسيني . عند هذه النقطة ، تدخل الجد ، وهو الموالي المزمن للمفتي ، فنفى أن يكون الحاج أمين هو المسؤول عن الكارثة . ووجه الجدّ الهجوم ناحية حكام الدول العربية ، فهم الذين منّوا الناس بالدفاع عن عروبة فلسطين وأرسلوا الجيوش لمحاربة الصهيونيين ثم اتضح ، كما قال الجدّ ، لاجئاً الى واحدة من عباراته الجاهزة بالفصحى ، أنهم « أخون خلق الله ، قاطبة » . وكان من نتيجة ذلك ، حسب الجدّ ، أن ضاعت البلاد وفني العباد او تشتتوا في اصقاع الارض وصار أعزّة أهلها أذلة . وقد علا صوت الجدّ وهو يكيل التهم لمن رأى أنهم المتسببون في نكبة فلسطين وكسا غضب طاغ نبرة حديثه ، فكان كمن يقاتل وليس كمن يجادل . واغتنم أبو حنّا لحظة صمت فيها الجدّ . فادلى برأيه على عجل : « كلهم مسؤول ، قادة فلسطين والحكام العرب ، والأنكى ان الشعب ليس أحسن من قادته » .

وبين النعوت التي رُمي بها قادة فلسطين والأخرى التي أطلقت على حكام الدول العربية ، كنت ، أنا ابن العاشرة ، أتلقى أول تثقيف سياسي أحصل عليه منذ غادرنا الوطن واحتقن بالغيظ من الجميع .

وفي طريق العودة الى المنزل ، بقي ذهن الجدّ مشغولاً بالموضوع المثير ، وشاء أن يزيدني معرفة بما وقع لنا أو يحررني من تأثير الانتقادات التي رمي بها المفتي أمامي . وهكذا ، أخذ الجدّ يشرح لي ، على طريقته ، تلك الجهود المضنية التي بذلها زعيم البلاد لإنقاذها . فهذا الشريف ، سليل الاشراف ، كما يصف الجد المفتي عادة ، وهب حياته كلها لخدمة الوطن ، أيده في ذلك خيرة أهل البلاد ، وكان مستعداً للتعاون حتى مع الشيطان من أجل مصلحة شعبه . وليس الذنب ذنب المفتي ان كانت الامم كلها قد تكالبت ضد فلسطين او كانت الدول العربية عاجزة . ورحت اصغى للجد موزع المشاعر ، فأنا ، الطفل الذي شهد النكبة واكتوى

بآثارها ، لم يكن قد خطر ببالي أن أسأل عن السبب . وها هو السؤال الصعب يطرق رأسي ، وها أنا ، بالرغم من شروح جدي الوافية التي استمعت اليها ، عاجز عن ادراك السبب . وفي الجامع الاموي ، أديت مع الجدّ صلاة المغرب وذهني ما يزال مشتتاً . وخالف الجدّ عادته في البقاء في الجامع حتى صلاة العشاء فانطلق بي الى المنزل فور الانتهاء من صلاة المغرب .

وعندما استلقيت على فراشي الممدود فوق أرض المشرقة ، رحت اراقب النجوم التي ينحدر اليّ ضوؤها عبر السماء الصافية وادير في رأسي شتى الأفكار .

٢ - المدرسة وسوق الملابس المستعملة

الحياة قاسية على الفقراء ، يعرف هذا كل من عانى الفقر . وتصير الحياة اشدّ قسوة حين يفتقر الناس في الغربة ، بعد أن كان لهم وطن يوفر لهم الأمن والاستقرار والكرامة . ولا تتيح حياة كهذه الحياة فرصاً كثيرة للتفكير . والحقيقة أن الدوامة التي اقتلعتنا من الوطن لم تلبث أن جرفتنا في دروب المشاغل التي تتطلبها ممارسة العيش ابتداء من خانة الصفر او مما هو - في واقع الحال - دون الصفر . وقد انقضى سريعاً يومنا الاول في دمشق ، وغاضت متعه ، وتوالت بعده أيام المعاناة . وفي ذلك الصيف ، الذي يتمتع فيه أمثالي من التلاميذ بخلوّ البال من مشاغل الدراسة وبالمرح الطلق ، توجب عليّ أن أشيل حصتي من متاعب الأسرة المفتقرة الى الموارد . لقد اضاف انضمامنا ، نحن الخمسة ، إلى الاسرة أعباء جديدة على كواهل من يتولون رعايتها . وتوجب على هؤلاء ، كما توجب على بقية أعضاء الاسرة أن يأكلوا أقلّ من السابق ويشقوا أكثر ، كي يتسنى

للجميع الاحتفاظ بالبقاء . وأنت تعرف أن الذين سبقونا من أعضاء الأسرة إلى دمشق كانوا يحصلون على معونة عينية من الجهات الخيرية ، وهي معونة لا تقوم بأود الذين خصصت لهم ، فكيف وقد أضيف إلى هؤلاء خمسة جدد ! .

كان الوضع مضنياً قبل مجيئنا . وصار أشد ضنىً بعده . وتركزت الآمال على نافذ وعمر لتأمين الوظيفة الموعودة التي تمحور حولها الحلم بالخلاص . واستنفر جدّي همته العتيقة كي يسجلنا ، نحن الوافدين الجدد ، في عداد اللاجئين ، فيتسنى لنا الحصول على المعونة وما يرتبط بالتسجيل من فرصة الحصول على التعليم المجاني . وقد تظن أن الأمر كان سهلاً ما دمنا لاجئين حقاً ومحتاجين للعون ، وهو ما ظنناه نحن ، أيضاً ، في البداية . ثم اتضحت لنا صعوبة الامر حين عرفنا ان الجدّ ، بلهفته على استقدامنا بأي ثمن ولكي ييسر الحصول على إذن لنا بالاقامة في سوريا ، وقع على ورقة تعهد فيها بأن يتولى إعالتنا ، لأن قيد اللاجئين المشمولين بالمعونة أقفل قبل مجيئنا . وكان الجدّ الخبير بالروتين يدرك مغزى توقيعه على ورقة كهذه الورقة ويحسب حساب العواقب ، لكنه عرف ان لمّ شمل الاسرة مرهون بالتوقيع ، فأقدم على المخاطرة ، بأمل أن يتحرر من تعهده حين يصبح وجودنا في البلد أمراً واقعاً . وبعد وصولنا ، باشر الجدّ حملة من المساعي . وكان نجاح الحملة مرهوناً بقرار استثنائي يصدره المدير العام لمؤسسة اللاجئين التي أرغمت الجدّ على توقيع التعهد ، تلك المؤسسة التي ترعى شؤون اللاجئين وتنظم صلاتهم بمؤسسات الدولة الأخرى والجهات التي تقدم لهم العون . ولو تعلق الأمر بنا نحن الخمسة وحدنا لهان على مدير المؤسسة أن يصدر القرار الاستثنائي . لكن هذا المدير المقيّد بالأنظمة والميزانيات المحددة يعرف أن أول إستثناء يقبل به سوف يفتح الباب أمام استثناءات أخرى . فقد فهم الفسطينيون في كل مكان أن سوريا توفر للاجئين معاملة أفضل مما يتوفر في أي دولة سواها . فكان هناك لاجئون كثيرون يتعطشون للظفر بفرصة الإقامة في سوريا لو أتيح لهم ذلك . وبعد أن ضاقت امكانيات الدولة الناشئة بعبء اللاجئين

الذين تدفقوا إليها في السنة الأولى ، مالت الى التشدد ، ووضعت الانظمة التي تحول دون تدفق المزيد من هؤلاء اللاجئين .

كان المدير العام لمؤسسة اللاجئين هو الاستاذ صبحي الخضرا ، أحد قادة حزب الاستقلال في فلسطين ، وقد ربطته بقادة حركة الاستقلال في سوريا علاقات قديمة حميمة . فلما جاء القائد الفلسطيني إلى هؤلاء لاجئاً ، وكانوا هم قد أصبحوا حكاماً لبلدهم ، لم يجدوا شخصاً أنسب منه لتسليمه إدارة المؤسسة . وما كان الرجل راغباً ، بأي حال من الأحوال ، في حرماننا من الحصول على ما نحن بأمس الحاجة اليه ، غير أن القوانين كانت صارمة ، وكان على الرجل أن يتوخى الالتزام بها ، مراعاة لوضعه ، على قاعدة أن الغريب ينبغي أن يظل أديباً ، ومراعاة لسياسة الذين أكرموا وفادته .

وتكررت مراجعات جدي للمؤسسة ، بل كادت تصبح يومية . وكان موظفو هذه المؤسسة ، وجلهم من الفلسطينيين ، متعاطفين ، مثلهم مثل مديرهم ، مع طلب الجدّ ، إلا أنهم ، مثل المدير ، ما كانو يملكون أن يفعلوا شيئاً إزاء وضوح القوانين التي تكبل الأيدي . وفي واحدة من زياراته للمؤسسة ، اصطحبني الجد معه ، ولعله تقصد أن يستثير عواطف المسؤلين فيها حين يريهم أصغر الوافدين الذين يطلب العون من أجلهم . في هذه الزيارة ، استقبلنا الاستاذ صبحي . وها أنا أتذكر ، الى الأن ، القامة الفارهة والهيئة ذات المهابة والوجه الصبيح والنبرة الودودة للرجل الذي تلقانا بمودة ودعانا للجلوس وتبسط مع جدي في الحديث ، بالرغم من أنه حديث معاد . لقد كرر الرجل ما سبق للجدّ أن سمعه منه من حجج ، وكرر الجدّ ما سبق للرجل أن سمعه منه من شروح . واشار الجدّ لي ، وتساءل : « ماذا أفعل به هو وأخوته ، أنا الذي صرت بلا عمل ولا مورد ، بعد أن كنت أشغل الناس وألعب بالمال لعباً ؟! » . وقال الرجل : « أنا أفهمك ، لكنك كبلت يديك بتعهد لا فكاك منه » . وكأنما كان الجدّ يتوقع هذا الجواب وقد هيأ نفسه للرد عليه . فقد وقف الجدّ ، فجأة ، في حركة تكشف مزيج الحنق واليأس المسيطر عليه وفرد ذراعيه على

سعتهما وباعد ما بين قدميه ، وقال ، مشدداً على مخارج بعض الحروف : « أنت ترى ، يداي طليقتان لا يقيدهما شيء ، وكذلك قدماي ، وما قيمة ورقة . القرار قرارك ، فلا تكن مع الدهر علينا ، إذ يكفينا ما جرى لنا ، حتى الآن ، على ايدي الاعداء ! » . وغمرت بدني تلك الإرتعاشات التي تنذر بقرب انفجار الدموع وأنا ارى جدّي في موقف المترجي وأحس بالمهانة . غير أن الدموع التي سبق ان جفت في مآقيّ منذ سنة لم تطاوعني ، فاشتدت الارتعاشات حتى صارت تشنجات . ولاحظ الاستاذ صبحي حالي ، فجاء إلي وهدأني ، بل إنه قبلني أيضاً ، ثم عاد إلى مقعده خلف المكتب ، وأطرق طويلاً ، فيما صمت الجدّ . ولما رفع الاستاذ صبحي رأسه ثانية ، واجه جدي بنظرة مباشرة ، وقال بنبرة أثقلها الهمّ : « اسمع يا أبو نافذ ! نهاية الكلام : أمامك طريق واحد ، أن تحصل على موافقة من وزير الداخلية ، فمؤسستنا تابعة له . إن جئتني بهذه الموافقة ساسهل كل شيء بعد ذلك » . ثم صارح الرجل الجدّ بأنه كتب للوزير بشأننا فتلقى إجابة سلبية ، وهو لن يذل نفسه بالكتابة مرة أخرى لهذا الوزير الذي لا يمكن عمل شيء دون موافقته . هنا ليّن الجدّ نبرته وتوجه للمدير بلهجة راجية ، حاثاً إياه على أن يكتب للوزير مرة أخرى ، مشيراً إلى أن بين معارفه الحميمين من يمون على هذا الوزير . وبدوره ، ليّن الاستاذ صبحي موقفه فوعد بالكتابة . وشعرت على نحو غامض أن الرجل كلّف نفسه الكثير من أجلنا ، فسرت نحوه بحركة عفوية ، وكان هو قد وقف إيذاناً بانتهاء اللقاء ، وهززت يده هزّة امتنان . وفيما نحن متجهون للخروج ، جاءنا الصوت المهموم : « سيكون الكتاب غداً في الوزارة . من أجل خاطر الصغير ، سأبعث به مع مراسل خاص . بالمناسبة ، انا عندي ولد اسمه فيصل ، أيضاً » .

عندما ذكر الجدّ أنه يعرف من يمون على وزير الداخلية ، كان في باله قريبنا الحاميدي مفلح الذي حل محل ابن عمه مزيد وصار عضواً في البرلمان ممثلاً لمدينة درعا . لم يقل الجدّ انه حانق على أقربائه الحاميد الذين تنكروا واجبات الضيافة عندما قدم اليهم لاجئاً . ولا ذكر الجد أنه

رفض كل الوساطات التي استهدفت مصالحته مع مزيد المحاميد بعد تلك الحادثة . فقد عقد الجدّ النية على تجاوز حنقه والاستفادة من نفوذ رجل البرلمان عند أعضاء الحكومة . وكعادته كلما اعتزم قضاء أمر ، تعجل الجدّ السفر الى درعا . وفي صباح اليوم الذي تلا مقابلتنا للأستاذ صبحي ، تزيّا الجد بأفخر ما لديه من ملابس ، فارتدى القمباز والساكو الابيضين الحريريين اللذين يحتفظ بهما للمناسبات الجليلة وتزنر بحزام فاخر ، هو الآخر من الحرير ، واختار أجدّ أحذيته ، وكسا رأسه بحطة البوال البيضاء الهفهافة ، ووضع على الرأس عقال المرعز المصنوع من شعر الجديان ، وبدا واثقاً من تمام لياقته لمقابلة علية القوم ، وقرأ آية الكرسي ، وطلب من ربّه ان يكلل مسعاه بالتوفيق ، وغادرنا متوجهاً الى بلدة النائب المقصود .

ثم عندما رجع الجدّ في المساء . أظهرت أساريره المرتاحة ، قبل أن تعلن ذلك عباراته ، أنه نجح في مسعاه وتلقى وعد القريب بالتدخل الحازم في الامر . والواقع أن جدي استقبل هذه المرة في درعا استقبالاً لائقاً . فقد تلقاه مضيفه بحفاوة بالغة وأولم له وليمة باذخة متبعاً كل الاصول التي يُصرّ الجد على أنها من حقوقه على قريبه . وأظهر مفلح المحاميد ، في هذه الزيارة ، استعداده التام ، ليس للتدخل في هذا الأمر ، وحده ، بل في أي أمر آخر يكون للجد فيه مصلحة . غير أن نبأ سيئاً كان في الانتظار ، فقد استقالت الحكومة في اليوم التالي ، وانقضت أيام اخرى الى أن تشكلت حكومة جديدة . وما كان بالامكان التوجه الى وزير الداخلية قبل أن تظفر الحكومة بثقة البرلمان ويصير لوزرائها حق اصدار القرارات الاستثنائية . واقتضى هذا مزيداً من الانتظار ، فيما بدا ان مصيرنا معلق بمستقبل الحكومة ، فحلّ الاهتمام بشؤونها في المحل الأول من المشاغل التي تدور حولها أحاديث الاسرة ، وانشغل الجدّ بالاستفسار عن الوزير المعين لوزارة الداخلية وانتماءاته وميوله وأطباعه ، وكان يروى لنا جديداً بهذا الشأن في كل يوم جديد . وأخيراً ، جاء اليوم الموعود ، وجاء نائبنا القريب الى دمشق من أجل جلسة الثقة فلم يحتج الجدّ للسفر الى درعا ثانية . وصحبني الجد معه حين ذهب هو ونافذ وعمر لزيارة النائب

في فندق قصر الشرق ، او الأورينت بالاس ، الذي ينزل فيه زعماء البلاد الوافدون إلى العاصمة من المحافظات المتعددة . وقد دخلت الفندق الفخم المفروشة ردهته وممراته كلها بالسجاد الفاخر متهيباً . كانت الردهة والممرات مكتظة بالنزلاء ورجال الأمن . وكان القريب الذي نقصده يجلس في ركن من بهو الفندق محاطاً بحشد من الناس من مختلف الطبقات ، جالسين وواقفين ، ولكل منهم حاجة جاء يطلب العون على قضائها . ولأمر ما ، أولى الرجل جدّي عناية خاصة ، فقد وقف عندما بلغ الجد مجلسه ، وصافح خاليّ ، واحتضنني وقبلني . ولأمر ما ، أيضاً ، شدد الرجل ، وهو يقدم الجدّ لزواره ، على صفة الجد كفلسطيني ، وعرّفه على أنه من كبار المجاهدين . ولم يفت النائب أن يؤكد لمستمعيه أن قضية فلسطين هي قضية القضايا بالنسبة له وأبناء فلسطين هم حدقة عينه التي يبصر بها الدنيا . وأفسح الرجل للجدّ مكاناً بجانبه ليجلس فيه فيما توزع خالاي بين الجالسين ، وبقيت أنا واقفاً وراء جدي . وحين اراد الجدّ تذكير النائب بحاجتنا عنده ، قال هذا ، جاعلاً صوته مسموعاً من الحشد كله : « حاجتك مقضية . أنا ما نسيتها . وما كنت لأصوت بالثقة بالحكومة لولا أني أعرف أنها تخدم أبناء فلسطين » .

بعد ذلك . جرت الأمور باتجاه إيجابي . صحيح إن الأمر استلزم وقتاً بدا لنا طويلاً وكادت عطلة الصيف تنقضي وأوشكت المدارس على بدء الدراسة قبل أن نظفر بغايتنا ، إلا اننا ظفرنا ، في نهاية المطاف ، بها ، فسجلنا في عداد اللاجئين الذين يحصلون على العون ، وصار بالامكان تسجيلنا في المدارس . وكنّا ، على كل حال ، محظوظين إذ ظفرنا بهذا المكسب قبل ايام قليلة من سقوط الحكومة الجديدة . وقد اسقطها ، هذه المرة ، انقلاب عسكري لم يزح الحكومة وحدها ، بل ألغى البرلمان ، أيضاً ، ووضع عدداً من زعماء البلاد في السجن .

مشكلة أخرى انشغلنا بها في ذلك الصيف . قد لا تبدو لك هذه المشكلة مهمة الى الحد الذي يبيح التطرق لها ، أما بالنسبة لنا فكانت من المشاكل الممضة التي استهلكت جهدنا وفرت أعصابنا . لقد جئنا الى

دمشق وليس في حوزتنا الا الملابس التي تكسو ابداننا والقليل من الملابس التي حوتها صررنا الهزيلة . وإذا كانت هذه الملابس مما لاءم حالنا حين عشنا بين جموع اللاجئين الذين اكتظت بهم أرجاء غزة ، فانها لم تعد تلائم وضعنا في المدينة الكبيرة التي يهتم أهلها بهندامهم إهتماماً كبيراً . ولا بدّ أنك تدرك أن موارد الاسرة جعلت مجرد الحلم بالحصول على ملابس جديدة أمراً مستبعداً . فلم يبق أمامنا إلا البحث في سوق الملابس المستعملة لعلنا نحصل على ما يبدل الهيئات الزرية التي دخلنا المدينة بها . وفي هذا السوق ، وهم يسمونه سوق البالة ، كانوا يعرضون نوعين من الملابس : تلك التي يبيعها سكان المدينة أنفسهم مما يبلى من ملابسهم ، والأخرى التي يستوردها التجار من الخارج . ولكل من هذين النوعين مزاياه كما أن له سلبياته . فملابس أهل المدينة ملائمة للذوق السائد ، إلا أنها غالباً ما تكون قد اهترأت قبل استغناء أصحابها عنها ، بحيث يصعب ، إن لم يتعذر ، الوقوع على ما هو صالح للاستخدام الاقتصادي بينها . اما الملابس المستوردة فهي ، على العموم ، أقل بلى ، وقد يقع المرء بينها على ما هو جديد أو في حكم الجديد ، إلا ان المشكلة قائمة في أزياء هذه الملابس التي لا تلائم الذوق السائد .

ثم ان الحصول على الملابس ، أيا كان زيّها او درجة بلاها ، يتطلب توفير اثمانها . وحين تأخذ في الحسبان عدد أفراد الاسرة الكبير وحاجاتهم المتنوعة ، يمكنك أن تتصور صعوبة توفير المال اللازم لكسوتهم .

كان جدّي أول من أشار الى حاجتنا للكسوة . وكان هو قد أمن لنفسه كسوة لائقة عندما قام بتجارته الخاسرة في زيارته للضفة الغربية ، واحتفظ بهندامه الانيق المميز له . وكان مما يثير شجون الجدّ ويبعث الحزن في نفسه أن أسير بجانبه بهيئتي الزرية فيما يرفل هو بالملابس الفاخرة . وشاء الجدّ ان يجسّ نبض الجدّة ليعرف أن كانت مستعدة لبذل بعض المال ، هو الذي بقي في يقينه أنها ما تزال تختزن شيئاً تخفيه عنّا . وكلّف الجدّ ، كالعادة ، ابنه نافذ بالمهمة . غير أن نافذ تلقى جواباً قاطعاً : المدخرات نفدت ، ولم يبق لجدتي إلا الحليّ التي تستخدمها ، فعندها تلك القطعة

التي تزن خمس ليرات ذهبية والسلسلة التي تشيلها ، وهذا القليل من انصاف الليرات والغوازي الذهبية وريالات ماريا تيريزا الفضية التي تكلل الوقاية التي تغطي رأسها . والجدّة لا تستغني عن هذه القطع ، فقد الفت حملها على رأسها ، والتخلي عنها يسبب لها صداعاً لا شفاء له . وإذا نجانا الله من أيام كهذه فما بقي للجدّة هو الضروري لتجنيزها حين يحين الاجل المحتوم ، وهي ، التي لقيت في حياتها كل هذا العناء ، لا تقبل المجازفة بأن تتجه الى الدار الآخرة دون جنازة لائقة . هذا ما اجابت به الجدّة ، فكفّ جدّي عن محاولة الاستفادة من مالها ، دون أن يكف عن محاولاته لحل المشكلة .

ولا بدّ أن يكون الجدّ قد سعى للإستدانة من أصحابه ومعارفه ، واعداً بأن يرد الدين عندما يعمل ولداه الساعيان للحصول على وظيفة . واغلب الظن ان الجدّ تلقى وعوداً من هذا او ذاك من الاصحاب ، فقد كان يعاود الحديث عن المشكلة ، من وقت لآخر ، ممنياً إيانا بقرب انفراجها . بل حدث ان اخذنا الجدّ ، اكثر من مرة ، الى سوق البالة القائم على الطرف الغربي لسوق مدحت باشا لنتفرج على معروضاته وندرس أحواله وأسعاره . غير أن الايام والاسابيع توالت دون ان يتوفر المال . وتضخمت المشكلة ، خصوصاً بعد أن تزايدت أعداد الذين تعرفوا علينا في غداوتنا وروحاتنا أو جاءوا للزيارة والتحية . وفي غضون ذلك ، واصلتُ استخدام ملابسي الزرية ، وسرت معظم الوقت حافياً في الطرقات ، إلا إذا اقتضت مناسبة هامة أن استخدم حذاء عدنان . وفجأة ، جاء الحلّ من حيث لم يتوقع أحد . فقد حدث ان قرر شاب من الفلسطينيين اللاجئين في دمشق ، وهو ابن لواحد من أصحاب الجدّ الذين بقوا في البلاد ، أن يجرّب حظه بالسفر إلى الكويت والبحث عن فرصة للعمل فيها . كان هذا الشاب ، واسمه ، ان لم تخني الذاكرة ، جبر الثلاثين ، قد ظفر بشيء من التعليم الثانوي قبل الهجرة ، ثم التجأ مع اسرته إلى قطاع غزة . ويبدو أن جبر كان على شيء من الطموح ، وقد ضاقت به ، على كل حال ، الظروف المقيتة المحيطة باللاجئين في غزة ، فترك أسرته ، وتسلل عبر

صحراء النقب ، التي تحتلها اسرائيل ، الى الضفة الغربية ، ومنها انتقل إلى شرق الاردن . ولما عجز جبر عن ايجاد عمل في هذه البلاد المكتظة بمن لجأ اليها من الفلسطينيين ، قدم إلى دمشق ، وأمضى فيها سنة ، دون أن تتوفر له فرصة العمل المنتظم . فلما عرف الفلسطينيون الطريق الى الكويت ، حيث شاع أن فرص العمل متوفرة في بلاد النفط هذه ، حزم الشاب أمره . ولم يكن السفر الى الكويت باسلوب شرعي متيسراً إلا لأعداد قليلة من الناس المحظوظين . أما الأغلبية التي قصدت الكويت ، في تلك السنوات ، فقد لجأت الى أسلوب التسلل : يجتاز واحدهم الحدود السورية العراقية ، بطريقة او بأخرى ، ثم يسلم نفسه في العراق الى سماسرة احترفوا تأمين وصول المتسللين الى الكويت ، خفية ، عبر دروب الصحراء . ولسبب ما ، لم اتبينه ، كان لدى جبر بعض المال المدخر ، مائتا ليرة سورية أو ثلاثمائة فائضة عن نفقات السفر . وقد خشي العازم على اجتياز الصحراء ان يفقد ماله في الدروب المجهولة ، فاستأمن جدّي على هذا المال كي يحفظه له ، ثم سافر .

كان جدّي يعاني في ذلك الوقت من المضايقات التي سببها عجزه عن وفاء دينه للتجار الذين أقرضوه البضاعة التي حملها للضفة الغربية ، ولم ينجح في بيعها فلم يتمكن من رد ثمنها لهم . لم تقلق الجدّ حاجة هؤلاء التجار لمالهم ، فهم ، في رأيه ، نصابون يحتالون على خلق الله وخزائنهم طافحة بالمال ، بل اقلقه أن الحكاية أساءت لسمعته كتاجر وجعلته يصنف بين التجار في عداد المفلسين الذين لا يجري التعامل معهم ، فحرمته من فرصة القيام بتجارة جديدة . وحين أستؤمن الجدّ على هذا المال القليل من الشاب المسافر ، عزم عزماً أكيداً على عدم المسّ به ، فالتصرف بالأمانة خطيئة لا يقدم عليها رجل له أخلاق جدّي . وقد مرت أسابع أخرى ، اشتدت فيها حاجة الجدّ الى المال ، وانسدت سبل الحصول عليه ، دون أن يقرب هذا المال المودع عنده . إلا ان امرين تما في وقت متقارب فتضافرا على تليين تزمت الجد من هذه الناحية ، او على طمأنة ضميره : تسجيلنا في عداد اللاجئين وتوفر الفرصة لدخولنا

المدارس واشتداد الحاجة ، بالتالي ، لكسوتنا ، وحصول خاليّ نافذ وعمر على قرار التوظيف . هنا ، فقط ، سمح الجدّ لنفسه بأن يمدّ يده للأمانة . ولا أشك في أن الجدّ تردد قبل أن يفعل ذلك ، ولو لم تكن الحاجة أقوى من نوازع الأخلاق لما أقدم عليه . وقد سوّغ الجدّ لنفسه إتيان هذه الخطيئة بأنه قادر على رد المال في وقت قريب ، ما دام ولداه سيغدوان موظفين . ومهما يكن من أمر ، فقد كسانا الجدّ ، وكتم عن الأسرة مصدر المال الذي اشتريت به الكسوة ، ولم نعرف الحكاية الا حين عاد الشاب من سفرته خائباً وطالب بماله .

وها أنا أتذكر ، حتى الآن ، تفاصيل روحاتنا وغدواتنا إلى سوق البالة . كان الوقوع على الهدم الصالح أصعب مما توهمنا في البداية ، ومثله الوقوع على الزيّ والمقاس الملائمين ، وسط اكوام البالات الواردة الى السوق ، بالوانها الغريبة وازيائها العجيبة . كنّا ، غالب وأنا على الدوام ، وعمر في بعض الاحيان ، نمضي بصحبة الجدّ الى السوق ، وننتقل معه من كومة الى اخرى ومن حانوت إلى سواه ، نقلّب ونقيس ، مزاحمين الزبائن المكتظين حول الأكوام أو داخل الحوانيت ، وتنقضي ساعات يعقبها الظلام ، ثم لا نعود إلا بقطعة او اثنتين . وفي ختام أيام مديدة ، أمضيناها في التقليب وفي المساومات المضنية على الاسعار ، توفر لنا ما يصلح لكساء البدن دون أن تخترقه العيون المشفقة . وصار لي ، وهذا هو أهم ما حصلت عليه ، حذاءٌ خاصٌ بي ألبسه وقتما اشاء .

وبحلّ مشكلة تسجيلنا في عداد اللاجئين ، تضاعفت حصة أفراد الاسرة من المواد الغذائية التي يحصل عليها هؤلاء . كانت هيئة الصليب الاحمر الدولي وجهاتٌ خيرية اخرى ، محلية وأجنبية ، قد تضافرت لتقديم العون لفقراء اللاجئين الفلسطينيين في اماكن تجمعهم . كانوا يعطون للفرد الواحد عشرة كيلوات من الطحين في الشهر ، وقليلاً من السكر والرز والسمن والبقول المجففة ، وقطعة صابون واحدة . كما كانوا يقدمون للأطفال شيئاً من مسحوق الحليب المجفف ويخصون الرضع بنوع خاص منه يقال انه كامل الدسم . وعندما كنّا في غزّة ، كان الطحين

يعـجن في البـيت ، ويخـبـز العـجين في تنور قـائـم في ارض الدار التي نستأجر إحدى حجراتها . أما هنا ، في دمشق ،في هذه الدار الضيقة ، فظل من الممكن إعداد العجين ، بالطبع ، بينما تعذر وجود تنور . وهكذا توجب حمل العجين لخبزه في فرن الحيّ كل يوم . وقد انيطت بالاولاد الصغار وانا واحد منهم مهمة حمل العجين الى الفرن . فكنا ، غالب وانا وكـذلك عـدنان ، نتناوب المهـمـة وفق الجـدول الزمني الذي وضـعـتـه أم عـدنان وأشرفت على تطبيـقـه . وفي ذلك الصيف ، خصـوصـاً في ذلك الصيف ، كان أداء هذه المهـمة بغيـضـاً ، بالنسبة لي : إذ كـانت هناك ، أولاً ، مشقة حمل العجين والمزاحمة في الفرن والمماحكات التي تنشب بسـبب الخـلاف على الدور أو أي سـبب آخـر ، وذلك الانتظار في اجـواء الفرن الحارة . وكان هناك ، ثانياً ، مما هو أهم ، حرماني من مصاحبة الجدّ في غدواته وروحاته والأحـاديث التي تدور في مجالسه . بالرغم من هذه المشقات ، ما كان الأمر يخلو من متع وفوائد : فانتظام التردد على مكان واحـد يتـيح – في العـادة ، وهو مـا جرى بالفـعل – تأسـيس عـلاقـات مع مـجـايليّ من أولاد اللاجـئين وغـيـر اللاجـئين . وإذا كـان بعض هذه العلاقات قد اتخذ طابع العداوة ، فقد تهيأ لبعضها أن يتحول الى مسارات حميمة وصداقات لا يعرف حلاوتها إلا الفقراء من أمثالنا . ثم إن فرن الحيّ كان ، في دمشق ، مكاناً لا يعدّ فـيه الخبز ، وحده ، بل كـثير من المأكولات الأخرى ، أيضاً . فالأسـر الدمشـقـيـة ترسل إلى الفرن صواني اللحوم والخضار ؛ والفران يعد لهذه الاسر الفطائر الشهية ، المحشوّ منها بالجبن والبقدونس او بالسبانخ والبصل . وفي المناسبات الخاصة ، ترسل الاسـر الى الفـرن شـتـى انواع الحلويات المعـدّة على أيدى ربّات بيـوت خبيرات ، من الكعك المحشو بالتمر او بالجوز الى الكنافة بالجبن ، الى المعمول ، وكلها مطيبة بالسمن البلدي ذي الرائحة الأخاذة . لا شك في أن وجود هذه الأطايب كان يهيج إحساسنا بالحرمان . الا أن الامر ما كان يخلو من متع ، أقلها الاستمتاع بالروائح الشهية .

وكان يحدث أن يكون بعض هذه الاطايب معداً للتوزيع على الفقراء ،

كأن يكون ثمة عيد ، أو وفاة ، أو أربعين متوفى ، أو ما يشبه ذلك من المناسبات المحزنة أو المفرحة . وفي هذه المناسبات ، يجود الناس باطايبهم متوخين أن يظفروا بثواب الرب لأنفسهم أو رحمته لموتاهم ، وملبين ، في كل الاحوال ، تلك الحاجة التي تدفع الناس للإدلال بمستوى الرفاه المتيسر لهم على الذين لا يصلون الى هذا المستوى . وكثيراً ما يبدأ هؤلاء بالفقراء الماثلين أمام اعينهم من المحتشدين في الفرن . وقد الف الناس في المدينة أن يعدّوا كلّ لاجيء فلسطيني بين الفقراء فيخصوه بأعطياتهم المنذورة للأعمال الخيرية . وعلى هذا ، كان من الممكن أن اظفر بشيء مما يعد في الفرن واتمتع به ، دون أن أحس بمهانة التسوّل ، فالأمر أمر أجر وثواب للمانح ورحمة للفقيد . وكنت ، مدفوعاً بالحاجة التي هي أقوى من الكرامة ، اتحايل على نفسي واكابر فأظن انني ، اذ أتقبل منح المحسنين ، إنما اؤدي خدمة لهم

والحقيقة أننا في الاسرة لم نكن نفتقد الحلويات والفواكه ، وحدها ، بل كثيراً ما افتقدنا الطعام الضروري ، أيضاً . والوجبة الباذخة التي اكلناها في أول أيامنا في دمشق لم تتكرر . وقد صار علينا أن نقتصد في طعامنا فنتناول أقل مما يملأ المعدة ، ينطبق هذا حتى على الخبز . لم يعلن أحد ، صراحة ، أن التقنين قائم ، لكن الطريقة التي يقدم بها الطعام تجعل التقنين امراً واقعاً . كنّا نتحلق لتناول الفطور ، فيكون امامنا طبقان صغيران او ثلاثة فيها زيت وزعتر وزيتون أو مكدوس أو مربى فاكهة مصنوع في المنزل ، وفي كل طبق كمية لا تسمح لأي منّا بأن يطلق لشهيته العنان ، بل توجب عليه ان يقتصد ، تلقائياً ، فيراعي حاجات الآخرين . أما الخبز ، فكان جدّي يتولى توزيعه على افراد الأسرة ، يقطع الأرغفة ويضع امام كل واحد منّا قطعة ، فنفهم دون توجيه ، أن هذه هي الحصة التي لا ينبغي أن نتجاوزها . ويتكرر الأمر ، على النحو ذاته ، في وجبتي الغداء والعشاء : تتحلق الاسرة حول الطبق الوحيد ، المصنوع من العدس والرز أو البرغل ، أو من الخضار المطبوخة بالزيت ؛ ويتوجب على كل واحد منّا ، كرّة اخرى ، أن يوازن بين حاجته وحاجات الآخرين . وفي

المناسبات التي يحتفل الناس فيها بإعداد أصناف خاصة من الطعام ، كان أقصى ما يمكن أن نحصل عليه طبقاً مطبوخاً باللحم ، بدل الزيت ، أو بالشحم حين يتعذر الحصول على اللحم ، وكمية محدودة من الرز المطبوخ بالحليب والسكر ، أو من الحليب ، وحده ، وقد كثف بالنشا وطيّب بماء الزهر او بعصير الليمون أو البرتقال . ولا بدّ أنك تحزر أن الاحتفال بالمناسبات الشخصية ، حتى على هذا النحو المتواضع ، كان أبعد من أن نفكر فيه ، فلم نعرف الاحتفال بأعياد الميلاد او الزواج او النجاح في المدرسة .

بالرغم من هذه الحياة الضنكة ، لم يفقد جدي عبد المجيد اهتمامه القديم بتعليم الأولاد . كان الجدّ ، حتى في ايام بحبوحته ونحن في فلسطين ، ما يفتأ يردد القول بأن العلم هو رأسمال للمستقبل . وقد عززت النكبة التي حلت بنا إيمان جدي بأهمية العلم ، وتنبه الآخرون الى هذه الاهمية ، فصار تعليم الأولاد هدفاً تتضافر الأسرة كلّها لتحقيقه . وقد هيأ وجودنا في المدينة الكبيرة الفرصة لتعليم الإناث ، فضلاً عن تعليم الذكور ، ولم يعد أحد يشك في جدوى تعليم البنات . ولما كانت خالتي شفيقة اكبر من أن تذهب إلى أي مدرسة فحكم عليها بأن تظل أمية ، فإن خالتي هيام ، ابنة ام عدنان ، هي الاولى من بنات الأسرة التي استفادت من الفرصة الطيبة . ولأن سن هيام كان اصغر من ان تقبلها المدرسة ، ولأن الجدّ كان متلهفاً للإستفادة من الظرف الجديد ، فقد أرسلت البنت الى كتّاب يقوم في الزقاق الذي نسكن فيه . وكان بعض الكتاتيب ما يزال ، حتى ذلك الوقت ، قائماً وصامداً في المنافسة التي فرضت على هذه الكتاتيب أمام زحف المدارس وروضات الأطفال الحديثة . وكان عدنان ، وهو اكبر ابناء الجدّ من زوجته الشامية ، قد التحق بمدرسة حكومية منذ العام السابق ، وتطلع الجدّ الى تسجيلنا ، غالب وأنا ، في المدرسة ذاتها .

لم تمض الأمور ، من هذه الناحية ، بسهولة . فعندما أفلحت مساعي الجدّ في تسجيلنا في عداد اللاجئين فصار لنا حق الانتساب الى مدارس

الحكومة في حيّنا ، ظهرت عقبة أخرى لم تكن في البال قبل ذلك . تعلق الأمر هذه المرة بطبيعة الاوراق المدرسية التي حملناها معنا من غزّة . فأنت تعرف أننا امضينا سنتنا الأخيرة في واحدة من المدارس الطارئة التي أنشئت على عجل لتعليم أبناء اللاجئين . وقد زودتنا هذه المدرسة بالأوراق التي تثبت لجاحنا فيها ، وهذه الأوراق هي التي أبرزناها حين توجهنا الى المدرسة المقصودة في الحيّ . هنا ، ظهرت عقبة مزدوجة . فالمدرسة الغزاوية ليست مدرسة نظامية ووثائقها غير معترف بها من قبل مدارس الحكومة في سوريا . ثم ، حتى لو صدرت وثائقنا عن مدرسة نظامية ، فلن تصير مقبولة هنا ما لم تكن مصدقة وممهورة بأختام وتواقيع كثيرة من جهات عديدة متسلسلة المسؤولية في دوائر التعليم ووزارة الخارجية ، في قطاع غزة ومصر التي تدير القطاع . انه الروتين ، وهو في مسألة الوثائق روتين معقد ، فضلاً عن افتقاره للمنطق وانعدام ملائمته للواقع .

ازاء هذه العقبة غير القابلة للتذليل ، ومع ضيق الوقت الذي لا يفسح مجالاً للوساطات الفعالة ، ومع إضمحلال نفوذ قريبنا النائب الحاميدي في ظل الحكم العسكري الذي الغى البرلمان كلّه ، لم يبق أمامنا إلا التوجه إلى المدارس الخاصة ، أو الاهليّة كما يسمونها . لم تكن هذه المدارس حرّة تماماً من قيود الروتين ، إلا أن تشبثها به ، هي التي تراعي عوامل الربح والخسارة ، أقل صرامة من المدارس الحكومية . وحين انصرف الجدّ إلى تدبير مسألة تسجيلنا في مدرسة خاصة ، تبين أن لاجئين كثيرين غيرنا واجهوا العقبة ذاتها أو ما يشبهها ، كما تبين أن الحاجة الى التعليم أفضت إلى ابتكار وسيلة لتذليل هذه العقبة . وهكذا ، زودنا مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين ، في دمشق ، بوثيقة ممهورة بختم المكتب وموقعة من رئيسه الذي هو شخصية مرموقة ، وهي وثيقة يؤكد الموقع عليها أنه يعرفنا ، شخصياً ، ويعرف أننا حصلنا على تعليم منتظم ، وأن الوثائق التي نحملها صحيحة وإن تعذر التصديق عليها من الدوائر المختصة بسبب الظروف القاهرة . وقد شفعت هذه الوثيقة بمساع

بذلها المكتب ذاته مع المسؤولين عن المدارس الخاصة في وزارة التربية . وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يستعاض عن التصديقات بإجراء امتحان قبول لي ولغالب ، حتى يتأكد للمدرسة التي سننضم اليها أننا حصلنا على المستوى من التعليم الذي يؤهلنا ، فعلاً ، لاتمام الدراسة .

بحلّ كهذا الحلّ ، سوي الأمر بالنسبة لوضعي ، لكن وضع غالب لم يسوّ تماماً . ولايضاح المشكلة الجديدة ، ينبغي ان أذكر لك ان التعليم المدرسيّ في سوريا يتوزع على ثلاث مراحل : الابتدائية التي تنتهي بانتهاء الصف الخامس ؛ والاعدادية التي تنتهي بانتهاء الصف التاسع ؛ ثم الثانوية ، وكانت مدتها سنتان . ويخضع التلاميذ لإمتحان حكوميّ يجري في نهاية كل مرحلة ، ويحصل الناجح فيه على شهادة رسمية لا يستطيع بدونها أن ينتقل إلى المرحلة التالية . وكنت انا ، وآمل انك تتذكر ذلك ، قد أنهيت في غزة الصف الرابع الابتدائي ، وامامي أن انتسب إلى الصف الخامس من المرحلة ذاتها ، فتم الأمر ، بهذا ، دون مشكلة . اما غالب ، فكان قد انهى ، في غزة ، الصف الخامس وأمامه أن ينتسب الى الصف السادس ، أي الى صف في مرحلة جديدة يتعذر الانتساب اليها دون الحصول على الشهادة الحكومية باتمام المرحلة الابتدائية . وهكذا ، طلبت المدرسة ان يعيد غالب الصف الخامس ذاته ، اي ان يخسر سنة كاملة . وما كنّا ، غالب أو أنا ، في سنّ نقدر فيه معنى ضياع سنة من العمر الدراسي . والذي استهول الأمر هو الجدّ . لكن الروتين كان أقوى من محاولات الجدّ لتجنيب ابنه هذه الخسارة . بالرغم من ذلك ، لم يستسلم الجدّ كليّة ، بل عقد اتفاقاً مع مدير المدرسة التي انتمينا اليها ، بحيث يتهيأ لغالب ، بعد الظفر بالشهادة الابتدائية ، ان يتبع دورة دراسة صيفية يلمّ خلالها بالمواد التي تدرس في الصف السادس ، وينتقل في العام التالي الى الصف السابع مباشرة ، فيعوض السنة الضائعة .

وحتى بهذا كلّه ، لم تكن المشاكل كلها قد سويت . إذ بقيت امامنا مشكلة المشاكل ، وهي الرسوم المالية التي تتقاضاها المدرسة الخاصة ،

وكان دفعها من قبل الاسرة فوق أية طاقة . مرة أخرى ،لم يستسلم هذا الجدّ الذي لا يعرف الكلل . وفي بحثه الدؤوب عن حل ، اهتدى الجدّ الى جهات خيرية تساعد التلاميذ من أبناء اللاجئين ، فتغطي جانباً من الرسوم التي يدفعونها للمدارس . فاتصل الجدّ بهذه الجهات ووسط الوسطاء حتى حصل لنا على تغطية . أما بقية الرسوم فقد تمّ تأمينها ، بطريقة أو بأخرى ، وذلك على حساب مزيد من التقتير في طعام الاسرة وملبسها وحاجاتها الضرورية . وهكذا ، عندما افتتح العام المدرسي الجديد ، في اواسط أيلول / سبتمبر ١٩٤٩ ، لم أحرم من التوجه الى المدرسة مع آلاف التلاميذ الذين سالت جماعاتهم في شوارع المدينة وازقتها . المدرسة التي انتسبت اليها هي الثانوية الأهلية ، وهي تقع قريباً من نهاية سوق ساروجة ، أي على مسافة بعيدة من زقاق بدر الذي نسكن فيه . والوصول الى المدرسة وكذلك العودة منها ، كانا يقتضيان قطع مشوار طويل ، رحت اكرهه كل يوم ، ست أيام في الاسبوع ، ابتداء من يوم الافتتاح المشهود .

في ذلك اليوم ، كان خالاي نافذ وعمر ، وقد ظفرا بالوظيفة التي طلباها ، قد غادرا دمشق للالتحاق بعملهما الجديد في محافظة الجزيرة النائية . توجه الخالان الى دير الزور ، مركز هذه المحافظة ، حيث سيتحدد لكل منهما المكان الذي سيعمل فيه .

وبهذا ، بدا أن رحلة الأسرة على دروب التشرد والعوز تنتقل إلى مرحلة جديدة .

٣ مشاكل تحل وأخرى لا حل لها

عرضت لك ، حتى الآن ، نماذج عن المشاكل التي واجهتها الأسرة في بداية اللجوء . اخترت من بين المشاكل الكثيرة النوع الذي أمكن إيجاد حلول له ، بصورة أو بأخرى ، بقليل أو كثير من العناء . ولن يغيب عن فطنتك ، حتى لو كنت غير مطلع على تفاصيل المعاناة التي تكبدها الفلسطينيون في بداية تشردهم ، أن هناك نوعاً من المشاكل استعصى على الحل ، ونوعاً آخر لم تفلح الجهود في إيجاد حلول ملائمة له . واذا كان التوصل لحلول لبعض المشاكل قد هيأ للأسرة الإحساس بالظفر في النضال فشكل بعض التعويض عن الاحساس بالحرمان ، فإن استعصاء الانواع الأخرى على الحل فرض على الاسرة معاناة متصلة وسمم حياة أفرادها وأسلمها لهذا البؤس الذي يسكن الأبدان والأرواح ويستقر في حنايا المشاعر فيستمر تأثيره مدى الحياة .

انحدرت المشاكل من مزيج من العوامل العامة والخاصة ، واندرجت كلها تحت عنوان واحد : الحاجة الى التكيف مع الاوضاع المستجدة التي

فرضت على اللاجئين دون رغبة منهم وعجز الامكانيات المتاحة عن تحقيق التكيف اللازم . هنا عليّ أن أذكر لك أن اسرتنا تعد محظوظة حين يُقارن حالها بما آلت اليه أحوال معظم الأسر الأخرى . فخانة الصفر التي لفّ قتامها الجميع والعوامل التي ضغطت على اللاجئين لينحدروا إلى ما دون الصفر ، قابلها ، في حالة أسرتنا ، بعض النقاط المضيئة وعدد من العوامل التي ساعدت على مقاومة الانحدار . فقد توفر للأسرة راع غنيٌّ بالخبرة ومسلح بعلاقات قديمة في بلد اللجوء ذاته قويّ العزيمة إلى حدّ يفوق المألوف بكثير . كما توفر للأسرة هذا المأوى ، الذي وإن لم يكن مثالياً ، فقد جنبها ذل العيش في الاماكن العامة واقتسام المساحات الضئيلة في هذه الاماكن مع أسر غريبة وافتقاد الكثير من مقومات العيش الكريم ، كما جنبها ، أيضاً ، ما ينجم عن هذا الوضع من تحلل في القيم الاجتماعية وتدهور للعادات الراقية وتفسخ لمفاهيم الأخلاق الحميدة . وبوجود نافذ وعمر المتعلمين واستعدادهما لشيل العبء وتحليهما بالرغبة في التضحية بهنائهما الشخصي كي لا تهبط الاسرة الى الحضيض ، أمكن لافراد الاسرة أن يهدهدوا ، في مواجهة البؤس الطاغي ، أملاً معقولاً بتحسين الحال في المستقبل ، فساعد هذا الامل على الصبر الذي لولاه لقدر لكل شيء ان يضيع تماماً . ثم إن لجوء الاسرة الى سوريا ، بالذات ، هيأ لها جواً أفضل ، او لنقل : أقل سوءاً ، من الاجواء التي غرقت فيها جموع اللاجئين التي انتهت إلى بلدان أخرى . فهنا ، في سوريا ، لم ينحصر اللاجئون في المساحة الضيقة التي انحصر فيها الذين احتشدوا منهم في قطاع غزة . ولم يعان لاجئو سوريا الحصار الذين عاناه سكان القطاع ، حين طوقتهم إسرائيل التي تحتل ارضهم ، من جهة او جهتين ، والانظمة المصرية الصارمة التي تمنعهم من السفر الى مصر ، من الجهة الثالثة ، والبحر الذي لا تصل الى القطاع منه سفينة شحن أو ركاب ، من الجهة الرابعة . وهنا ، في سوريا ، لم يعان اللاجئون الا القليل جداً من التمييز بينهم وبين المواطنين . لقد تصرف السوريون ، على الفور ، وعلى العموم ، على اساس أن الفلسطينيين الذين لجأوا اليهم

إخوان لهم حلّت بهم نكبة . وقدم السوريون للاجئين ما يمكن لبلد فقير ، طالع هو نفسه للتو من نكبة الاحتلال الاجنبي ، أن يقدمه لمن يلجأ اليه : كـان هذا هو مـوقف المواطن السـوري ، وهو ، أيضـاً ، مـوقف الأحـزاب والكتل السياسية والمنظمات الاجتماعية ، فانعكس ، بطبيعة الحال ، على مواقف الحكومات المتعاقبة ، بما فيها أسوأها . هذا لا ينفي وجود استـثناءات هنا أو هناك ، ولا ينفي ، بالطبع ، اضطرار اللاجيء لشـيل حـصتـه من المعـاناة التي يتكبـدها المواطن ذاته حين تضطهـد السلطة مواطنيها .

غير أن هذا الحظ الذي أتحدث عنه ، لم يعف الاسرة أو أياً من أفرادها من الهـموم التي سببها اللجوء . خذ حالة الجدّ ، شخصياً . كان هذا الرجل قد عاش ، قبل اللجوء ، خمسة عقود قطعها بالطول والعرض واستفاد خلالها من التطورات التي عصفت بالمنطقة ، فحقق لنفسه مكانة نقلته من مراتب الفلاحين الفقراء الى مرتبة ميسوري الحال منهم . وباقتلاعه ، فجأة وعنوة ، من وطنه ، انقلب حال الجدّ رأساً على عقب ، بالمعنى الحرفي للكلمة . فلم يكن الجدّ ، بعد ، شاباً ليعاود المشوار من أوله ، ولا بقيت الظروف هي الظروف ذاتها التي هيأت له أن يقطع المشوار بنجاح . والحقيقة أن الجدّ حاول ، بالرغم من ذلك ، أن يعيد الكرّة ، بل إنه كرر المحاولة حتى بعد أن فشلت محاولته الأولى . وقد عرفت ما فعله الجدّ حين حمل من دمشق تلك الأقمشة وشاء أن يبيعها في الضفة الغربية ، فلم يظفر بغير الديون التي عجز عن الوفاء بها . ثم قام الجدّ بمحاولته الثانية ، قبل انضمامنا اليه . فقد آنس الجدّ من صاحب بقالية مودة خاصة محضها البقال للاجيء الفلسطيني الذي عرفه قبل اللجوء حين كان الجدّ يجيء الى دمشق بوصفه وجيهاً معتبراً . ونشأت بين جدّي والبقال تلك العلاقة التي تربط عزيز قوم ذلّ بآخر مقتدر . وصارح الجدّ صاحبه بهمومه وحاجاته ، فأبدى الرجل استعداده لتقديم ما يقدر عليه من عون . هذا العرض المتعاطف شجع الجدّ ، ففكر بأن يتخذ لنفسه دكان بقالة ، مستعيداً ، دون شك ، ذكرياته عن الدكان القديمة التي

امتلكها في القرية وهو في مطلع شبابه والتي بدأ بها مشواره في عالم التجارة والأعمال . وطلب الجدّ من صاحبه أن يقرضه المال اللازم على أن يسدده له . أولاً بأول ، من ريع الدكان . ولم يقل البقال : لا ، بل اظهر تفهمه لمشروع الجدّ . إلا أن البقال حاجج جدّي بأنه غريب عن المدينة ومفتقر الى الخبرة اللازمة في ميدان تجارة البقالة فيها . وفي هذي حجة وجيهة كهذه الحجة ، اقترح البقال أن يعمل الجدّ عنده ليتعرف على أحوال السوق ومتطلباته ثم يرى ، أويريا معاً ، ما الذي يمكن المضيّ اليه بعد ذلك . وقبل الجدّ الاقتراح ، ولم يلبث أن التحق بالعمل . لم يتحدد وضع الجدّ في الدكان على نحو واضح ، ولم يضع هو شروطاً ، لا من حيث ساعات العمل ولا من حيث الأجر ، ولم يطلب أن يصبح شريكاً . ذلك أن الجدّ عدّ وجوده في الدكان مؤقتاً وراح يتطلع الى اليوم الذي سيستقل فيه بدكان تخصه . وبنيّة اكتساب الخبرة ، انكب الجدّ على العمل بهمته المعهودة ، وكان جاهزاً لأداء أية مهمة يتطلبها عمل الدكان . غير أن المهام التي انيطت بالجد لم تتعدّ المهام التي توكل للأجير ، في العادة . ولم يكن الجدّ المثقل بالحاح الحاجات المتراكمة في مزاج يمكنه من معالجة الأمر بروية واصطبار . وقد ذكر الجدّ صاحبه بمكانته ورفضه أن يتحول إلى مجرد أجير . فعل الجد هذا مع نهاية الاسبوع الاول لالتحاقه بالدكان ، عندما قدم له البقال الاجرة التي قدرها وكانت ضئيلة . وإزاء تململ الجدّ ، وعد البقال بأن الأمر سيتحسن في المستقبل مع تدرج الجدّ في التعرف على أحوال العمل . وانقضى اسبوع وثان وثالث ، دون أن يتبدل شيء في الوضع ، إلا في مزاج الجدّ ، هذا الذي راح يحتد ، اكثر فاكثر . وانتهى الامر . على كل حال ، بفشل المحاولة وانقطاع الجدّ عن العمل وانفصام صلته بهذا الصاحب .

المحاولة الثالثة باشرها الجدّ بعد أن ظفر بالإذن اللازم لنا للقدوم إلى دمشق وعرف أن نفقات معيشة الأسرة ستزيد بأنضمامنا اليها . لاحت الفرصة الجديدة لجدّي عندما أخذ يزوره أولئك الاقرباء من الحاميد الذين جاءوا لمصالحته مع زعيمهم مفلح . وقد حدث أن عرض أحد هؤلاء على

الجد أن يجيء للإقامة في حوران وتعهد بتأجيره قطعة أرض ليفلحها إذا كان الجدّ على استعداد لاستصلاحها والعمل فيها . والتقط الجد العرض ، وجسّ نبض العارض ليعرف إن كان هذا على استعداد لإقراضه المال اللازم للبداية ، فاتضح أن الرجل مفلس . فسعى الجدّ لدى البنوك ، فلم يقابل إلا بالسخط والسخرية . والحقيقة أنه كان من المدهش أن يجرؤ رجل ، لا أمامه ولا وراءه ، على مقابلة مدير بنك والمطالبة بقرض . وجدد هذا المتلهف على توفير المال السعي لدى أصحابه من التجار الذين قاطعوه ، جاءهم ، هذه المرة ، مبدياً الإستعداد لتوقيع صكوك تضمن لهم استرداد الدين القديم والدين الجديد المطلوب والفوائد المترتبة عليهما . فلم يقابل الجدّ لدى هؤلاء التجار بأحسن مما قوبل به لدى مدراء البنوك . ومن هؤلاء التجار من سخر من الجد صراحة . والمشفق عليه من بينهم نصحه بأن يتواضع ويقبل بما كتبه الله عليه ويسعى للعمل كأجير في دكان أو حارس لمشروع او ساعٍ في مؤسسة ، اسوة بما انتهى اليه الكثير من اللاجئين امثاله .

في هذا الوقت ، تعرّف جدّي على صاحبه الطيراوي . وكان أبو دية قد باشر حمل سلة البيض على ذراعه مقطوعة اليد والدوران على المنازل لاقتناص القروش التي تقيم الأود . وأظهر أبو دية الطيب استعداده لإشراك الجدّ في تجارته المتجولة . لكن الجدّ قابل هذا العرض بالإباء الشديد ، وبقي يحلم بتحقيق مشروع كبير ، حتى بعد أن أدرك أن الواقع لا يسعفه .

هذا كله . والكثير مما يماثله ، وما ارتبط به من متاعب ، أحدث في شخصية الجدّ تبدلات كبيرة . والحاصل أن الرجل صار أميل الى السلبي ، بل صار ، في عدد غير قليل من الحالات ، سلبياً تماماً . فقد الجدّ الثقة بالناس ، وصار لا ينتظر من أي صاحب يعرفه إلا الغدر أو عدم الوفاء . واكتسى مزاج الجدّ بعصبية ظاهرة جعلته أقرب الى العدوانية ، فهو سريع ردّ الفعل ، قابل للانفجار إزاء أي استفزاز مهما ضؤل . وصار الميل الى السخرية عند الجدّ مؤشراً فصيحاً على عمق الإحساس بالخيبة ،

فهو يستهين بالناس والاشياء ، لا يعجبه أحد ولا يرضيه ما يرضى به سواه . واذا أظهر أحد سلوكاً مُرضياً أو برز شيء مفيد ، عدّ الجدّ ذلك أمراً مؤقتاً ، ونسبه في الاغلب الى دوافع شريرة خفيّة ، وراح يؤكد على أن الخفيّ لا بدّ أن يظهر في وقت من الأوقات . وما كان الجدّ يتمتع بقليل من الهدوء إلا في الأوقات التي ينصرف فيها بكلّيته لحل مشكلة من المشاكل التي تواجهها الأسرة . كان الاستغراق في حلّ المشاكل يستنفذ الطاقة الحبيسة ويمتص عدوانيتها . أما فيما عدا ذلك من أوقات ، فالجد إما متذمر من شيء أو ساخط على أحد أو مستسلم للكآبة . وتحتفظ ذاكرتي ، الى الان ، برجز كان الجدّ يردده كلما ضاقت به الاحوال ، او يؤديه مغنىً بصوت مفجوع :

« كثير من الخلاّن بقى يقول لي/ أنا لك ، أنا لك ، والزمان طويل ،/ وعند قصار اليد ما لقيت صاحب ، /ألوج بالجفنين ألقى الصديق قليل » .

ولأن من طبيعة الحياة أن تفتح أقنية للتعويض ، فقد وجد الجدّ التعويض في منحيين : الإمعان في التديّن ، والمفاخرة بما توفر له من عزّ في حياته السابقة في البلاد التي اقصي عنها .

صار الجدّ ممارساً مواظباً للشعائر الدينية ، يؤدي الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها كل يوم ، ويضيف اليها صلوات السنّة ويتحرى المناسبات ليؤدي النوافل ، ويحرص على الصيام وآدابه . وخالطت أحاديث الجدّ العادية فقرات متزايدة مقتبسة من القرآن والحديث النبوي والمأثورات المنسوبة الى السلف الصالح . وصار الجدّ لا يتحدث عن شيء يقوم به إلا سعى لتسويغه بدعم مسلكه بآية أو حديث أو قول مأثور ، مما يحث على هذا المسلك . فإذا عطف الجدّ على أحد ، استشهد بالنصوص الدينية التي تأمر بالتعاطف مع المحتاجين ، وإذا تقارع مع شخص أو أنبه ، استشهد بالنصوص التي تبيح معاقبة المخطئين : زيارة قريب صلة رحم أمر بها الله ورسوله ؛ وعيادة مريض توادٌ بين المؤمنين أوجبه الشرع ؛ والعراك مع بائع يغش في السعر نهيٌ عن المنكر ؛ الوفاء واجب ديني ، والعجز عن الوفاء مسموح به لأن الله لا يكلف نفساً الا وسعها . غير أن هذا الإمعان

في التدين لم يمتزج بأية مسحة صوفية من أي نوع أو درجة . وقد بقي الجدّ ، حتى وهو يستهدي بتعلمات الدين على هذا النحو ، ذلك الانسان العملي ، وإن لم يبق له الكثير مما يعمله . وتجلت عملية الجدّ في اسلوبه الخاص به في تفسير التعليمات الدينية وايراد اجتهادات تطوع هذه التعليمات لما يلائم وضعه هو ويوفر له راحة الضمير ويعوضه عن الإحساس بالقصور والعجز . وباسلوبه هذا ، لم يكن الجدّ على وفاق مع رجال الدين ، حفظة النصوص الموروثة الذين يعظون الناس بما اجتهد به سواهم في الزمن السالف . وكثيراً ما تقارع الجدّ مع من يقع في طريقه من رجال الدين وأوغل معهم في مماحكات تنتهي ، عادة ، بتعميق الفجوة بينه وبينهم . ولما لم يكن في سلوك الجدّ ما يبيح لهؤلاء أن يتهموه في دينه ، فقد أثر معظمهم أن يداريه ويتجنب الاحتكاك به . هنا ، صار الجد هو الذي يتحرش بالوعاظ ، خصوصاً منهم اولئك الذين يضيق بهم لسبب او لآخر .

ومن هؤلاء الذين تعرضوا لسخط الجدّ ، أتذكر واحداً كان وقتها فتى يتهيأ للتخرج من الثانوية الشرعية ويتعجل الحصول على وظيفة واعظ ، فيجيء إلى الجامع الأموي ليمارس الوعظ لحسابه الخاص ، مؤملاً ، على ما يبدو ، أن يفرض نفسه في هذا المجال او أن يحصل على شيء من التمرين . كان للوعاظ الرسميين أوقات معينة يمارسون فيها الوعظ . تحددها إدارة الاوقاف التي تشغلهم وتدفع أجورهم . وقد برز بجانب هؤلاء عدد من الوعاظ غير المعينين . يجيء بعض هؤلاء للوعظ بدافع ديني ولا يبغون من وراء ذلك سوى حسن السمعة وثواب الرب . ويجيء اخرون بدافع الاسترزاق فيحصلون على الهبات من المستمعين . واذا كان الوعاظ المعينون هم من رجال الدين المعترف لهم بالفضل والمكانة اللائقة ، فإن الوعاظ الآخرين يضمون خليطاً من الفضلاء ومدعي الفضل ، من التقاة والمنافقين ، العالمين بشؤون الدين ومدعي العلم . وقد عدّ جدّي الواعظ الفتى بين النصابين . التقط الجدّ اشاعة أحاطت بهذا الفتى فتحدثت عن علاقة جنسية شاذة له في المدرسة ، ولقيت الإشاعة هوى في نفس الجدّ

فصدقها . وقد تصادف أن اختار الفتى ، لممارسة وعظه ، موقعاً قريباً من الموقع الذي يعقد فيه جدّي مجلسه اليومي . وكان هذا الفتى غضاً في كل شيء في سنّه وتقواه وعلمه ، الا في شيء واحد هو صوته ، فهو يجلجل جلجلة تملأ تلك الناحية من الجامع بالضجيج . وكان هذا ، بالذات ، هو ما ضاق به الجدّ اكثر من أي شيء آخر في سلوك الفتى ، لأن ضجيج الواعظ كان يشوش أحاديث المجلس ويثير الاعصاب .

وفي البداية ، أرسل جدي للواعظ المستجدّ من يرجوه بأن يخفف من ضجيجه . ثم تحدث الجدّ ، بنفسه ، مع الفتى في هذا الشأن ، وسند حديثه باجتهاده الديني مذكراً الواعظ بأن خفوت الصوت من علائم الايمان الصحيح . وفي مرة ، طفح فيها كيل الجدّ بمقدار ما طفح الضجيج ، انتهر الجدّ الواعظ صراحة ، وزعق فيه : « أنت تهرف بما لا تعرف » . ويبدو أن الفتى كان هياباً أو أنه كان تلقى التحذير المناسب ممن اشتبك جدي معهم من قبل ، فقد ابتلع الاهانة بأن تجاهلها ، لكنه استمر في وعظه . ويبدو أن الجدّ اكتفى في تلك المرة بما فعله بالواعظ ، مؤملاً أن يستخلص الواعظ العبرة في المستقبل . فلما لم يتبدل شيء في سلوك الواعظ ، غير الجدّ تكتيكه في التضييق عليه ، فكان يرسل اليه من يستفتيه في مسائل معقدة ، فيتلجلج الواعظ الغض او يقدم إجابة خاطئة . فيتدخل الجدّ ويزعق فيه : « كفاك افتاء بما لا تعلم » . وكان هذا بين عقوبات الجدّ للواعظ أشدها تأثيراً لأنه يحرم الواعظ من المهابة التي يريدها لنفسه ازاء المستمعين .

في نهاية المطاف ، استسلم الفتى ، فاستبدل الوقت الذي يتزامن فيه وعظه مع وجود الجدّ في الجامع ، بوقت آخر . وكان ، أيضاً أن استراح الاثنان ، وربما نسي كل منهما وجود الآخر . فلما حل شهر رمضان ، حين يتزايد عدد الوعاظ المعينين وغير المعينين في الجامع ، لم يجد الفتى وقتاً شاغراً يجنبه مواجهة جدّي ، فظهر ، ثانية ، عند العامود ذاته القريب من مجلس هذا الجد . كان الجامع يكتظ بالزوار في هذا الشهر . ولأن اكثر من واعظ واحد كان يتحدث في الوقت ذاته فيحتشد الجامع

بالضجيج ، وجد الواعظ المسكين نفسه مرغماً على رفع طبقة صوته ، زيادة على ارتفاعها المألوف . وكان من شأن هذا ، بالطبع ، أن يستفز جدي الذي يشتد توفز أعصابه مع الصيام ، زيادة على ما هي متوفزة في العادة . ولم يعد بإمكان أي تصبّر أو تعقّل أن يلجم سخط جدّي . وفي هذه المرة ، اختار جدّي المجابهة المباشرة ، فلم يزعق من بعيد ، ولم يرسل أحداً لاحراج الواعظ ، بل ذهب اليه بنفسه .

قال الجدّ ، مثيراً دهشة الحاضرين وفارضاً الصمت والترقب على الحلقة المحيطة بالواعظ : « ليلة البارحة ، أدى رجل من أصحابي صلاة العشاء في داره ، وكان متعباً بعد صيام اليوم الاول ، فتكاسل عن أداء صلاة التراويح ، وجلس ليستريح ، فيما انصرفت زوجته للصلاة . وقد راقب الرجل الزوجة ، وهي تقوم وتقعد ، في الركوع والسجود ، فثارت شهوته ، ولم يتمالك نفسه ، فأرغم زوجته على التوقف عن متابعة صلاتها ، وجامعها . فهل أثم الرجل؟» . طرح الجدّ مسألة شيقة فأثار فضول الجمهور لمعرفة الاجابة . ولكن الإفتاء في مسألة كهذه كان صعباً على طالب في الثانوية الشرعية . والذي حدث هو ما توقعه جدّي حين اعدّ هذا الفخ للواعظ الغرير . فقد تعجل الفتى بتأثيم الزوج . وهنا ، تصدي جدّي للواعظ بما حضره من حجج مسبقة . وكان الجدّ ، كما بدا لمستمعيه ، واثقاً من صواب حججه ، وقد خاطب مناظره بلهجة مستخفّة ، وتقصد ان يبيّن للمستمعين أن واعظهم جاهل . ولم يكن صعباً على الجدّ أن يكسب المستمعين . ولا بدّ أنك حزرت السبب ، فكل هؤلاء من الذكور . وبعد هذه الواقعة ، التي صارت لها في محيط الجامع شهرة الفضيحة ، لم يظهر الواعظ الفتى في تلك الناحية من الجامع .

أما اعتزاز جدّي بما تيسر له في حياته السابقة في فلسطين ، فقد تجلى في الحكايات التي لا يملّ من تكرارها . اختزنت ذاكرة الجد ، بالطبع ، الكثير من الذكريات . فلما تبدلت الاحوال ، راح يغرف من خزين الذاكرة حكاية تلو اخرى ، عن القرية وناسها وعلاقاتها ، عن الجهاد ووقائعه وأحواله ، عن العادات والتقاليد ، وعن نشاطاته ، هو نفسه ، في

اطار ذلك كلّه . وفي حالات كثيرة ، خصوصاً حين يكون الدافع هو تأكيد الذات التي تعرضها الغربة للضياع ، اتخذت تعبيرات الجدّ عن تلك الحياة اشكالاً شديدة التطرف . وقد انتهى جدّي الى التأكيد على أن فلسطين هي أطهر بقعة في الارض وأهم بلد بين بلدان العالم ، وان المسمية ، وليس أي قرية أخرى ، هي أهم القرى وانشطها ، وان عائلة الحوراني هي أهم العوائل ، وحمولة آل سلمان هي أهم الحمائل . وجزم الجدّ بأن ماء فلسطين هو الاعذب من أي ماء آخر في الدنيا ، وهواءها هو الانقى وتربتها هي الأخصب وتمرها هو الأطيب . وكان حماس الجدّ يتجاوز أي مألوف حين يحاججه أحد في صحة واقعة أو صواب تأكيد من تأكيداته ، فيندفع الجدّ في تقديم البراهين برواية وقائع جديدة أو تأكيدات جديدة يضيفها الى التأكيدات السابقة . وقد شاعت عن الجدّ حكاية كررها غيره فتبنى البعض فحواها وتندر به البعض الآخر . فقد روى الجدّ انه استفتى أحد علماء الدين الكبار في القدس عن مدلول الآية القرآنية التي ترد في مستهل سورة الإسراء في القرآن الكريم والتي تذكر أن الله بارك المسجد الأقصى وما حوله ، وطلب من هذا العالم أن يبين له حدود الأرض التي شملها الله بالبركة . وقال الجدّ إن العالم الذي لا يشك أحد في فضله وتقواه وتبحره في علم تفسير القرآن جزم بأن ما تشمله البركة يضم « أرض فلسطين الكاملة كما تبينها خريطة الانتداب البريطاني ، لا تنقص شبراً ولا تزيد شبراً » . وهكذا ، لم يشأ الجدّ ، أو عالمه صاحب الفتوى ، أن يحصر البركة في فلسطين وحدها ، فحسب ، بل شاء ، أيضاً ، أن يحرم أية بقعة أخرى من البركة . ولتأكيد مضمون الفتوى ، يستطرد الجدّ فيذكر أن كل شيء داخل فلسطين مختلف عنه خارجها ، ينطبق ذلك حتى على مذاق الاشياء ، فالفاكهة التي يأكلها الناس هنا تعدّ « تفلة » اذا قورنت بفاكهة فلسطين ، والخضار ، وكل شيء آخر . ويحكي الجد لمستمعيه عن القمح الذي كان يزرعه في أرضه في المسمية الصغيرة ، فتطاول سنابله هامات الرجال طويلي القامة ، والبطيخ الذي تزن الواحده منه خمسة ارطال او ستة ، اي ما يزيد عن خمسة عشر كيلو غراماً ، ويكون لحلاوته مذاق العسل المشفى .

وفي جلساته معنا في المنزل ، حيث تتكرر الحكاية ذاتها وتغتني وقائعها بأسماء الناس والأماكن ، وبالأنساب والمزايا ، كان الجد يمعن في رواية التفاصيل ، ويتعمد أن ينقل الى علمنا ما عرفه عن كل فرد من الناس ، ويجتهد كي يقنعنا بمزايا أو مثالب الآخرين ، وذلك كي يساعدنا على معرفة سبل التعامل الصحيح مع كل واحد منهم حين نعود إلى البلاد ويتوجب علينا أن نعيش معهم : « احذرو فلاناً فهو غدار » . أو « لا تنسوا فلاناً فهو إنسان وفيّ وهو محبّ لآل سلمان » . بهذه ، أو بما يشبهها من العبارات ، يبدأ الجدّ حديثه عن شخص بعينه ، ثم يشرح الوقائع التي تسوغ الحذر منه او الثقة به .

غنيّ عن البيان أن توجيهات الجدّ لم تصر لها فائدة عملية . فنحن ، كما تعرف ، لم نعد الى المسمية الصغيرة ، ولم نلتق بمعظم الذين حدثنا الجدّ عنهم . والفائدة الحقيقية لحكايات الجدّ ، زيادة على طرافتها ، تجلت في انها ابقت الوطن ، بما هو ناس مشخّصون واماكن ماثلة وعلاقات ملموسة ، حاضراً في أذهاننا . وقد قدمت لنا حكايات جدي الارضية الصلبة التي توطدت عليها مشاعرنا الوطنية . لقد نجم عن هذه الحكايات أن الوطن الذي أخرجنا منه ، خرج معنا الى المنفى فعشنا سويّة . وأضاف الجد الى هذا قناعة ترسخت عنده وما كان بمقدور أي شيء ان يزعزعها ، وهي أن اهل البلاد المسلوبة عائدون اليها لا محالة ، أما حقوقهم في بلادهم فثابتة ثبات الارض التي لا يستطيع أي ظلم ان يُهجرها او ينقلها من مكانها . وكان الجدّ يحفظ في أعزّ مكان في المنزل ، في علبة معدنية ثمينة ومهيبة ، وثائق الطابو التي تثبت ملكيته للدار والحقول التي خلفها في المسمية الصغيرة ، والأوراق التي تبين علاقته ببنك باركلز في يافا وما شابه من وثائق اخرى لم أعد أتذكرها . وحين يأخذه الحماس وهو يتحدث عن الحقوق التي لا تضيع ، كان الجدّ يفرد وثائقه أمامنا ويصر على أن نرى بأم أعيننا ما هو مثبت فيها من حقائق . والمدهش أن علبة الجد حوت ورقة الطابو العائدة لي التي تثبت ملكية الارض التي ورثتها عن أبي ، وكان يريني اياها ويقول : « هي لك ، أمانة عندي ، تأخذها حين تكبر» .

لم يلحق التبدل في الغربة بشخصية الجدّ وحده ، فأم عدنان ، زوجته ، تبدل الكثير من حالها ، أيضاً . وتعرف أنت أن هذه المرأة كانت قد انتقلت ، وهي بعد فتاة غريرة ، من مدينتها دمشق الى قريتنا الصغيرة في فلسطين ، وقد نمت جسداً وروحاً ، وتوزعت معالم شخصيتها بين تأثيرات ما اكتسبته في المدينة وما استجد عليها في القرية ، بين الحياة المستقرة في أسرة مدينية محافظة يرعاها تاجر صغير مستقر الاحوال ، والحياة المضطربة مع أسرة ريفية كبيرة كثيرة المشاغل متقلبة الاحوال ومتنوعة الامزجة . وها هي ام عدنان قد عادت لتعيش ، مرة اخرى ، في مدينتها الأولى ، ولكنها لم تعد الفتاة الغريرة ولا استعادت أجواء الأسرة المستقرة . صحيح أنها عادت الى دمشق سيدة تامة النضج مسلحة بالخبرة ، غير ان الكارثة التي عصفت بالجميع تركت بصماتها على حياة ام عدنان العائدة الى مسقط رأسها . وما كان لهذا أن يحدث دون أن يوقع البلبلة في شخصية المرأة التي غدت أماً لعدد من الاطفال وهي لم تكمل بعد منتصف العقد الثالث من عمرها . استعادت ام عدنان ، في دمشق ، الوضع الذي انشئت من أجله في الاساس ، كربّة منزل تقليدية في وسط دمشقي محافظ . ولم تتوقف عن انجاب المزيد من الاطفال حتى بلغ مجموع الذين ولدتهم قبل الهجرة وبعدها ستة . وكان من شأن هذا أن يسعد المرأة لو تم في ظروف ملائمة . لكن وضع الاسرة كلها ، ووضع المرأة داخل هذه الاسرة ، لم يبيحا لأم عدنان أن تتمتع بالحياة المنتظمة التي تتطلع إليها . فوجود أولاد الضرة . ثم الضرّة ذاتها ، وافتقار الوافدين من الريف الى المدينة الى تقاليد العيش واداب السلوك المدينية ، وفقر الأسرة ، وافتقار الزوج للموارد التي تعزز سلطته كرب للأسرة ، كل هذا كان من المنغصات التي أوجبت على أم عدنان أن تدخل في صراعات متصلة لتحقق التواؤم بين الطموح والواقع . كانت الهجرة بالنسبة لأم عدنان انقلاباً ، أو شيئاً يشبه حالة من ألف أن يمشي على يديه سنوات طويلة ، ثم اعيد فجأة الى الوضع الطبيعي وتهيأ له أن يمشي على قدميه . في المسمية الصغيرة ، كانت أم عدنان سيدة الدار ، دون أن يفرض عليها

الاحتفاظ بالسيادة أن تمسّ حقوق الأخرين . فربّ الدار الذي يدعم امرأته الجديدة ويؤثرها على غيرها كان قوياً ، والموارد كانت وافرة . وهنا ، في دمشق بقيت لأم عدنان وظيفة سيدة الدار ، إلا أنها وظيفة قليلة المقومات ، ومنقوصة السلطة . وما عاد بمقدور أم عدنان ان تحظى بشيء خاص بها او باولادها ، دون أن تمس حقوق الاخرين وحاجاتهم . اختلّ التوازن الذي طبع العلاقات في دار المسمية الصغيرة ، وصار من الصعب ، هنا ، إقامة توازن جديد . وقد اشتد الخلل منذ انضممنا ، نحن الذين انضممنا إلى الاسرة مؤخراً ، إلى العدد الكبير الذي يتقاسم الامكانيات القليلة . فأثر ذلك تأثيراً بيناً على توازن ام عدنان النفسي وأسلمها لحالة من التوتر الدائم وانعكس في مظاهر سلوكها كله ، فصارت ، كما يصح وصفها بإيجاز ، سيدة سريعة العطب . صار بامكان اي شيء ، قول ، أو حركة ، او حتى نأمة ، أن يخرج ام عدنان عن طورها ويدفعها الى المشاحنة ، ثم صار عليها ، وقد أدركت ذلك بالخبرة ، أن تصطنع الثورة ، إذا شاءت أن تفرض رأياً وسط تزاحم أصحاب الرأي في الأسرة ، أو تظفر بشيء وسط الصراع على ماهو متوفر من اشياء قليلة .

وتفاقم الأمر بسبب موقف جدتي مدللة المتشدد . فقد أبت الجدّة أن تعدّ عودتها إلى الأسرة فاتحة لصفحة جديدة أو أن تنسى الماضي الذي الجأها الى الإعتزال . وكان من شأن هذا ، لو تم ، أن يوفر للجدّة مكانة الزوجة الأولى في الأسر المماثلة وأن تتوازن الامور على نحو أو آخر ، في الأسرة . إلا أن جدتي تصرفت ، بعد انضمامها الإجباري الى الاسرة من جديد ، على أساس أن الوضع طارىء ولا بدّ له من أن يتبدل ، فسلكت على نحو يجعلها أقرب الى الضيف ، وأبت ان تضطلع بأية مهمة عرضت عليها ، ولم تندب هي نفسها لأية مهمة ، وراحت تترقب الفرص التي تمكنها من تبديل الوضع كله . ولو أن وضع الأسرة كان عادياً لأراح موقف جدتي ضرتها أم عدنان وأطلق يدها في شؤون المنزل لتديره كما تشاء . إلا أن ام عدنان لم تكن قليلة الذكاء ولا قصيرة النظر لتستريح في وضع كهذا ، فهي تدرك أن سيادتها لا تتعزز إلا في ظل سيادة الزوج . وحين

ترفض الجدّة أن تظهر أي اشارة ولاء للزوج ، فإنها لا تنتقص من سيادته فحسب ، بل تؤكد على أن وضع الأسرة الجديد يسمح لها بذلك ، أيضاً. وتوجب على ام عدنان أن تظل قلقة طيلة الوقت ، إذ أنها خشيت أن يحتذي أولاد الجدّة بأمهم فينتهوا إلى الاستخفاف بابيهم والتمرد على سلطته . صحيح أن سلبية الجدّة لم تصل الى حد إعلان الحرب بين فريقيّ الاسرة ، إلا أنها انطوت على نذر خطيرة وصار من الممكن أن تقع الحرب في أي وقت ، فصار لا بدّ لأم عدنان من الاستعداد . ومن جانبها ، عرفت الجدّة أن أحوال الاسرة لا تبيح لها أن تطلب الكثير مما يميزها هي واولادها عن الضرة وأولادها ، لكنها راهنت على المستقبل ، وأدركت أن التبدل المرتقب ، حين يتأكد أن اولادها هم ممولو الاسرة وعمادها ، سوف يهيء الفرصة . وتسلحت الجدّة بالصبر الذي نمته في روحها خلال سنوات طويلة ، وراحت ترقب الامور بترو ، تتغافل عن الاستفزازات الصغيرة ، محتفظة بتطلعها إلى الهدف الكبير . وكان هذا ، بالذات ، هو أكثر ما يبلبل أم عدنان ويثير القلق في أعماقها .

هذا الوضع المعقد ، بما يشتمل عليه من نوايا متباينة ومخاوف متبادلة ونوازع للإحتكاك أو ضوابط له ، أحاط الأسرة بجو ثقيل . وقد انعكست تأثيرات هذا الجو على الجميع ، دون استثناء وتجلت ، بصور مباشرة او غير مباشرة ، في كل شيء . ولكي تفهم ما اعنيه على نحو سديد ، وحتى لا أضطر إلى تقديم شروح طويلة ، سأقدم لك مثلاً ملموساً مما واجهناه داخل الاسرة .

لقد توجب على الأسرة أن تبتّ بمسألة الزي الذي يتخذه أعضاؤها في المدينة . كان الأمر قد بتّ . قبل مجيئنا ، بالنسبة للجد وزوجته . فقد احتفظ الجدّ بزيه المألوف ، وكان هذا مقبولاً بالنسبة لمن هم في سنّه حتى في المدينة . واحتفظت أم عدنان بزيّها الدمشقي ، هي التي لم تتخلّ عنه حتى حين كانت في القرية . أما الاولاد الصغار فقد اتخذوا الزي الذي يستخدمه تلاميذ المدارس في المدينة والريف . وكل ما في الامر أن الجلابيب التي كانت تكسو أبدان الصغار في غير اوقات الدراسة

اختفت ، ولم يثر هذا أي مشكلة . وعندما وفدنا ، نحن ، انطبق على غالب وعليّ ما انطبق على الصغار الآخرين ، واستمر عمر ، ومثله نافذ ، في الزيّ المديني ، هما اللذان الفا استخدام هذا الزي منذ أيام دراستهما في القدس وطولكرم . اما المشكلة فبرزت حين تعلق الأمر بجدتي وخالتي شفيقة . لقد قدمت الاثنتان إلى دمشق وهما تلبسان الزي الفلسطيني الريفي : الثوب المطرز والغدفة ، أو الحطة البيضاء ، التي تغطي شعر الرأس وتنسدل خلفه ، دون ان تحجب الوجه . وقد أثارت أم عدنان مسألة الزي الملائم للمدينة بالنسبة للجدّة والخالة . فعلت الضرة ذلك بكثير من التأدب المدروس ، لكن بما يشي برغبتها في تبديل الزي حتى لا تبدو المرأتان شاذتين في الحيّ الذي تسكنه أسر محافظة وتحجب فيه وجوه النساء بالمناديل . هنا ، أظهرت الجدّة ، على نحو لايدع مجالاً لأي لبس أو نقاش ، أنها عازمة على الإحتفاظ بزيّها الأثير : « لا أتخل عن أصلي ، حتى لو تخلى عنه غيري » . ولم يجرؤ احد على مناقشة الجدّة في قرارها الحازم هذا . وتركز الجدل ، بعد ذلك ، حول زي الخالة ، وكانت المشكلة معها مضاعفة . فقد غدت شفيقة صبية تدرج نحو عامها الخامس عشر وتلوح في وجهها معالم الانوثة السافرة . وكان من رأي أم عدنان ان الوقت قد حان لحجب وجه شفيقة ، فضلاً عن إلزامها بالزي المديني الذي يستر الجسد ويخفي مفاتنه . وإذ لم تكن الخاله راغبة في التحجب ، فقد اعترضت . واستخدمت الخالة الحجة ذاتها التي استخدمتها الجدّة : « نتبع هنا ما يتبعه الناس في بلادنا » . ولكن أم عدنان الحريصة على تأكيد سلطتها والمتخوفة من رد فعل الجيران إزاء ظهور صبية الاسرة بوجه سافر ، تشبثت بضرورة إلزام الصبيّة بالملاءة الشامية والحجاب . وقد بدا ، للوهلة الاولى ، أن هذه المواجهة دائرة بين أم عدنان وشفيقة ، أما في الواقع ، فقد وجب على كل واحد في الاسرة أن يتخذ موقفاً بشأنها . ولأن الصبية ليست ابنة ام عدنان وليست خاضعة ، بالتالي ، لسلطتها المباشرة ، فقد صبت أم عدنان ضغوطها على الجدّ ليستخدم سلطته الأبوية في هذا المجال . وتوزعت مشاعر الجد ، فقد كان بحاجة لمداراة

زوجته ومراعاة المحيط المحافظ ، ولكنه تهيب من إلزام ابنته ومن يناصرها من أعضاء الأسرة بما لا يحبذونه . ولعلّ الجدّ خشي أن يتخذ قراراً حاسماً ، فيعرض سلطته للإمتهان حين يرفضه هذا أو ذاك من فريقي الاسرة .

وأتذكر مرة احتدم فيها الجدل حول هذه المسألة ، وتطلعت عيون أم عدنان وشفيقة ، كلتيهما ، ناحية الجدّ الذي حاصرته النظرات المطالبة بقرار باتّ . فقال الجدّ : « لم نسمع رأي ام نافذ ، فهي ، على كل حال ، أم البنت ؟ » . وبهذا ، رمى الجدّ الكرة ناحية الجدة . إلا ان المرأة ، المنطوية على آرائها ونواياها الخاصة ، لم تؤخذ بالرمية . وبترو مثير للدهشة ، وجهت الجدّة خطابها لابنتها ، وليس للجدّ الذي طرح السؤال ، وقالت بنبرة حمالة أوجة متعددة : « لك يا شفيقة أب ، واخوة كبار ، ولهم الأمر » . وهكذا ، ردت الجدّة الكرة ناحية الاخرين . وخصوصاً الجدّ ، وعرضت ، ضمناً ، بموقف ام عدنان التي تتدخل في ما لا يخصها . عندها ، صمت الجدّ صمتاً يشي بارتباكه . أما أم عدنان التي التقطت ما يخصها في رد الجدّة ، فلم تشأ أن تسلم الراية ، بل هتفت مستثارة : « الآن نحن في الشام ، ولسنا في مزابل المسمية » . وكان في هذه العبارة تعريض أقسى من ان يبتلعه أحد ، فهتف نافذ محنقاً : « هذا عيب » ، وعقبت الجدّة ، كأنها تتم عبارة نافذ : « اغفر يا رب لمن ينكر نعمتك ! كانت المسمية خيراً طم القريب والغريب ، والان صارت مزابل!» . ثم وجهت الجدّة ناحية ضرتها نظرة فصيحة ، وقالت : « استغفري ربّك يا إمرأة ، إن كان لك ربّ تؤمنين به ! » . أما الجدّ فراح يردد : « استهدوا بالله ، يا جماعة !» . دون ان يبدو أنه ، هو نفسه ، اهتدى الى حل . وكان حنق ام عدنان قد افقدها السيطرة على نفسها ، فامعنت في الاستثارة : « اكرمهم الله بالمجيء الى المدينة ، ويريدون أن يظلوا فلاحين» . هنا انفجر عمـــر الهاديء في العادة : « ضبّي لسانك واكفينا شرك ! » . وعقب نافذ : « امرأة وقحة » . فاعولت أم عدنان ، وصرخت ، وبكت ، ونشجت وقرعت الجدّ ، في آن واحد .

واختلط حابل الحركات المعبرة عن الاستياء بنابل الشتائم . واشتبك الجدّ مع زوجته فراحا يتبادلان اقذع العبارات ، فيما غادر نافذ المجلس وتبعه عمر ، واحتفظت الجدّة بصمتها الاريب .

مثل هذا المشهد اخذ يتكرر ، لسبب او لغيره ، فيسمم جوّ المنزل وتتسمم به حياتنا .

٤ الفقر والعاهة وحساسية الغربة

في جو كهذا الجو ، بدت المدرسة مكاناً للراحة ، حيث اقضي سحابة النهار بعيداً عن المشاكل التي يكتظ بها جوّ الاسرة . وبالذهاب الى المدرسة ، تجددت تلك المشاعر التي يختلط فيها التوق الى التعلم مع التمتع بفرص المنافسة والتعرف على ناس جدد وأشياء جديدة.

احتفظت بعادة النهوض مبكراً ، يوقظني الجدّ ، كما يفعل بالآخرين ، عندما يؤدي صلاة الفجر ؛ ثم أتوجه مع الجدّ الى سوق الهال ، في عدد من ايام الاسبوع ، او اذهب الى شارع الامين ، في الايام الاخرى ، لجلب الحليب الذي يوزعونه على اللاجئين ؛ وأعود ، بعد هذا أو ذاك ، الى المنزل ، حيث يكون الفطور معداً ، فأتناول ما تيسر ، وابدأ ذلك المشوار الطويل باتجاه المدرسة.

وكان المشوار طويلاً ، حقاً ، فالمدرسة تقع في آخر سوق ساروجة ، أبعد من سوق الهال عن الحيّ الذي نسكن فيه . وما كان الوضع يسمح

بالتفكير في استخدام المواصلات العامة . فكان عليّ ، اذاً ، أن اقطع المسافة الطويلة ماشياً ، في الذهاب والاياب ، في أيام المطر وأيام الجفاف ، في البرد والحرّ . وفي الايام الأولى من العام المدرسيّ ، كنت أقطع هذا المشوار برفقة غالب ، فاضطر للاصغاء الى ثرثرات غالب ودسائسه ومحاولاته استدراجي الى الألاعيب التي يمارسها في المنزل بين فريقي الاسرة ، وكان هذا يؤذيني ويثير قرفي فينفرني من الخال الذي يجايلني .

فلما صار لي معارف من أبناء الحيّ ممن يذهبون الى المدرسة ذاتها أو إلى واحدة من المدارس التي تجاورها ، استغنيت عن رفقة غالب ، وقد افهمته بكلام فصيح أني لا أطيق هذه الرفقة . وبرفقة الأصحاب الجدد ، صارت للمشوار اليومي متعته الخاصة في الذهاب والاياب .

أما المدرسة ذاتها ، فكانت عالماً يحسن بي أن اصفه لك . انشئت الثانوية الاهلية مع توسع الاتجاه الى التعلم في المدن السورية ، وخصوصاً في العاصمة ، وذلك بعد أن ظفرت البلاد باستقلالها ، وضاقت مدارس الدولة عن استيعاب الأعداد المتزايدة من الراغبين في التعلم . أنشأ هذه المدرسة رجل قدم من قرية مرمريتا ، هو سليم اليازجي . فإن كنت من المطلعين على التاريخ الحديث لسوريا ولبنان فستعرف أن العائلة التي تحمل هذا الاسم قدّمت لميادين الثقافة والعلوم وحركة التنوير المعاصر عدداً من فرسانها المشاهير . وعلي أن أقول إن الاستاذ سليم ذاته لم يأت معدوداً بين هؤلاء . فهو رجل متواضع العلم والثقافة ، الا انه كان شديد الاعتزاز بانتمائه للعائلة المشهورة ؛ وقد عكس إقدامه على المغامرة بفتح المدرسة واجتهاده المتواصل لأن تصير مدرسة كبيرة رغبته في مجاراة الرجال العظام من أبناء عائلته . وكان الرجل حريصاً على أن يظهر انتماءه لهذه العائلة في أية مناسبة ، فهو ، مثلاً ، يشدد على لقبه العائلي حين يقدم نفسه لاي قادم جديد ، وهو يضع في مكان بارز ، في خزانة جدارية تقوم وراء مكتبه مباشرة ، كتب المؤلفين من آل اليازجي ، وقد غلفت بأغلفة سميكة ، وبرزت اسماؤهم عليها بحروف نافرة .

وشاع في الوسط المدرسيّ في دمشق ان الثانوية الاهلية انشئت بدعم

من الحزب السوري القومي الاجتماعي . وكنّا ، نحن التلاميذ ، بمن في ذلك صغارنا ، نسمع الاشاعة ونهتم بها ، ويدفعنا فضول خاص لتفحص صوابها من كذبها . فكنّا نلاحظ ، مثلاً ، أن نسبة ظاهرة من المعلمين في المدرسة هم من المنتمين لهذا الحزب او انصاره ، وانهم من النشطاء الذين يروجون لمباديء الحزب بين تلاميذ المدرسة . غير ان هذه الملاحظة لم تكن كافية للتيقن من صدق الاشاعة . فقد وجد في المدرسة معلمون ينتمون للاحزاب الاخرى ، او يناصرونها ، بعثيون وشيوعيون ، واخوان مسلمون . والاستاذ سليم ، وهو رجل جمّ النشاط كثير الاحتكاك بالتلاميذ ، لم يظهر في اقواله ولا في سلوكه ما يشي بانحيازه للحزب القومي السوري الاجتماعي . كان الاستاذ سليم حريصاً ، حرصاً ظاهراً ، على تنمية النشاطات الوطنية في مدرسته ، وكانت هذه النشاطات مفتوحة لمساهمات كل راغب فيها ، تلميذاً أو معلماً ، أياً كان الاتجاه السياسي الذي ينتمي اليه ، وهكذا . بقيت الاشاعة في حدود الاشاعة التي قد تغذيها حساسيات هذا الطرف او ذاك ، دون أن ترتقي الى مرتبة اليقين ، في أي وقت من الاوقات .

ومهما يكن من أمر ، فإن مؤسس المدرسة ومديرها النشيط ، ابدى ترحيباً خاصاً باستقبال التلاميذ من أبناء اللاجئين الفلسطينيين . حتى ليصح القول إن الاستاذ سليم كان يحابي الفلسطينيين ، مع التذكير بأن محاباته لهم تعدّ مكرمة كبيرة ، بكل المقاييس . وقد اشتهر ذلك عن المدرسة فزادت نسبة التلاميذ الفلسطينيين فيها زيادة ملحوظة . وكان الرجل ، الى جانب محاباته للفلسطينيين في المعاملة ، يوفر لهم سبل الاهتمام بقضيتهم الوطنية ويحرضهم على التمسك بحقوقهم في الوطن المسلوب ويحثهم على النضال من أجل هذه الحقوق .

والثانوية الاهلية كانت قد غدت ، حين انتسبت اليها ، مدرسة كبيرة تضم صفوف التعليم في مراحله الثلاث : الابتدائية ، والاعدادية ، والثانوية ، بل تضم شعباً متعددة من كل صف . وقد توزعت الصفوف على دارين كبيرتين من الطراز العربي ذي الطابقين الذي يكثر وجوده في

حيّ سوق ساروجة . ويصل بين الدارين معبر ضيق شق في الجدار الفاصل بينهما ليستخدمه المدرسون والاداريون الذين يتنقلون من واحدة الى أخرى . واحتفظت كل دار ببوابتها الاصلية الكبيرة لاستخدام التلاميذ . وقد خصصت الدار الغربية للصفوف الابتدائية ، حيث يختلط التلاميذ من الجنسين ، وهو اختلاط ميّز هذه المدرسة عن بقية المدارس في وقت كان الفصل بين الجنسين هو القاعدة حتى في الصفوف الابتدائية . وضمت الدار الغربية ذاتها ، أيضاً ، الصفوف المخصصة للبنات في المرحلتين الإعدادية والثانونية ، حيث كان الاختلاط بين الجنسين في هذه الصفوف محظوراً حظراً لا يستطيع اختراقه حتى مدير متنور كالاستاذ سليم . أما الدار الشرقية فخصصت للتلاميذ الذكور في المرحلتين الاعدادية والثانوية . وضمت هذه الدار ، أيضاً ، مكاتب المدير ومعاونيه ، كما ضمت اماكن مخصصة للانشطة العامة .

في الدار الغربية ، أمضيت سنتي الاولى . وهنا ، كان وجود الفتيات من مختلف الأعمار يضفي على الجوّ لطفاً وانساً متميزين ، ويفرض علينا ، نحن الذكور ، أشكالاً من السلوك المتأدب تفتقر اليها الدار الاخرى ، ويطلق أخيلتنا الغضة في شتى الاتجاهات . وكان من حسن حظي أني سجلت في شعبة في الصف الخامس غير الشعبة التي سجل فيها غالب . وكان غالب الذي يعرف أني لا أقرّ سلوكه يتجنب الإحتكاك بي حتى في الباحة ، فلم ينتبه إلا قليلون جداً من التلاميذ إلى القرابة التي تربطني بالولد ذي السلوك المريب . وتحت الرقابة الحازمة ، لكن السديدة ، للآنسة سعاد ، المشرفة على الدار الغربية ، انتظمت الدروس على أفضل ما يكون . وبين المدرسين من الجنسين الذين عرفتهم في تلك الدار ، تحتفظ ذاكرتي بصورة حيّة للاستاذ فؤاد الذي انيطت به مهمة الاشراف على شعبتنا والذي كان من أقرباء المدير ولم يكن يخفي ولاءه للحزب السوري القومي . وها أنا استحضر ، الآن ، هيئة الاستاذ فؤاد بجسده البدين المتين ، ورأسه المندفع دائماً إلى أمام ، ووجهه الطافح بالطيبة والحزم معاً وعينيه الباحثتين ، أبداً ، عن شيء يفعله أو شخص يوليه اهتمامه .

كان الاستاذ فؤاد يظهر حرصاً شديداً على أن يشغل وقتنا بما يعدّه مفيداً لنا ، وهو حرص لا يعادله إلا حرصه على التعرف على أحوالنا ، واحداً واحداً ، والاطمئنان إلى أننا في أتمّ حال . وكان هذا الوافد الى المدينة من قريته الجبلية ، والمفعم بالحماس الصوفي الذي يميز المنتمين للاحزاب العقائدية ، ما يزال يحتفظ بكل مظاهر السلوك الجبليّ ، فطيبته مفرطة مثلما هي قسوته على نفسه وعلى الآخرين ، ووسائل تعبيره عما يشغله مفرطة هي الأخرى ، فصوته جهير ، وحركات يديه ناشطة على الدوام ، ومثلها حركات الوجه والعينين ؛ يلقاني الاستاذ فؤاد في الصباح ، أمام البوابة أو داخل الباحة ، فيبادرني بالسؤال : « ها ، هل أتممت الواجب البيتي ؟ » ؛ وأجيب بنعم ، فلا يكتفي بذلك ، بل يقترب مني ، ويضع يده المكتنزة على كتفي ، ويصوب حدقتيه نحوي : « هل وجدته صعباً ، هذا الواجب ؟ » ؛ فأقول ان الامر كان سهلاً ، فلا يكتفي بهذا ، أيضاً ، بل يضع يده الثانية على كتفي الأخرى ، ويهز الكتفين وهو يلح : « إن وجدته صعباً ، قل لي ، لا تخجل ! » ، فاؤكد اني لا اخجل منه ، فلا يكتفي حتى بهذا ، بل يضيف ، فيما تبدأ عيناه بالبحث عن تلميذ آخر للاهتمام به : « حين تجد الواجب صعباً ، قل لي! » ؛ فإذا دخلنا حجرة الصف ، تبعنا الاستاذ فؤاد دون تلكؤ ، وشرع على الفور في العمل . فالرجل لا يضيع دقيقة واحدة ، ولا يكفّ في غضون ذلك عن الاطمئنان الى اننا نصغي اليه بانتباه ونفهم ما يقول ونستوعب شروحه ونستسهلها ، أيضاً . وحين تعلن دقات الجرس انتهاء الحصة وننفلت من الصف مندفعين الى الباحة ، يبقى الاستاذ فؤاد في الحجرة ليجيب على أية اسئلة او ليتابع اهتمامه الشخصي بهذا أو ذاك من التلاميذ .

وفي تعامله مع تلميذات الصف بالذات ، كان الاستاذ فؤاد يمزج الاهتمام الجاد بالرغبة في اظهار خفة الدم والملاطفة . ولم يكن الرجل ، كما ينبغي ان يقال ، للاسف ، خفيف الدم ، إلا أن وسائله لاصطناع خفّة الدم كانت طريفة ، ومحاولاته للظهور بمظهر اللطفاء هي التي كانت

تطربنا . وأغلب الظن ان الرجل الذي تلقى تربية قروية كان ، في دخيلته ، يعدّ الإناث أدنى مكانة من الذكور ، ويرى ان تبسطه معهن أمر يؤكد تواضعه ، إلا انه ، هو المنتمي لحزب اجتماعي يبث دعايته بين الاناث على اساس المساواة بين الجنسين ويعمل على تجنيدهن في صفوفه ، كان حريصاً على ان يخص التلميذات بعناية متميزة . وقد نجم عن هذا وذاك خليط من المواقف وأوجه السلوك المتباينة ، وكثيراً ما كانت ملاطفات الاستاذ فؤاد للتلميذات تثير غيظهن ، مثلما كانت تدخلاته الحادة تثير الضحك .

وأتذكر مرة اثارت فيها ملاحظة غير فطنة من الإستاذ فؤاد حنق واحدة من زميلاتنا . فراحت التلميذة الحانقة تزعق في وجه الرجل الطيب على نحو غير مألوف في العلاقة بين تلميذةٍ ومدرسها . واشتد زعيق التلميذة التي هيجها أن يقابل الأستاذ فؤاد ثورتها بابتسامة عريضة . وأراد الاستاذ فؤاد ، متبعاً عادته في ملاطفة الإناث ، ان يهدىء البنت الثائرة ، فكسا وجهه بتعابير الإنسان المستاء ، وصرخ بلهجته الجبلية التي يقرقع فيها حرف القاف : « حاجة بقى ، قوصتيني بعيونك ! » ، وترجمة العبارة بالفصحى هي « كفى ! أنت تطلقين النار عليّ بنظراتك » . لكن البنت الدمشقية ، لم تفهم معنى العبارة ، ولا فهمها ، آنذاك ، اي منّا . وقد ظنت البنت أن الاستاذ يقرعها ، فعلا زعيقها وكادت تخمش وجهه باظافرها . كل هذا ، فيما تابع الاستاذ ترديد عبارته الغامضة اذ ظن ، من جانبه ، اننا ، وقد انطلقنا في ضحك مجلجل ، معجبون بهذه العبارة .

كان الاستاذ فؤاد يدرسنا معظم المواد ، وما كنّا ننفصل عنه الا لدراسة مادة الديانة ، او حين تجمع الادارة التلاميذ الفلسطينيين من كافة الصفوف للاستماع الى دروس حول القضية الفلسطينية . وكانت دروس الديانة تفرض أن ينفصل التلاميذ المسلمون عن زملائهم المسيحيين ، وتدريس هذه المادة إجباري بحكم تعليمات وزارة التربية الملزمة للمدارس الحكومية والخاصة على السواء . ولأن آل اليازجي مسيحيون لم يكن ممكناً

ان يدرسنا الاستاذ فؤاد هذه المادة . أما الدروس الخاصة بالقضية الفلسطينية فقد نظمها الاستاذ سليم في مدرسته ، دون ان يكون ملزماً بذلك في واقع الامر . وكان الاستاذ سليم يستقدم لاعطاء هذه الدروس محاضرين من خارج المدرسة ، غالباً ما يكونون من الشخصيات البارزة . واتذكر ، من هؤلاء ، بوضوح تام ، فلسطينياً من ذوي الاسماء اللامعة هو المحامي هنري كتن . وقد اندهش جدّي نفسه حين عرف ان الاستاذ كتن اجتمع بنا وحاضر فينا . والحقيقة أني عرفت من الجد من هو هذا الرجل والدور الذي لعبه في مجال العمل السياسي الفلسطيني . واذا كان من الصعب ان اتذكر ما قاله القائد الفلسطيني لنا ، انا الذي لم يكن في سنّ تؤهله حتى ليفهم معظم القول ، فما أزال اتذكر هيأته وهو يقف أمامنا ، بقامته الرشيقة ، ووجهه المكتسي بالأسى ، ونبرات صوته الذي يجهد لاختراق عقولنا الغضة . وكان في هنري كتن الكثير مما يجتذبنا اليه ، ويحملنا على ترقب لقاءاتنا به بشوق شديد .

الانفصال في دروس الديانة والدروس عن فلسطين اسس في نفسي الاحساس بتمايز المجتمع الى مسلمين ومسيحيين كما عزّز الاحساس بتمايزنا كفلسطينيين . وقد تزامن هذا مع اتجاهي نحو التدين ، بتشجيع من الجد ، ومع جهود الجد لتنمية تعلقنا بالوطن وحنينا للعودة اليه . وهكذا ، نما عندي ، في وقت واحد ، الاحساس الديني والشعور الوطني . وسلحتني الدروس ، وشروح الجد ، بما احاجج به في المجالين .

تسنى لي ، إذن ، أن أمضي في المدرسة ، وقتاً ، هو ، على العموم ، طيب ، بل أطيب أوقاتي كلها . لكن الامر لم يخل من منغصات ، بل ان من هذه المنغصات ما كان شاقاً ، حقاً .

كان هناك ، قبل أي شيء آخر ، وأوجع من أي شيء ، هذا الفقر الذي يمكن لأي عين ان تلتقط تجلياته عليّ ، بدون عناء . فهو يسربلني من القدم حتى الرأس ويسكن روحي ، فتنعكس تأثيراته على البدن وفي السلوك . ومما زاد الطين بلّة أن معظم تلاميذ هذه المدرسة الخاصة ينتمون لأسر مقتدرة توفر لهم متطلبات التعليم ، كما توفر لهم الهندام اللائق

والمصروف الكافي . وقد إعتاد هؤلاء على أن يجيئوا إلى المدرسة بأزياء زاهية وحقائب فاخرة وجيوب لا تفتقر الى النقود . أما أنا فلم أملك إلا البنطال والقميص والحذاء التي اشتريت من الباله ، وقد أضيف اليها ، بحلول الشتاء ، كنزة من الصوف ومعطف اشتريا ، أيضاً ، من الباله . وبمضيّ الايام ، بلي الحذاء ، دون أن تتوفر القدرة على استبداله ، وظهرت ثقوب في جلده يصعب إخفاؤها . ثم لم يلبث النعل ذاته أن بلي وظهر فيه خرق راح يتسع ، أولاً بأول ، حتى صرت اسير ، عملياً على الارض وتتشرب قدماي رطوبتها وبرودتها واوساخها ، وإن بدا ، في الظاهر ، ان القدمين مكسوّتان . وبلي البنطال هو الآخر ، والقميص ، وتوالى ظهور الرقع عليهما . وكان هذا كله يؤثر على نفسيتي ويسمم مزاجي ويفتك بكبريائي ويحرجني حرجاً شديداً أمام الزملاء المزدهين بملابسهم الفاخرة . وكان من شأن هذا ان يقيم استاراً لها متانة الاسوار بيني وبين الهناء . كنت أقطع المشوار بين المنزل والمدرسة ، في الذهاب والاياب ، دون ان يفارقني الاحساس بأن العيون تخترقني وتتسلط على الرقع الظاهرة . وخصوصاً تلك الرقع التي احتلت امكنة ثابتة عند حنايا الثياب . والى هذا ، كان الحذاء غير المتماسك يعذبني ، جسدياً وروحياً ، فيشوي حرّ الطريق المسفلته قدميّ في الصيف ويقرصها برده في الشتاء ، ويجرح روحي إعتقادي بأن الناس يشفقون عليّ أو يستخفون بي . وكان الجرح ينفغر على آخره ، حين أصل الى المدرسة ، وأظن أن عيون التلاميذ المستخفة او المشفقة تتناوشني ، وما أشدّ ما أبغضت الاستخفاف والاشفاق كليهما !

وكانت هناك بجانب ذلك ، تلك العين العوراء . فهذه العين لم تنطفىء وتبيض حدقتها فحسب ، بل واصلت الجحوظ بصورة مضطرده حتى صارت نتوءً ينبثق من بين الجفنين ويملأ المحجر كلّه . وكان أمر جحوظها قد بلغ حداً لا يمكن لأي تستر أن يخفيه . وكأنما تم ذلك عن قصد ، لكي يصبح الامر أكثر قابلية للملاحظة ولفت النظر ، كانت المفارقة بين قبح العين العوراء والأخرى السليمة كبيرة جداً : عين مشوهة

تشويهاً بغيضاً ، وعين جميلة جمالاً آخاذاً . وسواء تجلى رد فعل الزملاء بتسليط النظر الوقح على عاهتي او بتجاهلها والامتناع عن النظر اليها ، فإن الامر كان محرجاً لي في الحالتين . ووجدتني موزع المشاعر ومبلبل السلوك : كانت حاجات قاهرة تدفعني لإقامة العلاقات مع الزملاء ، وكان التحرج يحملني على اعتزالهم . وفي الحالتين ، حرصت على تجنب التحرش بأحد أو الدخول في ما يدخل الأخرون فيه من مناوشات عامة . وكان الدافع الى ذلك خشيتي من هذا الاحتمال البغيض وهو ان يقذفني أحد بالشتيمة القاسية : أعور ! والمدهش ان السلوك الذي رسمه هذا الدافع وحده اكسبني في المدرسة سمعة الولد المهذب . وكان أقراني ومدرسيّ ينوهون بسلوكي ويثنون عليّ .

وإلى الفقر والعاهة وما يثيرانه من حساسيات ، انضافت الحساسيات المتصلة بوضعي كفلسطيني . لا أدري كيف أجعلك تدرك هذا الامر المعقد . لو أخذنا بالاعتبار المعاملة التي لقيها الفلسطينيون في سوريا ، على العموم ، لما بقي مسوغ للحساسيات الخاصة . بالرغم من ذلك ، لم يخل الأمر من مسوغات لبعض الحساسيات ، ولم يخل ، خصوصاً ، من بروز الحساسيات حتى بدون مسوغ . أقول هذا فيما أدرك أن الأمر لم يصبح واضحاً بالنسبة لك ، وأن عليّ ان أقدم مزيداً من الايضاح . وأبادر فأقول إن الأمر ما كان واضحاً حتى بالنسبة لنا ، نحن الغارقين فيه . كنّا نجد انفسنا ، صغاراً وكباراً ، أسرى حساسيات زائدة ، دون أن نتوقف لتفحص مسوغاتها . وأنا أدرك ، الآن ، أن فرط الحساسية هذا نجم عن افتقار الفلسطيني الى وطن وعن حاجته لتغذية كل ما يعزز تميزه ويوطد تشبثه بالعودة الى الوطن المفقود ، بما في ذلك السلبيات . وفي حالات كثيرة كان الفلسطينيون يقلبون مدلولات الوقائع رأساً على عقب ، أو يحورونها ، أو يختلقون وقائع بعينها ليظهروا لانفسهم ، وليس لأحد سواهم ، أن لجوءهم الى هذا البلد أو ذاك ليس سوى حالة مؤقتة لن يجدوا معها الامن والاستقرار ، او الهناء ، وأنهم لن يجدوا شيئاً من هذا الا حين يعودون الى الوطن .

خذ بعض الامثلة : كان من الطبيعي ان يبحث اللاجئون عن فرص للعمل . وما كان في قوانين البلد او في سلوك ناسه ما يحول دون تشغيل الفلسطيني . وحين يتوفر العمل في مؤسسات الدولة او في المؤسسات الخاصة الكبيرة التي تحكمها انظمة معتبرة ، كانت فرص الفلسطيني في الحصول على العمل تتساوى مع فرص غيره ، وكذلك الاجور وما عداها من المزايا .

أما حين يتعلق الامر بمحترف صغير او دكان او أعمال متفرقة ، فقد كان من شأن الفلسطيني ان يقبل اجوراً أدنى من سواه ليظفر بالعمل قبل غيره . وقد أصبح هذا الامر مثاراً للاقاويل . وربما تناول المتضررون في المنافسة سمعة هذا او ذاك من الفلسطينيين الذين زاحموهم على العمل ، وشاعت حكايات سلبية . غير ان الامر ذاته انطبق على كل من دخلوا في المنافسة في سوق العمل من هؤلاء الكثيرين الذين يتركون المناطق الفقيرة في محافظات سوريا المختلفة ويجيئون لتصيد الفرص في المدن المزدهرة . وقد تعرض هؤلاء ، أيضاً ، للاقاويل ذاتها التي تعرض لها الفلسطينيون من امثالهم ولاكت افواه المتضررين سمعتهم . الا ان فرط الحساسية لدى الفلسطيني جعله يتصور ويصور انه هو المستهدف وحده . والاكثر من هذا ان الامر صور على اساس ان الفلسطينين ، وليس ناساً معينين من بينهم ، هم ، كلهم ، مستهدفون .

وفي سوريا ، كما في أي بلد آخر ، يتندر سكان كل منطقة أو مدينة وبطرف واوصاف يطلقونها على سكان المناطق الأخرى . فالحوراني ، عند الدمشقي ، جاهل ، والدرزي انفعالي ، والحمصي ساذج ، والحلبي ثقيل الظل ، والديري ضيق الأفق ، والبدوي غدار . اما الشامي ، عند هؤلاء ، فهو بخيل ، او محتال او اي شيء آخر من هذا القبيل . وما كان للتندر بحكايات او اوصاف كهذه ان يثير بين الناس من الحساسيات اكثر ما تثيره الطرائف اللاذعة . وحين استقبل الناس الفلسطينيين وتداولوا ما كان يتداوله الفلسطينيون انفسهم من تندر ببعضهم البعض ، ثارت الحساسيات وصور الفلسطينيون وتصوروا انهم مستهدفون .

وهناك مسألة اثارت حساسية فلسطينية من نوع خاص . فقد ردد البعض ، وهذا البعض على كل حال قليل في سوريا ، في معرض تفسير النكبة التي حلّت بفلسطين وأهلها ، أن الفلسطينيين قصروا في التضحية في الدفاع عن وطنهم ، وان منهم من باع أرضه لليهود طمعاً في المال . ولك ان تتصور الهياج الذي حل بالفلسطينيين ازاء حكايات كهذه .

ومهما يكن من أمر ، فإن زملاءنا في المدرسة كانوا يسمعون بعض ما يتردد في مجالس اهاليهم . وقد دلتهم الخبرة على أن رمينا بهذه التهم المقذعة يفعل فعلاً عجيباً ، في اثارتنا . فكان أن اهتدى هؤلاء الى اسهل الطرق لكسب الجولات في المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين الاولاد . ولم يكن من النادر أن أقذف ، حتى أنا المؤدب ، بعبارة : فلسطيني ، بعت أرضك ، أو بشيء من هذا القبيل .

ومن طريف ما شاع في هذا المجال حكاية تداولها الجميع ، ولعلّها ما تزال شائعة الى الآن . وتلك هي حكاية عتّال كان يسوق حماره في سوق الهال ، فحرن الحمار ، فانتهره العتّال مؤنباً ، فلما واصل الحمار عناده ، صرخ العتال المحنق في وجه حماره : « تضرب بهالوجه ، مثل وجه اللاجيء » . ولا يدري احد ان كانت هذه حكاية صحيحة . أم أن احداً اختلقها للتندر على الفلسطينيين ، أم أن الفلسطينيين اختلقوها للتندر على أنفسهم او لإقناع أنفسهم بأنهم موضع تندر . المهم ان الحكاية كانت تسمع ، أكثر ما تسمع ، من أفواه المستهدفين بها .

ومنذ انتظمت الدراسة ، أعدّت قوائم خاصة بأسماء التلاميذ الفلسطينيين في المدرسة ، وصار من المألوف أن تستدعينا الادارة ، بين وقت وآخر ، لنتلقى هذا أو ذاك من أشكال الرعاية التي تقدمها الجهات الخيرية للاجئين . وكانت مشاعرنا تتوزع بين الاغتباط بما نظفر به ، والتحرج إزاء تميزنا بالحاجة الى العون . كان يأتي الى المدرسة من يحمل الينا علباً فيها عطايا مرسلة لابناء اللاجئين من جهات محليّة او خارجية . فنجتمع في الباحة ، ثم نستمع الى الخطب التي لا بدّ منها ، ويقوم المصورون بالتقاط الصور ونحن نتقدم من الضيوف ، واحداً وراء الآخر ،

كي نتلقى عطاياهم ، فيما تملأ ابتساماتهم عدسات المصورين . وكانت محتويات العلب تتنوع ، حسب مرسليها ، فمنها ما يضمّ أطعمة محفوظة ، ومنها ما يضم أدوات للكتابة أو التنظيف . وغالباً ما تكون الادوات من الانواع التي لم نألف استخدامها أو لا نحتاج اليها .

وأتذكر مرة جمعنا فيها الاستاذ سليم بنفسه ، وتحدث معنا قبل مقابلتنا للزوار ؛ يومها ، أفهمنا المدير ان الزوار من الاجانب ، وقال إن بينهم اميركيين ، مؤكداً على الأهمية الخاصة لوجود الامريكيين بين الزوار . وبيّن لنا الاستاذ سليم أن هؤلاء الزوار لم يأتوا لتقديم الهدايا ، فقط ، بل إنهم سوف يوجهون لنا بعض الأسئلة عن أحوالنا ورغباتنا ، واوصانا بأن نحسن الإجابة بأدب ووضوح . ثم كان أن إقتادونا الى حيث يجلس الزوار في مكتب المدير ويحيط بهم عدد من الاساتذة والمترجمين . وتولى ثلاثة من الزوار استجوابنا : سيدتان تلبسان زياً غريباً ورجل يتخذ زي القساوسة ويتميز بلحية طويلة ودقيقة اختلط فيها اللونان الابيض والاسود بكميات متساوية . وهذا الرجل هو الذي تولى استجوابي ، وكان سؤاله الاول عن اسمي ، ففهمت السؤال الذي طرحه الرجل بالانجليزية قبل أن ينقله المترجم لي ، وبادرت بالاجابة ، فأبدى الرجل دهشته ، واندفع يخاطبني بالجليزية طلقة تعذر علي ، بالطبع ، أن أفهم شيئاً منها . هنا ، تدخل المترجم ، وانتظم الحوار ، وراح الرجل يسجل وقائعه في دفتر مفتوح أمامه . سألني الرجل : « هل أنت مرتاح في المدرسة ؟ » ، فنظرت ناحية الاستاذ سليم وقلت : « نعم » . وتوالت الاسئلة : « هل أنت موفق في الدروس ؟ – هل يتوفر لك معلمون جيّدون ؟ – هل تحصل على ما يلزمك من أدوات الدراسة ؟ » ، وتوالت إجاباتي بنعم . ثم انتقل الرجل الى السؤال عن أحوال الاسرة : « هل تعيش في مكان مريح ؟ – هل تتلقى تغذية كافية ؟ – هل يسود الوفاق بين العلاقات بين أعضائها؟» . ولم أجد مسوغاً لاطلاع هذا الغريب على أحوال اسرتي . وتملكني الخجل من أن يعرف عنها ما يسوء ، فاجبت على كل سؤال بنعم خافته . وقد لاحظت منذ النعم الاولى أن الاستاذ سليم لم يسترح

لاجابتي ، وتكرر ذلك منه بعد كل نعم جديدة . لم أفهم سبباً لاعتراض المدير ، ولكنّي شئت ان اجاريه فاستدركت ، محاولاً التصحيح : « لكن ، توجد مشاكل . . . » . ثم لم اهتد لما أضيفه الى هذه العبارة . لست ادري كيف نقل المترجم عبارتي . اما الرجل الملتحي فسجل في دفتره شيئاً ، ثم سألني باهتمام زائد : « لماذا ، إذن ، انتم لستم مرتاحين؟» . والحقيقة ان السؤال حيّرني ، فأنا لم أقل هذا ، وليس بمقدوري أن أجيب على السؤال بوضوح . ووجدتني مندفعاً للتخلص من الضيق : « جدّي يقول لنا كل يوم إنه لا بدّ من العودة الى فلسطين ، نحن نحبّ بلادنا ، والحقيقة ان الغربة صعبة » . وظننت أني ، بهذا ، قد لبيت فضول السائل الملحاح ، غير أن هذا الرجل الذي يسجل كل شيء في الدفتر لم يكفّ عن طرح اسئلة جديدة : « جدك يقول هذا ، فهل تؤمن أنت به ؟ » ، فأجبت ، متابعاً انطلاقتي : « ليس جدّي وحده ، كلنا نقول هذا ، في المسمية الصغيرة ، كان عندنا دار كبيرة ، وأرض واسعة ، وحيوانات ، غنم ، وماعز ، وبقر ، وخيول . كانت الدنيا أحلى . كان يأتينا زوار كثيرون دائماً ، كل يوم وليمة وانبساط . كنا نلعب على كيفنا . هنا كل شيء ضيق ، ولا يزورنا أحد » . وتابعت على هذا النحو ، باسطاً أحاسيسي ، ناسياً اني أمام محقق . كتب صاحب الاسئلة في دفتره أشياء كثيرة وانبسطت اسارير الاستاذ سليم وبدا على وجهه الارتياح التام . وخصني المترجم بغمزة ودودة . فسرني هذا كلّه . ولما فرغ الرجل الغريب من استجوابي ، ناولني علبة كرتونية مربوطة بشريط حريريّ زاهي اللون ، وافهمني انها مرسلة لأطفال اللاجئين من هيئة كنسيّة سماها باسمها الطويل الذي لم احفظه .

خرجت من المكتب ، محتضناً علبتي ، متعجلاً الاطلاع على ما تحويه ، وأنا احسّ بأني أديت عملاً طيباً ، دون أن أدرك كيف تم ذلك . ولدهشتي ، لاحظت ان الاستاذ سليم ترك الزوار وتبعني الى الخارج ، لقد احتضنني هذا المدير الطيّب ، وأطنب في امتداح إجاباتي ، وقال إنني كنز ، وتعهد بأن يقدمني لكل زائر أجنبي يجيء الى المدرسة .

وبهذا المديح ، يزجيه لي الرجل عالي المقام ، بلغت غبطتي الذروة ، حتى لقد كدت انسى العلبة التي سقطت على الارض حين غمرني الاستاذ سليم ، ثانية ، بذراعيه الحفيتين . وعندما فتحت العلبة . وجدت داخلها منشفة للوجه ومشطاً وفرشاة ومعجوناً للأسنان ونصف دزينة من مناديل الجيب وربطة عنق من النوع الذي يستخدمه أولاد الاغنياء حين يلبسون البدل واوتوغرافاً فاخر الغلاف ومجلداً لحفظ الصور . لم يسبق لي ان نلت شيئاً كهذا . وقد أبهجني ، دون شك ، حصولي على هذه الاشياء النادرة ، غير أن بهجتي خالطها الاحساس بقلة الجدوى ، وكنت سابتهج لو ان العلبة احتوت حذاء أو بنطالاً او قميصاً ، أو لو انها كانت حقيبة أحمل فيها كتبي .

لم يزرنا حملة الهدايا ، وحدهم . بل زارنا ، أيضاً ، معدّو الإحصاءات وقوائم الاسماء ، من كل نوع . بعض هؤلاء كان من موظفي الحكومة وهم يتابعون الجهود لاستكمال إحصاء اللاجئين وأماكن تواجدهم ، وبعض هؤلاء كان من مستخدمي الجهات الخيرية التي تدفع رسوم تعليمنا ، وقد ترددوا على المدرسة ليتأكدوا من وجودنا فيها وانتظام دراستنا واستحقاقنا بالتالي للرسوم . وبين الزوار كان ممثلو جهات صحية ، منهم من جاء ليستقصي إن كنا نحمل أمراضاً معدية ، ومنهم من جاء ليعطينا تلك الحقن الكريهة بهدف تحصيننا ضد الامراض . وكانت أبغض الزيارات تلك التي قام بها فريق انتدب نفسه للترفيه عن أبناء اللاجئين .لقد أخطرنا بزيارة هذا الفريق الغامض ، وقيل لنا إنه أعدّ احتفالاً للترويح عنّا . ولم نكن ندرك معنى الترفيه او الترويح ، ولا كنّا ندرك اننا بحاجة اليهما . وقد اقتضتنا هذه الزيارة ان نبقى في المدرسة بعد انصراف التلاميذ الآخرين منها ، وكان معنى هذا ان نتأخر في العودة الى المنازل ونتعرض لمساءلة الأهل . والحقيقة أن هذا الهاجس هو الذي طغى على أذهاننا طيلة الوقت الذي استغرقه الاحتفال . أما الاحتفال ذاته،فكان شيئاً بائساً : خطباً لا نفهم معناها ، وموسيقى لا نتجاوب معها ، واغاني لا نعرف مضمونها ، ونداءات صاخبة تحثنا على الصبر ،

وابتسامات يؤكد مطلقوها على أن من الممكن أن نرى الحياة بهيجة . كل هذا دون أن ندري لماذا يفعلون ذلك ، او لماذا يخصوننا به ، وحدنا .

الى كل هذا ، تميز التلاميذ الفلسطينيون باهتمام الاحزاب والجهات السياسية بهم ، يوليهم المدرسون الحزبيون عناية خاصة ويقصدهم آخرون من خارج المدرسة ، ويعقدون حلقات الحديث في الباحة ، قبل الدروس او بعدها . يجري هذا علناً في الاوقات التي يكون العمل الحزبي فيها مسموحاً ، وينتظم سراً في الاوقات التي تشتد فيها سطوة الحكام العسكريين فيحظرون العمل الحزبي . ولأن الانشطة الحزبية كانت موجهة للتلاميذ الكبار ، فقد كنّا ، نحن تلاميذ الابتدائي ، معفيين منها ، فلا يصلنا إلا الاصداء التي تشيع في المدرسة عما جرى .

وحين اقتربنا من نهاية العام المدرسيّ ، شاع نبأ جديد له صلة بالفلسطينيين ، وتوقعنا أن يوثر على أوضاعنا ورحنا نترقب النتائج . فقد أعلن ان « الانروا » ، وهي وكالة دولية انتدبتها الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين ، قبل عام ، سوف تباشر أنشطتها العملية قريباً . ثم تبين ان الانروا هي التي ستتولى تقديم العون الذي تقدمه الجهات الخيرية العديدة وان مسؤولية رسومنا المدرسية قد انتقلت الى هذا الوكالة الدولية .

في ذلك الوقت ، كنا نستعدّ لامتحانات نهاية العام ، وهي كما سبق ان ذكرت لك ، امتحانات تنظمها الدولة ويحصل من يجتازها على شهادة حكومية بإنهاء مرحلة التعليم الابتدائي . وفي ذلك الوقت ، كانت « السرتيفيكا » ، كما تسمى هذه الشهادة ، ما تزال تحتفظ بأهميتها . فهي لا تدل ، فقط ، على ان حاملها لم يعد أميّاً بل صار في عداد المتعلمين ، بل تؤهل حاملها للعمل في إحدى مراتب السلم الوظيفي الدنيا في دوائر الحكومة او للإنتساب للمدارس العسكرية التي تخرج ضباط الصف . وكان من الممكن ، في ذلك الوقت ، لحامل السرتفيكا ان يعمل كوكيل معلم . وقد غرقنا في التحضيرات الشاقة للامتحان ، وكانت الاستعدادات له تستغرق وقتنا كله ، نجيء الى المدرسة فيراجع الاستاذ فؤاد معنا الدروس المقررة التي تلقيناها خلال العام المدرسي ويختبر قدراتنا

على حفظها ، ثم نمضي بقية الوقت في المراجعة والحفظ دون معلم .

وكان الفصل البارد قد ولّى ، وولى ، كذلك ، الوقت القصير الذي تشهد دمشق فيه أجواء ربيعية حقيقية ، وحل فصل الحرّ الذي يبدأ مع انقضاء نيسان/ ابريل . ولما كان المنزل ، كما تعرف ، صغيراً ، فقد ضاق بحاجتنا إلى الهدوء من أجل التحضير الجدي . ولكن الحاجة الى النجاح ، بل النجاح بتفوق ، كانت طاغية . لم نكن مدفوعين بما يحث كل تلميذ على نشدان النجاح ، فقط ، بل كنّا بحاجة الى النجاح ، والنجاح الباهر ، كنوع من التعويض عن البؤس الذي نعيش فيه والنقص الذي نحس به في الغربة . وهكذا ، وجدتني مندفعاً بعزيمة ، يُستَغرب وجودها في طفل ، للظفر بأعلى الدرجات . وقد هدتني الحاجة الى اكتشاف المكان الملائم لتحضير الدروس . وكان ذلك هو الجامع الاموي الفسيح . وكانت أنسب الاوقات هي الاوقات التي لا يكتظ فيها الجامع بالمصلين . وهكذا ، الفت أن أذهب الى الجامع مع بداية ضوء النهار فاصلي صلاة الفجر مع الجماعة ، ثم أعتزل في مطرح منير وأبقى فيه إلى أن يحين موعد الذهاب الى المدرسة . وبعد المدرسة . كنت أعود إلى الجامع وأبقى فيه إلى أن يفرغ جدي من صلاة العشاء فنعود سوية الى المنزل . وقد سهّل قرب الجامع من المنزل الامر تسهيلا كبيراً ، وساعدني تشجيع جدّي الذي أرضاه أن آلف المكوث في هذا المكان المبارك .

ولم أكن ، بالطبع ، وحدي الذي يحضر دروسه في الجامع الكبير . فقد ألف تلاميذ كثيرون ، تبلغ أعدادهم في أوقات الذروة المئات أو الالوف ، ان يهربوا من منازلهم المكتظة إلى هذا المراح الفسيح . بل إن وجود التلاميذ ، من مختلف الاعمار ، في الجامع صار ظاهرة مألوفة . وكان رواد الجامع الآخرون يراعون حاجة التلاميذ إلى الهدوء فيؤدون مناسك الصلاة دون ضجيج ولا يبخلون على طلاب العلم بالتشجيع ، بالنظرات ، او بالعبارات الودودة . هذا الوضع جعل من الجامع الشهير ، مثلما جعل من جوامع اخرى في أحياء المدينة المتعددة ، ما يشبه الاندية الموسمية لطلاب العلم في المدارس والجامعة . وكان من الممكن هنا تبادل

الخبرات في الدراسة وشؤون الامتحانات ، وكذلك تبادل الكتب والادوات المدرسية . كما كان من الممكن المناظرة حول شتى الشؤون الاخرى . كان هذا عالماً افسح من عالم المدرسة والمنزل ، وقد اجتذبني اليه ، فصرت من المدمنين على ارتياده ، واحتفظت بهذه العادة ، في سنوات لاحقة عديدة .

وفي المنزل ، أعفوني من المهام اليومية التي أتولاها لخدمة الأسرة . وهكذا ، خفت أعبائي ، وضؤلت ، خلال تلك الاسابيع ، صلتي بمشاكل الاسرة ، فقلّت الآلام التي أعانيها في هذا المجال . وكان من متعي الصباحية ان يوقظني الجدّ مبكراً ، كالعادة ، لا لأجلب الحليب من مركز التوزيع او الخضار من السوق ، بل لأتلذذ بفنجان القهوة وأستمع إلى دعوات الجدّ لي بالنجاح : شيء كان يذكرني بصباحاتي التي لا تنسى مع جدّي سلمان في المسمية الصغيرة .

ثم حلّ الموعد المرتقب ، موعد الإمتحانات . وكم كان الامر مختلفاً هذه المرة عن المرات السابقة ! لقد ألفنا أن نؤدي الامتحانات في المدرسة التي نتعلم فيها أمام الاساتذة الذين علمونا وعرفونا وعرفناهم طيلة العام . أما في هذه المرة ، فقد توجهنا إلى مدرسة غريبة حددتها لنا دائرة الامتحانات الحكومية . وهناك ، توجب أن نعرّف بانفسنا مستخدمين البطاقات التي تحمل صورنا والتي زودتنا بها هذه الدائرة ، ومستهدين الى أماكن جلوسنا بالارقام المطبوعة على البطاقات ، والتي صرنا نعرف بها أكثر مما نعرف بأسمائنا . والذين أشرفوا على الامتحانات معلمون غرباء لا يعرفوننا ولا نعرفهم ولا نستطيع أن نحزر أطباعهم . إنه ، بكلمات أخرى ، جوّ مثير للرهبة . والحقيقة أن الرهبة تولتني في اليوم الاول منذ توجب أن أغادر الدار ، وتعززت مع كل خطوة جديدة . وزاد الامر تعقيداً رفقة غالب لي وثرثراته غير المناسبة ومحاولاته الدائبة لاخراجي عن طوري لا لشيء الا ليتمتع برؤيتي وأنا ساخط . وازدادت الرهبة حين صرت في قاعة الامتحان فراحت عيون المعلمين المتفتحة تتناوشني مدققة في كل شيء بلزوم وبغير لزوم . وكنت تحت وطأة النظرات أحسّ بأني

مشتبه به مطالب بأن يظهر براءته ويتجنب أية حركة أو نأمة تسوغ الاشتباه به . بالرغم من ذلك ، مضى اليوم الاول على خير . وحين عدت الى المنزل كان بامكاني أن أبلغ الى المتلهفين لمعرفة أدائي في الامتحان أني أجبت على الاسئلة إجابات صحيحة . ثم تكرر الامر في اليوم التالي ، مع شيء من التعديل ، فقد خفّت الرهبة وتحسن الأداء . وهكذا إلى أن انتهت أيام الامتحانات الستّة ، وبتُّ واثقاً من أن النتيجة ستكون النجاح . أما القلق الذي حلّ بي خلال الأيام اللاحقة فمبعثه الخوف من أن لا أحصل على درجات عالية . خشيت أن يصعب على المصححين قراءة خطي ، أو أن اكون قد سهوت عن إيراد معلومة لازمة للاجابة الصحيحة ، وأشياء اخرى من هذا القبيل . وأمضيت الاسابيع الثلاثة التي سبقت اعلان نتائج الامتحانات اسير هذا القلق . وفي غضون ذلك ، استعدت الروتين اليومي لحياتي في العطلة ، فاستأنفت اداء المهامّ المنزلية ، كما استأنفت مشاويري بصحبة الجدّ الى السوق ، والجامع ، والمنتزه . وعاد خالاي نافذ وعمر من محافظتهما النائية ليقضيا معنا عطلة الصيف ، وكانا ، كلاهما ، متلهفين لمعرفة نتيجة امتحاناتي أكثر من تلهفهما لمعرفة نتيجة غالب . لقد استقر في أذهان الجميع أن نجاح غالب ، وهو الذي أعاد السنة المدرسية ، أمر مضمون ، فتركز القلق . على نتيجتي ، وحدها .

ثم حلّ يوم إعلان النتائج ، فكان يوماً مشحوناً بالانفعالات . كنّا في منتصف العام ١٩٥٠ ، وكانوا في ذلك الوقت يذيعون اسماء الناجحين في الامتحانات الحكومية ، في الراديو ، بما فيها امتحانات السرتيفيكا . وقد اخطرنا ، منذ الصباح ، بأنهم سيذيعون النتائج في وقت ما بعد الظهر ، فحلت بالاسرة حالة تشبه حالة الاستنفار . لم يكن في المنزل راديو . لكن الاستعدادات كانت اتخذت ، من قبل ، على أساس ان نذهب ، نحن ذكور الاسرة ، إلى منزل الاستاذ سعدي للاستماع الى النتائج . وبالرغم من أن اللهفة أخذت تؤرقني واسلمتني إلى حالة من الاضطراب الشديد ، فقد حرصت على أن أبدو بمظهر المتماسك .

فصحبت الجدّ الى السوق ، ثم الى الجامع ، واشتركت مع الاسرة في تناول طبق الغداء ، مبدياً لا مبالاتي بالحدث القادم . وفي المنزل الذي توجهنا اليه ، كان الاستاذ سعدي في انتظارنا بكامل هندامه وفصحاه المنمقة التي وجد الفرصة الملائمة ليصول بها ويجول . وراح الاستاذ سعدي يوالي تأكيداته المجلجلة على أن « هذا الشبل » ، الذي هو أنا « لا بدّ ان يتبع سيرة الاسود الذين انحدر من أصلابهم » . وحين دارت أكواب الشاي ، فيما نحن متحلقين حول الراديو ، امتزجت نأمة الرشفات الرتيبة بالموسيقى التي يبثونها بين يدي الحدث الكبير ، فعكس المزيج ثقل الترقب الذي يجمدنا حول هذه الآلة . وفي نهاية انتظار لم أعرف في سنوات عمري العشر ما هو أقسى منه ، بدأوا ببث أسماء الناجحين ، فثقلت أنفاسي ، واشتد وجيب قلبي ، وتركز نظري على الراديو . وحده .

توالت أسماء المدارس وأسماء الناجحين من تلاميذ كل مدرسة . ثم . . . الثانوية الاهلية . فصرت كلّي آذناً لا صله لها بشيء في الكون الا بهذا الصوت الرتيب ، وصار الصوت هو الكون ، وتتالت الاسماء ، وكان بينها اسم غالب واسماء الزملاء الذين أعرفهم ، ثم ذكر المذيع اسم مدرسة أخرى وراح يتلو أسماء تلاميذها الناجحين . إذن لا إسم لي في هذا الراديو اللعين . لم استوعب الامر ، للوهله الاولى ، ولم ادرك ما جرى إلا حين هتف الجد بحرقة : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . عندها ، صرخت بحرقة أشدّ : « غير معقول! » ، وغادرت المجلس مندفعاً الى الخارج بأقصى قوتي ، وجريت ، وظللت أجري إلى أن وصلت منزلنا ، فاقتحمته ، وألقيت نفسي في حضن جدتي . كنت بحاجة لأن أبكي ، وقد ملأت الرغبة في البكاء كياني كلّه ، إلا أن الدموع التي سبق أن جفّت لم تسعفني ، فتخشب جسدي ورحت أرتعش في حضن جدّتي إرتعاشة المشرف على الاختناق . وانصرفت الجدّة الى تهدئتي بتمسيداتها الحنونة ، دون أن تفوه بشيء ، وقد أدركت الموقف ، دون شك ، والتمّ بقية أعضاء الاسرة حولنا ، خالتي شفيقة التي علا نحيبها ، وأم عدنان ، والأولاد . ثم كانت أمّ عدنان أول من تحرك لإسعافي بعد أن اشتدّ

تشنجي ، فجاءت بماء بارد وراحت تمسح وجهي ، ثم مددتني وأخذت تدلك أعضائي ، وهي تتمتم بعبارات مؤاسية وتدعوني الى الهدوء . في تلك اللحظات . كان احساسي بالقهر هو الطاغي على أية أحاسيس اخرى . كنت واثقاً من أني استحق النجاح ، وها أنا أرسب ، ليس لأني مقصر ، بل لسوء تفاهم ما . ربما ضاق المصحح الغريب بتعرجات خطي فلم يتعب نفسه في قراءته . وانبثق في نفسي كره شديد للأمتحانات الحكومية هذه ، فلعنتها ولعنت الحكومة التي توكل مصير تلميذ الى مصحح لا يعرف هذا التلميذ ولا يعرف ملكاته وأداءه اثناء العام الدراسي . وقد أهدتني عبارات المؤاساة التي تتقن أم عدنان اطلاقها شيئاً من الراحة ، خصوصاً حين نوهت المرأة الأريبة بما يعتمل في نفسي :

« أنت لم تقصّر ، يشهد الله . ونحن رأينا كم أتعبت نفسك ، لكن الدنيا حظوظ . فلا تحزن ! » . وكما يحدث لمن يتعرض لقهر فادح ، استسلمت للنوم وغرقت فيه . ثم صحوت على ضجة تملأ الحجرة ويد تهزني بعنف .

لم استوعب للتوّ ما الذي يجري . لكني لمحت علائم فرح في وجه خالي نافذ الذي أيقظني . وحين تسنى لي أن استعيد القدرة على الاستيعاب ، سمعت الخال وهو يخاطبني : « افرح ! انت ناجح » .

واطار النبأ كل ما في رأسي من مثبطات ، فصار صحوي تاماً ، وأوضح الخال : « المذيع السافل سها عن اسمك . اما في الجريدة فالاسم موجود . شف بنفسك ! » . ومع أني صدقت ما قيل ، فقد تتبعت إشارة الخال بلهفة عارمة ، ورأيت الاحرف السوداء التي تشكل اسمي . وكان أول رد فعلي أن احتضنت الخال ، ثم توجهت بالشكر لرب السماء الذي انتشلني من معرة الرسوب في الامتحان .

بعد قليل . وصل جدّي عائداً من الجامع . ولن أنسى ردّ فعله حين أبلغوه النبأ الجديد . لقد دمعت العينان الحانيتان . وسرح الجدّ سرحة طويلة ، وهو يتمتم ، بصوت غير مسموع ، بأدعية وأوراد ، ويوجه بين

وقت وآخر ، بصوت مسموع ، الشكر الحار للربّ . ولما ثاب الجدّ الينا ، أخذ ينوه باجتهادي ويطري على سلوكي . وقد أطربني هذا كلّه وطيب مزاجي ورفع معنوياتي إلى الأوج . ووجدتني انطلق في الحديث عن أوقات الامتحانات . ورحت أقلّد سلوك المدرسين الذين راقبونا اثناء اداء الامتحانات وأبالغ في ذلك ، حتى أضحكت الجميع . وفي الصباح ، بعد أن أنهينا المهام اليومية وتهيأت لمصاحبة الجدّ في المشوار إلى الجامع ، أطلعنا الجدّ على المفاجأة التي بيتها احتفالاً بالنجاح . وهكذا ، توجهنا ، الجدّ ، والخالان الكبيران وغالب وعدنان وأنا ، إلى محلّ بكداس في سوق الحميدية ، حيث وفى الجدّ بوعده القديم وأمر لنا بأطباق البوظة الشهيّة . ثم اشترى الجدّ كمية من هذه البوظة وطلب مني أن أحملها إلى بقية أعضاء الأسرة في المنزل .

٥ الدخل يزيد فتكثر الاعباء والمصاريف

في القناعة الشعبية ان النعم لا تدوم . والمؤكد ان الفقراء حين يتهيأ لهم سبب للمتعة فإن بهجتهم لا تستمر طويلاً. وهكذا ، سرعان ما انطفأ البريق الذي أنار روحي بعد النجاح ! وقد حرمني الانقطاع عن المدرسة في العطلة الصيفية المتطاولة الملجأ الذي وجدت فيه التعويض عن جوّ المتاعب التي تعصف بالأسرة ووضعني وجهاً لوجه مع هذه المتاعب .

كان على غالب أن يتبع الدورة الدراسية الخاصة التي تهيئه للقفز إلى الصف السابع ، وكانت دروس الدورة مكثفة والتحضير لها يستغرق وقته كلّه. وبهذا ، وقع على عاتقي تنفيذ المهام التي يتولاها غالب في خدمة الاسرة ، فتضاعفت أعبائي . وصار علي أن أذهب إلى مركز توزيع الحليب أربع مرات في الاسبوع ، ومثلها إلى الفرن ، فضلاً عن أني واظبت على اصطحاب الجدّ في المشوار إلى سوق الهال . بالرغم من ذلك ، بقي أمامي وقت كثير يتوجب أن أشغله . وقد انتظمت روحاتي إلى الجامع

الاموي ، بصحبة الجدّ ، وبدونه . وصار لي في الجامع معارف من أقراني في السن أو الدراسة ، فصرنا نلتقي في الأبهاء الفسيحة ونستروح جوّها الطيب ونقتل الوقت بالاحاديث المتنوعة . وانتظمت الروحات مع الجدّ ، أيضاً ، إلى منتزه المنشية ، فكنت أشاهد معه في كل يوم تقريباً ، حيث يمكن أن أقتل الوقت بالإستماع الى احاديث الكبار وطرفهم .

وفي هذا الصيف ، اهتديت الى المطالعة ، وكان شراء الكتب ترفاً لا تبيحه لنا امكانيات الاسرة . ولكن الاستعارة كانت ، دائماً ، في متناول اليد . وها أنا لا اتذكر اسم الذي وضع في يدي أول كتاب اطالعه ولا عنوان هذا الكتاب ، غير أني أتذكر أن الذي أعارني الكتاب كان واحداً من أقراني في الجامع ، وأن الكتاب ذاته كان واحداً من كتب جورجي زيدان . المهم أني اكتشفت عبر هذه الفرصة الفذّة متع المطالعة وفوائدها ، فلم أتوقف عنها منذ ذلك الحين . ولم يكن متيسراً لي أن أمارس هوايتي في المنزل ، فهنا لا يسمح الاكتظاظ والضجيج بالخلوة إلى كتاب ، ولا كان متيسراً أن أسرف في استخدام الطاقة الكهربائية فاقرأ بعد أن ينام الاهل . وكان الكبار من أعضاء الأسرة ، وهم الذين يتدخلون في رسم أدق صور سلوكنا ، لا يشجعون الصغار على المطالعة الحرّة ، لأنهم لا يحبذون أن يبدد الصغار طاقاتهم في قراءة الكتب غير المقررة في المدرسة . وهم ، إلى هذا ، يخشون أن المطالعة تعلم الصغار ما لا يريدون لهم أن يتعلموه . وهكذا ، صار الجامع هو ملجأي لممارسة المطالعة . وما كان الامر يخلو ، حتى هنا ، من متاعب ومداخلات . كنت ، حين يتيسر لي كتاب لأطالعه أهرع الى الجامع فور فراغي من المهام المنزلية ، أسبق الجد ، واقتنص لنفسي ساعات أخلو فيها إلى الكتاب . لكن ، اذا كان من المألوف أن يقرأ الناس ، في الجامع ، القرآن والكتب الدينية الاخرى ، وإذا كان من المسموح به أن يقرأ التلاميذ كتبهم المدرسية ، فإن مطالعة كتاب من نوع آخر كانت مجازفة قد تعرض صاحبها للملاحظة . وما كان الملاحظون المتوقعون قليلي العدد ؛ فهناك حراس الجامع وخدمه العديدون وعيونهم المتلصصة ومراقبتهم المتصلة للزوار ؛ وهناك المتطفلون من رجال

الدين ألاصلاء او الادعياء الذين يحفزهم الفضول على مراقبة سلوك التلاميذ في الجامع . وما أسهل ان يتدخل واحد من هؤلاء بدعوى أنه مطالب ، بحكم فرائض الدين ، بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ومن هؤلاء ناس يظنون ، حقيقة ، ان من واجبهم السهر على نقاوة ما يقرأه خلق الله ، وهم يبيحون لأنفسهم أن يدققوا في ما نقرأ . وهناك اصحاب جدي الذين يترددون على المسجد ، ومن هؤلاء من يحرص على أن يتفقد شؤوني .

هذا الوضع الجأني الى التقية ، ولم أكن الوحيد الذي يلجأ الى التستر على نحو أو آخر ، حين يطالع كتاباً ليس من المحبذ ظهوره في هذا المكان . وكان للتقية وسائل فرضتها طبيعة المكان أو اكتشفها سواي وعلمني اياها او ابتكرتها بنفسي . من هذه الوسائل أن تنتحي مكاناً منعزلاً ومعك كتب عدّة بينها الكتاب الذي يستهويك ، حتى إذا أقبل احد ناحيتك استبدلت الكتاب الذي تطالعه فعلاً بكتاب آخر لا يعترض أحد على وجوده بين يديك ؛ ومن هذه الوسائل أن تضع كتاب المطالعة ، حين يكون صغير الحجم . بين دفتيّ كتاب مدرسيّ أو ديني اكبر حجماً منه ؛ ومنها أن تنتزع غلاف الكتاب كليّة فلا يظهر بين يديك ما يلفت النظر أو يجتذب العيون المتلصصة . وكنت الجأ إلى الوسيلة الأولى حين أجيء الى الجامع مبكراً ، فلا يكون مكتظاً فيتسنى لي أن أجد مكاناً انعزل فيه . أما الوسيلة الثانية فألجأ اليها حين يرغمني اشتداد الحر على الإلتجاء الى حرم الجامع المسقوف . وأما الوسيلة الثالثة فكنت استفيد منها حين يكون صاحب الكتاب الذي أعارني إياه قد انتزع ، هو نفسه ، غلافه .

هذا الاسلوب في المطالعة كوّن لدي عادة القراءة بسرعة ، حتى مع اضطراري للاحتفاظ بتنبهي لما يحيط بي . وعليّ أن اقول اني بلغت ، في هذا المجال ، سرعة قياسية ، وصار بامكاني ان أقرأ كتاباً صغير الحجم في جلسة واحدة ، وبلغت في التنبه لما حولي شأواً صار بامكاني ، معه ، أن اتابع حواراً يدور حولي فيما أنا ماض في القراءة .

وفي بعض الاحيان ، كان يقع لي كتاب من النوع الذي يحبذ وجوده

في أيدي الصغار ، كأن يكون الكتاب دينياً أو لغوياً أو واحداً من الكتب التي شاع تداولها مما يتناول شخصيات التاريخ الاسلامي . من الطبيعي ، في حالة كهذه الحالة ، أني كنت أتعمد إظهار الكتاب ، بل كنت لا أتورع عن حمله معي الى مجلس جدي حين أنضمّ اليه أو التوجه بالكتاب الى واحد من رجال الدين والاستفسار عن معاني بعض العبارات . أما الجد فكان يغض النظر دون أن يبدو ، ولو مرة واحدة ، حفيّاً بانصرافي لكتاب غير مدرسيّ . وأما رجال الدين فكانوا يبتهجون بلجوئي اليهم ويبالغون في الاطراء ويثنون على انصرافي الى التزود بالمعرفة الصحيحة في هذه السن المبكرة .

لقد شكلت المطالعة ، بالنسبة لي ، التعويض الذي شكله الوجود في المدرسة . وكان يحزّ في نفسي أن الوقت المتاح للمطالعة قصير ، بالقياس إلى رغبتي وحاجتي للتعويض .

أما المنزل فقد تحول ، مع الوقت ، الى أتون تشتعل فيه المنازعات . كانت الخلافات تشتعل ، في البداية ، منازعات بين أعضاء الاسرة لا تدوم طويلاً ، بل تتوقف بإرادة المتنازعين لأنهم لا يريدون أن يمضوا بها بعيداً ما داموا يعرفون ان من المتعذر حسم اسباب النزاع . فلما حضر خالاي نافذ وعمر في العطلة . وكانا قد صارا هما مموّلي الاسرة بالدخل النقدي الوحيد الذي تحصل عليه ، نشأ وضع جديد ، وشاءت زعيمتا المعسكرين المتنازعتين أن يعاد ترتيب شوون الاسرة في ضوء التطورات التي استجدت . لقد جرى التحول على نحو معقد ، وقد يصعب على من لم يختبر العيش مع ضرتين متنازعتين ان يفهمه . وأنا اشعر بأن عليّ ان اتبسط في شرح الأمر لك لاجعله مفهوماً .

لم يكن من شأن فشل الجدّ في الحصول على عمل يليق به ، وبالتالي على دخل خاص به . أن يزعزع مكانته كرب للاسرة تام النفوذ على أعضائها ، فالرجل هو الذي أهّل أولاده للعمل وأعدهم لشيل العبء حين يعجز هو عن شيله . ومن المألوف أن يضطلع الاولاد حين يكبرون بأعباء الاسرة المالية ، بعضها أو كلها ، فيما تبقى للأب سلطة الرعاية والتوجيه ،

فتظل الاسرة متماسكة بالتي هي احسن ، او بالتي هي أسوأ ، وتحتفظ بوحدتها تحت سلطة الاب والحقيقة ان خاليّ نافذ وعمر ، كليهما ، التزما بالتقاليد التزاماً حازماً ؛ فكانا يرسلان جلّ راتبيهما الى الجدّ في دمشق . وللجدّ ، بعد ذلك صلاحية كاملة في انفاق المبلغ بالطريقة التي يجدها مناسبة ، لا ينازعه في هذه الصلاحية أحد . ولم يعط خالاي لنفسيهما حتى حق السؤال عن أوجه الصرف أو إبداء الرأي في أولوياتها . وقد بدا الخالان راضيين تمام الرضى بمسلكهما هذا . فهو الذي يظهرهما بمظهر الوفيين ويضفي عليهما صفة الولدين المطيعين للأب والمضحيين من أجل الاسرة ، وكل هذه صفات حميدة يحتسبها المجتمع من مكارم الاخلاق وتحثّ تعاليم الدين ، أيضاً ، على التحلي بها . بالرغم من ذلك ، لم يتحقق الاستقرار ، وقد زعزعته ارادتان متعارضتان : إرادة أم عدنان في تثبيت نفسها كسيدة أولى للاسرة ، وارادة جدتي في أن تستقل من جديد ، مستفيدة من كون أولادها ، هي بالذات ، وليس أولاد الضرّة ، هم الذين يموّلون الجميع .

ومما لا شك فيه أن أم عدنان استاءت حين وجدت نفسها في كنف زوج يدير شؤون الاسرة من المورد الذي يقدمه أولاد ضرتها . ومهما بدا الولدان العاملان مطيعين للأب ، ما كان لأم عدنان أن ترتاح في وضع صارت فيه ، هي وأولادها ، تحت رحمة الاخرين . ووقعت ام عدنان فريسة القلق من أن ينجم عن الوضع الجديد تبديل في موازين القوى ومواقع النفود فتفقد هي تميزها . ولعلّ أشدّ ما أقلق أم عدنان أن يؤدي الوضع الجديد الى تأكيد نفوذ أم الولدين العاملين فينتهي الامر الى أن تصير هذه الام صاحبة الأمر والنهي .

وقلق ام عدنان وتحسبها مما قد يجيء به المستقبل ، حملاها ، كما سبق أن بينت لك ، على نوع من السلوك اتّسم بالتوتر الدائم المقرون بالرغبة في تأكيد الذات واظهار النفوذ . وفي سياق ذلك ، دأبت ام عدنان ، بمبرر وبغير مبرر ، على حثّ الجدّ على تأكيد مكانته كراعٍ وحيد للاسرة . وكانت تقسو على الجدّ في هذا المجال ، فتبلغ ، أحياناً ، حدّ التعريض

بقصوره عن العمل وتستثير حساسيته وتحثه على البحث عن عمل خاص به . واخذت أم عدنان تنتقد أي مظهر من مظاهر الاستقلال عن الاب في سلوك ابناء الضرة ، عادّة إياه انتقاصاً مقصوداً من سلطته وتمرداً عليه . وأوغلت أم عدنان في الانتقاد حتى بلغت حدوداً متطرفة ، ودأبت على مطالبة الجدّ بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة ، بما في ذلك طريقة الاكل واللبس وانتقاء الاصدقاء أو زيارتهم . وإذا اخذنا بعين الاعتبار كثرة عدد أفراد الاسرة فلك أن تتصور كيف تحولت تدخلات ام عدنان الى نفيق متصل ومزمن ، وما هي مشاعر الاستياء والحنق التي اثارتها هذه التدخلات .

في غضون ذلك ، تحامل خالاي عمر ونافذ ، وهما المقصودان اكثر من غيرهما بحملات ام عدنان ، على نفسيهما ، وجهدا ، ما امكنهما ذلك ، للاحتفاظ بالاحترام اللازم لامرأة ابيهما كجزء من مراعاتهما لمكانه هذا الاب . لكن المرأة المستاءة لم تقابل تأدب ابني ضرّتها بما يوجبه من تقدير . لقد خشيت ان تظهر الرضى عن سلوكهما فتتعزز مكانتهما في الاسرة ؛ فاتبعت نحوهما سلوكاً بارداً وناقداً على الدوام ، وأصرت على أن تتصرف بوصفها ضحية لطمعهما المفترض في مصادرة سلطة الأب . واتذكر مرة تخلف فيها نافذ عن أداء صلاة المغرب مع الجدّ في الجامع ، ثم تأخر في العودة الى المنزل بعد أن عاد الجدّ اليه ، دون ان نعرف سبب غيابه . وقد شاء الجدّ ، الذي بدا على يقين من أن غياب ابنه لن يطول ، أن نؤجل تناول العشاء الى أن ينضم نافذ الينا ، فثارت أم عدنان في وجه الجدّ ، وكان من رأيها الذي عبّرت عنه بصراخ متوتر أن هذا تدليل لا مسوغ له للولد الذي غاب دون إذن من أبيه . وتحدت أم عدنان مشيئة الجد فاعدت المائدة ودعتنا الى الاكل بعبارات آمرة . عندها ، انقسمت الاسرة بشكل واضح : جلست أم عدنان واولادها حول طبق العشاء ، وامتنعت الجدّة فجاراها أولادها ، أما الجد فاعلن ، حانقاً ، أنه لن يتعشى هذا المساء . واقترن ذلك ، كما لا بدّ أن تتوقع ، بنقيق أم عدنان والتعريضات التي راحت توزعها على الجميع . ولما أقبل نافذ ، وكان ذلك

قبل أن تفرغ ام عدنان من تناول العشاء ، انفجرت زوجة الأب في وجهه مرددة اتهاماتها له بالإستهانة بابيه وبالأسرة وبآداب السلوك المحترم . وفوجيء نافذ بالهجوم القبيح ، مفاجأة تامة ، فلم يملك نفسه ، هذه المرة ، فانفجر بدوره ، ورد على المرأة بما بدا لنا أنها تستحقه ، واتخذت ام عدنان الردّ سبباً للعويل والندب ، فراحت تنعى الهيبة الضائعة والسلطة التي فقدها ربّ الاسرة .

خلافاً لام عدنان ، بدت جدتي مدلله مصممة على الاستفادة من الدور الذي يتولاه الخالان كممولين للأسرة . فهذه المرأة التي سبق أن تمتعت في الوطن بالاستقلال الكامل منذ غدر بها زوجها وجاء بضرة . لم يعجبها ان تجد نفسها ، في الغربة ، مرغمة علي العيش مع الضرة في منزل واحد ، ومن المؤكد أنّ هذا الامر قد سبب لها ضيقاً دائماً . وهي لم تألف ، في الوطن ، الاستقلال ، فقط ، بل كانت ، أيضاً ، محاطة دائماً بمن يهتمون بشأنها فيمخضونها الودّ أو يغمرونها بالمجاملات ، وكان هؤلاء يشكلون عدداً كبيراً من الأقرباء والاصدقاء والجيران . أما هنا ، فوجدت الجدّة نفسها منعزلة تفتقد الصحبة الطيبة والاهتمام المثابر بشأنها ولا تجد حولها الا القليل من المحبين . وبهذا وذاك ، انطوت جدتي ، منذ حللنا بدمشق ، على نفسها وافكارها ، واتخذت وضع المراقب الصامت لما يجري في الاسرة ، وما يطرأ على أحوالها من تبدلات . إلا أن هذا لم يعن أن الجدّة كانت بغير طموح أو أنها لم ترسم لنفسها أهدافاً وتعمل لتحقيقها . كل ما في الامر ان الجدّة لم تكن تفصح عما تريد علانية ، بل تتجه لانجازه بتوجيه الأمور في اتجاهه ، دون أن يظهر أن هذا هو أحد اهدافها المرسومة .

احتفظت الجدّة بطبعها المتعفف عن الخوض في سير الآخرين أو الدخول في مشاحنات صاخبة معهم ، لكنها لم تعدم الوسائل التي تعبّر بها عن استيائها ، كلما إقتضى الامر ذلك ، وغالباً ما كان التعبير يجري بالتلميح أو الاشارة . وبحكم طبيعة الوضع في الاسرة ، عدّتنا الجدّة ، ابناءها الاربعة وأنا ، حصتها الخاصة بها ، لكنها لم تحرضنا ضد

الآخرين . وأظهرت الجدّة رضاها بسلوك عمر ونافذ المتسم بالاحترام والولاء لأبيهما ، فهذا ، في مفهوم المرأة المستقيمة ، واجب ، والواجب ، بالنسبة لها ، هو الواجب ، فلا يجور الهزل بشأنه . أما ما لم تتسامح الجدّة به فهو محاولات أم عدنان بسط سطوتها على الأسرة ، وكان الاسلوب المفضل لدى الجدة في المقاومة هو افهامنا أن علينا رفض مجاراة الضرة .

ومنذ قدوم نافذ وعمر لقضاء عطلتهما الصيفية الأولى معنا ، أفهمت الجدّة ولديها أنها لا تحتمل استمرار العيش مع الآخرين تحت سقف واحد . وقالت الجدّة إنها قبلت الامر ، في البداية ، حين لم يكن لدى الاسرة موارد ، أما الآن فدوام الحال من المحال ، ولا بدّ من توفير منزل لها ولنا . لم يدر الحديث حول هذا الامر امامي . لكنني عرفت أن الخالين أفهما أمهما أن الظروف الحالية لا تسمح بتوفير منزل مستقل والانفاق ، بالتالي ، على منزلين ، ومنياها بأن يتم ذلك عندما تتحسن الاحوال ، وطلبا منها أن تصبر لبعض الوقت . وكان كل ما في سلوك الجدّة ، بعد ذلك ، يشي بأنها تصبّر نفسها وتعدّ الاقامة المشتركة أمراً مؤقتاً لا بد أن ينتهي ذات يوم . وتمسكت الجدّة ، في ضوء هذا ، بموقفها في رفض المشاركة في الاعمال المنزلية ، واحتفظت لنفسها بمنزلة الزائرة . وبالرغم من أن جهود خالتي شفيقة كانت تفي بالغرض وأن هذه الفتاة لا تكل ولا تملّ وهي تقوم بما يجب وبما لا يجب عليها من أعمال المنزل ، فإن ترفع الجدّة عن العمل ساء أم عدنان كثيراً . وأغلب الظن أن أمّ عدنان لم تحزر النوايا الحقيقية لضرتها المنطوية على الأمل بالافتراق وإلا لقبلت هذا الوضع ، بصورة أو بأخرى ، وربما رحبت به . لقد انصبّ اعتراض أم عدنان على ترفع الجدّة بوصفه امتيازاً توفره الضرة لنفسها ، وتوهمت المرأة المسكونة بالهواجس ان الجدّة ترفض العمل المنزلي لأنها ترى في تمويل ولديها للاسرة سبباً كافياً لحمل الضرة على الخدمة .

ولعلك تظن أن حصول نافذ وعمر على دخل منتظم والتزامهما بتمويل الاسرة قد حسّن الظروف المعيشية لهذه الاسرة ، وأن من شأن ذلك أن

يلغي العديد من أسباب التوتر والتشاحن ويحقق شيئاً من الانفراج والاستقرار . ولكن هذا الظن ليس الا حكماً متعجلاً ، وهو لا ينطبق على واقع الحال . فقبل أن يعمل الخالان ، حين كان الجدّ يتدبر الامور بشق النفس ، ثم حين استنفذ فرص الاقتراض ، كان أعضاء الأسرة يكتفون بما يسدّ الرمق ويستر العورة في حدودهما الدنيا ، أو يقبلون حتى بما هو دون ذلك . وخلال العام الذي انقضى بين لجوء الجد الى دمشق وحصول ولديه الكبيرين على الوظيفة ، لم تشتر الاسرة قطعة أثاث أو آنية . وكان على الاثاث الموجود في الدار وكذلك الاواني أن تلبي حاجات الاسرة . فكنّا نأكل من طبق واحد . ونستخدم فرشاً وأغطية محدودة العدد . ننام اثنين او ثلاثة على فرشة واحدة ، ونلتحف بلحاف أو بطانية ، ولم يحصل أحد خلال هذا العام على هدَم جديد أو حذاء ، ولم يرد ، حتى في الاحلام ، أن يحصل الاولادَ على مصروف يومي أو يذهب أحدهم الى سينما او مسرح أو يروح على نفسه بالذهاب الى مقهى أو مطعم . وانتفت خلال هذا العام ، الدعوات الى الولائم التي توجبها التقاليد بما في ذلك الردّ على الدعوات التي تتلقاها الاسرة او يتلقاها بعض افرادها . ولم تدفع الاسرة ، طيلة هذا العام ، اجرة الدار التي تشغلها والتي تعهد الجدّ بدفعها مقابل ما تستخدمه الاسرة من حصة حيدر ، شقيق ام عدنان ، واختها ، واعتبرت المبالغ المتراكمة بمثابة دين يتوجب على جدّي دفعه حين تنفرج الأحوال ، فانضافت بهذا ، الى الديون الأخرى المتراكمة عليه .

فلما عمل الخالان وصار للاسرة دخل منتظم ، كانت في الانتظار قائمة طويلة من المطالب الضرورية التي لم يعد بالامكان تأجيل تنفيذها ، وبلغ الحاح الدائنين لاسترداد ديونهم حدّ الاحراج الشديد . وما كان لأية موارد ، حتى لو كبرت ، أن تلبّي هذا كله ، ولا بقي بالأمكان التعلل بقصر ذات اليد .

ثم إن الدخل ذاته لم يكن كبيراً ولا كان بوسعه أن يغطي الطلبات الضرورية بأي حال من الاحوال ، حتى لو لم تكن الديون موجودة . فكل

من الخالين كان قد وقع عقداً مع وزارة التربية للعمل براتب شهري مقداره مائتا ليرة . وكانت الضرائب والرسوم المختلفة تأكل ، سلفاً ، جزءاً من هذا المبلغ ، ثم تجيء حاجة كل منهما لتغطية نفقات اقامته في الغربة التي يعمل فيها وما تتطلبه الوظيفة من هندام ولياقات لا بد منها . وفي الواقع ، ومع تقتير الخالين الشديد على نفسيهما ، لم يكن الفائض ، بعد ذلك ، ليزيد عن مائة ليرة من كل راتب . وما كان لمائتي ليرة ان توفرا اي عيش مقبول للاسرة . فضلاً عن تمكينها من سداد الديون المتراكمة وتلبية اللوازم التي طال الافتقار اليها وتعليم العدد الكبير من صغارها .

والحقيقة أني حين امعنت النظر في الأمر ، بعد أن تقدمت معرفتي بأحوال الاسرة وظروف الحياة ، اقتنعت بأن ما فعله الجدّ للموازنه بين الدخل المحدود والحاجات الكثيرة كان بمثابة معجزة حقيقية . واعظم أوجه هذه المعجزة ، دون شك ، أن الجدّ احتمل المهانة أزاء الدائنين ، وحرم نفسه من أي رفاه ، وتحمل المشقة ، ولكنه وفر فرص التعليم لابناء الاسرة كلهم ويسر لهم المواظبة عليه . نعم . بقينا لا نشبع ، ولا نظفر الا بالقليل من الملابس المشتراة من سوق البالة ، ولا نحصل حتى على الكتب والدفاتر والاقلام إلا بعد عناء ومشاحنات ، وبقيت هيئاتنا زريّة وقاماتنا هزيلة ونفوسنا مثقلة بالهموم ، ألا اننا ظفرنا بالتعليم . وكان السبب الاول ، والاهم ، في تحقيق هذه النتيجة إيمان الجدّ بضرورة التعليم وأولويته على أي شيء آخر .

لقد انتقلت الاسرة ، منذ حصل ولداها الكبيران على الوظيفة ، من مرتبة الاسرة المعدمة التي يثير وضعها الشفقة الى مرتبة الاسرة ذات الموارد . لكن هذا الانتقال لم يستتبع تخطي عتبة العوز الذي غرقت فيه أسر اللاجئين بمعظمها . كل ما حدث أن الشفقة لم تعد واردة ، بل ان هناك من نظر ألى الاسرة نظرة تنطوي على الحسد . وهذا الانتقال وما ترتب عليه فاقما الامور بدل تحقيق الانفراج . ففي داخل الاسرة . وخصوصاً في مجال العلاقات بين معسكريها ، اشتد تواتر الاحتكاكات فصارت دائمة أو شبه دائمة . وقد انضاف الى اسباب الاحتكاك السابقة

هذا السبب الجديد ، وهو الاختلاف على استخدام الموارد ، حين يحس هذا أو ذاك من المعسكرين أنه مظلوم ، لسبب أو لآخر . وفي العلاقة مع المحيط ، برزت أسباب جديدة للتوتر . خذ ، مثلاً ، علاقة جدّي مع دائنيه . كان هؤلاء يرغمون أنفسهم على التروي في المطالبة بسداد الديون حين كانت الاسرة بغير موارد ، فلما رأوا أن اثنين من الابناء حصلا على الوظيفة المعتبرة لم يعد بالامكان استمرار الصبر . وقد انهالت الطلبات وتواترت الضغوط على الجد . وبدا الجدّ عاجزاً عن تلبية المطالب المتزايدة مثلما كان عاجزاً عن تجاهلها . وفي محاولة الجدّ للموازنة بين هذا وذاك من الدائنين ، ساءت علاقته بالجميع ، تقريباً ، وانتهى هو نفسه الى مهاجمة دائنيه كافة ، مما استتبع سلسلة متراكبة من الافعال التي تسمم الحياة . ووضع الجدّ في نهاية المطاف قاعدة طريفة للتعامل مع الديون المتراكمة عليه ، فميز ، أولاً ، بين الديون الناجمة عن خسارته في التجارة والاخرى التي قدّمت له كقروض شخصية . وقال الجدّ لمن استدان منهم ثمن بضائع : « ديون التجارة تسددها التجارة وحدها ، وما دمت لا أتاجر فلا سداد ، ولكم ان تحسبوني في حكم التاجر الذي أفلس» . اما الديون الاخرى فتعهد الجد بالعمل على سدادها حين تتهيأ الظروف الملائمة . ثمّ خذ ، مثلاً ، أيضاً ، مسألة الواجبات الاجتماعية التي تحرص الاسر المحافظة ، عادة ، على الوفاء بها ولو على حساب هنائها . فعندما كانت الاسرة بلا موارد ، لم يعد من الضروري لها ، أو لأي من أصدقائها ، أن تلتزم بهذه الواجبات وتتكبد أكلافها . فكانت الاعياد تنقضي دون احتفالات ، أو دون احتفالات مكلفة . وتمّ التغاضي عن توجيه الدعوات إلى الولائم في المناسبات التي توجبها التقاليد . وإذا أرغمت الاسرة على استقبال ضيف ، كان من المألوف أن تقدم له الطعام المتواضع ، المعدّ لأعضائها دون تحضير أصناف خاصة . بل كان من المألوف ، أيضاً ، أن يلبي رجال الاسرة الدعوات الموجهة إليهم من الاصدقاء والمعارف دون أن يردوا الدعوة بمثلها .

وانطبق الامر ذاته على الهدايا ، والنقوط ، والمجاملات الأخرى

المماثلة . فلمّا صار للأسرة موارد ، لم يبق من اللائق أن تستمر في الأخذ دون عطاء . بل إن معارف الاسرة الذين بادروها قبل ذلك بالدعوات والهدايا ترقبوا أن ترد الاسرة لهم ما تراكم من جمائلهم السابقة عليها . وكان أمام الجدّ ، في هذا المجال ، واحد من خيارين كلاهما مرّ : التعرض للملامة والنبذ من الآخرين ، او التقتير في توفير الضروريات لأفراد الاسرة . وهنا ، أيضاً . وفي محاولته الموازنة بين الامرين ، وجد الجدّ نفسه غارقاً في سلسلة مركبة من المشاكل .

خذ مثلاً آخر ، الواجبات المرتبطة بصلة الرحم . وهي ، في معناها الحقيقي ، شكل أوليّ من أشكال التكافل الاجتماعي بين الأقرباء ، حيث تفرض التقاليد ، وكذلك أحكام الشرع ، أن يبرّ المقتدرون أقرباءهم ويساعدوا المعسرين منهم على وجه الخصوص . وحين كنّا ما نزال في بلادنا ، أبدى الجدّ حرصاً شديداً على اتباع هذا التقليد ، وخصوصاً تجاه النساء من قريباته . وبهذا ، لم يكن الجدّ يؤدي واجباً يؤمن بأهميته ، فحسب ، بل كان يعزز ، أيضاً ، مكانته الاجتماعية كوجيه من وجهاء آل الحوراني ويسدّ الافواه الكثيرة التي تنتقد هذا او ذاك من أوجه سلوكه ويحسّن سمعته بين الناس . وفي الغربة ، صار معظم الاقرباء ، إن لم نقل كلهم ، من المعسرين . وقد توزعتهم محطات المنفى في مخيمات قطاع غزة والضفتين الشرقية والغربية وقراهما ومدنهما . وظن كثير من هؤلاء أن الجدّ الذي التجأ الى دمشق يعيش في وضع ميسور . وشاع بين آل حوراني أن الجدّ خرج من البلاد برأسمال معتبر وهو يستثمره في المدينة التي عرف تجارها من قبل . ولم ينتظر المعوزون الذين اشتدت حاجتهم للعون أن يبادر الجدّ من تلقاء نفسه إلى مساعدتهم ، بل بعثوا هم بطلباتهم اليه ، ولما لم تجد طلباتهم الأولى الإستجابه ، قرنوا طلباتهم التالية باللوم والتقريع ، المبطنين او الصريحين . وأنت تعرف أن الجدّ كان عاجزاً ، فعلاً عن المساعدة ، وهذا ما جعل آلامه مضاعفة . واتذكر من بين المحتاجين للعون ، ممن آلم وضعهم جدّي اشدّ الالم ، الناجين من ابناء جدّي سلمان . ولعلك ما تزال تذكر أن المنزل الذي لجأ اليه جدي سلمان في الفالوجة تعرض ، أثناء حصار الاسرائيليين لهذه القرية ، لغارة

جويّة أودت بحياة ربّ الأسرة وعدد من أبنائه . وقد نجا من هذه الغارة ولد واحد ، من مجايليّ ، هو عمي محمد ، وبنتان هما الصبية نظيرة والطفلة فوزية ، وأمهم . وحين خرج الناس من حصار الفالوجة ، انتهى أمر هذه البقية من الاسرة إلى الإقامة في مخيّم العروب القريب من الخليل ، ولم يتسنّ لها أن تحصل على أي مورد زيادة على ما تجود به الجهات الخيرية . وكان من الطبيعي أن يتطلع الأولاد المعوزون الى عمهم الموجود في دمشق وينتظرون العون منه .

كانت طلبات العون ، الصريحة أو الملمحة ، تأتي عبر الرسائل التي ينقلها البريد ، أو عبر الاشخاص من المعارف المشتركين الذين يقودهم الترحال الى دمشق . وقد الف الجدّ ان يجيب على الطلبات مبدياً إعتذاره وممنياً أصحابها بالعون حين تتبدل الأحوال . فلما حصل هذا التبدل ، وصار في أسرة الجدّ موظفا حكومة معتبران ، بدأت الالسنة ، في تجمعات الهجرة المتباعدة ، تسوط سمعة الجدّ وتتهمه بعدم الوفاء وبالتنكر لذوي القربى . وكانت أصداء الأقوال تصل الى دمشق فتزيد من آلام الجدّ العاجز عن اسكات الالسنة بالقليل أو بالكثير . وبالرغم من استمرار العسر ، لم يخلُ الامر من مناسبة أو أخرى ترغم الجد على التضحية بحاجات اسرته ، كأن يفاجئه احد الأقرباء بزيارة تقتضي نفقات اضافية للاحتفاء به ، ودفع اجرة سفره في العودة ، او ترسَل هدية ما مع مسافر من دمشق لهذا أو ذاك من الاقرباء الحميمين . فإذا قدّرت كم هو كبير عدد الاقرباء . فبإمكانك أن تدرك أن مبادرات الجد القليلة والمتواضعة بقيت دون المستوى الذي يسكت الالسنة الناقدة . وقد شاع في تجمعات آل الحوراني في المهاجر أن دمشق ، هذه المدينة الكبيرة ، أفسدت عبد المجيد وأهله وأنستهم أصلهم وأقرباءهم وتقاليدهم .

وهناك ، بالطبع . اشياء اخرى كثيرة ، انفتحت بها أبواب للإنفاق منذ صار للاسرة هذا المورد المنتظم ، فزادت الاعباء المالية بحيث امتصت المورد ، دون ان تؤدي إلى تحسن حقيقي في مستوى معيشة الأسرة . خذ حالنا ، نحن الأولاد الصغار ، مثلاً . فقد كان من المتعذر أن نحصل على

ما يحصل عليه أقراننا من مصروف الجيب . وقد أمضينا ، غالب وأنا ، سنتنا الأولى في المدرسة دون أن نحصل على شيء . وكنّا نراقب الأولاد وهم يتلذذون بشراء الحلويات والمرطبات أثناء الاستراحة بين الدروس ، فيتضاعف احساسنا بالعوز والحرمان . وإلى هذا ، كنّا نتكبد عناء المجيء إلى المنزل في استراحة الغداء والعودة إلى المدرسة ثانية ، لا لشيء إلا لأن ظروف الأسرة لا تسمح بتوفير زوادة لنا مما يمكن حمله الى المدرسة وأكله أمام التلاميذ الآخرين . وكانت الاسرة ، وفي المقدمة ربّها الحساس إزاء أولاده ، تعرف ما نعانيه من حرمان ومشقة . فلما انتقلنا الى المرحلة الاعدادية ، نظم الجدّ الامور بحيث يحمل الواحد منا رغيف خبز من المنزل ويحصل على خمسة قروش ، أو فرنك ، ليشتري شيئاً يأكله مع الخبز ، فلافل ، او جبنة ، أو أي شيء من هذا القبيل . وخلال عام اللجوء الأول ، لم تعرف الأسرة الفاكهة في وجباتها ، الا فيما ندر . وكان جدّي من المؤمنين بأن الفاكهة هي ألزم المآكل لصحة البدن ، وكان يؤلمه أن تغيب عن الوجبات . فلما توفر الدخل ، تعجل الجدّ توفير الفاكهة ، وإن جرى توزيعها بتقنين شديد ، فكان يوزع حصص الفاكهة علينا بنفسه . واللحم الذي حرمنا منه معظم الايام ، لمدة طويلة ، تسرب الى بعض الاطباق في بعض الايام . صحيح ان ما كنا نحصل عليه من اللحم كان قليلاً ، واننا غالباً ما كنّا نأكله مفروماً لكي يمتزج بخضرة الطبق ، إلا أن ثمن هذا القليل من اللحم لم يكن قليلاً في ظروفنا . وجدتي مدلله ، التي هي بطبعها ، وبحكم الوضع الذي رسمته لنفسها ، غير متطلبة ، كلفت موارد الاسرة نفقة ما كان بالأمكان الاستغناء عنها بأي حال من الاحوال . فتمسك الجدّة بالزي الذي الفته في القرية ، واصرارها على أن تبدو ، دائماً ، بمظهر لائق ، وتعذر الحصول على هذا الزي في دمشق ، اقتضت انفاق بعض المال ، بين وقت وآخر ، لاستقدام هذا الهدم أو ذاك من الضفة الغربية . وأم عدنان التي تحولت شكواها من سوء الاحوال الى احتجاج مزمن استخلصت لنفسها بعد ان توفر الدخل النقدي عدداً من الامتيازات التي تلائم سيّدة مدينية مثلها ، فقد زادت عنايتها بهندامها ،

وأخذت تحصل على متطلبات الزينة وزيارة الحلاّقة وتصفيف الشعر على الموضة ، واستأنفت تقليد استقبال الزائرات في أوقات محددة وتقديم الضيافة الملائمة .

بكلمات أخرى ، أدى توفر المورد ، غير الكافي للوفاء بالحاجات كلها ، إلى حلّ بعض المشاكل ، لكنها خلق مشاكل أخرى أو فاقم مشاكل كانت قائمة ، وكان العوز يؤجل الإنشغال بها . بالرغم من ذلك ، ظل من الممكن أن تستمر الحياة ، على نحو أو آخر ، وأن لا ينطفيء الطموح إلى مستقبل أفضل .

٦ مع المشايخ وفي المكتبة الظاهرية

بدأ العام المدرسي الجديد وقد صرت ، إذن ، تلميذاً في الصف السادس ، أول صفوف المرحلة الاعدادية . غادرنا الخالان الى قريتيهما النائيتين ، وانتقل غالب إلى الصف السابع ، فلم يبق ما يجمعني به في الدراسة . وانطوت الجدّة على أملها بالاستقلال في السكن ، وأبرز سلوكها الحدّ الواضح الذي اقامته بينها وبين الضرة ، واشتدّ إحساس أم عدنان بالخذلان فاشتد معه توتر سلوكها . وبقي الجدّ موزع المشاعر بين الجميع جاهداً للإحتفاظ بما يمكن الابقاء عليه من هيبة الرجل الكبير ، غير قادر على إطفاء المنازعات الصغيرة والكبيرة التي تشتعل في جو الاسرة .

ووجدتني أزداد انصرافاً إلى الأنشطة التي تبعدني عن جو الاسرة أطول وقت ممكن . وفي المدرسة ، صرت معدوداً بين التلاميذ المجتهدين الذين ينتبه اليهم المدرسون والمدير ويشجعونهم . وصرت في الجامع الأموي من

الزوار المواظبين ، يعرفني إداريو الجامع وخدّامه وبعض المترددين عليه من المصلين ورجال الدين ، ويثنون على ما يظنون أنه تقواي المبكرة ، ويقدرون حرصي على التردد على المكان المبارك . وتوطد تعلقي بالمطالعة ، ولم أعد انتظر الفرصة التي تضع بين يديّ كتاباً عابراً ، بل رحت أبحث عن الكتب بلهفة وأقرأها بانتظام .

في هذا العام ، توفر لي اكتشافان هيّئا لي مزيداً من الاستغراق في ما يبعدني عن هموم المنزل وفتحا أمامي آفاقاً جديدة لتحصيل المعرفة . فقد اهتديت ، منذ بداية العام المدرسي الجديد ، إلى حلقة مشايخ أدرس فيها علوم اللغة الى جانب علوم الدين . وفي نهاية العام . اهتديت الى المكتبة الظاهرية حيث يمكن أن أقرأ أي كتاب . وكان هذان الإكتشافان أهمّ فتحين حصلت عليهما في تلك المرحلة القاسية من الحياة .

أنت تعرف أن أوقاتي في الجامع الاموي توزعت ، حتى ذلك الوقت ، بين المشاركة في مجلس جدّي أو الاختلاء إلى كتاب أو تبادل الحديث مع الاقران الذين اتّسعت دائرة معارفي بينهم . أما حلقات الوعاظ المتنوعين المنتشرة في أرجاء الجامع فلم أجد في نفسي ، في أي وقت من الاوقات ، ميلاً حقيقياً للإنضمام اليها ، أثّر فيّ ، دون شك ، نفور الجدّ من الوعاظ ، وكانت لغة الوعاظ وأساليبهم تعزز هذا النفور . وهكذا ، اقتصرت علاقتي بحلقات الوعظ على دقائق أمضيها واقفاً إزاء هذه الحلقة أو تلك فأسمع حديثاً أو طرفة ، لأنصرف عنها بعد ذلك . وقبل أن أحدثك عن اكتشافي الأول ، أحب أن تعرف أن واحداً ، فقط ، من بين المتحدثين في الحلقات شكل الاستثناء الوحيد في موقفي واجتذبني الى حلقته . لم يكن هذا واعظاً بالمعنى الكامل للكلمة ، ولا كان نشاطه في الحلقة مقتصراً على الوعظ ، وهو لم يتبع ، على كل حال ، الاسلوب الخطابي الجامد الذي يتبعه الوعاظ المحترفون . أما ما الذي كانه الشيخ حسن ، الذي اتحدث عنه ، فحالة خاصة قد يصعب أن تدركها ما لم أصف لك أمره بشيء من التفصيل .

قدم الشيخ حسن ، الذي لا أعرف له اسماً آخر ، من أحد بلدان أفريقيا السوداء ، أخرجه من بلده سبب غير معروف ، وانتهى به سبب آخر غير معروف إلى الحلول بدمشق والاقامة فيها إقامة دائمة . وكان الرجل ، حين عرفته أنا وهو في منتصف العمر ، بادي الفقر ، على ما تظهره أحواله كلّها ، ويبدو أنه صار في دمشق معيلاً لأسرة دون أن يتقن مهنة بعينها او يحظى بعمل ثابت . ولعل هذا هو ما ألجأ الشيخ حسن الى التكسب بهذا الذي يشبه الوعظ .

تميز الشيخ حسن بمظهر محبب ، فهو يطل على الناس بوجه حلو التقاطيع الى حدّ ملفت للنظر ، وحين يتحدث الشيخ يشع بياض عينيه الساطع ، وسط سواد الوجه ، ببريق أخاذ ، فإذا تحمس في الحديث صار من المتعذر مقاومة جاذبية هذا البريق ، ولا بد أن يجد المستمع نفسه مجذوباً إلى الحديث بقوة يتعذر تحديد مصدرها . وللشيخ ، إلى هذا ، هيئة خاصة ، أيضاً ، فهو ليس بالقصير ولا بالطويل ، كما أنه ليس نحيلاً ولا بديناً ، وليس في بدنه أي عيب . وكان من شأن هذا أن يجعل البدن شديد التماشي مع تقاطيع الوجه الحلوة ويوفر للرجل في حركته وسكونه رشاقة تزيده جاذبية . وكان الشيخ شديد العناية بنظافة ملابسه ، كان يلبس قمبازاً بتفصيلة دمشقية ويجلببه بالجلابية الافريقية الفضفاضة ، ويعتمر عمامة هي وسط بين العمامة الدمشقية المنمنمة وغطاء الرأس الافريقي الرحراح . وكنّا نراه ، كل الوقت ، بالقمباز ذاتيه والجلابية والعمامة ذاتيهما ، لا يتبدل أي منها ، دون أن ينتقص هذا من نظافتها الخارقة . وكانت حلقة الشيخ حسن تضم سميعة مواظبين ، هم خليط من فقراء الحيّ العاطلين عن العمل وأجراء الحوانيت المجاورة والباعة المتجولين ومن في حكمهم ، كما تضمّ مستمعين طارئين تتنوع هيئاتهم ومقاماتهم مع تبدل الظروف والفصول . وخلافاً للعادة المتبعة حيث يختار الوعاظ مجالسهم قرب الاعمدة التي تتصدر حرم الجامع ، اختار الشيخ حسن مجلسه بجوار الجدار الذي يفصل الحرم عن الباحة الخارجية ، قرب باب من الابواب المفضية إلى هذه الباحة . وكان فتح الباب في الأيام

الحارة يتيح للمستمعين الإسترواح بالهواء الطازج .

والى هذا التميز كلّه ، تميز الشيخ حسن ، أيضاً ، بلهجة خاصة ، تشتمل على غرائب لا حصر لها في التعابير وفي النبرات . تكونت هذه اللهجة من مزيج ضمّ ما بدا أن الشيخ تعلمه من العربية الفصحى التي يستخدمها الفقهاء وما التقطه من اللهجات العامية المتعددة في البلاد العربية التي طاف بها ، ثم ما انضاف اليه من العامية الدمشقية التي التقط الشيخ العديد من تعابيرها ونبراتها دون أن يتقنها . وتراوحت تعبيرات الشيخ بين الصعوبة التي تكلف المستمع جهداً خاصاً لالتقاط المعنى ، والطرافة التي تحمل هذا المستمع ذاته على الابتسام او حتى على الضحك . وبهذا ، أيضاً ، صارت لهجة الشيخ ، هذه الخاصة تماماً ، أحد عناصر الجاذبية التي ينفرد بها مجلسه . وكان الشيخ ذاته يدرك ما تشتمل عليه لهجته من غرائب ، وقد ألف تنوع ردود فعل المستمعين أزاءها . وكان من عادة الشيخ أن يسأل مستمعيه عما إذا كانوا يفهمونه ، حين يسبقه لسانه إلى الادلاء بعبارة معقدة ، كما كان يشارك مستمعيه الضحك حين تدفعهم تعابيره الطريفة إلى الضحك . وفي الحالتين ، كان الشيخ يبدو راضياً لأنه يدهش مستمعيه ويحظى بانتباههم الكامل ، ولو على حساب الاغلاط اللغوية التي يقع فيها . وكان ما يعرفه الشيخ من علوم الدين شبيهاً بما يعرفه من علوم اللغة واللهجات : قليلاً من المعارف في تفسير القرآن والحديث النبوي والفقه والتجويد ممتزجة بركام من المعلومات المتداولة والحكايات والاساطير وحتى الخرافات . وقد زيّن هذا كلّه الكثير مما يحفظه الشيخ من الاقوال المأثورة والأدعية والأوراد الجاهزة .

وبحصيلة في اللغة والدين ، كهذة الحصيلة ، تميز وعظ الشيخ حسن باسلوب ونكهة خاصتين به ، وكان أميز ما يميّزه الطرافة والجاذبية . كان الشيخ يجيء الى مجلسه المعتاد في وقت يسبق صلاة المغرب ، ويقعد بحذاء بابه المفضل ، ويضع أمامه منصة من هذه المنصات الخشبية المعدة لاحتواء كتاب ، ويفرد بين دفتي المنصة كتاباً بعينه لا يتبدل ، وهو كتاب مجلّد بغلاف اخضر سميك حال لونه وأمحت حروف عنوانه ، مما يجعل

من المتعذر على جلساء الشيخ ، بمن فيهم القريبون من المنصة ، التعرف على هذا الكتاب . وفور جلوسه ، يبدأ الشيخ بقراءة بعض محفوظاته من آيات القرآن ، وغالباً ما تكون من الآيات التي تحذر من عقاب الربّ او تبشر المتقين بثوابه . وهو يتلو القرآن بطريقة متميزة هي الاخرى ، فلا يجاري المقرئين الحديثين الذين يلتزمون بقواعد التجويد ويتفننون في الأداء فيطربون سامعيهم ، ولا يبلغ شأن المرتلين المقتدرين الاتقياء الذين يبثون روح الخشوع ، بل يخلط هذا بذاك ، ويلون طبقات صوته ونبراته كما يحلو له ، حسب فهمه لمضمون الآية واجتهاده بشأنها وقوة رغبته في إبلاغ رسالتها إلى السامع . ويكون شروع الشيخ في القراءة بمثابة إعلان عن وصوله ، فيلتقط متابعو مجلسه الدعوة ويتوافدون اليه تباعا ويتحلقون حول الشيخ في مواجهة الباب ، فيما يواصل هو القراءة ويحصي بعينيه عدد الحاضرين . وحين يطمئن الشيخ الى توفر العدد المناسب من المستمعين ، يختتم القراءة ، ويدعو جمهوره لقراءة الفاتحة ويرددها هو بصوت مسموع ، ثم يمسح وجهه براحتي كفيه علامة على التبرك بما قرأ . بعد هذا الافتتاح ، يتجه الشيخ إلى الكتاب بمهابة ، ويقلب صفحاته ، ثم يتوقف عند واحدة منها ، وينظر اليها ملياً قبل أن يشرع في الحديث . وقد شاع بين جلساء الشيخ أن الكتاب بالنسبة له ليس اكثر من زينة . والواقع أن الرجل كان ينسى الكتاب حين يمعن في الحديث ولا يتذكره إلا حين يختتم حديثه مع أذان المغرب ، فيطويه .

أما حديث الشيخ ، ذاته ، فهو ، أيضاً ، خليط من الوعظ المباشر وغير المباشر والحكايات التاريخية أو الراهنة والاساطير والخرافات ، يرددها بهدف إيضاح المعاني التي يودّ ايصالها لمستمعيه ، ويخللها بمقتبسات من القرآن والحديث النبوي والأقوال المأثورة والحكم والأمثال الشعبية التي يرددها لتثبيت هذه المعاني . ينتقل الشيخ من لون الى آخر دون مقدمات ودون موجبات منطقية للأنتقال .

وقد يقطع الرجل قولاً مأثوراً من منتصفه ليقصّ حكاية ، او ليوجه ملاحظة لمستمع يظن أنه شارد الذهن ، أو ليمازح آخر او يسأله عما فهمه

من الحديث ، دون ان ينتظر الجواب . أما الاسئلة التي يوجهها المستمعون والملاحظات التي يبدونها ، فإن الشيخ يعلق عليها بالطريقة ذاتها او لا يعلق ، حسب الاحوال . وقد يصل الشيخ الى حدّ تقريع سائل إذا اشتمّ من سؤاله رغبة في التملص من واجب ديني او اجتماعي او استباحة أمر محظور . وقد يثني الشيخ ثناء شخصياً يتفنن في أدائه على سائل آخر . يفعل الشيخ ذلك . في الحالتين ، بصخب وحميمية تجعل رواد مجلسه شركاء في المجلس وليس مجرد متلقين وتلغي الحدود التي تفصل ، في العادة ، بين الواعظ وسامعه . ويتعمد الشيخ أن يشرك مستمعيه في هموم بعضهم البعض : إذا حزر الشيخ ، او عرف ، أن أحد مستمعيه في ضيق ، استوضحه عما يضايقه . واذا كان ما يضايق المستمع مما يمكن البوح به أمام الجمهور ، أتاح له الشيخ فرصة البوح ، ثم تطوع بتقديم النصائح الملائمة واستشهد بالجمهور لتأكيد صواب هذه النصائح . وإذا كان ذلك مما يصعب البوح به ، طلب الشيخ من الجمهور ان يشترك معه في الدعاء الى ربّ السماء كي يفرجها على المستمع المكروب ، وشرع في تلاوة الدعاء الملائم حاثاً الجمهور على أن يردده وراءه . وحين يعرف الشيخ أن أحد مستمعيه ظفر بحظ في الحياة ، لنجاح في الدراسة ، او ربح في التجارة ، أو زيجه ، أو مولود ، أو ترقية في العمل ، فإنه يطلب من هذا المحظوظ أن يحمد الله ويشكره جهاراً ويعينه على انتقاء العبارات التي يرى الشيخ أنها ملائمة للاقرار بجمائل الربّ على عباده . حتى اذا استوفى الشيخ جلّ ما في جعبته وجعب مستمعيه ، وأدرك أن موعد صلاة المغرب قد اقترب ، شرع في فصل الختام في حديثه . والختام يتم ، دائماً ، بأداء دعاء جماعي موجه لربّ السماء يردده المستمعون وراء الشيخ ، او بورد يتلوه هو ويردده المستمعون . في هذه اللحظات ، يكون التواصل بين الشيخ ورواد حلقته قد استكمل وبلغ الذروة ، ويكون المجلس كله غارقاً في جوّ موحد يعطره هذا اللون من الوجد الصوفي الذي ينسى الغارق فيه همومه ويندمج مع الجماعة . وفي هذه اللحظات ذاتها ، يتبرع واحد من رواد المجلس ، هو ، على الأغلب ، من أصدقاء الشيخ ، فيحمل

على كفّه طاقية أو اناء ويتجول بهدوء بين رواد الحلقة فيجمع ما يجودون به من مال ، ثم يضع الحصيلة في جيب الشيخ الذي يكون منصرفاً الى قيادة التلاوة الجماعية لورد الختام . وهكذا ، يدفع المقتدرون من المستمعين ثمن الوقت الممتع الذي امضوه بصحبة الشيخ ، دون ان يرغمهم أحد على ذلك او يلومهم إن امتنعوا عن الدفع ، ويحصل الشيخ على رزقه ، دون أن تمتهن كرامته .

وبالرغم من أن فنون الشيخ حسن لم تجتذب جدّي الى الحلقة ، فقد اشتثناه الجدّ من حكمه القاسي على الوعاظ . وكان من رأي جدّي أن الشيخ حسن رجل على قدّ حاله وأنه غريب ديار ، مثلنا ، وهو ، لهذا ، يستحق الشفقة . بل إن الجدّ اعتاد أن يمحض هذا الشيخ شيئاً من الود الظاهر ، فكان يبدأه بتحية ودودة كلما التقاه ، أو يوجه له الثناء إذا مرّ بمجلسه . وقد شجعني تعاطف جدّي مع الرجل الجذاب على أن استأذن الجدّ في الاستماع الى حديثه . وجاء جواب الجدّ مختصراً وغامضاً : « هذا لا يضرّ ، ان كنت تحبّه ، لكنه ، صدقني ، لا ينفع » . وبإذن ، كهذا الإذن ، حمّال أوجه ، لم أصِرْ من جلساء الحلقة المدمنين ، ولكني كنت أقف في طرف الحلقة واستمع لحديث الشيخ كلما تسنّى ذلك ، واستمتع به .

وذات يوم ، وكنت قد توجهت الى الجامع للإنضمام إلى الجدّ في صلاة المغرب ، تخلف الجدّ عن الحضور . كنّا في بداية العام المدرسي ، في يوم خريفيّ اشتد حرّه واثقلت رطوبته الانفاس ، فرحت أتجوّل في الباحة الخارجية مستروحاً الطراوة التي تعبق فيها ، واجتذبني صوت الشيخ حسن وهو يشرع في قراءة القرآن ، فتوجهت ناحيته ، ووقفت خلفه ، محتفظاً ، بهذا ، بموقعي في الباحة ، فيما أخذت حلقة المستمعين تكتمل أمامه وأمامي . وكنت أتابع حديث الشيخ حسن ، حين وقف بجانبي رجل دين شاب ووزع انتباهه بين متابعة حديث الشيخ ومراقبة ردود فعلي عليه . لقد سبق لي أن رأيت هذا الشاب ، الذي يتخذ الزي الكامل لرجال الدين : العمامة والقمباز والجبّة ، ويطلق لحيته السوداء

الكثّة على راحتها ، دون أن تتاح لي فرصة تبادل الحديث معه . وقد استرعى انتباهي حرص الشاب على مراقبة ردود فعلي ، فرحت أخالسه النظر ، متوقعاً أن تتاح لنا فرصة التحادث ، في نهاية المطاف . ولم يطل صمت الشاب الملتحي ، إذ سرعان ما بادرني بالسوال : « الست ابن السيد عبد المجيد ؟ » . وإذ ألفت أن ينسبني الناس الذين لا يعرفون أبي الى جدّي ، فقد أجبت بنعم . وكان هذا مدخلاً للحديث الذي اجتذبني اليه الشاب المعمم ، بعد أن ابتعد بي عن حلقة الشيخ حسن ورحنا نتجول في الباحة الفسيحة .

كان محاوري هو الشيخ عبد الرزاق الطحان ، وهو يسكن في حيّ القيمرية القريب من الجامع الاموي ، وهو رجل ذو مهنة يعمل فيها طيلة النهار فيكسب رزقه ورزق اسرته ، اما قبل العمل وبعده فينصرف الى الدراسة والتدريس . ينتمي الشيخ الطحان الى جماعة يقودها شيخ كبير هو صالح فرفور . في هذه الجماعة ، تدرس علوم اللغة والدين ، يدرسها الشيخ فرفور نفسه للمتقدمين من مريديه ، ومنهم الشيخ الطحان ، وهؤلاء يدرسونها بدورهم للمبتدئين . ويلتقي افراد الجماعة منذ صلاة الفجر حتى شروق الشمس في جامع صغير في الحي فيتحلقون حول شيخهم ويتابعون معه الدروس التي يقرأها عليهم ، ويتولون هم تدريس الاخرين بين صلاتي المغرب والعشاء في الجامع الاموي ، ولا يتقاضى أحد اجراً لقاء هذه الدروس ، بل يقوم بالتدريس تقرباً إلى الله وطمعاً في مثوبته وحباً في تعميم المعرفة والتقوى بين الناس . وقد صارحني الشيخ عبد الرزاق ، وهو من أهمّ مريدي الشيخ الكبير ، بأن مواظبتي ، وأنا في هذه السن ، على الحضور الى الجامع واداء الصلاة مع الجماعة لفتت نظره إليّ منذ بعض الوقت . وإذا كان الشيخ عبد الرزاق قد تهيب حتى الآن من مبادأتي بالحديث ، فلأنه يعرف أن السيد عبد المجيد لا يستطيب صحبة رجال الدين . وهنا ، أفاض محدثي في تبيان طبيعة الجماعة التي ينتمي اليها ، وحرص على أن يؤكد على أنها لا تشتغل بالسياسة ، هي ليست حلقة دراويش او صوفية ممن يشغلون أوقاتهم واوقات مريديهم في ما لا

طائل وراءه . والجماعة حريصة على أن يظفر كل منتم اليها بما يمكن الظفر به من معرفة ، دون أن يؤثر ذلك على عمله أو وضعه في مدرسته او جامعته .

أدار الرجل الحوار ، دون أن يخفي رغبته في اجتذابي إلى جماعته . ولما استفسرت عن شروط الانضمام الى الجماعة ، عاجلني الرجل بالقول : « لا شيء ، تجيء متى تشاء ، وتنصرف حين تريد ، تستفيد وتفيد بمقدار ما تسمح به ظروفك وتسعفك عليه همتك » . وأعلمني الرجل الذي فطن الى أن حديثه أثر فيّ أن دورة دروس جديدة للمبتدئين ستنتظم وشيكاً ، وقال إنها ستشتمل على دروس في قواعد اللغة وآدابها فضلاً عن دروس الفقه والتجويد والتفسير والحديث النبوي ، وأفهمني انه سيسعد لو انضممت الى الحلقة التي سيشرف هو عليها في اطار الدورة ، وأضاف إن الشيخ الكبير نفسه سيخصص أياماً في الاسبوع يلتقي فيها تلاميذ الدورة كلهم قبل صلاة المغرب ليدرسهم الحديث النبوي .

أغواني العرض واستولى التفكير فيه على ذهني ، فما اكثر الفوائد التي يمكن الحصول عليها باتباع دورة توفر هذه المعارف كلها! وصار عليّ ان اقنع جدّي كي يأذن لي بالانضمام الى هؤلاء الناس الطيبين . وقررت أن أفاتحه بالأمر وأن أتشبث بالحصول على موافقته ، وقلت هذا لمحدثي الذي بارك عزيمتي وتمنى أن يلقاني تلميذاً في الجماعة . ورجعت الى المنزل ، مفعماً بالحماس للمشروع الجديد ، مسكوناً بالأمل في أن أصير واحداً من طلاب العلم في الجامع ، هؤلاء الذين يوازنون بين حاجات دينهم ودنياهم فيظفرون بمتع الأولى والآخرة . غير أن ردّ فعل الجدّ جابهني بصفعة قاسية وصب على حلمي ماء بارداً . فلم أكد أعرض الأمر ، حين فرغنا من تناول العشاء ، حتى انفجر الجدّ ساخطاً : « شيخك هذا ، ابو اللحية بطول المكنسة ، أعرفه ، وأعرف شيخه الفرفور الخبيث . هؤلاء المشايخ يتصيدون أولاد الناس لحاجات لا يدري إلا الشيطان ما هي ، إشتغل بدروس مدرستك فما الذي ينقصك من علوم الدين !؟ هل تريد أن تصير واحداً من هؤلاء المهابيل الذين يدورون في الجوامع ! » . ولم يليّن جدي

موقفه حتى بعد أن ظهر عليّ الامتعاض الشديد ، لكنه ليّن نبرته وحدها : « المستقبل يا ولدي للمدارس ، إعرف هذا ! المدارس الحقيقية . وبعد أن ضيّعنا كل شيء لم يبق لنا الا المستقبل » .

ما كان لكلام الجدّ أن يقنعني . وبالرغم من تعنت الجدّ الواضح ، لم أعدّ الأمر محسوماً ، ولم استسلم . وعندما ضمتني المشرقة مع الجدّة . وتهيأ الجميع للنوم ، رحت أهمس في أذن جدتي برغبتي الشديدة في اتباع هذه الفرصة المتاحة واحثها على التدخل لثني الجدّ عن عناده . ولم تعدني الجدة بشيء ، لكن بدا لي أنها تفكر في الأمر وتقلبه على مختلف وجوهه . وفي الصباح التالي ، بعد أن رجعت مع الجد من مشوارنا الى سوق الهال ، وقبل أن اتوجه الى المدرسة ، عاودت الكرة ، فعرضت على الجد رغبتي من جديد ، على مسمع من الجده ، وتعهدت بأن لا أهمل دروسي في المدرسة إذا سمح لي بالإنضمام إلى الجماعة . ولم يسخط الجدّ ، كما توقعت ، بل اكتفى باظهار دهشته : « ما الذي يريده هذا الولد العنيد . أما تكفيه المشاغل التي هو فيها! » . هنا ، تدخلت الجدّة ، غير موجهة خطابها لأحد بعينه : « هذا الصبي فيه شيء لله ، رحم الله رشاد وسلمان ، كانا من أهل التقوى ، فلماذا نمنعه عن طريق الهداية ؟» . وساندت أم عدنان ، بدورها ، مطلبي ، فتوجهتُ الى الجدّ باحتجاج صريح : « أمرك غريب ، يسعى الصبيّ الى الخير ، وهو ، والشهادة لله ، شاطر في كل شيء ، وأنت تقف في وجهه ، ماذا جرى لعقلك ودينك!» . ولم يأخذ الجدّ للتوّ بهذه التدخلات وإن قدرت أنه لن يهملها ، وقد علق وقتها ساخراً : « لم يغلط الشرع حين عدّ النساء ناقصات عقل ودين . هل تتصورن أني لا أريد الهداية للولد ! ؟ » ، ثم وجه لي الخطاب ، وقد لانت نبرته وتعابير وجهه : « انصرف الآن الى مدرستك ! » . وفي المساء ، عندما فرغت مع الجدّ من أداء صلاة المغرب في الجامع ، رأينا ، كلانا ، الشيخ عبد الرزاق وهو متجه الى حيث تنتظم حلقة الدرس ، وتعلق نظري بالجدّ وفيه رجاء صامت ، فاحتفظ الجد ، هو الآخر ، بصمته الى ان دنونا من باب الخروج . عندها ، قال الجد بنبرة المرغم على

التسليم برغبتي إرغاماً : « إبق ، إن أحببت ، لكن لا تتأخر في الرجعة الى المنزل ! » ، وبقيت ، بالطبع .

منذ ذلك اليوم ، واظبت على دراسة علوم الدين واللغة مع الجماعة . صرت أذهب في الصباح الى المدرسة ، وأعود بعد الظهر الى المنزل ، فانصرف لاتمام الواجبات المدرسية المنزلية بأعجل ما استطيع ، دون أن أهمل شيئاً منها . ثم أهرع الى الجامع ، فاؤدي صلاة المغرب ، وأفرغ بعدها لدراستي الجديدة .

وقد نظمت الدراسة في الجماعة بحيث يتوزع المنضمون الجدد ، وكلهم من تلامذة المدارس أو من اجراء الحوانيت الصغار الذين انقطعوا عن المدارس ، على ثلاث حلقات ، تشغل في الصيف جانباً من بهو الجامع وفي الشتاء جانباً من حرمه وتجلس متجاورة . وقد وزع التلاميذ على الحلقات الثلاث وفقاً لنباهتهم ودرجة تحصيلهم السابقة . وتولى الشيخ عبد الرزاق الأشراف على الحلقة التي انضممت اليها ، وهي الحلقة الاولى التي ضمت المبتدئين . وأشرف على الحلقة الثانية شيخ آخر نسيت إسمه هو ذاته صاحب دكان في سوق البرزورية القريب من الجامع ، يمضي نهاره في الدكان ثم يفعل ما يفعله مريدو مريده الشيخ الكبير ، فيدرس ويدرّس . اما الحلقة الثالثة فتولاها فتى تحتفظ ذاكرتي بلقبه العائلي ، وحده ، الأرناؤوطي ، وهو طالب في السنة الاخيرة في الثانوية الشرعية الحكومية التي يشغل فيها الشيخ صالح فرفور وظيفة مدرس .

وقد نوه الشيخ عبد الرزاق بانضمامي الى الحلقة أخاً جديداً يشارك اخوانه متعة التحصيل الخالص لوجه الله . ونبّه المشرف على الحلقة التلاميذ إلى أنني فلسطيني لم تمنعه النكبة التي حلت بأسرته وشعبه من العزم على التبحر في شؤون الدين . وقرر الشيخ أن هذه هي الخطوة الأولى ، وهي الخطوة الصحيحة على طريق استعادة الوطن المقدس المسلوب . وجزم الرجل ، الذي استفاد من هذه المناسبة لحث تلاميذه على التمسك بالدين ، أن فلسطين لم تضع من أيدي المسلمين إلا لأن

هؤلاء حادوا عن سبيل الدين القويم وتنكروا لتعاليم السماء ، فابتلاهم الله بوقوع بلادهم المقدسة في أيدي اليهود . وكان رأي الشيخ أن هذا البلاء سيظل قائماً بإرادة الرب ، الى أن يعود المسلمون ، كرة أخرى ، إلى تعاليم دينهم ويتمسكوا بها . وكنت ، قبل ذلك ، قد سمعت آراء كهذه الآراء ، مراراً ، حين كان بعض جلساء مجلس جدّي يرددونها ويتجادلون مع الآخرين بشأنها ، لكنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الآراء معروضة بلغة واضحة ، وبما بدا لي انه مبني على معرفة صحيحة بشؤون الدين وقواعد الاسلام . ومع أني أعجبت بفصاحة الشيخ وأخذت بتسلسل افكاره ، فإن شيئاً في داخلي ، شيئاً يطوف عادة في أعماق النفس دون أن تتبينه ، نازعني الى التشكك ، وجعلني أتذكر ما يقوله جدي حين يسمع هذه الآراء ؛ لم يكن جدّي يحاجج في أهمية التمسك باداب الدين وتعاليمه ، وكان مؤمناً بأن الاسلام هو شريعة الرب وهو أتمّ الشرائع ، وكان ينعى على المسلمين المعاصرين اهمالهم لأحكام هذه الشريعة ، بل كان الجدّ يمضي الى حد الموافقة على أن من المنطقي ان يعاقب الله المسلمين حين ينحرفون عن سبيله . أما ما لم يقبله الجدّ فهو أن يُنسب الى الله إعطاء الارض الفلسطينية لليهود . فإذا كان من شأن الرب أن يعاقب المسلمين على انحرافهم فكيف يكافىء اليهود وهم أعداؤه؟ وكان الجدّ يمعن في المحاججة حول هذه النقطة وينتهي عادة الى تقرير الرأي الذي لا يحيد عنه : « كلّه شغل إنجليز . هذا البلاء جاء به الانجليز ، ولا أحد غيرهم ، لا ربّ ولا عبد » .

لم أظهر هواجسي هذه في الحلقة ، بالطبع ، وهي على كل حال لم تستغرقني وانا استمع الى تأكيدات الشيخ الذي ينسب الخير والشر ، كليهما ، لحكمه الرب وارادته . وبقيت صامتاً الى أن فرغ الشيخ من حديثه هذا ، ثم انكببت مع التلاميذ الآخرين على درس القواعد الذي شرع الشيخ في شرحه . ولم أغادر الحلقة إلا وقد حفظت البيت الأول من ألفية ابن مالك : « كلامنا لفظٌ مفيد كاستقم / إسم وفعل ثم حرف الكلم » . هنا ، لم تكن لغة الشيخ عبد الرزاق لغة ، وعظ هيّن أو غليظ ،

بل لغة تدريس . وقد وزع الشيخ الوقت الممتد بين صلاتي المغرب والعشاء على حصتين ، واحدة للغة وأخرى للدين . وفي حصة اللغة ، كان الشيخ يركز على القواعد والإعراب والبلاغة ، لكنه يكثر من تقديم الامثلة ، وينتقي هذه الامثلة من النصوص الأدبية الرفيعة لشعراء وخطباء وكتّاب ومتصوفة عرفتهم عصور الحضارة الاسلامية المتعاقبة . ومع كل مثل جديد ، كان الشيخ يستطرد فيقدم نبذه عن حياة صاحب النص وأدبه والمناسبة التي قيل النص فيها أو الكتاب الذي حواه . وكان هذا يشكل ، بمجمله ، دروساً ممتعة في الأدب . هي في واقع الأمر ، أول وأمتع ما ظفرت به في هذا المجال أثناء الدراسة . وكان الشيخ ، كما يمكن أن يقال ، ذواقة ؛ صحيح أن ذائقته محافظة ، لكن أحساسه بجمالية الصورة أو الحركة أو الفكرة المبتكرة كان فذاً ، وقد دربنا في ذلك الوقت المبكر على الإحساس بهذه المقومات الاساسية لبناء الجملة الأدبية .

ولم يكن الشيخ يقصر استشهاداته على النصوص التي تتناول شؤوناً دينية أو أخلاقية ، كما قد يتوقع السامع من رجل في وضعه ، بل كان يجنح الى الاستشهاد بالنصوص التي تصف الطبيعة او تتغزل بالمحبوب . وها أنا اقرّ بأن ما استقرّ في ذاكرتي الى الآن من مختارات غزلية يضم ما حفظته مما استشهد به الشيخ وأفاض في شرحه من الغزل الجاهلي والأموي والعباسي . واتذكر مرة كان الشيخ يعلمنا فيها معنى التشبيه في البلاغة ، فاورد هذا البيت : « واني لتعروني لِذكراك هزة /كما انتفض العصفور بلله القطر » . وقد انتشى الشيخ كثيراً وهو يبين لنا أبعاد الحركة التي يعكسها انتفاض العصفور المبتل وعمق دلالتها على تمثيل مشاعر المحب الذي ينتفض بدنه حين يتذكر المحبوب . وتجلت نشوة الشيخ في حركته هو نفسه ونبرة صوته وهو يمعن في الشرح حتى اجتذبت انتباه جلساء الحلقة المجاورة فقطع شيخها الأرناؤوطي حديثه وراح يصغي الى شيخنا . ثم لم يملك الأرناؤوطي نفسه أن يهتف : « الله ! الله ! أجدت يا شيخ عبد الرزاق . أجدت ، والله العظيم ! » .

وفي حصة علوم الدين ، بدأ الشيخ عبد الرزاق بالفقه ، دون أن يهمل

العلوم الأخرى ، فكان يدرسنا مبادىء الفقه الحنفي ، باعتباره الم
في الحلقة . لكن الشيخ المغرم بالامام أبي حنيفة وتلميذه الاشهر
ابي يوسف ، دأب على التنويه باجتهادات ائمة المذاهب الأخرى
تخالف اجتهادات الحنفية . ولما تقدمنا بعض التقدم في دراسة
وأنهينا أبواب العبادات والطهارة ، أضاف الشيخ إلى الحصة دروس
علوم التفسير والتجويد والتوحيد وأصول الدين . وكان الشيخ ، في
ذلك كلّه ، يستطرد ، خلال الشرح ، فيلمّ بالأفكار التي تبنتها الم
المختلفة ، يحبذ بعضها ويدحض بعضها الآخر ، متيحاً لنا معرفة أ
هذه المدارس وأهمّ ممثليها ووقائع الجدل الذي دار بينهم أيام كان
الكلام يشغل جمهور المتعلمين والمتأدبين من المسلمين . وفي
الدروس ، خلافاً لحاله في دروس اللغة وآدابها ، كان الشيخ يبدو أم
ملتزماً بل متزمتاً في التزامه ، فلا يبيح أيّ حيدان عن القواعد التي
الأسلاف ، ولا يأذن لنا بأي تشكك في صوابها وصلاحها لكل ع
ومجتمع . وما تزال تطن في اذني ، حتى الان ، نبرة مدرسي المتحم
وتبرق في ذاكرتي التماعة عينيه المطمئنّة ، حين يبدأ عبارة جديدة بقو
« ذكر شيخنا أبو يوسف ، رحمه الله . . . » ، أو يختم عبارة اخ
بقوله : « وهذا ما انتهى اليه جمهور المتكلمين من السلف الصالح وأج
عليه » .

وكان أسلوب التعليم المتبع في هذه الدروس هو التلقين ، نسمع الش
ونستهدي بها ، أما المطلوب فهو حفظ النص المقرر كقاعدة أو رأي ،
ظهر قلب ، أيا كانت طبيعة النص ، سواء كان آية من القرآن أو حد
نبوياً أو فتوى لفقيه أو رأياً لمتكلم . وكان علينا أن نعيد ما نحفظه -
يسألنا شيخنا عنه ، فلا نبدل فيه كلمة ولا نغير موقع عبارة ، حتى
كان من شأن التبديل والتغيير أن يبقيا المعنى ذاته . وكانت علا
الاجتهاد تتجلى في مقدار ما يحفظ الواحد منّا من نصوص ، لا يغ
عن ذلك أن تكون هذه النصوص محفوظة في كتب في المتناول ، ،
نكون عارفين بمواقعها في هذه الكتب . وكان من رأي الشيخ عبد الرزاق

وهو رأي دأب على ترديده ، ان التعلم الصحيح هو التلقين والحفظ . فالعلم ، حسب القاعدة الاثيرة الى قلب الشيخ ، هو الذي يستقر في الصدور وليس في الكتب ، والعالم هو القادر على الإجابة على أي سؤال ، دون أن يحتاج للعودة إلى كتبه . ولم يكن الشيخ يخفي قناعته بأن علم المدارس الحديثة وتعليمها ليس علماً ولا تعليماً ؛ فعلمها لا طائل من ورائه ، وتعليمها لا يفعل شيئاً سوى تعويد التلاميذ على الكسل . وكان الشيخ يكرر : ما نفع هذه الفيزياء او الكيمياء . وما نفع الجبر والهندسة ، ما دام التلميذ سينساها عندما يترك الدراسة ، وما قيمة هذه العلوم الطبيعية إن لم تستند الى قاعدة متينة من علوم الدين واللغة . وكان من مآخذ الشيخ على المدارس الحديثة أن ظروف التعليم فيها مترفة ، فالتلميذ الذي يجلس في حجرة مدفأة على مقعد مريح ويتاح له اللعب بين حصة واخرى ، بل تجعل للعبه حصص مقررة ، ثم لا يتوجب عليه بعد ذلك إلا أن يقتني عدداً من الكتب ويعود اليها بين وقت وآخر ، لن يظفر بشيء يبقى ؛ أما الذي يبقى فهو هذا الذي يحصل عليه المتعلم بشق النفس ، حين يجلس على ركبتين فوق الارض ، في البرد كما في الحرّ ، ويتلقن المعارف ويضطر لحفظها بتمامها ، ثم يلتزم بتعميمها بين الناس . وللشيخ في هذا الشأن عبارة موجزة يحفظها كل من درسوا في حلقته : بالجلوس على الركب وليس على المقاعد ، يتم تحصيل العلم .

داومت على حلقة الشيخ عبد الرزاق كما داومت على دروس الحديث النبوي التي يقدمها الشيخ صالح فرفور . وكنت أتابع الشروح ، بانتباه شديد ، وأحفظ ما اتلقنه ، باتقان تام . وقد اجتذب اجتهادي نظر الشيخ عبد الرزاق كما اجتذب نظر الشيخ الكبير . وانتهى هذا الاخير الى تشريفي بأن أكون التلميذ الذي يعيد قراءة ما يشرحه هو من أحاديث وما يقرره من قواعد فقهية تترتب عليها ، كلّما اقتضت طريقة التدريس في الحلقة ان تعاد القراءة . لم يتمكن الشيخ صالح ، وهو المشرف على عدد كبير من التلاميذ في المدرسة الشرعية وفي الجوامع ، من حفظ أسمي . وكان من شأن الشيخ حين ينتدبني للمهمة أن يقول : « إقرأ يا أشقر ! » ،

فلما بلغه أن مناداتي بهذه الصفة ، وليس بإسمي ، تسوؤني على نحو من الأنحاء ، وإذ عجز ، مع هذا ، عن حفظ الإسم ، فقد صار يقول : « إقرأ يا فلسطيني ! » ، وكان هذا يرضيني . شيء آخر تميزت به في الحلقة هو كثرة الاستفسارات والاسئلة التي ألقيها فتثير الجدل بيني وبين الشيخ عبد الرزاق . كنت أتلقى القواعد الفقهية وأفهمها وأتقن حفظها ، لكنني أشك في منطقية بعضها . ولم تقنعني تأكيدات الشيخ المتكررة بأن على المؤمن أن يقبل أحكام الفقه كما هي ويسلم بها تسليماً . فكنت أوالي طرح الاسئلة ، خصوصاً حين يتعلق الأمر باجتهادات الفقهاء وليس بأحكام القرآن . وأتذكر مرة ، كنت في اسابيعي الاولى في الحلقة والشيخ يعلمنا أحكام الطهارة ، وقد شرح لنا أحكام التطفيف بوصفه مطهراً ، لم أقتنع بأن التطفيف يحقق الطهارة التامة للسائل الذي يتعرض للنجس . ولكي تفهم دافعي للشك ، يبدو أن عليّ أن أشرح لك هذا الحكم من أحكام الطهارة في الفقه : فلو غرق فأر ، مثلاً ، في صفيحة زيت فإن زيت الصفيحة يتنجس . ولكي يطهر الزيت ، يوجب هذا الحكم من أحكام الفقه أن يصبّ زيت جديد غير نجس في الصفيحة حتى يطف زيتها ، أي يفيض ويسيل منها . ولم يقبل عقلي أن خروج بعض الزيت النجس من الصفيحة على هذا النحو ، يطهر بقية الزيت ، وهي ، في هذه الحالة معظمه . وقد جادلني الشيخ في اعتراضي ، فلم أكفّ عن الشك ، فلجأ الى ما يلجأ اليه الاصوليون من أمثاله ، وقال ، واضعاً حداً للجدل بسلطة المدرس : « هذا هو حكم الشرع ، عليك أن تقبل به ، حتى لو رفضه عقلك » ؛ ثم وجه تحذيراً مجلجلاً للجميع : « الشك في أحكام الله هو وسيلة الشيطان لدفع المؤمنين الى الكفر » . وفي مرحلة تالية من دراستي في الحلقة ، نشأ جدل كاد يتحول الى جفوة بيني وبين الشيخ . فقد علمنا الشيخ أن الكحول نجس فلا يجوز مسّه . وقد قبل عقلي أن يكون الكحول نجساً حين يشكل جزءاً من الموادّ المسكرة ، أما أن يكون نجساً في حدّ ذاته ، فلم يقبله عقلي ، أنا الذي تعلم في المدرسة أن الكحول من أفضل المطهرات وأن لا غنى عنه في التعقيم . وقد أفضى

جدلي مع مدرسي الشيخ حول هذه النقطة إلى استيائه الصريح مما عدّه انكاراً مني لحكم قاطع من أحكام الشرع يقترب بي من حدود الكفر . ولولا إعجاب الشيخ بتفوقي ورضاه عن مواظبتي على أداء العبادات لطردني من حلقته بعد تلك الواقعة . وكان أخشى ما يخشاه الشيخ ، حين أجرّه الى جدل من هذا النوع . هو تأثير الجدل على التلاميذ الآخرين وما يثير في نفوسهم من شكوك قد تزعزع إيمانهم بالدين .

بالرغم من هذه الحوارات وأمثالها ، بقيت علاقتي بشيخي الشاب حسنة على العموم ، طيلة مواظبتي على دروسه . بل إن العلاقة فاقت ، في بعض جوانبها ، ما يكون بين تلميذ ومدرس لترقى الى ما يشبه الصداقة بين فتى طالع وآخر بلغ مرحلة الشباب . وكان الشيخ يدرك أن حالة أسرتي المالية لا تبيح لي الحصول على أية نفقة خاصة ، فضلاً عن معرفته بأني أجيء إلى دروسه دون تحبيذ من ربّ الاسرة . ولهذا ، لم يكلفني الشيخ بشراء الكتب اللازمة للدراسة ، كما يكلف التلاميذ من أبناء الاسر الميسورة ، بل كان يجيئني ، هو نفسه ، بالكتب ، أو يحث التلاميذ الآخرين على اعارتي كتبهم . ولما اكتشف الشيخ نهمي للمطالعة ، عرض عليّ أن يعيرني الكتب من مكتبته الشخصية ، وجاءني بما ظن أنه مفيد لي وأني قادر على استيعابه . ولما اقتربنا من نهاية العام المدرسي ، وكانت صلتي بحلقة الشيخ وبالشيخ نفسه قد توطدت على أتمّ وجه ، نبهني هو الى الأمر الذي شكل اكتشافي الثاني ، بعد اكتشافي لحلقته ، في هذا العام . فالشيخ الذي أدرك افتقاري الى الكتب قال لي ، ذات يوم بعد انتهاء الدرس : « العطلة الصيفية على الابواب ، وأمامك وقت طويل للمطالعة ، فلماذا لا تذهب الى المكتبة الظاهرية ؟ » .

هذا هو الإسم الذي كانت تحمله المكتبة الوطنية الكبرى في دمشق . وقد سبق لك أن عرفت أن بناء المكتبة يقوم قريباً من الجامع الاموي وأني الفت أن أمر به أثناء ذهابي مع الجدّ الى السوق . والحقيقة أن بناءين قديمين جليليّ الطراز كبيريّ الحجم ، وليس بناء واحداً ، كانا ينتصبان متقابلين قرب باب البريد ، في الزقاق الذي يتفرع من سوق الحميدية ،

من ناحية الجامع ، ويصل السوق بنهاية زقاق السبع طوالع . واللوحة المعلقة على بوابة أحد البناءين تظهر أنه مقرّ المجمع العلمي العربي في دمشق ، بينما تظهر لوحة البوابة المقابلة أن المبنى هو مقرّ المكتبة . وما من مرة عبرت فيها هذا الزقاق ، إلا شعرت بالتهيّب إزاء الصمت الذي يكتنف مبنى المجمع والهيئات الجادة للناس الذين يعبرون بوابة المبنى الآخر . ولم يخطر ببالي ، على أي نحو من الأنحاء ، خلال سنتي إقامتي الاولين في دمشق ، أن بإمكاني ، أنا الولد صاحب الهيئة الزرية ، أن الج مبنى المكتبة ، فضلاً عن أن استخدام محتوياتها . ولما وجه لي الشيخ عبد الرزاق سؤاله الذي أوحى بأن استخدم المكتبة ميسور لي ، كانت دهشتي إزاء السؤال كاملة . وأظهرت شكّي في إمكانية تحقق الفرصة . وأفهمني الشيخ أنه يعرف المشرف على قاعة المطالعة العامة في المكتبة ، وقال عنه أنه رجل طيب ومتسامح مع التلاميذ ، وبالامكان تدبر الأمر مع المشرف كي احصل عل حق استخدام القاعة .

وفي اليوم التالي ، صحبني الشيخ عبد الرزاق لزيارة هذا المشرف ، فاتضح لي أنه يستحق ، فعلاً ، الأوصاف التي وصفه شيخي بها . لقد استقبلنا الرجل بمودة ، واستمع الى طلبي بتفهم ، ثم عرفت منه أن حق المطالعة مفتوح لكل مواطن بالغ ، وهو مفتوح ، أيضاً ، لتلاميذ المرحلة الثانوية بصرف النظر عن أعمارهم . وما دمت من تلاميذ المرحلة الاعدادية ، وليس الثانوية ، فقد اقتضى الامر الحصول على إذن خاص من مدير المكتبة ، وهو ما أمكن للرجل أن يحصل عليه بيسر وسرعة . وهكذا تسنى لي ، وأنا مدهوش ، الا أغادر المبنى الا وقد صارت في حوزتي البطاقة التي تخولني حق المطالعة في هذه المكتبة العظيمة . وانفتح أمامي نبع لا ينضب من الكتب التي استطيع قراءتها في أي وقت خلال الساعات الثماني التي تكون فيها قاعة المطالعة مفتوحة لروادها كل يوم . وبإهتدائي الى هذا النبع ، انفتح أمامي الطريق الطويل الذي قطعته وسط عالم الكتب خلال سنوات مديدة . ولما أبتدأت العطلة الصيفية ، صرت أجيء الى قاعة المطالعة مرتين كل يوم ، قبل الظهر وبعده ، ما لم

تمنعني عن المجيء المشاغل الأخرى الضرورية او الظروف الطارئة . بكلمات أخرى ، وجدت في قاعة المطالعة جنتي التي تعوضني عن بؤس الواقع ، فصرت من المواظبين عليها ، وصار العاملون فيها يعرفون ذلك الولد الفقير الذي لا يرفع رأسه عن الكتاب ويباركون سلوكه ويتطوعون لمساعدته . وفي البداية ، او لنقل في العام الاول لمواظبتي على المكتبة ، تولى الشيخ عبد الرزاق مهمة إرشادي الى الكتب التي ينبغي ان أقرأها ، يسمى لي كتاباً ، وينتظر حتى أفرغ من قراءته ، ثم يحاورني في محتوياته . وبهذه الطريقة ، توسعت معارفي في علوم الدين والأدب العربي القديم . كما تحسنت قدرتي على المجادلة ، وجادت لغتي الفصحى ، بحيث صار بامكاني ان اكتب بالفصحى القديمة ، دون أغلاط تذكر ، بل أستخدمها ، أيضاً ، في الحديث الشفهي حين أرغب في ذلك ، أما بعد العام الاول ، هذا ، فإن توسع اهتماماتي وتطورها ، قاداني الى الاعتماد على نفسي في اختيار الكتب ، فصرت اتفحص دليل المكتبة وانتقي ما يجتذبني فيه ، وأتوسع في الموضوعات التي أطالعها ، دون حاجة لارشادات الشيخ ، بل ضد إرشاداته في بعض الاحيان . وسيعرف الشيخ ، بعد ذلك ، أن الطريق الذي هداني بنفسه الى بدايتها ، هي التي أبعدتني ، أولاً بأول ، عن الطريق الذي يسير هو عليه .

باستغراقي في المطالعة . توفر لي شاغل مفيد آخر يجعلني ، معظم الوقت ، بمنأى عن الهموم التي تعصف بالاسرة وتسمم العلاقات بين فريقيها ، وتعزز مسكلي المترفع عن الانخراط في الخصومات والمتعفف عن الخوض في المماحكات والاقاويل التي تؤججها هذه الخصومات .

٧

كتبت الحجب للجارات وتلوت القرآن في المقبرة

مع حلول العطلة الصيفية ، رجع خالاي نافذ وعمر الى المنزل . كان الخالان قد أمضيا عامين في محافظة الجزيرة النائية ، فصار من حقهما أن يطلبا النقل الى المحافظة التي يقيمان فيها . وبالطبع ، طلب الأثنان أن ينقلا الى مدينة دمشق ، ونشط الجدّ لتشغيل المتوسطين لدعم الطلب ، وتوجب على الجميع أن ينتظروا البتّ بالطلب قبل انتهاء العطلة ، وكان الامل كبيراً بأن يجيء الردّ ايجابياً .

ومع عودة الخالين ، نشأت موجة جديدة من الخصومات داخل المنزل . تفجرت المطالب المكبوته ، وشدد أصحابها ضغوطاتهم للحصول عليها ، واشتد التنازع . وضاق المنزل الصغير بسكانه . فقد أضيف الى أعضاء الاسرة الذين جاءوا من فلسطين وليدان وضعتهما ام عدنان في دمشق ، وانضاف الى اخوالي الذكور الخمسة خالان جديدان صغيران هما هشام

وإحسان . والذين كانوا صغاراً كبروا وزادت حاجاتهم وحركتهم . وعلاقات الجميع مع المحيط توسعت فزاد دفق الضيوف والزوار والمترددين على المنزل ، لشتى الاسباب .

وقد جددت الجدّة مطالبتها بالاستقلال في منزل منفصل ، مصرة ، هذه المرة ، على ان الاوان قد حان لتلبية رغبتها ، وكان كل من في المنزل مقتنعاً بأن الانفصال لا بدّ منه ، ليس ، فقط ، بسبب ضيق المكان ، بل ، أيضاً ، لتعذر التعايش بين الضرتين في مكان واحد . لكن ضيق ذات اليد بقي ، كما كان ، السبب الوحيد الذي يحول دون إنشاء منزل جديد . ولكي تلبّي حاجات العدد الكبير من أفراد الاسرة ويمكن الإنفصال ، كان لا بدّ من توفير مورد آخر . إلا أن هذا الامر بدا متعذراً ما دام الجدّ مصراً على أن يتعلم الصغار جميعهم في المدارس ، ولا يقبل الحلّ الذي لجأت اليه أسر كثيرة حين ضاقت بها الأحوال فحرمت بعض أولادها من متابعة التعليم ودفعتهم الى العمل .

والحقيقة أن جدّي ، نفسه ، المدفوع بأكثر من سبب ماديّ ومعنوي لإيجاد مورد خاص به ، لم يكفّ عن محاولاته لإيجاد عمل له . حتى بعد أن ضؤل أمله في العثور على الفرصة الملائمة ، أو تلاشى . لكن ، بالرغم من قوة الدوافع ، استبعد الجدّ ، نهائياً ، احتمال أن يعمل أجيراً عند رب عمل ، حتى لو تيسر له ذلك ، وظلّ يأمل في عمل مستقل . وبالنظر الى خبراته السابقة ، توجهت محاولات الجدّ نحو التجارة أو الزراعة . وأنت تعرف عدداً من محاولات الجدّ التي فشلت لأن العمل في أي من هذين المجالين يتطلب رأس مال لا يتسنى الحصول عليه في ظروف الغربة وليس من المأمول الحصول عليه في المستقبل المنظور . وهذا هو بالذات ما أحبط مساعي الجدّ وأعاق حركته في البحث ، بل جعل أحاديثه عن محاولات جديدة أقرب الى الأحلام منها الى المشاريع الواقعية . وقد استمر الحال على هذا النحو إلى أن لاحت أمكانية جديدة لم تكن متوقعة ، في هذا الصيف ، فاجحت همة الجدّ وحملته على تنشيط الحركة ، فاندفع محاولاً اغتنام الفرصة .

كانت وكالة الغوث ، أو الاونروا ، قد تولت منذ منتصف العام ١٩٥٠ ، أي منذ قرابة عام ونصف قبل ذلك الصيف ، مسؤولية تقديم العون للاجئين الفلسطينيين ، حالّة بذلك ، محل الجهات الخيرية العديدة التي تولت هذه المهمة ، في قطاع غزة ، وضفتي الاردن ، ولبنان ، وفي سوريا . وبنزول الوكالة الدولية إلى الميدان ، دخلت عملية إغاثة اللاجئين مرحلة جديدة أكثر تنظيماً وأوسع نشاطاً ، وأشد ضجيجاً ، أيضاً . وقد أعلنت الوكالة عن أهدافها بكثير من الصخب ، وصورت ما هي مقبلة على أدائه من خدمات بأكبر من حجومه ، فبعثت آمالاً واسعة في صفوف اللاجئين المحرومين من كل شيء . والحقيقة أن نشاطات الوكالة لم تقتصر على تقديم الغوث المتمثل في المواد الغذائية العينية ، بل شملت ، أيضاً ، أنشاء مدارس إبتدائية وإعدادية ، وافتتاح عيادات طبية ومستوصفات وإقامة مراكز للتدريب المهني . إلا أن هذا كله ، وأن مثّل شيئاً ملموساً ولبى بعض الحاجات الضرورية ، لم يرق ، في أي وقت من الاوقات ، الى حدّ تلبية حاجات اللاجئين كلها في هذه المجالات . وفي مجالات بعينها ، لم تتعدّ انجازات الوكالة الفعاية حدود العمل الرمزي ، كما هو الحال ، مثلاً ، بالنسبة لمنح التعليم الجامعي التي لم يحظ بها إلا افراد معدودون ، أو فرص التدريب المهني ، أو فرص العلاج المكلف ، أو التوسط مع الحكومات والمؤسسات لتوفير فرص العمل . لقد حظيت الوكالة بميزانية سنوية تخصصها لها الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة . لكن هذه الميزانية ، التي تتوفر لها الموارد من تبرعات الدول ، كانت قليلة في حدّ ذاتها ، وكان الجانب الاكبر منها ينفق على إقامة المنشآت اللازمة لعمل الوكالة ودفع رواتب موظفيها . وقد اتبعت الوكالة تقليداً الزمتها به طبيعتها ذاتها فلم تحد عنه تحت أي ضغوط ، إذ احتفظت بالوظائف العليا في مؤسساتها لموظفين أجانب ، أغلبهم ، وربما كلهم ، من الأمريكيين والأوروبيين ، بينما وفرت الوظائف الأخرى للقادرين على أدائهامن بين الباحثين عن عمل من اللاجئين . ونجم عن هذا ، ليس ، فقط ، اهدار جزء كبير من الميزانية على الرواتب الكبيرة للموظفين الدوليين ، بل ،

أيضاً ، إشغال مراكز القرار في الوكالة بناس لا يعرفون الشأن الفلسطيني ، ولا يدركون أوليات الحاجات كما يدركها أصحابها . وهذا ما نجم عنه ، بدوره ، تبديد من نوع آخر للاموال والجهود .

وبما أنها ، حسب قرار انشائها واسمها ذاته ، وكالة لغوث اللاجئين وتشغيلهم ، فإن الاونروا شغلت ، فعلاً ، عدداً من اللاجئين في المؤسسات العائدة لها وتوسطت لتشغيل عدد أقل لدى جهات أخرى ، هنا وهناك . لكن الموجة الكبيرة من التشغيل ، حتى هذه الموجه ، لم تحلّ من مشاكل البطالة بين اللاجئين إلا جزءاً يسيراً لا يكاد يذكر . وقد توقفت الموجة ، على كل حال ، بعد فترة التأسيس ، ولم يبق من فرص التشغيل الا مراكز قليلة يقتضيها التوسع السنوي الضئيل أو الحاجة لاحلال عاملين جدد محل القليلين الذين يتركون العمل لسبب أو لآخر ولم يكن من النادر أن تعلن الوكالة عن حاجتها لملء شاغر واحد لديها فيتقدم مئات أو آلاف طالبي العمل للتنافس على هذا الشاغر الوحيد . يقولون أن الغريق يتمسك بقشّة . وهذا صحيح ، والصحيح ، أيضاً أن الغريق الفلسطيني ، لم يتمسك ، فقط ، بأية قشّة عرضت له ، بل تمسك ، أيضاً ، حتى بالأمل في العثور على قشّة . وبهذا ، ارتبطت بالوكالة آمال أكبر من قدراتها وأكبر بكثير مما تقوم به فعلاً .

وعندما أعلنت الاونروا أنها عازمة على تقديم عون مالي لمن يثبت من اللاجئين أنه قادر على اقامة مشروع عملي معقول ، طافت الآمال بين جموع اللاجئين ، وثارت شهية الباحثين عن فرص لاستعادة العيش الكريم الذي فقدوه . وبالرغم من واقعية جدّي وكل ما كان يقوله لنا عن الاماني الخادعة التي تروجها الوكالة لتخدير مشاعر اللاجئين ، فقد انساق الرجل المتعطش الى مورد مستقل مع جوّ الاماني المبالغ بها الذي اقترن بهذا الإعلان ، وتجددت آماله المكبوتة .

ظن الجدّ أن فرصة الحصول على رأسمال غدت متوفرة ، فعاود اتصاله بأقربائه المحاميد الذين عرضوا عليه استصلاح قطعة من أرضهم في محافظة درعا واعدادها لتصير مزرعة ، فوجد أن العرض ما يزال قائماً وأن

هناك قطعاً كثيرة بإمكانه أن ينتقي منها ما يلائمه . وتفحص الجدّ القطع المعروضة ، وقارن بينها ، الى أن استقر رأيه على واحدة منها عدّها الأصلح للمشروع الذي يحلم به . وقد اقتبس حلم الجد ، وهو يطوف بالأرض ويجدد صلته بالتراب ، المشروع الذي كان قد شرع في اقامته في المسمية الصغيرة قبل ان نُهجَّر منها ، ففكر في اقامة مزرعة حديثة للخضار والفواكه وتربية الدواجن والابقار . ولم يغفل الجدّ تبدل الظروف ونقص الامكانيات ، فتخلى في المشروع الجديد عن المطحنة الآلية والعمارة ذات الطوابق السبعة التي تضمنها مشروعه السابق . وظنّ الجدّ ، وهذا ما كان يشرحه لنا بإسهاب وأناة ، أن استهدافه إقامة مزرعة حديثة في وسط يغلب عليه طابع الزراعة البدائي سوف يغوي المسؤولين في الأونروا ، وهم من الأجانب الذين تستهويهم الحداثة ، ويشجعهم على الموافقة على التمويل . واعتقد الجدّ أن هؤلاء الأجانب سيدهشهم أن يفكر فلاح من المنطقة ، التي يرون كم هي متأخرة ، في إقامة مزرعة يتم العمل فيها بالآلات وتدار وفق ارقى الأسس التي تنظم المزارع في بلاد الافرنج . وبنى الجدّ حسابه على اساس أنه الوحيد الذي سيقدم مشروعاً زراعياً راقياً كهذا المشروع ، وعدّ ذلك بين الاسباب التي توفر له فرصة مضمونة للتمويل .

ولكي يضع الجدّ خطة مشروعة على أتم وجه يحقق الإدهاش الكامل لمن منّى نفسه بأن يدهشهم ، انصرف ، خلال أيام وليال بطولها ، الى العمل الدؤوب لوضع التفاصيل ورسمها في خرائط وبيانات . شغّل جدي في هذا الأمر ابنه عمر خريج المدرسة الزراعية الراقية في فلسطين ، واستفاد من نافذ الذي ترجم نصوصاً ملائمة عن الانجليزية ، ونظم حساب التقديرات . وزار الجدّ مع ولديه قطعة الأرض ، واستطلعوا حالها بالتفصيل ، ووضعوا خططهم لمراحل العمل وتقسيماته المرتقبة . وترجم عمر هذا كله الى خرائط ورسوم بيانية وضعها حسب الاصول ، ثم ضمّ الى ذلك قوائم الحاجيات اللازمة وبياناً بنظام العمل وأشياء اخرى كثيرة من هذا القبيل . ولكي يتم كل شيء على أحدث ما يكون ، طبعوا

الاوراق على الآلة الكاتبة ، وصوروا ما يلزم تصويره ، وأعدوا ملفاً انيقاً لتقديمه الى الوكالة . واحتفظ الجدّ بنسخة له من اوراق الملف ، فضمها الى الاوراق الثمينة التي يحفظها في المنزل .

وفي صباح طيب النسائم ، وضع الجدّ أوجه ملابسه ، وتلا آية الكرسي بصوت مسموع ، وحمل ملفه وتوجه الى مقرّ رئاسة الوكالة في دمشق . وفي هذا المقرّ ، سلم الجدّ الملف للموظف المختص بتلقي الطلبات وحصل منه على اشعار الاستلام ، وحفظه في مكان عميق في حقيبة جيبه ، ثم عاد الينا ، باشاً مفعماً بالآمال .

في تلك الايام التي انصرف فيها الجدّ الى وضع خططه ، بدا لي ان هذا الرجل ، الذي ثقلت عليه متاعب الغربة وأطفأت توقده ، قد استعاد الشعلة التي تتقد في داخله . كان الجدّ جمّ النشاط على نحو يذكر بما كان عليه قبل مغادرة الوطن . أطلق الجدّ لحيويته العنان ، وانطلق لسانه ، وصار حديثه ، كله ، يدور حول المشروع ، يتحدث عنه في مجالس اصحابه في الجامع والمنتزه ، وفي المنزل أمام أعضاء الاسرة والزوار . وبتنا نعرف كل صغيرة وكبيرة عن المزرعة المدهشة المأمولة ، حتى صرنا نتصورها قائمة بالفعل ، ونطلق أخيلتنا في تصور أمديتها وأقسامها ومحتوياتها المتنوعة . وكنت أراني ، فيما يوقد حديث الجدّ مطامحي ، وقد عدت إلى الأفضية الرحبة في الريف ، وأرى مروج الزرع المتموجة بالألوان ، وأشجار الفاكهة المثقلة بالثمر ، والبقر الهولندي الذي يكاد يعجز عن الحركة لكثرة ما في الاثداء من حليب ، والزبدة الطازجة التي يستخرجها المكن ، وأسمع غناء العمال المنتشرين في أرجاء المزرعة وبدا أن جدّي وهو يدير العمل كله . بل أن خيالي كان كثيراً ما يشط الى أبعد من هذا ، فأراني ، أنا إبن سيدّ المزرعة ، راكباً على حصان أبيض ، متجولاً هنا وهناك أو مداعباً هذا وذاك من الذين يعملون بأمر جدّي . وقد تبدلت هيئتي الزرية فصارت لي ملابس أنيقة وحذاء لامع ومكتبة فاخرة مملوءة بالكتب ، وصار بامكاني أن ألتجىء ، متى شئت ، الى جذع شجرة وارفة الظل واسند ظهري إليه ، وأقرأ وأقرأ ، فلا يجرؤ أحد على تعكير صفوي .

بلغت الكلفة المقدّرة للمشروع الذي تقدم به جدي للوكالة مائة وعشرين الف ليرة سورية ، وهذا مبلغ لا يعد كبيراً إذا قورن بالمبلغ الذي استثمره الجدّ ، فعلاً ، في مشروعه في الوطن ، كما أنه لا يعدّ شيئاً ، بالمرة ، لو قورن بالكلفة المقدرة لذلك المشروع المفقود لو امكن ان يستكمل ، بالرغم من ذلك ، فإن مئة وعشرين الف ليرة مبلغ ضخم حين يطلبه لاجيء فقد كل شيء ، ولم يبق له ما يوفره كضمانة لمن يفترض أن يقدم له العون . وفي إعلان الوكالة الذي حفز الجدّ على وضع مشروعه ، لم يتضح ما اذا كان العون المعروض قرضاً مسترداً أو مساعدة تقدمها الوكالة للمحتاجين . وكان جدّي مستعداً للإحتمالين ، كما كان على يقين من أن المشروع سيمكنه من تسديد أية ديون تترتب عليه . وقد منّى الجدّ نفسه بأن تحتسب الوكالة جزءاً من المبلغ كقرض والجزء الآخر كهبة . وفي تفكيره بهذه الحكاية ، فطن الجدّ إلى أن دافعي القرض سوف يطلبون ضمانة له ، وتفتق ذهنه عن وسيلة لتوفير هذه الضمانة ، مسبقاً ، كي يشجعهم على قبول مشروعه . كانت حقول الجدّ في المسمية الصغيرة ، كما تعرف ، قد رهنت كلها لبنك باركلز في يافا مقابل تمويل البنك لمشروعه هناك . وبدا الجدّ واثقاً من أن هذا البنك البريطاني ذا النفوذ القوي قد وضع يده على الحقول حين استولت السلطات الاسرائيلية على حقول أهل البلاد . هنا ألحق الجدّ الملف الذي قدمه للوكالة بأوراق جديدة ضمت وثائق ملكيته لحقوله وأرقام حساباته ومعاملاته في بنك باركلز ، في يافا ، كما ضمت رسالة موقعة من قبله موجهة للبنك يخول فيها البنك بأن يقدم الضمانة للقرض الجديد بضمانة الحقول التي في حوزته . وبدا الجدّ فخوراً باهتدائه لهذه الوسيلة ، وقال لنا : « سيعرف هؤلاء الأجانب اني لا أقلّ عنهم معرفة بإجراءات البنوك » .

الاحلام التي غذتها اندفاعة الجدّ نحو مشروع المزرعة اثرت على كل فرد في الاسرة . وكما يحلم الغريق بوهم القشّة ، تعلق هؤلاء بالمشروع ، وبدا كل واحد منهم واثقاً من أنه سيتحقق . وكان الجميع على يقين من أن تحقيق المشروع سوف يؤدي الى تحسين جذري في معيشة الأسرة ،

ولكن تصوراتهم للمستقبل وردود فعلهم أزاء الاحتمالات المرتقبة تفاوتت أو تباينت . وقد تميز ، بهذا الصدد ، على نحو خاص ، موقفا الضرتين المختلفان : فأم عدنان ، المؤيدة ، على العموم ، للمشروع ، استَبَقَت أية ضغوط قد يمارسها زوجها عليها ، وأظهرت ، بصورة قاطعة ، أنها لن تنتقل للعيش مرة ثانية ، في الريف . وقالت المرأة التي استعادت صفتها المدينية وتشبثت بها : « ضيعت شبابي في وحول المسمية الصغيرة ، ولن أقبر نفسي في قرية حورانية » . وأما جدتي مدلله فكانت ، في دخيلتها ، قليلة الثقة في امكانية تحقيق المشروع ؛ كانت الجدّة تسمع أن الأجانب هم أصحاب القرار بشأن التمويل ، وكان في يقينها أن الأجانب هم الذين تسببوا في طردنا من البلاد ، ولم تجد وسيلة للاقتناع بأن الذين حرمونا من الهناء في بلادنا سوف يمدون لنا يد المساعدة لنهنأ في بلاد الغربة . وكلما دار الحديث عن المستقبل ، تركز اهتمام الجدّة في الحصول على مسكن مستقل . أما أن يكون هذا المسكن في المدينة أو الريف ، فقد أوجزت الجدّة رأيها بترديد عبارتها الاثيرية : « اكون حيث يكون صغاري» وليس « أولادي » . لأنها تعرف ان اولادها الكبار سيقيمون حيث تتطلب الوظيفة . ولم يفصح الجدّ عن تصوراته بشأن مسألة الاقامة . وكلّما احتدّ النقاش بشأن هذه المسألة ، كان الجد يعمل على تهدئته بدعوى أنه سابق لأوانه ، وكان ، إذا حوصر بالأسئلة ، يدلي بعبارات غامضة المغزى ، بحيث لا نتبين وجهته الحقيقية .

وفي مرة احتدم فيها الجدل ، وكان مزاج الجدّ رائقاً ، بدا للجدّ أن يمزح فقال : « ابقوا ، جميعكم ، في دمشق ، أما أنا فأعيش في المزرعة وأتزوج إمرأة جديدة » . وقد تلقى الجد ، مقابل مزحته هذه ، عبارة بالغة القسوة قذفته أمرأته الدمشقية بها ، وكانت العبارة من النوع الذي لا استطيع أن انقله اليك .

هذه الأحلام والتصورات والمماحكات قدر لها أن تتوقف ، جميعها ، دفعة واحدة ، قبل انتهاء العطلة الصيفية . ففي آخر مراجعاته لإدارة الاونروا بشأن مشروعه ، تلقى الجدّ الاجابة الرسمية على طلبه ، وكان

ملخصها الإعتذار عن تلبية الطلب . سلم هذه الاجابة للجدّ الموظف ذاته الذي استلم الطلب وشفعها بابتسامة مشفقه . وعاد الجدّ الى المنزل خائب الأمل ، مهدود القوى ، غير قادر حتى على الكلام .

تلقت الأونروا الوف الطلبات التي ينشد أصحابها عون الوكالة الدولية . وما كان في نيّة الأونروا أن تقيل عثار جموع اللاجئين وتعيد لهم مستوى الحياة الذي فقدوه منذ أخرجوا من بلادهم ، ولا كان في حوزة الأونروا الأموال التي تمكنها من تلبية الطلبات . والامر كلّه لم يتعد أمر مبالغ قليلة قدمتها الأونروا لعدد محدود من العاطلين عن العمل ، فنال الواحد من هؤلاء بضع مئات من الليرات ، ونال الاكثر حظاً بضعة ألوف ، ليستخدموها في شراء عربة أو إقامة كشك أو ما شابه ذلك من المشاريع التي يمارسون فيها أعمالاً صغيرة .

وبانهيار الآمال التي لونت صيفنا ذاك ، رأت الجدّة أن تحقيق مطلبها بالسكن المستقل لم يعد يحتمل التأجيل أو المماطلة . ووضعت الجدّة الامر بذلك الحزم الذي يعرف كل من يتعامل معها أنها لن تتراجع عنه : « لستم أولادي ولا أنا امكم أن لم تريحوني من هذا الشقاء ! » . وانذرت الجدّة ولديها الكبيرين بعزمها على أن تهيم على وجهها في البراري أن لم يتوفر السكن المطلوب قبل افتتاح المدارس . في ذلك الوقت ، تلقى نافذ وعمر رد وزارة التربية على مطالبتهما بالانتقال من محافظة الجزيرة .

لقد وافقت الوزارة على نقل الاثنين الى محافظة دمشق ، وكانت هذه المحافظة تسمى ، آنذاك ، محافظة الشام ، وتضم مدينة دمشق وعدداً من الاقضية التي تتوزع على مساحة واسعة في محيطها . وقد طولب الخالان بمراجعة مديرية التربية في المحافظة فهي المخولة بتحديد مكان عملهما الجديد . وطلب نافذ من الجدّة أن تتمهل إلى أن يتضح المكان الجديد الذي سيعمل فيه هو وأخوه . إلا أن الجدة تشبثت بمطلبها وإنذارها . وكانت حجتها واضحة : « أيا كان الوضع ، فلا بدّ من السكن المستقل وسواء انتقلتما الى مدينة دمشق أو جوارها فالمنزل الجديد هو منزلكما » .

كانت هناك امكانية وحيدة للحصول على مسكن بأجر ضئيل ، وذلك عبر المؤسسة العامة للاجئين الفلسطينيين ، الا انها امكانية محدودة للغاية . ففي الحيّ الذي تسكنه أغلبية يهودية ويحمل اسم حيّ اليهود ، تضع الموسسة يدها على منازل السكان اليهود الذين يهجرون الحيّ ويتبعون وسائل غير قانونية للذهاب الى اسرائيل ، وتؤجر المؤسسة المنازل الخالية لاسر اللاجئين الفلسطينيين الذين تتوفر فيها مواصفات معينة . وقد وضعت المؤسسة انظمة لتأجير المنازل وقوائم بالأولويات ، ولكنّها دأبت على أن تحشد عدداً من الاسر في المنزل الواحد بحيث تظفر الاسرة الواحدة بحجرة أو حجرتين على الاكثر ، حتى صارت المنازل شديدة الاكتظاظ واضطر شاغلوها الى التزاحم على المنافع المشتركة واحتمال ما يترتب على هذا من مشقات ومشاحنات وصخب . بالرغم من ذلك ، بقي بامكان القليل من الاسر المحظوظة ، القليل جداً في الواقع ، أن يظفر بمنزل مستقل من هذه المنازل حين يكون صغيراً وتكون للأسرة واسطة نافذة تؤثر على قرارات المسؤولين . وحين رأى الجد أن عزم الجدة على الاستقلال بالسكن غير قابل للإنثناء ، وتقديراً منه للوضع المالي للأسرة ، عرض أن يستنفر وسطاءه لتحصيل سكن في الحيّ اليهودي . لكن الجدّة اعترضت بشدّة ، فهي التي أبت أن تعيش في منزل واحد مع اقربائها لا تقبل ان تتقاسم منزلاً مع اسرة غريبة ، وهي ، ايضاً ، التي ابعدها اليهود عن دارها في فلسطين لا تحبّ ان تجاورهم في الغربة . وانضاف الى رفض الجدّة سبب قاطع آخر ، إذ تبين للجد ، الذي راجع المؤسسة على كل حال بأمل أن يظفر بمنزل مستقل ، أن جميع المنازل مشغولة وأن قائمة المنتظرين ، بمن فيهم مستحقو السكن المستقل ، اطول من أن يمكن اختراقها بأية واسطة .

وهكذا ، بدأت عملية البحث عن منزل في المدينة بأجرة تلائم موارد اسرتنا . كانت المنازل المعروضة للإيجار كثيرة ، أما الأجرة المطلوبة فهي التي كانت فوق المستطاع . وقد دأب نافذ وعمر على التجول ، طيلة كلّ نهار ، بين حوانيت الدلالين والمنازل التي يعرضونها ، ليعودا في نهاية كل

جولة وقد انهكهما التعب واطفأت الخيبة روحيهما . وفي حين لم يبق أحد في الاسرة إلا اشفق على الشابين وانتهى إلي الإقتناع بتعذر الحصول عل سكن مستقل يلائم ظروفنا ، لم تلن الجدّة ولم تكف عن حثّ ابنيها على متابعة البحث . وكان من رأي الجدّة أن الحاجة الى السكن المستقل أهم من أي شيء آخر ، حتى من الاكل والشرب ، وقد هتفت مرة في وجه خالي نافذ ، وامامي : « أعيش على طحين الاغاثة ، وحده ، على أن آخذ راحتي في دار أعرف أني حرّة فيها » . وانتهت ام عدنان الى القناعة ذاتها ، وان تباينت الدوافع . ولا شك في أن زوجة جدّي أدركت ان تقسيم الموارد المحدودة على منزلين سوف يؤثر على مستوى المعيشة المتحقق لها ، هو المنخفض في الاساس ، ولا شك ، أيضاً ، في أن هذه المرأة الحذرة قد تخوفت من أن يؤدي انفراد الابنين المنتجين بالسكن مع أمهم الى زعزعة مكانة الأب ، غير أن اغراءات الانفراد بالسكن مع زوجها وأولادها ، وحدهم ، هي التي لم يتحقق لها ذلك في أي وقت سابق ، تغلبت على الشكوك والمخاوف . وانتهت ام عدنان ، مثلها في هذا مثل الجدّة ، الى الاقتناع بأن راحة البال أثمن من أي شيء آخر ، ولم تلبث أن انخرطت بنفسها في عملية البحث عن مسكن جديد .

والحقيقة ان ام عدنان هي التي عثرت على المسكن الذي انتقلنا إليه في نهاية المطاف . كانت هذه المرأة أعرف ، بالطبع ، من دلالي البيوت بمزاج الجدّة ، فسهل عليها ان تقع على المكان الذي يغوي ضرّتها القادمة من الريف . وما وقعت عليه أم عدنان كان ، في حقيقة الامر ، شيئاً متواضعاً ، إلا أنه بدا ، في ظروفنا وبعد أن عجز الآخرون عن تأمين شيء آخر ، مغوياً حقاً . وقد استدرجت ام عدنان ضرتها لرؤية المكان ، فما أن وقعت عليه عين الجدّة حتى استهواها ، وكان أن بدأت الجهود لابرام الصفقة بأعجل مما توقع الجميع .

لم يكن المنزل المعروض علينا الا ملحقاً صغيراً أقيم على سطح بناية من بنايات القسم الجديد في حيّ القزازين في المدينة ، وقد شغل الملحق جانباً من سطح البناية فيما بقي معظم السطح فضاء . وهذا الفضاء

بالذات ، هو الذي أغوى الجدّة ؛ فهنا يمكن أن « ترى وجه الله » ، أو تجد ما يعوضها عن الأفضية الفسيحة التي الفتها في القرية . والبناية التي شغلنا سطحها ضمت طابقين . وقد شغلت أسرة أبرز رجالها من دبّاغي الجلود الطابق الاول . وكانت هذه الاسرة قد اشترت الارض واقامت الطابق من اجل السكن فيه ، ثم باعت سطحه لدباغ آخر فاقام عليه الطابق الثاني لسكن اسرته ، وبنى الملحق من أجل الاستثمار .

كان أبو حسني ، صاحب ملحقنا ، ربّ أسرة كبيرة ، وكان اكثر ابنائه من البنات ، أما الصبيان فصغار دون سن العمل . وبالرغم من أنه كان يعمل في مهنة رابحة ويملك الدكان الذي يعمل فيه ، فقد احتاج ابو حسني لتأجير الملحق للمساعدة في اعالة الاسرة وتأمين مستقبلها . وكان الرجل محافظاً ، بل متزمتاً في محافظته شديد التشبث بآداب السلوك العتيقة على نحو يفوق كل ما هو مألوف في جمهرة اصحاب الدكاكين في المدينة . وكانت للرجل شروط يطلب توفرها في مستأجر ملحقه . فلا بدّ ان يكون المستأجر صاحب مهنة ، لأن الدباغ لا يثق بموظفي الحكومة . كما لا بدّ أن يكون المستأجر منحدراً من اسرة ذات سمعة طيبة ، وان يكون متزوجاً دون ان يصحبه اولاد كثيرون يقلقون راحة سكان الطابق الذي تحتهم . ويبدو ان وقتا طويلاً قد مضى دون أن يقع إبو حسني على مستأجر تتوفر فيه شروطه كلها ، فبقي ملحقه خالياً ، الى أن بدأت المفاوضات لتأجيره لنا .

مرّة أخرى ، كانت أم عدنان هي التي تصدت لزحزحة الرجل المتزمت عن حرفية شروطه . هنا ، استخدمت المرأة الحاذقة براعتها كاملة . فقد ظن أبو حسني في البداية أن أم عدنان تريد إستئجار الملحق لنفسها وزوجها ، فلم تنف هي ظنّه على الفور ، بل جعلته يبتلع الحقيقة اولاً بأول ، فهان عليه في نهاية المطاف ابتلاعها . وقد تصدت أم عدنان ، بثبات لا يتحلى به الا اولو العزائم الشديدة ، لتفنيد اعتراضات صاحب الملحق : الشابان موظفان ، أجل ، لكنهما ، كما بينت ام عدنان للرجل الذي لا يحبّ الموظفين ، من طينة مختلفة ، فهما يعملان مع الحكومة

بعقد مؤقت ، ويتطلعان لافتتاح مدرسة لحسابهما الخاص حتى يتحررا من وظيفة الحكومة . وهما غير متزوجين ، الا انهما لن يمكثا في المنزل سوى شهور قليلة في السنة ، حسب ايضاحات ام عدنان التي اخفت انهما منقولان الى محافظة دمشق ، ثم انهما يعيشان مع أمّ واخت ، والاسرة ، كلّها ، مشغولة بالبحث عن عروسين لهما ، ولا بدّ أن يهديهما الله الى بنات الناس الطيبين ، من امثال صاحب الملحق ، ذوي الاخلاق الفاضلة . وفي الاسرة ولدان صغيران قد يحدثان الكثير من الضجيج ؟ هذا ليس بشيء ، فاكبر الولدين لم يعد طفلاً ، ولن يلبث أن يبلغ مبلغ الرجال ، والثاني ، عين الله عليه ، منصرف الى العبادة وتحصيل العلم فوقته موزع بين المدرسة والجامع وهو لا يثقل على احد . وبحجج كهذه الحجج ، وشروح بارعة لها ، لان تزمت أبي حسني ، فعلاً ، وبالطريقة ذاتها ، حملت ام عدنان الرجل على التراجع عن الاجرالذي طلبه وهو مائة ليرة في الشهر والقبول بخمسين .

هكذا ، انتقلنا الى جو جديد . انفصلنا عن الاسرة الكبيرة ، وابتعدنا عن الزقاق العتيق الذي تتجاور فيه الاسر الفقيرة والغنية وصرنا في حيّ جديد يسكنه متوسطو الحال من اصحاب الحرف والموظفين . هنا ، حلّت الابنية المشيدة بالاسمنت والحديد محلّ المنازل المبنية بالطوب والخشب ، وحل الشارع المسفلت العريض محل الزقاق الضيق المرصوف بالحجارة ، وتجاورت الشقق التي تطلّ على الشارع بنوافذ عريضة وشرفات مكشوفة بدل الدور التي لا يصلها بالزقاق الا اضيق النوافذ والطاقات . لكن ، بالرغم من تمايز المكانين ، فإن الجديد منهما حمل الكثير من سمات القديم . وبقيت التقاليد المحافظة السائدة هناك سائدة هنا ، ايضاً ، فحجبت الاناث داخل الشقق وحظرت الاختلاط بين الجنسين . ولم تتبدل طبيعة العلاقات ، فالجيران في الشارع ، مثلهم مثل الجيران في الزقاق ، يهتمون بمعرفة من يجاورهم وتبيّن ظروفه وتتبع نشاطاته ، واوجه سلوكه كلها ، ويبنون موقفهم منه على هذا الاساس . والخدمات في الحيين تؤديها دكاكين صغيرة ، متناثرة أو متجمعة في ساحة ضيقة .

كل دكان يعمل فيها مالكها ، وغالباً ما يكون هو العامل الوحيد في الدكان . واذا استأجر أحدهم أحداً لمساعدته فغالباً ما يكون هذا الاجير صبياً يتولى توصيل طلبات الزبائن الى منازلهم .

تقع البناية التي آوانا ملحقها في خريف ١٩٥١ ، في حيّ القزازين . وهو حيّ يجاور الجدار الشرقي لمقبرة الدحداح ، ويمتد بين العمارة البرانية في البلدة القديمة وشارع بغداد الحديث . وكان شارع بغداد ، في ذلك الوقت ، يشكل الحدّ الشمالي لدمشق بحيث يعدّ حيّ القزازين من أحيائها المتطرفة . أما الشارع الذي اقمنا فيه فهو شارع صغير يفضي طرفه الشرقي الى ما يشبه الساحة التي يتصدرها بناء مدرسة ابتدائية للاناث وتتوزع أطرافها دكاكين عدّة ، ويفضي طرفه الآخر ، الغربي ، الى المقبرة . فلم يكن يفصلنا ، إذن ، عن الجهة التي يتركز فيها النشاط العام للحيّ ، إلا بضع خطوات ، فيما تفصلنا بضع خطوات اخرى عن الجهة التي يهجع فيها الاموات . وأما الملحق الذي فتن فضاؤه الجدّة ، فكان نموذجاً للملاحق العديدة التي انتشرت على أسطح البنايات المتواضعة منذ حققت المدينة توسعها الكبير مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وحصل البلد على الاستقلال وانتقل الموسرون والتجار من مساكنهم المكتظة في المدينة القديمة الى الأحياء الجديدة . وما سمي مسكناً على السطح كان ، في الواقع ، مساحة صغيرة احيطت بجدران غير مرتفعة من الطوب الاسمنتي وسقفت على عجل ثم قطعت ، على صغرها ، لتتشكل منها حجرتان ضيّقتان متقابلتان تفصل بينهما فسحة لا تزيد ابعادها عن مترين في مترين . وقد اعدت هذه الفسحة الضيقة لتكون مدخلاً للملحق وحماماً ومطبخاً في الوقت ذاته . الا أن هذا الضيق لم يكن شديد الوطأة . بل لعله واءم عجز الاسرة عن اقتناء الكثير من الاثاث ، فاقتصر الأثاث على سرير واحد ، ربما اشترى من اجل تأكيد الوجاهة ، وعدد من الحصر والفرش التي تستخدم في النهار للجلوس وفي الليل للنوم . ثم أن وجود الفضاء الواسع أمام الملحق عوض عن ضيق هذا الملحق . ففي طقس دمشق ، يمكن استخدام السطح الممتد أمام الملحق للجلوس والسمر

وحتى للنوم ، معظم شهور السنة ، فضلاً عن استخدامه لاغراض اخرى شتى . وواقع أننا جئنا إلى هذا المسكن من منزل صغير ، جعلنا نشعر ، على الفور ، بميزة الاستقلال في هذا المسكن الجديد . وكانت الجدّة ، بين الجميع ، هي الاكثر سعادة ، ليس بالاستقلال وحده ، بل بهذه الفرصة التي تتيح لها ان « ترى وجه ربّها » في النهار والليل .

وقدّ وفر لنا الانتقال الى المكان الجديد مزايا اخرى عديدة . فقد انفتحت الآفاق لتوسيع علاقاتنا الاجتماعية في هذا المحيط الذي يضم ناساً من منابت مختلفة ، ومنهم كثيرون وفدوا حديثاً الى الحيّ ، وكانوا مشوقين لأقامة العلاقات مع جيرانهم . وبوجودنا في حيّ القزازين ، صرنا أقرب إلى محيط المدينة ، فصار بإمكاننا أن نتمتع ، بسهولة ، بالبساتين التي تتجاور على مدّ النظر في هذه الجهة من غوطة دمشق ، وتشكل منتزهات طبيعية يمكن اللجوء اليها في أي وقت . والمدهش أن قرب مسكننا من المقبرة لم يزعج أيّاً منّا . ولم يلبث أن شكلت المقبرة بالنسبة لي ، على الاقل ، مجالاً لنشاط من نوع خاص ، سأحدثك عنه بعد قليل . وكانت اسر فلسطينية قد انتقلت للسكن في هذا الحيّ فتيسر لي أنْ أصاحب أولادها ، فنشكل مع أولاد الاسر الشامية المجاورة شللاً للسمر أو لغزو البساتين المجاورة والتمتع بثمارها .

وقد تصادف انتقالنا الى المسكن الجديد مع تحديد مكانيّ العمل للخالين نافذ وعمر المنقولين الى محافظة دمشق . فالتحق نافذ بمدرسة قرية من قرى قضاء الزبداني ، على بعد ثلاثين كيلو متراً من دمشق ، والتحق عمر بمدرسة زراعية حملت اسم القرية التي اقيمت فيها ، وهي مدرسة خرابو التي تبعد عن المدينة ١٥ كيلومتراً . وبسبب ندرة المواصلات وسوئها ، توجب على نافذ أن يستأجر غرفة في القرية ، وإن صار بامكانه أن يمضي معنا عطلة نهاية الاسبوع ، بانتظام . أما عمر فكان من المتيسر أن يذهب الى خرابو ويعود منها كل يوم ، وأن كلّفه ذلك مشقة الاستيقاظ المبكر كي يتمكن من اللحاق بالباص الذي ينطلق من وسط المدينة في السابعة من صباح كل يوم . وقد أقام عمر معنا ، وإن بقي

بأمكانه أن يبيت في المدرسة ، أيضاً ، كلما اقتضى الأمر .

وهكذا ، انقسمت اسرة عبد المجيد الحوراني ، عملياً ، إلى اسرتين تعيش كل منهما مستقلة في كل شيء ، تقريباً ، عن الاخرى . هذا الانقسام استتبع تقسيم الموارد على الاسرتين ، فعنى التضييق ، او المزيد من التضييق ، على كل منهما ، وبلغ ضيق ذات اليد حدوداً لم نعرف لها مثيلاً من قبل . لقد خصص للأسرة التي بقي فيها الجدّ ما يفيض من راتب أحد ولديه بعد اقتطاع المصروفات الشخصية الضرورية لهذا الولد . أي أن الجدّ صار يحصل على نصف ما كان يحصل عليه من قبل . وكان المبلغ اضأل من أن يفي بالحاجات الضرورية لأسرة لا يعمل أحد من أبنائها الآخرين وأوجب هذا الوضع على الجدّ أن يلجأ إلى المزيد من الاقتصاد والتقتير ، كما أوجب عليه أن يتوقف عن سداد أي من الديون المتراكمة عليه ، مما أوقعه في شبكة لا فكاك منها من المشاكل مع دائنيه الكثيرين ، وأحكم عزلته عن أصحابه القدامى من تجار المدينة . وحصلنا نحن على ما يفيض من راتب الولد الآخر . وقد توجب علينا أن ندفع ثلث دخل الاسرة ، ثلثه بالضبط ، أجرة للمسكن ، مما يبقى لنا مائة ليرة في الشهر ليس غير . وكان من المتعذر ان يفي مبلغ كهذا المبلغ بالحاجات الدائمة او الطارئة للأسرة ومتطلبات العلاقات الاجتماعية الآخذة بالاتساع ، حتى مع مقدرة جدتي المدهشة على التقنين في كل شيء ، واجادة استخدام كل قرش بأقصى ما يمكن من النجاعة . هذا الوضع رتّب عليّ أعباء جديدة . فقد بقي علي أن اذهب ، كل صباح ، قبل وقت المدرسة ، في المشوار الطويل الى سوق الهال لجلب متطلبات الاسرة ، بارخص الاسعار . في البداية ، قسموا المهمة بيني وبين غالب ، فتناوبناها . غير أن الجدّة لاحظت أن ذهاب غالب يقتضي دفع مبلغ اكبر من الذي أدفعه أنا للاشياء ذاتها . كان الفرق ، بالطبع ، قروشاً قليلة ، واحداً او اثنين او ثلاثة ، الا ان هذه القروش كانت ، في ظروفنا ، شديدة الاهمية . وقد استنتجت الجدّة ان غالب غير أمين أو غير حاذق في المساومة . لم تفصح الجدّة عن شكوكها مباشرة ، لكنها عبرت عنها حين

اصرت على أن نذهب سوية ، غالب وأنا ، بدعوى أن هذا يجعل العبء اخفّ على كل منّا . والحقيقة اني رافقت غالب لبضعة أيام ، فاكتشفت أنه ، فعلاً ، غير أمين ، فقد ألف أن يحتفظ لنفسه بقروش من المبلغ الموكل اليه . وإذ تعذر على غالب أن يستمر في هذه العادة وأنا معه دون موافقتي ، فقد عرض عليّ أن نتقاسم المبلغ المقتطع شريطة أن احفظ السّر ، فأبيت ، كما أبيت أن أشي به ، فلم أخبر الجدّة بالأمر . وكل ما فعلته أني تطوعت بالذهاب وحدي كل يوم ، بدعوى أني لا اطيق صحبة غالب ومماحكاته . وتقبلت الجدّة الحصيفة الامر ، ولا بد انها ادركت دافعي اليه ، غير أنها لم تفصح عن شيء ، بل اكتفت بالترحيب باقتراحي : « هذا خير ، يدك فيها البركة » .

وواظبت على زيارة الجامع الاموي وتلقي الدروس مع الجماعة فيه . وقد توجب عليّ أن اقطع مشواراً طويلاً في الذهاب والاياب ، فقلل هذا من فرص الذهاب للمطالعة في المكتبة الظاهرية ، وكان الامر يقتصر على الزيارة التي أقوم فيها بعد الظهر من كل يوم خميس . ومنيت نفسي بالظفر بفرصة المطالعة الطويلة في العطلة الصيفية ، غير ان هذه الفرصة ، كما سترى ، لن تتحقق على النحو الذي تمنيته .

قصور الموارد عن تغطية النفقات الضرورية أوقع الاسرة في سلسلة لا نهاية لها من المتاعب والآلام . فقد قلّ غذاؤنا ، حتى صار مجرد الحصول على ما يملأ المعدة مطلباً عزيزاً لا يتحقق الا في أندر الظروف . وشحت امكانية الحصول على الملابس الملائمة ، حتى من البالة ، فاصبحت هيئتي ازرى من السابق . وتوجب أن نستحلب الظروف أي شيء ، لعلنا نضيف الى ما هو متيسر ما يمكن استخلاصه بأية وسيلة . وهكذا ، لم يعد التنزه في البساتين والحقول وسيلة للتمتع بالطبيعة والترويح عن النفس ، بل فرصة نغتنمها لجمع ما يصلح للأكل من أعشاب الارض وبقولها أو التقاط ما يمكن التقاطه من الثمر حين تغفل أعين النواطير . وتوجب على الجدّة التي غدت المتصرفة بشؤون المنزل أن تستخدم اقصى براعتها لتدبير اي شيء من أي شيء . كانت الجدّة تقنن حتى في توزيع

الخبز الجاف واكواب الشاي علينا . اما القهوة فما عادت تقدم الا بوجود الضيوف . وكنّا ندرك الظروف ونفهم دوافع الجدّة للتقتير ، فلم نعد نلحّ في الطلب كي لا نثير لواعجها . وعلمنا الحرمان آداباً واوجه سلوك تواطأنا عليها حتى دون اتفاق مسبق بشأنها ، فحين يمرض احد افراد الاسرة ، ويصير بحاجة الى تغذية ملائمة . كنّا نتعفف عن الافراط في تناول الطعام وندعي اننا نلنا كفايتنا منه لنوفر للمريض لقماً اضافية تعينه في مرضه . وكنّا ، في كل الاحوال ، نبالغ في ترديد عبارات الحمد للرّب على نعمائه ، بعد كل وجبة ، في محاولة للتظاهر بأننا شبعنا ، حقاً ، وارتوينا . وحين يصدف أن يصل زائر غريب أثناء تناولنا الطعام ، كنّا ننهض عن المائدة متظاهرين بأننا فرغنا للتوّ من الاكل ، ومظهرين للزائر ان عندنا من الطعام ما يكفي حاجاتنا ويزيد . واتذكر تقليداً طريفاً اتبعناه ، هو الآخر ، دون اتفاق مسبق . فقد كان يحدث أن يحين أوان تناول الطعام بوجود زائر لدينا ، دون أن يكون بحوزتنا ما يدخل المعدة سوى الخبز الجاف او ما هو في حكمه . وفي حالة كهذه ، كنا نغمس الخبز بالزيت والملح الامر الذي يخجلنا أن نطلع الزائر عليه . فكنّا نحتال كي لا يعرف الزائر الحقيقة : تدعونا خالتي شفيقة الى الاكل في الحجرة التي لا يكون الزائر فيها ، فنلوك هناك لقماتنا القليلة على مهل ونطيل القعود ونتبادل عبارات توهم الزائر بأننا نتعازم على أطايب الاطباق . ثم ، أمعاناً في الايهام ، كنّا نتوجه الواحد تلو الآخر الى المغسلة التي في المدخل ، حيث يصبح بمقدور الزائر أن يرانا ، فنغسل أيدينا بالماء الفاتر والصابون كي يقتنع زائرنا بأننا أكلنا وجبة دسمة .

إن الضنك الذي استحكم في تلك الفترة ، مع نمو احساسنا به وعجزنا عن الخروج منه ، صبغ شخصياتنا ، جميعاً ، بطابعه السلبي فحولنا الى عصبيين دائمي التوتر ، سريعي رد الفعل كثيري الصياح والمشاحنة ، فضلاً عن اننا صرنا شديدي التأذي ، يثيرنا أي شيء ويدفعنا أي استفزاز الى الشجار . من المؤكد أن المشاعر الطيبة التي هي أقرب الى المشاعر الغريزية ، مما يربط أعضاء الاسرة الواحدة ببعضهم ، لم تختف ، غير أن

ثقل الواقع على الكبار والصغار مّما فيهم جفوة الطبع وقساوة السلوك وحدّة الانفعال ، فصار حوارنا طلقات نتبادلها دون رويّة ، وصارت مناجاتنا كلمات مبتسرة نتبادلها عند الضرورة القصوى ، وحدها . لم نعد نعرف المسارات الهادئة التي يتبادلها الناس في الجلسات العائلية ، الا حين يكون في زيارتنا غرباء فيفرض وجودهم على سلوكنا شيئاً من التأدب في الحديث والملاينة في الحوار . حتى بوجود الغرباء ، ما كان الامر يخلو من انفجارات تفتك بالنفوس وتعمق الجفوة بين الاقرباء ، فكنّا ، أحياناً ، نتبادل طلقات الحوار الحاد أو نتشاحن أمام الغرباء ، حين لا يقوى التأدب المصطنع على مقاومة أسباب الانفجار .

حياة كهذه الحياة ما كان لها ، بالطبع ، أن تجتذبني لإطالة المكوث في المنزل ، بل قوّت حاجتي للإبتعاد عنه بقدر ما أستطيع . فكانت المدرسة ، وكان الجامع ، وقاعة المطالعة ، وكانت السرحات الطويلة مع الأقران في البساتين القريبة والبعيدة ؛ ملاجيء اتعرف اليها واعوض بها عما أفتقده في المنزل . وهكذا ، صار لي ، خارج المنزل ، برنامج حافل ، وقد اهتديت ، في ذلك العالم ، الى مزايا الذهاب المبكر للجامع الأمويّ ، فكنت اقصده في الأصباح التي لا تفرض حاجة الاسرة علي فيها الذهاب الى السوق . أتوجه الى الجامع منذ الفجر ، وأبقى فيه الى أن يحين موعد الذهاب الى المدرسة ، لاعود اليه من اجل الدروس في المساء .

في ذلك العام ، اهتديت الى نشاط يدرّ عليّ بعض القروش . بدأ الامر بصورة عرضية . فالولد الذي كنته تمتع بسمعة طيبة بين الناس الذين يسكنون في الجوار ، بوصفه الصغير المنصرف الى العبادة والهائم في حبّ الله . وكان لسمعتي هذه تأثير خاص بين النساء اللواتي عددنني صبياً مبروكاً هداه الربّ الى الطريق المستقيم . ولعل العاهة التي اشكو منها اضفت عليّ سمتاً غامضاً عزز هذه السمعة . وقد حدث أن داهم جارتنا أم حسني صداع لم تنفع الوصفات الشعبية التي استخدمتها في علاجه . وشاءت الجارة ان تستفيد من بركتي ، فطلبت مني أن اتلو ما احفظ من

آيات القرآن فيما أضع يدي على الرأس المصدوع ، وحدث أن التلاوة هدأت آلامها . وأرادت المرأة أن تكافئني فعرضت عليّ بضعة قروش ، لكن الجدّة أبت أن اتقاضى شيئاً من الجارة . وفي مرة تالية ، اصطحبتني ام حسني معها لزيارة مقبرة الدحداح ، حيث تلوت سورة يس على قبر واحد من اقربائها أو قريباتها . هنا ، أرادت المرأة ، كرة أخرى ، ان تكافئني ، فأبيت ، غير أن هذا الحادث نبهني الى ما كان يفعله كثيرون سواي من اولاد الحيّ . فقد كان هؤلاء يتأبطون مصاحفهم في أيام زيارة الاحياء للموتى ، وهي في العادة أيام الخميس والاعياد ، ويتلون القرآن على القبور مقابل قروش يظفرون بها . جاريت هؤلاء الاولاد ، فصار بامكاني ان اظفر بقروش قليلة او كثيرة ، حسب المواسم . وفي هذا المجال ايضاً ، تمتعت بسمعة خاصة ، فقد كان من عادة الاولاد أن يساوموا طلاب التلاوة على المبلغ الذي ينبغي دفعه ، وكانوا يطيلون التلاوة أو يقصرونها حسب المبلغ المدفوع لهم . أما أنا فكنت اخجل من المساومة وأتهيب من العبث بسور القرآن فاتلو سوره « يس » من أولها الى آخرها ، في كل الاحوال ، ثم أقبل ما يدفع لي دون اعتراض . وكانت تلاوتي للقرآن ، الى هذا ، جيدة ومتميزة ، حين تقارن بتلاوة الاولاد الاخرين . ولم يلبث ان شاع هذا كله بين زوار المقبرة ، فصار لي بينهم زبائن يبحثون عني ولا يوكلون أرواح موتاهم الا إلي . وبإمكانك ان تحزر أن معظم زبائني كان ، اذن ، من الفقراء الذين يتوخون اعظم الثواب السماوي بأقل الأجر النقدي .

نشاطي هذا عرفه المقيمون معي في المنزل وحدهم . أما خالاي نافذ وعمر فلم يعرفاه ، إذ خشيت أن يسوءهما هذا الامر الذي يشبه التسّول ، ولم يجرؤ أحد في المنزل على إبلاغهما به . وكان الوحيد المهيأ للابلاغ عني هو غالب ، لكني أمنت شره منذ اهتدى ، هو نفسه ، الى مورد الرزق هذا ، فاقتنى مصحفاً وانضم الى الاولاد الذين يجولون بين المقابر .

شيء آخر من هذا القبيل مارسته غير أني رفضت أن أتقاضى عليه

أجراً لسبب لم أتبينه بوضوح ، ذلك هو كتابة الحجب . فبعد أن تحررت ام حسني من آلام رأسها ، فردت لسانها على مدى الحيّ وجندته للثناء عليّ وتأكيد حكاية بركتي . وكان أن جاء إلينا نساء من الجوار طالبات ما توفره بركة كهذه البركة من خدمات . وتنوعت الطلبات ، فتجاوزت الحاجة الى الشفاء من المرض لتشمل تحقيق الرغبات المنشودة ، تليين قلب الزوج الجافي ، أو تيسير زيجة مرجوّة ، او الحصول على خلفة من الذكور . كان من بين اللواتي جئن فتيات او نساء تأبى تقاليدهن مجالسة الذكور حتى لو كان الذكر ولداً في سنّي ، فتوجب أن استعيض عن التلاوة المباشرة بكتابة الآيات النافعة في حجب يحملنها ويمضين بها . وهكذا ، صرت ، أيضاً ، كاتب حجب . ولكني لم ألجأ الى الطلاسم التي يستخدمها كتّاب الحجب المحترفون ، فما كنت أومن بهذه الطلاسم ، ولا كنت اعرفها ، على كل حال .

لا يشطح بك الخيال فتتصور أن التلاوة على القبور وفرت لي دخلاً يعتدّ به ، فالامر لم يتعد جمع قروش قليلة كل يوم خميس أو عيد . بالرغم من ذلك ، فان هذه القروش القليلة سببت لي أول ازمة ضمير من نوعها . فإذا كانت الحاجة ، واشياء أخرى غامضة ، قد حثتني على المضي في هذا النشاط ، فإن ضميري الغض لم يسترح لحصولي على المال بهذه الطريقة . وزاد الامر سوء اضطراري للتستر على نشاطي هذا إزاء خاليّ الكبيرين وشيخي في الجامع . ولعل مبعث الازمة اني ربيت في المنزل على التعفف عن التسول مهما ساءت الاحوال ، وثقفت في جماعة الجامع على رفض التكسب بالدين ، فيما انطوى نشاطي في المقبرة على شيء من هذا وذاك . وقد عانيت عذاباً حقيقياً حين تضاربت مشاعري بين الحاجة والتعفف . ولعلّ التعويض الذي ابتكرته للتخفف من الاحساس بالذنب تمثل في الطريقة التي استخدمت بها ما احصل عليه من مال . فقد كنت اجمع حصيلة التلاوة وأعود بها الى المنزل واسلمها بكاملها لجدتي . وكانت الجدّة ، غير المشغولة باختلاف الآراء حول المورد ، تتقبل الأمر ببساطة على اساس انه رزق ساقه الله للولد المحروم من

المصروف اليومي الذي يتمتع به نظراؤه ، فتحفظ المبلغ لديها ثم تعطيني إيّاه مقسماً على أيام الاسبوع ، فاظفر بنصف فرنك او فرنك كامل أو فرنكين ، حسب الاحوال . وهكذا ، صار لي ذلك النوع من مصروف الجيب الذي يأخذه تلاميذ المدارس من ذويهم ، وان ظل ما اظفر به أقل مما يظفر به الاخرون ، وبقي عذاب الضمير الذي يخفت أو يشتد دون ان يختفي كليّة . اما غالب الذي اعتاد قبل ذلك على التصرف بما يستخلصه لنفسه من مال الاسرة ثم حرم منه ، فقد وجد في المقبرة مصدراً جديداً للمصروف . وكان يحصل ، دون شك ، على اكثر مما احصل عليه انا ، ويتباهى أمامي به ، ويأخذ على حساسيتي وتعففي ، ويناكدني بسبب ذلك .

٨ طه حسين والمعذبون في الارض مرآة نفسي

اجتزت امتحانات آخر العام الدراسي بنجاح ملحوظ . لم اكن الأول في الصف ، كما اشتهى أهلي ، لكني كنت بين الأوائل . وكانت هذه نتيجة مرضية ، فلم تنهض في وجهي ، أية معارضة لاستمراري في دروس الجامع . وحلّت العطلة الصيفية ، فجاء خالي نافذ للإقامة معنا بصورة دائمة ، وتحرر عمر من مشاويره الطويلة المضنية الى خرابو . وبوجود الخالين في المنزل ، تعذر أن استمر في التردد على المقبرة لأنهما ما كانا سيستسيغان هذا النوع من النشاط بأي حال من الأحوال . وكانت أحوال الأسرة ، بشقيها ، قد ساءت إلى حد تعذر فيه الظهور بالمظهر اللائق الذي تقتضيه مكانة الخالين ، موظفيْ الحكومة.

لقد أوجب تفاقم الوضع تشديد البحث عن حلول . فتقدم نافذ بطلب لنقله من قضاء الزبداني الى مدينة دمشق ، ودعم طلبه بالوساطات اللازمة وتلقى الوعد بالقبول . وبحث نافذ ، وكذلك عمر ، عن تلاميذ من أبناء الأسر الميسورة ممن يحتاجون إلى دروس خاصة فتيسر لهما بعض

الفرص . وجاء دورنا ، نحن الأولاد الصغار في الأسرة ، لنشيل شيئاً من العبء . وكان من المألوف أن يبحث صغار التلاميذ عن فرص عمل أثناء العطلة المدرسية . وقد وفرت الدكاكين ومشاغل الاطعمة والحلويات والمرطبات والمحترفات الصغيرة المتنوعة فرصاً لشغيل أعداد من الاولاد ، وأن كان الأجر الذي يدفع ، في هذه الحالة ، أقلّ من القليل .

وبطريقة ما ، لم أعد اتذكر تفاصيلها ، ولعل الامر تم بجهود أم عدنان وبواسطة معارفها الدمشقيين ، تهيأ لي أن أعمل ، ذلك الصيف ، في مشغل لأنتاج المرطبات المجمدة ، « الاسكيمو » . كان ذلك هو المشغل الذي حمل اسم « معمل الاسكا » . وقد وجدتني انضم الى زمرة من الأولاد الذين يستأجرهم المشغل وأتقاضى ليرة واحدة عن كل يوم عمل .

يقع « معمل الاسكا » هذا ، في زقاق صغير وراء صف البنايات التي تقابل مبنى البرلمان الشهير في الحيّ الذي يحمل هذا الاسم ، ويشغل قبواً في عمارة تتوسط الزقاق . وكنت أقطع المسافة من القزازين الى البرلمان مشياً على الاقدام ، بالطبع ، لأن ضآلة الدخل لا تتيح ترف استخدام الباص الذي يمر بالحيين . نصل مكان العمل مع شروق الشمس ونظل فيه حتى غروبها . فإذا تذكرت أن نهارات الصيف طويلة ، فستستنتج أننا كنا نعمل طيلة ثلاثة عشر أو أربعة عشر ساعة عملاً متواصلاً لا يقطعه الا نصف ساعة تمنح لنا وقت الغداء . لم يكن العمل هيناً ، ولا كان هيناً ذلك المشوار الطويل الذي أقطعه في الصباح بجسدي المسكون بالنعاس ، أو مشوار العودة الى المنزل الذي أقطعه بجسدي المكدود .

كان العمل موزعاً على ورش عدّة : تتولى واحدة من هذه الورش إعداد السائل ، الحليب من البودرة ، او العصير متعدد الانواع والالوان ، من « اسانس » الفواكه ، وتهيؤه للعمليات المتعاقبة التي تجعل منه « أسكيمو» لذيذاً يستسيغه المستهلكون . هذه الورشة يشرف عليها أحد صاحبي المشغل وهو الحاج صلاح ، ويعمل معه ثلاثة عمال كبار يعاونهم عدد من الأولاد ، وهي أهم ورش المشغل من حيث أن العامل فيها يطلع على أسرار

العمل التي يحرص أصحابه على عدم تفشّيها . وتعمل الورشة الثانية حول البركة المبرّدة . هنا يتم تحويل السوائل الى قطع مجمّده ، فالسائل ، الحليب ، او الشوكولا ، او الكاكاو ، او عصير الفواكه ، يسكب في قوالب مقطعة حسب الاشكال المطلوبة ، والقوالب تغطس في ماء البركة الذي تنخفض حرارته الى مادون الصفر فيتجمد سائلها ، ثم تسحب من البركة وتحل محلها قوالب اخرى . وهذه الورشة تضم ، أيضاً ، عاملا محترفاً وعدداً من الاولاد ، يلي ذلك عمل الورشة الثالثة التي تستخلص القطع من القوالب وتلفها بالأوراق التي تحمل اسم المشغل . وتضم هذه الورشة عدداً من الاولاد والبنات صغار السن وهم يعملون بلا توقف ولا تهاون ، تحت الرقابة الصارمة لمراقب فظ من أقرباء الحاج صلاح ، لا يتورع عن تقريع الولد المتواني أو ضربه أو طرده من العمل ، إن لم تنفع العقوبات . بعد هذه العملية ، تنقل القطع الملفوفة لتستّف في فجوات براد هائل الحجم يشغل صالة كبيرة في القبو ؛ وتبتلع كل فجوة من فجوات البراد العميقة ألوف القطع المتماثلة . عملية التستيف هذه يقوم بها أولاد من سنّي على أن يكونوا ، مثلي ، من طويلي القامة حتى يتمكنوا من بلوغ قاع الفجوة حين ينحنون ليبدأوا التستيف من أول القاع . وفي انحنائه هذا ، وهو ما يتوجب تكراره دون توقف ، ينحشر راس الولد ، وكذلك جذعه ، في الفجوة ، ويتوجب عليه ان يتنفس الهواء المبرد بصقيع البراد ، ويتحمل البرودة التي تجمد أصابعه وتلسع بدنه . والأولاد الذين يستّفون القطع هم أنفسهم الذين يتولون تسليمها للباعة المتجولين حين يأتي هؤلاء لملء عربات اليد التي يؤجرها المعمل لهم . وبهذا ، تتكرر عملية الانحناء والتنفس المثلّج حين استخراج القطع من الفجوات . هذه العملية كلها يشرف عليها الصاحب الثاني للمشغل ، وهو ابو محمود ، الذي يجلس الى مكتب في ركن الصالة وينظم حسابات المشغل كلها .

في البداية ، انضممت الى ورشة اللفّ بالورق . هنا ، تميز العمل بقلة المسؤولية ، ولم يخل ، على مشقته ، من بعض المتع . كنا حوالي نصف دزينة من الاولاد والبنات ، نجلس حول مائدة تتكوم فوقها القطع

المستخرجة من القوالب فنتبارى في لفّها . وكان من المألوف ان نتبادل الحديث ، وحتى المزحات خلال العمل أو أن ننظم مسابقات نتنافس فيها حول عدد القطع التي يلفها كل واحد منّا ونبتهج حين نفوز . وكان المراقب الفظ يشجع هذا كلّه ، بل يسعى الى تهييج المنافسة بيننا بشتى السبل ، وكان يشجعنا على اداء الغناء الجماعي لأنه ينشط هممنا ويزيد الانتاج . وفي نصف الساعة الذي يمنح لنا من أجل الغداء ، كنّا نتناول الطعام سوية ، فنفرد الصرر التي نجيء بها من منازلنا ونأكل بصورة مشتركة مما يزيد في تقاربنا الى بعضنا ويعزز الالفة بيننا . وقد استمر عملي في هذه الورشة بضعة أسابيع ، لم اشك خلالها إلا من التعب ، أي مما يشكو منه العاملون في المشغل جميعهم . خلال ذلك ، تنبه صاحبا المشغل الى صفتين فيّ تلائمان العمل في ورشة اخرى ، احدى الصفتين جسدية وهي طول قامتي ، والثانية اخلاقية وهي أمانتي . وهكذا ، تم نقلي الى العمل على البراد . هنا ، صار علي أن أمضي ساعات العمل واقفاً واتابع ليّ جسدي ، داخلاً الفجوة المثلجة وخارجها منها ، دون توقف . وما كان آخر النهار يجيء حتى تكون قواي قد استنفدت عن آخرها . وصرت أجرجر قدمي المتورمتين ، في مشوار العودة الى المنزل ، فأصل وأنا أكاد أسقط من الأعياء ، ولا أجد ما أقدر على عمله بعد تناول العشاء سوى الاستلقاء على الطراحة التي تمدها لي خالتي شفيقة على السطح وأستسلم للنوم ، الى أن تنتزعني منه الحاجة إلى استئناف الكدّ .

وقد ظل هذا هو دأبي طيلة شهور العطلة الثلاثة ، لا أعرف الراحة الا يوم الجمعة . أما الليرات الستّ التي احصل عليها كل يوم خميس ، فكنت أسلمها للجدّة ، فتخصني منها بذلك المصروف اليومي الضئيل ، وتضيف البقية الى ميزانية الاسرة وتدعو لي بالصحة والعافية . وبعمل كهذا العمل ، مضن ومستغرق لوقتي كله ، لم ألبث أن انقطعت عن المواظبة على الدروس في الجامع ، وانقطعت ، بالطبع ، عن قاعة المطالعة ، وان بقي بامكاني أن انضم للدروس بين وقت وآخر وفي أماسي أيام الجمع . لقد امتعض الشيخ عبد الرزاق بسبب انقطاعي ، إلا أنه

أظهر تفهماً لظروفي ، وكان يوليني ، عندما أجيء الى الحلقة ، عناية خاصة ، فيحرص على أن يوجز لي ما فاتني من دروس ، بحيث يمكن القول أن حصة يوم الجمعة كانت تخصص ، عملياً لي .

هنا ، علي أن أنوّه بأن عملي في المشغل شكل الخطوة الأولى في مشوار طويل تفتحت فيه بصيرتي على الواقع العملي الشاسع ، فتجاوزت حدود الاسرة والمدرسة والجامع . فالاحتكاك بالشغيلة والأجراء الصغار والرضوخ لرغبات أرباب العمل ونزواتهم وصلا أسبابي بأجواء ما كنت انتبه أليها من قبل ووضعا على محك الاختبار القيم التي ثقّفني بها الأهل والمدرسون والمشايخ الهائمون بالسلف الموصوف بالصالح . إن الاحاديث التي يتداولها الشغيلة وهم تحت وطأة الارهاق وفي خضمّ الجهد الذي يعود جلّ مردوده لغيرهم هي التي شحنت إحساسي بقسوة الواقع وعززت نزعتي المعادية للظلم كما عززت صلتي بالهموم العامة . هنا ، عاينت مبادىء السياسة وأولياتها ، ليس بمعنى التعلق بقضية وطنية كبرى ، كما هو الشأن في الاسرة ، ولا التبشير بايديولوجيات شاملة ، كما هو الشأن في الجامع ، بل السياسة التي توجه حياة الناس اليومية وتحدد حصصهم في السعادة والشقاء ، فتنعكس تأثيراتها في وجبات طعامهم وصحة أبدانهم ومطامحهم الروحية . وهنا ، تلقيت الخضّة الأولى التي فتحت وعيي على آلية الاستغلال وبينت لي الفرق بين سطوة الانسان القادر على التحكم بمصائر الآخرين وشقاء من يقع ضحية لهذه السطوة . كنت جمّ الاجتهاد في عملي . وقد ألفت أن أحظى بثناء صاحبي المشغل على همتي ونشاطي وإخلاصي . وكان هذا يطربني ويشجعني على مزيد من الاجتهاد . وحدث أن كلفني أبو محمود ، مرة ، بأن انقل لوحيّ جليد من القبو إلى سيارته التي تقف في الشارع ، اذ كان يقيم حفلة في منزله وهو بحاجة للجليد . وكان تكليف كهذا مألوفاً وهو يندرج بين مهامّ الصغار في المشغل الذين كثيراً ما يعهد اليهم بأداء مهام شخصية لأرباب العمل أو مراقبيه . ولعلني لا أبالغ لو قلت لك أننا كنّا نستطيب اداء هذه المهام ، بل نتبارى للظفر بها لانها تقربنا من رب

العمل ، وتتيح للواحد منا أن يحظى بانتباهه ورضاه . انتدبني أبو محمود للمهمة لاني الاطول قامة بين الصغار المحيطين به ولأن المهمة أقلّ شأناً من أن يكلف بها واحد من الكبار . وامعاناً مني في التقرب من الرجل ، حملت اللوحين دفعة واحدة ، بدل أن احملهما واحداً واحداً ، وسرت بهما أمام الرجل الذي لم يعترض على تدبيري هذا . لكن الحمل كان أثقل من أن أمضي به حتى النهاية ، وقد أوقعني ثقله على الدرج فتهشم الجليد وتناثرت قطعه حتى وصل بعضها أرض القبو حيث يجلس أبو محمود ، وقد سبقتها اليه اصداء الصرخة التي انطقني الألم والغيظ بها . وعندما بلغ أبو محمود المكان الذي وقعت فيه ، وكنت قد نهضت واقفاً لتوّي ، وبدل أن يواسيني ، كما توقعت ، أنا المسكون بالرغبة في إرضائه ، صفعني الرجل صفعة مؤلمة وغمرني بسيل من الشتائم الجارحة التي طالت شخصي كما طالت أهلي ووطني .

فاجأني رد فعل ربّ العمل مفاجأة كاملة واشعل في نفسي كبرياء الطفولة المجروحة ، وأوقد في حسّ التمرد على ذلّ الحاجة ، دفعة واحدة . ثم بلغ حنقي حداً تعذر عليّ معه أن أبقى صامتاً ، حين شتم الرجل المهتاج أهل فلسطين متهماً إياهم بالتفريط ببلادهم في معرض اتهامه لي بالاهمال . وهببت في وجه الرجل ، مستنكراً صفعته وشتائمه ، ورحت أبكي ، فيما أنا أواصل الصياح . ويبدو أن ربّ العمل المعتاد على رضوخ الأجراء له فوجيء بثورة الطفل وجرأته على رد الشتيمه له ، فانهال عليّ ضرباً بأطرافه الاربعة ، وقد فقد السيطرة على نفسه . ولم يتوقف الرجل عن الضرب الا حين تمكن الآخرون من الإحاطة به وإبعاده عني . يومها ، سحّ زملائي الصغار دموعاً كثيرة حين لم يجدوا ما يواسونني به سوى البكاء ، وتداعى نفر من العمال الكبار للإضراب عن العمل فيما انتدب آخرون أنفسهم لتهدئة الجوّ . وأمام آلام الصغار واشتداد الدعوى للاضراب ، طلب الساعون للتهدئة من ربّ العمل أن يطيب خاطري ولو بكلمة تمسح الجرح الذي سببه لي ، فاستكثر أبو محمود هذا الطلب ، بل أصرّ على أن يأتي الاعتذار مني أنا وأن أقبل يديه طالباً الصفح ، وأن

يحسم من أجرتي ثمن اللوحين اللذين تحطما ويعاقب العمال الذين جهروا بالدعوة للإضراب . وكبرت المشكلة وتعقدت . فلجأ أبو محمود الى السلطات : استدعى الشرطة ، واتهمني بالسرقة ، وقال إنه اكتشفني حين كنت امضي خلسة حاملاً لوحيّ الجليد وأني وقعت حين انتهرني . وضربت في مخفر الشرطة لأقر بالسرقة وأقرّ بأسماء الشركاء الذين كانوا ينتظرون لوحيّ الجليد في الشارع وعدد المرات التي سرقت فيها الجليد قبل هذه المرة . وكاد الامر يتحول الى كارثة . وجاء جدي الذي استدعته الشرطة . فاهتاج منذ أبلغت اليه التهمة الشنيعة الموجهة لي . لكن الجدّ استخلص من سلوك الشرطة مقدار النفوذ الذي يتمتع به أبو محمود في المخفر وخشي أن تتلبسني التهمة حقاً ، فتذرع بالحكمة وعمل على حل المشكلة بالتراضي مع الشاكي . وهكذا ، توجب عليّ أن اصرح بأني لم أضرب ولم أهن ، وسحب أبو محمود شكواه بشأن السرقة ، وأظهر مسامحته لي باعتبارها المرة الأولى . وأعادني ابو محمود الى المشغل معه في السيارة ، مظهراً منتهى التسامح . وهناك ، استرضى العمال المتداعين للاضراب وحثنا ، أنا والصغار الآخرين ، على التأدب في التعامل مع ربّ العمل الذي ينبغي أن يكون ، بالنسبة لنا ، في مقام رب العائلة .

في غضون ذلك ، نبهتني أحاديث الزملاء التي يتداولونها كل يوم إلى أن البلاد خاضعة للحكم العسكري . كان الزعيم اديب الشيشكلي ، وهو رئيس الأركان العامة ، قد أحكم قبضته على السلطة من موقعه في قيادة الجيش . وصل الزعيم الى ذلك بالتدريج ، بعد أن انهى الجيش الحكم المدني وحظر نشاط الاحزاب وشهد البلد سلسلة متعاقبة من الانقلابات ، صفى فيها ضباط القمة خصومهم فانفسح المجال لظهور ديكتاتورية الشيشكلي الفردية . وكانت الاحاديث تدور حول فساد العهد السابق واستئثار الحكام بالمنافع لأنفسهم وأتباعهم وأزلامهم ، دون بقية أفراد الشعب ، كما تدور حول قسوة الحكم الفردي وشدّة قبضته على أهل البلد وتهاونه واستخذائه أمام اسرائيل . كانت الاحاديث تتناول اشخاصاً باسمائهم ووقائع بعينها فتجذبني بساطتها وقوة تعبيرها عن الاحوال

السائدة وخلوّها من التعقيدات النظرية التي يتعبنا بها دعاة الاحزاب في المدرسة او الوعاظ في المساجد .

والحقيقة أن الاوساط الاخرى التي أتردد عليها ، كانت مشغولة بما يجري في البلاد . فالاضطرابات السياسية المتعاقبة التي تعرضت لها سوريا منذ حصولها على الاستقلال ، والتي اشتدت وتيرتها بعد هزيمة الجيش في حرب ١٩٤٨ مع اسرائيل . وما استتبعته من تبديلات سريعة في قمّة السلطة ، تركت بصماتها المتعددة في كل مكان وتأثر بها الناس من كل الفئات . وقد تمكن العقيد اديب الشيشيكلي من فرض هيمنته على السلطة واشتهر بأنه الآمر الناهي في كل أمر من أمورها منذ كان رئيساً للاركان العامة ، وظل الآمر كذلك بعد أن شغل منصب رئاسة الجمهورية . وفي عهد الشيشكلي ، دخلت البلاد في مرحلة جديدة من الصراع السياسي الحاد . ولأن اجراءات السلطة مست قطاعات الحياة المختلفة ، فقد استفزت قوى وعناصر من اتجاهات متعددة ، وحتى متباينة ، لمقاومتها ، فيما حاولت السلطة أن تدفع الى النشاط كل المؤيدين لها . واجتذب هذا وذاك أعداداً كثيرة من الناس للاهتمام بالشأن العام ، بعد أن كان الاهتمام به محصوراً في أوساط النخبة من ضباط الجيش والأمن واعضاء الاحزاب ورجال الحكم .

وقد وصلت أصداء الأزمة الى جماعتنا في الجامع ، كان الشيخ صالح فرفور يجتذب المريدين الى جماعته على أساس عدم التدخل في السياسة التي يعدّها من شؤون الدنيا الفانية . وكان هو نفسه موظفاً في الحكومة على اساس أن الثانوية الشرعية التي يدرّس فيها هي مدرسة رسمية . وحين انقسمت البلاد ، في البداية ، بين مؤيد للشيشكلي ومعارض له ، واجتذبت السلطة عدداً من المشايخ لتأييدها ، تجنب الشيخ صالح الإنجرار الى مواقف المؤيدين وتسلح بدعوته الى عدم الاستغراق في الشأن السياسي . ثم جاء وقت بدا فيه واضحاً أن الأغلبية تقف ضد الحكم الفردي ، وأن اوساطاً نافذة في هذه الاغلبية تقاوم الديكتاتورية وتجتذب الجمهور الى مقاومتها . وقد برز بين نشطاء المقاومين عدد ملحوظ من

رجال الدين . هنا ، اتخذ الشيخ صالح موقفاً وسطاً ، فبقي حريصاً على تجنب الاصطدام المباشر مع السلطة المبغوضة ، ألا أنه أدخل الى درسه اليومي أحاديث نبوية كثيرة تزيّن العدل وتدين الظلم وتضع المتصدّين للحكام الجائرين في مراتب الأولياء والشهداء الذين ضمن الربّ لهم مقاماً دائماً في الجنّة . لقد لمسنا بداية التحول في مزاج الشيخ حين شرع ذات يوم في تعليمنا حديثاً نبوياً شهيراً هو الذي يعدد النبي محمد فيه « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله » . ولعلك تعرف أن هذا الحديث يضع « الامام العادل » في مقدمة الموعودين برضى الرب ورعايته ويضع معه الرجل الذي يجهر بكلمة حق في وجه سلطان جائر . لقد أفاض الشيخ ، منطلقاً من هذا الحديث ، في شرح مفهوم العدل ومزايا التصدي للجور ، واستغرق شرحه أياماً متوالية . فعل الشيخ هذا بطريقة جعلت سامعيه يدركون أن ما يرونه أمام أعينهم من سلوك حاكمهم ليس الا جوراً ، ولكنّه لم يقل هذا أبداً بطريقة مباشرة .

والواقع ان المزاج العام في البلاد ، وهو بمجمله رافض للديكتاتورية ، اجتذب مزيداً من رجال الدين لإنتقاد النظام القائم ومقاومته . وقد اشتهر بين هؤلاء واحد من أئمة الجامع الاموي بالذات ، كان هذا هو الشيخ عبد الحكيم المنيّر . لقد احببت هذا الرجل ذا القامة القصيرة لكن المتينة واللحية السوداء الكثة لكن المشذّبة ، وكنت اتصيد الفرص للظفر بحديث ما معه . كان الشيخ المنيّر يقطن في مدرسة دينية مجاورة للجامع الاموي ويتناوب مع خطيبين آخرين خطبة الجمعة وامامة صلاتها . وكان الرجل جريئاً جرأة مشهودة ، فهو لم يكتف بالتحريض العلني المباشر ضد السلطة بل كان يتصدى بنفسه لرجال الأمن المندسين بين المصلين ويشتبك معهم بيديه كلّما اقتضى الامر ؛ فكان يقدم بسلوكه وموقفه القدوة التي يحتذي بها الآخرون ؛ وكان ، الى هذا ، بارعاً في الافلات من أيدي رجال الأمن بمقدار ما هو بارع في التصدي لهم .

ثم حدث أن دخل الحاكم الفرد في معركة مباشرة مع رجال الدين ؛ افتعل الديكتاتور المعركة مؤملاً في أن تؤدي إلى تقليص أعدادهم والمسّ

بهيبتهم وزعزعة مكانتهم وسط الجمهور . والمعروف أن الإسلام ، بخلاف المسيحية واليهودية ، لا يفرض وجود فئة خاصة من الاكليروس او رجال الدين ولا يشترط شروطاً خاصة لتحديد مراتب علماء الدين أو ازيائهم أو الناس الذي يحق لهم أن يتزيوا بهذه الأزياء . ويمكن ، في المجتمع الاسلامي ، لأي شخص ، أن يدرس علوم الدين لوحده أو على يديّ شيخ سبقه الى العلم او في مدرسة ، كما يمكن لاي شخص أن يتزيا بالجبّة والعمامة . وفي بلد كدمشق كثرت فيه جماعات دراسة الدين في الجوامع والمنازل ، زيادة على المدارس التي تقوم بهذه المهمة ، كان عدد كبير من الناس يؤثرون لبس الجبّة والعمامة ويسعون بين الآخرين بهذا الزيّ ، مما لوّن المشهد الاجتماعي بنسبة عالية من المشايخ . وكثير من هؤلاء لم يكونوا طلاب علم أو علماء دين متفرغين للدراسة أو العبادة ، بل كانوا تجاراً أو اصحاب مهن آثروا أن يتقربوا للمجتمع المحافظ باتخاذ زيّ رجال الدين . في هذا الواقع الذي اختلط فيه الحابل بالنابل ، وجد الحكم الفردي مدخله الى المعركة التي اختار خوضها ضد النفوذ المتزايد لرجال الدين . وهكذا ، صدر قرار حكومي يحظر على أي انسان أن يلبس الجبّة والعمامة إلا اذا كان حاملاً لشهادة من مدرسة دينية معترف بها ، او خضع لامتحان أمام لجنة حكومية وأثبت معرفته بعلوم الدين . وقد حدد القرار الزي الذي يجب على هؤلاء اتخاذه ، مدخلاً ، بالتحديد الجديد ، تعديلات على شكل الجبّة والعمامة الذي كان شائعاً قبله . هذا القرار مسّ كرامة نوعين من الناس : الذين لا يحملون شهادات ولا يضمنون النجاح في الامتحان القاسي امام اللجنة الحكومية ، وكبار العلماء الذين تلقوا علوم الدين في منازلهم او في حلقات الجوامع ، دون شهادات فتوجب عليهم ، الآن ، أن يثبتوا مقدرتهم أمام أعضاء في اللجنة يعدونهم أقلّ منزلة منهم . وقد مسّ القرار كل المتمسكين بالزي الشائع ممن أبوا أن يبدلوا الجبب والعمم التي الفوها .

واشتط الحكم في تطبيق قراره ، فراح مراقبو الأمن يطاردون المشايخ حتى في الشوارع ، لالزامهم به . وكانت تلك معركة من أطرف وأوجع

المعارك التي خاضتها هذه الفئة من الناس ضد « سلطان » بلغ جوره حدّ التدخل في ما يلبسون وما لا يلبسون . وقد أوجب الوضع على كل شيخ ، دون استثناء ، أن يحدد موقفاً من القرار ، فيرضخ أو يرفض ، وما كان من الممكن تجنب اتخاذ موقف ، ما دام الأمر متعلقاً ، هذه المرة ، بالزي الذي يراه الجميع . وكان هناك ، بين المشايخ ، من نظر الى الأمر من زاوية واحدة ، فرأى أن من المفيد وضع حدّ لفوضى الأزياء وانفلاتها وأيد قرار الحاكم . غير أن اغلبية المشايخ ، وخصوصاً من بينهم أعظمهم شأناً وأوسعهم نفوذاً بين الجمهور ، رأت في القرار تحدياً لمكانة رجال الدين ومدخلاً لفرض سطوة الحاكم على حركتهم وسلوكهم ، فأبت ان تنصاع له . واتخذت مقاومة القرار أشكالاً متعددة خاضها المشايخ ، كل على طريقته وبمقدار استعداده للتحدي : فمن هؤلاء من رفض الخضوع للامتحان أو القبول بالزي المعدل وأعلن الإعتصام في منزله ، والتوقف عن استقبال المريدين وطلاب العلم والفتاوى الذين كانوا يلجؤون اليه ؛ ومنهم من الغى لبس العمامة كلية ، وظهر بين الناس بطربوش دون لفّه ، أو بحطة وعقال ، أو بحطة دون عقال ، مظهراً ، بهذا ، احتجاجه على القرار؛ ومنهم ، بالطبع ، من امعن في التحدي فواصل الظهور بزيّه القديم واشتبك مع مراقبي الأمن ودخل السجن .

في جماعة الدرس ، تابعنا ، نحن تلاميذ الحلقات الصغار ، ما يجري ، بهلع . وقد توقعنا أن يرفض الشيخ الكبير القرار . والحقيقة أن الشيخ قال كلاماً يفيد الرفض وإن لم يجهر برفض صريح . لم يكن شيخنا الكبير مطالباً بأداء أي امتحان فهو حامل شهادة دينية معترف به . أما المشايخ الذين يديرون الحلقات ، فيما هم يتلقون العلم على يدي الشيخ الكبير ، مباشرة ، فهم الذين توجب أن يخضعوا للإمتحان ، اذا شاءوا الرضوخ للقرار . وكل ما كان مطلوباً من شيخنا الكبير ، حين يلتزم بالقرار ، هو أن يبدل عمامته الملفوفة على طربوش بواحدة ملفوفة على طاقية بيضاء .

وفي بداية المعركة ، واظب الشيخ الكبير على الظهور امامنا بعمامته

القديمة فعزز هذا اعتقادنا بأنه عازم على التصدي . لكن اضطراباً غامضاً وشت به تعبيرات مشايخ الحلقات حين كنّا نسألهم عن الامر بلبلنا . ثم اتضح أن الشيخ صالح طالب مريديه بالتروي ، فلما أدرك أن الحاكم جاد في تنفيذ قراره ولو بالعنف ، دعا هؤلاء المريدين الى عدم مناطحة الحاكم . وجاء يوم ظهر فيه الشيخ صالح أمامنا بالعمامة المعدّلة . أما مشايخ الحلقات ، فمنهم من خضع للإمتحان وظهر بالزي الجديد ، ومنهم من عزّت عليه كرامته ولم يشأ في الوقت ذاته أن يعاند الشيخ الكبير ، فظهر في حلقته بغير جبّة ولا عمامة . لكن ، لا الشيخ صالح ولا أي من شيوخ الحلقات دافع عن قرار الحاكم . حتى الشيخ عبد الرزاق الذي ذهب الى الامتحان ففاز فيه بجدارة ، لم يظهر أي زهو بهذا الفوز ، وعندما جاء الى الحلقة ، لأول مرة ، بالزي الجديد ، صور لنا الأمر على أنه عديم الأهمية : « ليست العبرة في ما نضعه فوق رؤوسنا ، بل في ما نحشو به هذه الرؤوس » .

وفي مداولاتنا ، نحن الصغار ، بشأن موقف الشيخ الكبير وتهيبه من المجابهة ، خلصنا إلى القول بأن من المتعذر على الشيخ أن يجازف بفقدان الوظيفة وتوقف الحلقات ، وأن لا نفع لاحد في هذا . ووجدنا المسوغات لشيوخ الحلقات ، فهؤلاء مرغمون على اطاعة الشيخ ، ان لم يكونوا مرغمين على الرضوخ للحاكم . مع ذلك فإن موقف الشيخ ومريديه خلّف في نفسي حرقة لم تكفّ عن لسعي ، حتى وأنا اردد المسوغات التي وجدناها لهم .

وفي الاسرة ، انشغل الكبار ، أيضاً ، بالشأن العام . كان الشيشكلي ذاته من بين ضباط الجيش السوري الذين حاربوا في فلسطين . وقد اشتهرت أنشطة الشيشكلي في منطقة صفد وجوارها في شمال البلاد . وكان معظم مجاهدي المنطقة قد عرف الشيشكلي معرفة مباشرة أو عن طريق الروايات المتداولة عنه . وكانت آراء الفلسطينيين بشأن هذا الضابط متباينة ، فمنهم من يردد حكايات تظهر بطولة الرجل ، ومنهم من يروي حكايات مغايرة تظهره بمظهر الآفاق المستهين بالآخرين . وهناك من كان

يروي حكايات من النوعين ، فيظهر منها أن الرجل مضطرب الشخصية متقلب المزاج . وفي بداية عهد الشيشكلي بالسلطة ، استولت اسرائيل على المنطقة المجردة من السلاح المحاذية لخط الهدنة عند الحدود السوريّة ، مما يلي نهر الاردن . وهجرت اسرائيل سكان المنطقة الفلسطينية من الاكراد البقّارة ، دون مقاومة من الجيش الذي يقوده الشيشكلي . وقد هبط هذا الحادث بسمعة الحاكم الفرد ، بين الفلسطينيين ، الى الحضيض . وحمل الفلسطينيون حاكم سوريا المتسلط مسؤولية التفريط بجزء جديد ، من الارض الفلسطينية ، وتداولوا في ما بينهم أنه جاسوس يعمل لحساب الاميركيين . وانضمّ معظم الفلسطينيين الى الفئات التي تنتقد الحاكم الفرد ، في طول البلاد وعرضها . لقد كان جدّي وخالاي أميل ، في العادة ، حين يتعلق الأمر بشؤون سوريا العامة ، الى تأييد الاحزاب التي نحاها الشيشكلي عن السلطة وحبس قادتها أو لاحقهم . وكان هؤلاء الكبار في الاسرة ميالين ، على نحو خاص ، الى حزب الشعب صاحب الحصة الاكبر حين كان الحكم في يد المدنيين . وقد أضاف هذا شيئاً جديداً إلى الاسباب التي حملت جدّي وخاليّ على انتقاد الشيشكلي .

وفي المدرسة الثانوية الاهلية التي صرت فيها تلميذاً في الصف الثامن ، او الثالث الاعدادي ، عكس تسلط الحكم الفردي نفسه على سلوك الدعاة للاحزاب من بين المدرسين والتلاميذ . فلم يعد هؤلاء يجهرون بالدعوة كما كانوا يفعلون من قبل ، بل آثروا التكتم ولجأوا إلى اساليب التحريض غير المباشر ، وما كانوا يكشفون أنفسهم الا في اوقات التأزّم . ولأني كنت معدوداً بين التلاميذ النشطاء ، وكنت قد تعلمت شيئاً من الجدل السياسي والفكري ، فقد صرت هدفاً للمحاولات السريّة التي يقوم بها الدعاة من أجل اجتذاب التلاميذ إلى النشاط السياسي . والحقيقة أن ذهني توزع ، في تلك الفترة ، بين دعاة التيارات الثلاثة الرئيسية في المدرسة : الديني الاسلامي ، والسوري القومي ، والقومي العربي .

ولأمر ما ، لا اتبينه بوضوح حتى الآن ، نمت لدي ، في تلك الفترة ، ممانعة مبكرة ضد الاستجابة لمحاولات من جهدوا من هؤلاء الدعاة لضمي الى أحزابهم ، دون ان يدفعني ذلك الى رفض الحوار مع أي منهم . وقد نشأت لدي عادة غريبة ، وربما كان منشأها الرغبة في التميز ، فكنت احاجج كلاً منهم بما يعارض فكرته ، أي بما يتفق ، على نحو أو آخر ، مع فكرة طرف ثان منهم . فمع الدعاة الى الدين ، وكان هؤلاء من جماعة الاخوان المسلمين . كنت أتمسك بالقول أن الدين لا يتسق مع السياسة ، فالدين عقيدة شخصية وعبادة وتوجه الى ربّ الجميع ، اما السياسة فهي دنيا خالصة توحد الناس او تفرقهم حسب المصالح والاهواء والنزوات . ولاني كنت متديناً في سلوكي فإن موقفي من الإخوان المسلمين كان يدهشهم ويثير غيظهم . وكان هؤلاء يلعنون الشيخ صالح فرفور وامثاله ، أمامي ، ويأخذون عليهم أنهم يعلمون الفتيان شؤون الدين بطريقة تغلق العقول وتصرفها عن الشأن العام . وفي مواجهة القوميين السوريين ، كنت أحاجج بأهمية الوحدة العربية ، على أساس أن هذه الوحدة هي الطرق الى استرداد فلسطين . وفي مواجهة البعثيين ، دعاة الوحدة العربية ، كنت أحاجج بأهمية الوضع الخاص لفلسطين وآخذ عليهم إهمالهم لهذا الوضع ، وأردد ما كان شائعاً في الوسط الفلسطيني ، مما ألِفتُ أن اسمعه في مجالس جدي ، حول حاجة الفلسطينيين الى توحيد صفوفهم ورفض التفرق بين الاحزاب التي تتجاذبهم . بكلمات اخرى ، كنت اسمع من الجميع ، وأتدرب على الجدل . دون أن التزم أي جانب .

وأنا أتذكر من بين الدعاة الاستاذ حسان ، وقد نسيت اسمه العائلي . كان هذا شاباً يدرسنا مادة الكيمياء ، كان هو نفسه طالباً في كليّة العلوم في الجامعة يوم كان الانتساب الى هذه الكلية امراً معدوداً بين المزايا النادرة ، وكان متحمساً لحزبه السوري القومي ونشيطاً في الدعوة له .

وقد دأب الاستاذ حسان ، منذ اشتدت سطوة الحكم على الأحزاب ، على تنظيم لقاءات في داره لتلاميذ مختارين ، وشاع في المدرسة أن الاستاذ يستقبل التلاميذ من الجنسين ويبيح لهم حرية الاتصال غير

المألوفة في مجتمعنا . وذهب خصوم الحزب الى حدّ الادعاء بأن الاستاذ حسان يشجع تلاميذه على التحلل من القيم والتقاليد الاجتماعية ويستغل انجذابهم الى أجوائه كي يجذبهم الى الحزب . وبالرغم من أني رفضت دعوات الاستاذ ولم ازر داره ولو مرة واحدة ، فإنه لم يكفّ عن الاهتمام بي وايلائي عناية خاصة ، هذا الاهتمام هو ، بالذات ، الذي قوى عنادي ضد الدعوة القومية السورية . لم اعاند لأني كنت أكره الاستاذ حسان ، فهو ، في الواقع ، شخص جذاب ومهذب ومحبب للنفس ، بل لأن معارضتي له ، وهو المهتم بي ، كانت تدغدغ إحساسي بالتميز والنديّة فأمعن في المعارضة لأتمتع بهذا الاحساس .

وكان بين الدعاة من البعثيين تلميذ حوراني من آل الزعبي الذين يسكنون في درعا ومحيطها واسمه مصطفى ، وهو يتقدمني في الدراسة بصفّين او ثلاثة ويهتم اهتماماً شديداً باجتذابي الى حزبه . وكنت اتخذ من مصطفى التلميذ الموقف ذاته الذي اتخذه من الاستاذ حسان . ولكني لا أمعن في المماحكة مع التلميذ كما أمعن مع الاستاذ . وقد انتهى مصطفى الزعبي ، هذا ، الى الاكتفاء باطلاعي على مواقف حزبه وباستجابتي لما أقبل الاشتراك به من الانشطة التي يدعو اليها ، وكان يقول : « آخرتك أن تجيء إلى الحزب من تلقاء نفسك » .

في ذلك الوقت ، تركزت الانشطة السياسية في توقيع عرائض الاحتجاج المتعددة والخروج في المظاهرات التي تشهدها دمشق بين وقت وآخر . ولأن عمل المعارضة كان محظوراً ومراقباً ، خصوصاً حين يتصل بشؤون الحكم ومقاومة اجراءاته ، ولأن الاحزاب كانت في طور إعادة تنظيم صفوفها للتواؤم مع متطلبات العمل السري الجديد عليها ، فقد اقتصرت الاجتماعات والمظاهرات على المناسبات الوطنية العامة وتسترت وراء الاسباب الخارجية . وها أنا أتذكر أن اول مظاهرة شاركت فيها انطلقت تحت شعار الدعوة الى دعم كوريا ضد العدوان الاميركي عليها . وكانت دعوة كهذه الدعوة تتضمن الاعتراض على سياسة الحكم الذي يقيم علاقات طيبة مع الاميركيين . خرجنا من الثانوية الأهلية بتحريض

دعاة متخفين ، وسرنا في شارع سوق ساروجة الضيق ونحن نهتف : « كوريّا للكوريين » . ويقيناً أني ، أنا المنساق مع الجوّ العام لتحدي السلطة ، ما كنت اعرف أين تقع كوريا ، هذه ، ولا أدركت ، على وجه اليقين ، لماذا يتوجب عليّ ، أنا بالذات ، أن أناصرها . كل ما أشعل حماسي أن البلد الذي لا أعرف عنه سوى اسمه معرض للاعتداء عليه من قبل الاميركيين الذين ساعدوا محتلّي بلدي الاسرائيليين . وحين كنت اردد :« كوريّا للكوريين » ، كان لذلك في نفسي وقع القول بأن فلسطين للفلسطينيين ، وكان الاحساس بنشوة التحدي يبلغ الاوج . يومها ، كنت بين عدد من التلاميذ الذين افلحت الشرطة في الامساك بهم . وقد ساقنا رجال مسلحون وحانقون الى قلعة دمشق وجمعونا في أحد أبهائها الداخلية ، ثم تولى شرطيون من مختلف الرتب فرزنا في جماعات ، فمن عدّوه من بيننا خطيراً احتفظوا به في سجن القلعة ، ومن استهانوا به اكتفوا بشتمه وأطلقوا سراحه ، ومن وجدوه « بين بين » ضربوه قبل الإفراج عنه . وكنت أنا بين من أطلق سراحهم بعد أن اكتويت بخمس جلدات الهبت قدميّ .

ثم تطور الوضع ، فصار للسياسة حضور طاغ في المدارس . كان معظم الاحزاب يستند الى تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة . وبدا أن هناك لجنة سرية ، أو لجاناً ، تنسق الأنشطة وتحثّ الشبّان على الخروج الى الشوارع . وكان هؤلاء مفعمين بالحماس جاهزين للصدامات . وقد دخلت السياسة حصص التدريس ، فلم تخل حصة من حديثها ، بما في ذلك حصص المواد العلمية . وكانت حصص التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية والآداب تتحول الى جدل حول الشأن العام . يتم هذا بمبادرة المدرس نفسه أو بمبادرات ، أو حتى استفزازات ، من هذا أو ذاك من التلاميذ .

ولا تغيب عن ذاكرتي حالة مدرس مصري انضمّ الى هيئة المدرسين في الثانوية الاهلية ، وأنا في الصف الثامن . كان هذا المدرس حذراً ، ولا بدّ انه ، وهو الغريب ، كان قلقاً على مركزه . لقد تولى الأستاذ عادل ، وهذا هو اسمه ، تدريسنا مادة التاريخ ، وهي ، بطبيعتها ، مادة معجونة

بالهم السياسي ، الا أنه تجنب المبادرة الى الخوض في الموضوعات السياسية الساخنة ، وقاوم محاولاتنا إستدراجه إليها . عرفنا موقف الأستاذ ، هذا ، منذ الحصة الأولى ، فصار إحجامه عن الخوض في السياسة سبباً إضافياً يؤجج رغبتنا في جرّه اليها جراً . فكنّا نقاطعه بالأسئلة ونتعمد أن تمسّ الاسئلة شؤوناً حساسة تتصل بالأوضاع الراهنة . وكان هو يزوغ عن الاجابة فلا يفعل بزوغانه سوى أن يهيج رغبتنا فيشتد ضجيجنا ونحاصره بالاسئلة . وقد ابتكر هذا المدرس طريقة خاصة به لاسكاتنا ، فكان يقطع سياق الدرس حين يشتدّ الضجيج ويكتفي بما شرحه لنا حتى تلك اللحظة ، ثم يتجه الى الباب والنوافذ فيحكم اغلاقها ، ويأخذ بعد ذلك ، في رواية النكت لنا . ولأن النكت المصرية جذابة ولأن الاستاذ عادل يتقن روايتها ، فإن الأمر كان يشغلنا عن السياسة الى أن ينتهي وقت الحصة ، وينقذ المدرس المتهيب من الحرج . وقد ألفنا الاستماع للنكت في نهاية كل حصة حتى صرنا نعدها حقاً من حقوقنا . وإذا نسي المدرس أن يشرع في روايتها من تلقاء نفسه ، كنّا نفتعل الضجيج حتى يلبي رغبتنا .

في غضون ذلك ، شهدت حياتنا المنزلية قليلاً من الانتظام بعد أن نجح خالي نافذ في الحصول على موافقة الوزارة على نقله الى مدينة دمشق وأخذ يعمل في مدرسة في حيّ السويقة في المدينة ، ويرعى شؤون الأسرة بنفسه ويفرض فيها النظام . ثم حدث أن صدر قانون جديد يبيح لموظفي الحكومة الانتساب الى الجامعة ، تمّ ذلك رغبة من الحاكم المعزول في استرضاء الموظفين ، وبادر الخالان نافذ وعمر للاستفادة منه . قبل صدور هذا القانون ، كان الموظفون ممنوعين من الانتساب الى الجامعة ، فالغى هذا القانون هذا المنع وأباح للموظفين ان ينتسبوا الى الكليات النظرية . وسجّل نافذ نفسه ، على الفور ، طالباً في كلية الحقوق . أما عمر فلم تقبل الجامعة شهادته الثانوية الزراعية كمؤهل للإنتساب الى هذه الكلية . ولكن الخال المثابر لم يستسلم ، بل قرر أن يهيء نفسه لامتحانات الثانوية العامة السورية ليحصل على المؤهل الملائم . وهكذا تحول الملحق الى مكان

لمذاكرة الدروس يحتشد فيه غالب وانا الصغيران ونافذ وعمر الكبيران ، وتتراكم الكتب المدرسية والجامعية .

واستعدتُ أنا عادة التردد على قاعة المطالعة في المكتبة الظاهرية . وقد هداني التنوع الذي طرأ على اهتماماتي الى كتب وكتّاب جدد غير الذين نصحني الشيخ عبد الرزاق بقراءتهم . وقتها ، اكتشفت المنفلوطي وورومانسيته وبلاغته الفصيحة . ثم اكتشفت توفيق الحكيم وخفة دم الحكايات التي يرويها في « مسرح المجتمع » والصور المتنوعة التي تشمل عليها الحياة الاجتماعية في مصر مما عرضه الحكيم في هذا الكتاب وفي « يوميات نائب في الارياف» ، وغيرها من مؤلفاته . أما أهم الاكتشافات فتمثل في تعرفي على طه حسين ، بدأ الأمر حين وضع أحد زملاء الدراسة في يديّ كتاب « المعذبون في الارض » ، فاستغرقتني قراءته حتى أني تسللت إلى ما يعدّ في ملحقنا مطبخاً لأواصل القراءة بعد أن نام الآخرون . ولا بدّ أن أقول إن تزامن معرفتي بهذا الكتاب مع صلتي بعالم الكادحين الواقعي قد يسّر لي أن أجد في صوره مرآة لنفسي ، وحين كنت اتعاطف مع بؤس أبطال القصص التي يرويها الكتاب ، إنما كنت اعبر بهذا عن انتمائي لهم .

وهكذا ، تنوعت الانشطة التي انشغلت بها : العبادة ، ودروس الجامع ، والمدرسة ، المطالعة ، السياسة وشؤونها التي تجتذب التلاميذ ، ومشاغل الاسرة الخاصة والعامة ، والحرص الذي لم يفارقني ابداً على أن اؤدي مهامّي في هذه المجالات جميعها باتفاق وتفوق . ان هذا الحرص الذي تعززه الحاجة الى التعويض عن الحرمان ، ووجود تباينات واضحة بين طبائع المهام التي اتولاها ، اورثني العادة التي لازمتني منذ ذلك الوقت ، وهي الانخراط في مشاغل متنوعة ، في وقت واحد ، والاندفاع في انشطة متباينة والعمل على اتمامها جميعاً ، باسرع وقت ممكن .

٩ تصرفت بمال الاسرة فدفعت الثمن من حريتي

في تلك الفترة ، وقعت لي بضعة أحداث غير عادية ، فكان من شأنها أن توقع الاضطراب في حياتي فتخرجها عن المألوف وتطبع شخصيتي ببصمات استمر تأثيرها زمناً طويلاً .

كان من ذلك الاصابة التي تعرضت لها عيني السليمة فجعلتني مهدداً بالعمى . حدثت الواقعة يوم مضيت ، مع بعض الأقران من أبناء الحيّ ، في نزهة في البساتين . كنا في يوم جمعة ، وقد أوغلنا في السير ، متلمسين فرصة لملء معدنا وجيوبنا بالفواكه . ووقعنا على بستان خال من البشر وقد غاب ناطوره . واجتذبتنا الاشجار التي أثقلت فروعها بحبّات الجارنك ، أي الخوخ غير الناضج ، وهي تلتمع بخضرتها المتميزة تحت أشعة الشمس وتدعونا الى المغامرة . وكنّا قد توزعنا على عدد من هذه الاشجار ورحنا نملأ الأفواه والجيوب بالثمر ونتبادل المزاح الصاخب ، حين انتصبت أمامنا ، فجأة ، هيئة الناطور المستاء وانتهرنا الصوت القاسي . وكان في الصوت عدوانية زائدة ، غير مألوفة في مثل هذه

الاحوال التي يتساهل النواطير فيها ، عادة ، إزاء عبث الصغار . والحقيقة أن الصوت أرعبنا ، وحملت لنا الهيئة المتوعدة شتى النذر ، فاطلقنا سيقاننا للجري في شتى الاتجاهات . وكان من نصيبي أن الناطور جرى في الاتجاه الذي مضيت فيه ، فزدت من سرعة جريي وقد تركز كل همي في النجاة من الملاحقة ، ولم انتبه لما يحيط بي أو أعبأ بما يعترض طري . في هذا الوضع ، اصطدم وجهي بفرع شجرة ، ومسّ أحد عروق الفرع حدقة العين اليمني وحزّها حزاً ، حتى لقد سال الدم .

كانت الصدمة مؤلمة والقلق على العين شديداً ، فتوقفت عن الجري ورحت أتفقد ما حل بي . وأدركني الناطور . ولم ينتبه الرجل ، في الوهلة الاولى ، لمصابي ، فراح يشتمني ويركلني بقدميه ، إلى أن أوقفته رؤية الدم النازف من العين . هنا ، ابتلع الرجل حنقه ، ولا بدّ أن الرعب قد حلّ به ، هو الآخر ، فأخذ يواسيني ، ويهون الأمر عليّ ويتوسل لأقراني كي يأتوا ليصحبوني الى منزلي .

في المنزل ، حلّ بالجميع رعبٌ حقيقي . حتى غالب الذي لا يطيقني حنق وحلف أن ينتقم من رجل البستان مهما كلف الأمر . وأستدعي الجدُّ على عجل . مسكين جدي ؛ لقد رأيت على وجهه مظاهر غمّ لم أر مثيلاً لها من قبل . كان أكثرنا تقديراً لخطورة الحالة وأكثرنا إحساساً بالمسؤولية . وأخذ الجدّ يفكر في ما ينبغي عمله ، وهو يشتم ويلعن الظروف ويتمتم بنبرة من يقدم تعهداً قاطعاً : « في غيبتي ، ضيعوا عينك الأولى ، لكن الثانية لن تضيع وأنا موجود » . وأُخذت الى قسم الطواريء في مستشفى الجامعة السورية . ولأن اليوم كان جمعة فقد تعذر الوقوع على طبيب مختص بالعيون في القسم أو في المستشفى كلّه . والذي تولى معاينتي كان الطبيب المناوب ، وكان ، بالطبع ، غير مختص ، إلا أنه ابدى اهتماماً كبيراً بحالتي ، فنظف العين بأناة ، ملأها بالعقاقير المطهّرة وجزم بأن العين مجروحه ولا بدّ من مراجعة طبيب مختص بأسرع وقت .

كانت مراجعة الطبيب المختص تقتضي دفع مبلغ كبير للزيارة ، خصوصاً حين تتم في يوم عطلة ويتطلب الامر انتقاله من منزله الى

العيادة من أجل معاينتي . وقد نصح طبيب القسم جدّي بأن لا يرجيء الأمر إلى الغد أياً كانت التكاليف . فلّما وافق الجدّ ، وكان ، على كل حال ، أكثرنا لهفة على الحصول على المعالجة الناجعة ، رتب طبيب القسم الأمر بنفسه ، فهتف لإختصاصيّ عيون يعرفه وبيّن له خطورة الحالة واتفق معه على أن يستقبلنا في عيادته للتوّ . وهكذا ، رحت بصحبه الجدّ والخالين الكبيرين ، كليهما ، الى عيادة هذا الطبيب في ساحة المرجة . وقد أجرى الطبيب معاينة مدققة ، ففحص العين ، وأعاد فحصها ، ونوع الفحوص ، ثم حكم بأن الجرح عميق ولن تنفع معه الادوية المتيسرة لأنه مهدد بالتهاب قويّ من شأنه أن يودي بالعين . وأوضح الطبيب أن الدواء الوحيد القادر على حماية العين من خطر محقق هو البنسلين . وهذا دواء اكتشف حديثاً ، وهو مرتفع الثمن ، فضلاً عن أنه غير متيسر في الصيدليات ، والمكان الوحيد الذي يمكن فيه الحصول على البنسلين هو مستودع وزارة الصحة ، ولكن الحصول عليه لا يتأتى إلا بموافقة شخصية من الوزير ، وليس من أي أحد سواه . ثم قال الطبيب ، الذي بدا راغباً ، حقاً ، في المساعدة ، إن كل ما يستطيع عمله في هذا المجال هو تزويدنا بتقرير طبي يبين حاجتي الماسة للبنسلين ، بعد ذلك ، رفض الرجل الذي انتزعناه من وقت راحته أن يتقاضى أجرة الزيارة ، وقال ، بنبرة من يؤكد على أنه لم يَعُدْ أن يقوم بالواجب : « الفلسطينيون على العين والرأس ، وأنا أعالجهم مجاناً » . وزودنا الرجل من عنده بالعقاقير المناسبة حتى لا نتكبد دفع ثمنها ، ثم أصر على نقلنا بسيارته الى المنزل .

همة جدّي العتيقة تجلت ، هذه المرة ، أيضاً ، بأشدّ مضائها ، وفعلت فعلها . أرغمتني الاصابة على المكوث في المنزل ، ولم أعرف تفاصيل الاتصالات التي أجراها الجدّ في سعيه للحصول على الدواء العزيز ؛ إلا أن انشغاله بالامر كان واضحاً . وبعد ثلاثة أيام من الاصابة ، جاء جدّي وعلى وجهه سيماء الظفر وفي يده علبة كبيرة فيها البنسلين . واصطحبني الجدّ الى عيادة حكومية حيث اعطيت لي أولى الحقن . ثم توجب علي

أن أتردد على هذه العيادة كل يوم ، على مدى اسبوعين ، لاستكمال الحقن المقررة . وشفيت العين ، وأنقذت من العمى . هذا الحادث جدد الاهتمام بحالة عيني العوراء . وقد أجمع الاطباء الذين رأوني خلال معالجة الاصابة على أن بقاء العين التالفة يحمل خطراً على العين الأخرى ، فلا بدّ ، إذن ، من التخلص من العين التي انطفأ نورها . استمع الجدّ الى آراء الاطباء مضمراً إيلاء الأمر الاهتمام اللازم بعد الشفاء من الاصابة الطارئة .

مرضي هذا حماني من حنق الاهل بسبب فضيحة تكشفت تفصيلاتها لهم أثناء قعودي في المنزل . وكان من شأن هذه الفضيحة ، لو انكشفت في الظروف العادية ، أن تجرّ عليّ متاعب لا حصر لها . أما في ظروف المرض ، فقد راعى الأهل حالتي فضبطوا ردود فعلهم . بدأت وقائع الحكاية التي انتهت بالفضيحة حين كنّا ما نزال نسكن في زقاق بدر في العمارة الجوانية . هنا ، تعرفت على لاجيء فلسطيني مقيم في المسجد المقابل لمنزلنا في الزقاق . كان هذا اللاجيء فتى يدرج في أولى سنوات شبابه ، وقد ترك اسرته التي التجأت الى الضفة الغربية وجاء الى دمشق ، وحيداً ، بأمل أن يصيب فرصة عمل أو دراسة . غامر الفتى بالمجيء الى المدينة الكبيرة بغير نقود وبغير موارد ، هارباً من ضيق حال الاسرة ومما لا ادري من الاسباب الاخرى . ولا بدّ أن يكون الفتى قد تشرد ، كما تشرد أمثاله ، في أرجاء دمشق فعرف ما عرفه هؤلاء من ذل الجوع والافتقار الى المأوى والفشل في الحصول على مورد رزق . ثم اهتدى الفتى الى من ضمّه الى حلقة يدرس المنتمون اليها علوم الدين . وقد اغتنم الفتى الفرصة المتاحة ، واخذ لنفسه زي طلاب العلم فكسى رأسه بعمامة ولبس الجبّة وأطلق الشعرات النابتة في وجهه فصارت له لحية تشي بنضارة عمره أكثر مما توفر له سمت الوقار . وعاش الفتى فترة أخرى مستعيناً بما يجود به الخيرّون على طلاب العلم من أمثاله . حتى إذا اتقن الفتى قراءة القرآن وحفظ بعض سوره وألم بشيء من الفقه ، توسط شيخ حلقته لدى مديرية الاوقاف فعينته هذه إماماً لمسجد صغير للغاية قائم في أحد الأزقة التي

يتشكل منها سوق المناخلية وجعلته خطيب الجمعة في هذا المسجد . وقد أهل الموقع الجديد الفتى للحصول على إقامة مجانية ، فخصصت له الاوقاف حجرة من الحجرات الملحقة بمسجد البدرائية ، وكان يمضي وقته في القراءة ومتابعة الدروس فضلاً عن واجبات الامامة ، ويعيش بالمبلغ الشهري الضئيل الذي خصصته له الاوقاف . وبهذا وذاك . انتظمت حياة الفتى بعض الانتظام ؛ صحيح أن المورد المتاح له كان ضئيلاً لا يلائم الطموح الذي حمله الى دمشق ، إلا أن حصوله عليه كان ، بالطبع ، أفضل من لا شيء .

وكان من شأن الفتى أن يعدّ نفسه محظوظاً ، بما تيسر له مما لم يتيسر لكثيرين غيره ، وأن ينصرف الى متابعة التحصيل فيتمكن من تحسين مركزه أولاً بأول ، كما يفعل المبتدئون على الطريق الذي يسير فيه ، وان يكون سعيداً بحاضره ومستقبله . غير أني لاحظت ، منذ عرفت هذا الفتى ، مسحة أسى عميق تجلل تعابيره وتسم حركاته وأوجه سلوكه كلّها ، دون أن أتبين سبباً ملموساً لهذا الأسى . وكان هو دائم التشكي ؛ وقد انصبت شكواه على سوء أحوال اللاجئين وضآلة المورد الذي يحصل عليه وغلظة بعض الشيوخ الذين يتعامل معهم وما شابه ذلك من اسباب . ولم يكن جدي واخوالي يحبّون هذا الفتى الكئيب ، الذي هو ، فضلاً عن كآبته المزمنة ، متكبر وعنيد ومحاط دوماً بغموض لا يخترق . أما أنا فقد اجتذبني الى هذا الفتى خصوصية وضعه ، كما اجتذبني ، بالذات ، هذا الأسى الذي لا يفارقه . وقد حرصت على أن أزور الفتى ، في حجرته في المسجد ، كلّما تسنى لي الإفلات من رقابة الأهل ، أو أصحبه للصلاة معه في مسجده الصغير ، لقد تعززت علاقة الحزين بالحزين أو البائس بالبائس ، وهي علاقة لا تعرف كيف تنشأ ولا لماذا تصمد أمام المعوقات .

ويبدو أن الفتى اطمأن الي فمحضني وداً خالصاً لا يمحضه أيّ انسان آخر في محيطه . وبمضيّ الوقت ، صرت أنا صديق الفتى وموضع سرّه والمستمع الدائم لشكواه ، وجاء يوم كاشفني فيه بسرّ الاسى الذي يهيمن عليه .

كان عبد السلام ، وهذا هو اسم الفتى ، أو الشيخ عبد السلام ، كما يدعى بحكم وظيفته الدينية ، مصاباً بداء سلس البول منذ صغره . لم يكن عبد السلام يولي مرضه اهتماماً كبيراً قبل أن يظفر بوظيفة الإمام ، ولا كان قادراً على معالجته ، على أي حال . أما بعد ذلك ، فقد أخذ الأمر يؤرق الشيخ ، وهو الذي كساه بمسحة الأسى الدائمة . أما لماذا صار للمرض هذا الشأن الخطير في حياة الشيخ ، فليس بإمكانك أن تدرك السبب ما لم تكن مطلعاً على أحكام الفقه الاسلامي بشأنه . ولكي أوجز لك الأمر ، اكتفي بالقول إن الشرع يحظر على المصاب بسلس البول أن يَؤم الناس في الصلاة . وعندما قبل عبد السلام الإمامه ، لم يكن يجهل هذا الحكم الصارم من أحكام الفقه . وقد أدرك عبد السلام أنه يأثم في كل مرة يصلي فيها بالناس ، ولكن الحاجة الغلابة الجأته الى كتمان الأمر ، وكان ضميره يؤرقه ، مثلما تؤرقه الخشية من أن يفتضح أمره أمام رؤسائه ، في أي يوم من الايام .

وبعد أن استقرت أمور عبد السلام بعض الاستقرار وتوفر له الدخل المنتظم من الوظيفة ، على قلته ، حاول هذا الانسان المؤرق بالاثم أن يتحرر من إثمه ، فقرر أن يضحّي بجزء من دخله من أجل العلاج . ولكي يقع عبد السلام على الطبيب الملائم ، استشار زميلاً له في حلقة الدراسة ، بعد أن استأمنه على سره واستحلفه أن يكتمه . واتبع الشيخ نظاماً للعلاج قرره الطبيب ، ودفع الكثير للزيارات المتعاقبة والادوية ، حارماً نفسه من أضرّ ضروريات الحياة ، دون طائل ، فقد لازمه سلس البول بلا توقف . وكان الزميل الذي استشاره عبد السلام يتابع معه تطورات الحالة ويظهر منتهى التودد والتعاطف مع الصديق المريض . وجاء وقت يئس فيه الشيخ من إمكانية الحصول على الشفاء ، ونفض الطبيب يده من أمره ، وطلب منه أن يفوض أمره لربّ السماء ، معلناً ، بذلك ، عجز الطبّ عن شفائه . وكان الشيخ ، مع طول احساسه بالاثم ووجع الضمير ، قد ألف الوضع ، وتمسك بالوظيفة ، مقنعاً نفسه بأنه يؤدي الواجب على أتمّ وجه ، ولا أحد يعرف أنه يخالف أحكام الشرع مؤملاً

بتسامح الربّ وغفرانه حين يلقاه . وفيما كان الشيخ موزعاً بين اطمئنانه المشوب بالقلق وقلقه المغلف بالاطمئنان ، جاءته الضربة التي بددت كل ما بناه ، فقد استدعاه رئيسه في مديرية الاوقاف ، فجأة ، وأبلغ اليه أنهم عرفوا مرضه . وقال الرجل للشيخ انهم ، مثله ، لا يريدون له الا الشفاء ، وهم ، مثله ، أيضاً ، لا يريدون فضائح في جهاز الاوقاف . وخيّر الرئيس أخانا الشيخ بين أمرين : فإما أن يعترف ، من تلقاء نفسه ، بوجود المرض الذي لا يلائم وظيفة الإمام فيخسر الوظيفة ، وحدها ، على أن تبقى له الحجرة التي يقيم فيها ، وإما أن يحال الى الكشف الطبّي فيخسر الوظيفة والحجرة كليهما ويشطب اسمه من قوائم الذين يستفيدون من عطايا الاوقاف . والحقيقة أن الشيخ الذي واجه رئيساً متزمتاً لا تنفع معه التوسلات كان مرغماً على اختيار أقلّ الحلّين مرارة وأدعاهما إلى الستر . لكن هذا لم ينقص ، أبداً ، من مرارة التأذي الذي أحس به الشيخ أزاء صديقه الغادر ، وقد استقر في ذهنه أن هذا الصديق هو الذي وشى به . ثم تأكد أمر الوشاية حين حلّ هذا الصديق ، بالذات ، محلّ الشيخ عبد السلام في إمامة المسجد الصغير . ووجد الشيخ نفسه في محنة لا فكاك منها ، امتزج فيها التأذي من الغدر مع فقدان المورد ، فاستسلم الى حالة من الكآبة كاد معها ان يقدم على الانتحار .

هنا ، ظهرت أنا ، بصفتي الصديق المنجد للشيخ عبد السلام في محنته ، فعلت هذا على حساب أمانتي وموارد أسرتي ، وفي ظني أني أفعل خيراً . وأنت تعرف أني كنت الموكل بشراء حاجات الاسرة من سوق الهال . بما في ذلك مواد البقالة التي اشتريتها من دكان الرملاوي صديق الاسرة . وكانت الجدة تعطيني المال اللازم فأدفع ثمن ما اشتريه نقداً ، أولاً بأول ، لأن الجدّة ، بخلاف الجدّ ، كانت تتجنب الشراء بالدين . ولما افتقر الشيخ عبد السلام إلى ما يشتري به قوته اليومي ، تطوعت أنا باقتطاع بضعة قروش أزوده بها كل يوم ليقوم بأود نفسه ، وقبل هو الامر لأنه لم يكن لديه خيار آخر . وعزى الشيخ نفسه ، وعزاني ، بأنه كتب لأسرته في الضفة الغربية طالباً أن ترسل إليه شيئاً من النقود ،

ومنّاني بأنه سيرد لي ما أعطيه إياه عندما تصله هذه النقود . وتدبرت أنا الأمر بالاستفادة من صداقة البقال الرملاوي للأسرة . فظللت أجلب الحاجات من دكانه وأفهمته أننا نمرّ في فترة ضيق وطلبت أن يسجل الحساب ديناً نردّه اليه حين ينجلي هذا الضيق . وقد مضى ، في واقع ، الأمر شهران ، ودخلنا في الشهر الثالث ، منذ بدأت الاستدانة من البقال دون أن يصل الى الشيخ عبد السلام شيء من اسرته . ولم يفاتح البقال أحداً من أفراد أسرتي بأمر الدين ، فهم أصدقاؤه ، وهم ، بعد ، من زبائنه الطيبين . والحقيقة أن الأمر أخافني منذ أقدمت عليه . إلا أني كنت مدفوعاً بخليط من المشاعر ، فيها النخوة إزاء الصديق المفجوع الذي هجره الناس والحظ ، والاحساس بالتميز ، حين أجدني ، أنا المحروم المزمن ، قادراً على إسداء العون لمحروم آخر ، وفيها التوق الى المغامرة والاستهانة بنتائجها ، وفيها ، فوق هذا كلّه ، الأمل بأن الأمر سينقضي بسلام ، قبل أن يكتشف أحد تصرفي . ولم أتوقف عن التصرف بقروش الاسرة طيلة الوقت . لقد تحول الأمر الى حالة كدت آلفها ووصلت استهانتي به حداً لا أجد له تفسيراً معقولاً .

وحين أقعدني المرض في المنزل وكففت عن القيام بمهمة التسوق ، أوكلوا المهمة إلى غالب بالرغم من سوء سمعته . وفي اول مشاويره الى السوق ، اكتشف غالب شيئاً ما ، حين همّ بأن يدفع للبقال ثمن ما اشتراه منه . ذلك ان البقال ، غير المطلع بالطبع على خطيئتي ، شاء أن يظهر تسامحه فقال لغالب إن الدفع غير ضروري ، ومن الممكن إضافة المبلغ الى الحساب السابق . وفطن غالب الى حكاية الحساب الذي ينوه البقال بوجوده ، فاستفهم من الجدّة عن هذا الحساب الذي لا يعلم به . وادركت الجدّة الفطنة أن في الأمر شيئاً غير عادي ، فجاءت الي واستجوبتني . ودفعتني المكابرة ، وربما ، أيضاً ، الاحساس بالعجز عن التصرف ، الى انكار معرفتي بأي شيء ، ولكني أدركت أني وقعت ورحت أترقب افظع العواقب . وبعد مراجعة الأهل للبقال ، انكشفت الفضيحة . وكانت تلك صدمة قاسية ، حقاً ، للأسرة التي تقدّس الأمانة وتتمسك بآداب السلوك الحسن .

سبق أن أشرت إلى أن المرض لجم ردود الفعل القاسية ازاء هذه الفضيحة . والواقع أنه ما من أحد في الاسرة ، عدا غالب ، شكك في أمانتي ، فقد كانت لي ، من هذه الناحية ، سمعة أرسخ من أن تزعزعها واقعه واحدة . وقد انصرف ذهن الأغلبية إلى أني لا بدّ متورط في أمر غامض حملني على التصرف بالنقود ، وتركز الاهتمام على ضرورة جلاء الغموض ومعرفة ما أنا متورط فيه . غالب ، وحده ، هو الذي أطلق للسانه العنان في التشنيع علي ، لقد وجد الولد المتهم في أمانته والمغتاظ من تميزي عنه الفرصة للتشفي ، فاستغلها حتى آخرها . أما الآخرون ، وقد انطلقوا من افتراض وجود الأمر الغامض ، فقد سيطر عليهم قلق فظيع وخشوا أن اكون معرضاً للمخاطر . وقد شاءت الجدّة ، وهي الرحيمة بالصغار ، على قسوتها مع الكبار ، مراعاة منها لحالتي ، أن يُرجأ التحقيق معي الى أن يزول الخطر عن عيني المصابة ، وطلبت ان يترك امر التحقيق لها . إلا أن خالي نافذ أخذ أمر التحقيق على عاتقه ، واعداً جدتي القلقة بأن يجنبني كل ما يؤذي عيني المصابة . وقد اختلى الخال بي ، وبدأ حديثه معي بتأكيد ثقته الكاملة بأمانتي واعتقاده بأني أقدمت على ما أقدمت عليه مضطراً وخشيته من أن أكون في وضع صعب واستعداده لمعونتي . ووعدني الخال بأن لا اتعرض لأي عقاب إن أنا كاشفته بصراحة . وذكرني الخال بالقاعدة التي أعرفها : الصدق طريق النجاة . وكان في لهجة خالي ما طمأنني إلى وعوده ، حقاً ، فأفضيت بين يديه بالحقيقة ، فاستمع إليّ وهو مبهوت تماماً ، فكأن روايتي قدمت له شيئاً أقل أهمية مما توقع ، ثم غادرني دون أن يعلق بشيء .

صب أعضاء الأسرة نقمتهم على الشيخ عبد السلام ؛ لم يفهموا الأمر على النحو الذي فهمته أنا حين تصديت لمساعدة الرجل ، بل اخذوه على أساس أن الشيخ إنسان شرير سمح لنفسه بأن يستثمر عواطف طفل بريء ويغرر به ويدفعه الى تبديد مال أسرته والإساءة للأمانة الموكولة اليه . وذهب الجدّ والخالان الكبيران الى الشيخ في حجرته في المسجد بأمل أن يحملاه على رد المبلغ الذي أخذه مني . فما كان من الشيخ الذي جوبه

بالتقريع والاتهامات المنصبة عليه إلا أن تسلح بالإنكار التام للحكاية كلّها ، ثم لم يتراجع عن إنكاره في أي وقت من الاوقات والواقع ان انكار الشيخ للحكاية فاجأ أهلي ، إلا أنهم لم يصدقوه ، وكل ما حدث أن لجوء عبد السلام إلى هذا الاسلوب ، الذي يشتمل ، ضمناً ، على إتهامي أنا بالكذب ، ونكرانه هو للجميل ، قد عزز رأي أهلي السلبي فيه وأصابني أنا بخيبة أمل لا شفاء منها . وانتهى الامر بقرار قاطع من الأهل يحظر عليّ أن أتصل بهذا الأنسان لأي سبب من الأسباب ، كما يحظر عليّ أن أقيم أي علاقة مع أي شخص آخر قبل الحصول على إذن صريح منهم . وعندما لقيت الشيخ ، بعد ذلك ، صدفة في طريقي الى الجامع الأموي ، حاولت تجنبه ، إلا أنه أقبل عليّ متعمداً وتطوع بإيضاح موقفه : « جدك طويل اليد وطويل اللسان ، لو لم انكر الحكاية لشهّر بي وأبلغ أمري إلى الأوقاف ، فما الذي تريده ؟ هل تريد أن أخسر الحجرة بعد أن خسرت الوظيفة؟ » .

والحقيقة أن جدّي ما كان بحاجة لإقرار عبد السلام كي يشهر به . فحكاية تصرفي بمال الاسرة وتسريبه الى الشيخ انتقلت من فم الى فم ، وقد انقسم معارفنا في الرأي بشأنها . لقد صدق أغلب المعارف روايتي وتفسير الاهل لها وصبوا اللوم كلّه على الإمام المعزول ، غير أن هذا لم يمنع أصحاب جدّي من التندر بها في ممازحاتهم مع الجدّ ومماحكاتهم له . فكان الجدّ يندفع ، محمولاً بالحرص على سمعة عضو في الاسرة ، الى التشهير بالإمام الفاسد . وقد انتهى أمر عبد السلام ، على كل حال ، الى التشرد من جديد ، وانقطعت صلتي به ، ثم لم اعد اسمع شيئاً عنه .

وفى خالي نافذ بوعده ، فلم أتعرض لأية عقوبة . ولم يقرعني أحد أو يلصق بي تهمة مشينة . وهكذا ، أخذ الجميع بالاعتقاد بأني تصرفت بحسن نية فوقعت ضحية شيخ شرير . ولعلك ، أنت الآخر ، وقد قرأت ما رويته لك حتى الآن ، مأخوذ بالاعتقاد ذاته ، وربما اعتقدت ، أيضاً ، ان ضميري كان مرتاحاً لأني فعلت ما فعلت بدافع خُلقي لا غبار عليه . هنا ، عليّ أن أقول لك إن اعتقادك صحيح حين يتعلق الأمر بالبداية ،

وحدها . أما بعد البداية ، فإن الامر اختلف ، وقد شابه ما لا تسوغه الاخلاق التي تربيت عليها . إن جرأتي على التصرف بمال الاسرة دون إذنها من أجل مساعدة إنسان محتاج لم تلبث أن شجعتني على التصرف بهذا المال من أجل تلبية بعض الرغبات الشخصية ، وهذا ما لم يعرفه أحد في ذلك الوقت . فبعد أن الفت أن لا أدفع للبقال ، أذنت لنفسي بأن أنفق بعض القروش في شراء ما حرمني الفقر منه ، حلوى ، او بوظة ، او ما شابه ذلك ، وكررت الأمر ، مرة ومرات . وتعمدت ، في عدد من المرات ، أن أشتري أطعمة أشتهيها أنا نفسي ، وأجلبها الى حجرة الشيخ لنأكلها سوية . من ذلك ، مثلاً ، وهذا ما أتذكره بوضوح حتى الان . اني كنت احبّ السردين المعلب ، ولم تكن موارد الاسرة تبيح لنا الحصول عليه في المنزل . فابحت لنفسي أن اظفر ببضع وجبات من هذا السردين ، بصحبة الشيخ . هذا التصرف هو الذي أثقل على ضميري ، خصوصاً لأني لم أجرؤ على الإعتراف به ، وقد اشتدّ تأنيب الضمير ، حتى لقد أرهقني حقاً ، حين بالغت الأسرة في الحديث عن أمانتي ونشر الحكايات عنها في معرض تسويغ فعلتي . كنت أحسّ في داخلي بالخزي . وفي أيام مرضي ، فكرت في الامر ملياً وأتعبني التفكير . إن السمعة الحسنة شيء عظيم ، لكنها ، أيضاً ، قيدٌ على السلوك . وقد انتهيت الى قرار جازم : لن أتصرف بعد الآن بمال ليس لي ، أياً كانت الاسباب . وحين أعيدت اليّ ، بعد شفائي ، مهمة جلب حاجيات الاسرة من السوق ، كنت قد استوعبت عظة الدرس الذي تعلمته ، فصرت متزمتاً كلّما تعلق الأمر بالامانة . وقد الزمت نفسي بأن أبذل مزيداً من الجهد لتوفير مال الاسرة ، فكنت أبالغ في المساومة على البضاعة لأحصل على سعر أفضل أو أجول السوق كله لأصل الى محل أشتري منه البضاعة بالسعر الأرخص . ومع ذلك ، بقيت ، لوقت طويل ، أحسّ برعشة خجل كلّما أشاد احد بامانتي أو وقع ما يذكرني بسوء تصرفي .

بالرغم من موقف الأسرة المتسامح ، فإن الحكاية لم تنقض بغير عواقب . صحيح أن خالي لم يعاقبني ، لكن هذا الخال انتهى الى

الاعتقاد بأني قد أكون ولداً مستقيماً لكني غرير ومن السهل على الآخرين أن يفتنوني . وكانت شكوك الخال ، بهذا الشأن ، سابقة على الفضيحة ، فقد كره صلتي برجال الدين ، وكان من رأيه أن هؤلاء الذي يصفهم بالعطّالين البطّالين لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يصرفونني عن الاهتمام بالدراسة ويحشون رأسي بافكار ما أنزل الله بها من سلطان . وخشي الخال أن يحولني هؤلاء الى شخص أبله مهووس بالغيبيات ، وحدها ، ومنصرف عن الشؤون النافعة . والى هذا ، كان الخال مفعماً بالشكوك ازاء الافكار السياسية التي يحشوا المدرسون رأسي بها . كان خالي نافذ محافظاً في السياسة ، كما هو في الشأن الاجتماعي . وقد اتبع الخال خطى أبيه في الولاء الثابت للحاج أمين الحسيني ، والتشبث بالقيم التي سادت أيام زعامة الحاج للبلاد . وقد خشي الخال أن تؤدي الافكار الجديدة المتداولة في المدرسة الى خروجي عن خط الاسرة التقليدي ودفعي الى التمرد الذي لا تحمد عقباه . والى هذا وذاك ، أظهر الخال حساسية مفرطة إزاء علاقاتي بالأصحاب الذين تعرفت عليهم في المدرسة أو في الشارع . وكان يطلق على هؤلاء الصفة الدارجة بلهجة أهل دمشق فيسميهم « أولاد آدو » ولا يتوقع منهم إلا أن يجروا ابن اخته الغرير إلى المفاسد والمنكرات .

عمقت الفضيحة شكوك الخال هذه ، ولعلها قدمت البرهان الملموس على مدى قابليتي للعطب ما لم يتداركني بالتربية الصارمة . وهكذا ، أخذ الخال يتشدد في مراقبة سلوكي ، يفعل ذلك علناً ، ودون مراعاة لتحرجي من تدخلاته التي تتم ، في أغلب الحالات ، بأسلوب غير لائق . صار الخال يراقب مواعيد خروجي وأوبتي الى المنزل ، مراقبة صارمة ، ويستجوبني حول أي وقت أمضيه في الخارج حين يزيد عن الوقت الذي يتطلبه قضاء ما يوافق عليه هو من مهام . وانتهى الامر الى تبلور قائمة من المحظورات ، مع استمرار التأكيد على ضرورة التزامي بها . ففي الجامع ، بقي مسموحاً لي أن أتابع دروس اللغة العربية ، وحدها ، في الحلقة ، وحظر علي ما عداها . وتوجب عليّ أن أعود إلى المنزل قبل

صلاة العشاء ، كبرهان على أني لم أحضر الدروس المحظورة . وفي المطالعة ، حُظر عليّ قراءة أي كتاب غير مقرر في المدرسة ، وأذن لي أن أذهب الى المكتبة الظاهرية مرتين في الاسبوع ، فقط ، على أن انبيء الخال بعناوين الكتب التي اقرأها هناك . أما الأصحاب فصار محظوراً عليّ أن التقي بهم خارج المدرسة أو خارج محيط الشارع الذي نسكن فيه ، وتوجب أن تكون اللقاءات ، في كل الحالات ، سريعة ، وأن لا تلهيني عن الواجبات المنوطة بي . وأما السياسة فهي ، كما جزم الخال ، غير ملائمة لي أنا الصغير الذي يجب أن يصرف جهده باتجاه الحصول على الشهادات المدرسية والتفوق فيها لضمان الحصول على مقعد في كلية جامعية محترمة .

لقد انسقت انسياقاً للتقيد بتعليمات خالي حين كنت ما أزال شديد التأثر بالفضيحة التي سببتها ، وتفهم الاهل ولطف الخال معي اثناء معالجتها . أما بعد ذلك ، فقد اخذ ضيقي بالمحظورات يبلبل روحي التواقة الى الانطلاق . وما غدا محرماً عليّ صار شديد الاغراء لهذه الروح ، وتحول حرماني منه الى عذاب يوترني ليل نهار . وقد حز في نفسي ، أكثر ما حزّ فيها ، غياب المنطق عن تعليمات الخال المتزمتة . فالأمر الذي يحظر عليّ دراسة علوم الدين متدين هو نفسه ، وهو الذي يحرص على أن أؤدي العبادات فأصلي الاوقات الخمسة في مواعيدها وأصوم رمضان وألتزم بآداب السلوك التي يفرضها الدين ، وهو نفسه الذي يتباهى باستخدام ما يعرفه من شؤون الدين في حواراته مع مجالسيه ، بما في ذلك الحوارات التي تجري بحضوري . والخال الذي يخشى علي من تأثير السياسة غارق هو في السياسة حتى الأذنين . فقد احتفظ بالصلات التي أسسها الجدّ مع ناس الهيئة العربية العليا لفلسطين ، وكان من المشاركين المواظبين في مجالس هؤلاء الناس ، فهو يزورهم ويستقبلهم ويسهم في الانشطة التي ينظمونها ، وقد انخرط هو نفسه ، في ما انخرط فيه فلسطينيون كثيرون من مساع لانشاء أية مؤسسة فلسطينية من أي نوع تسمح به السلطات . بل إن الخال ، وهو الذي يخشى عليّ من السياسة ،

قد استدرج ، هو نفسه ، الى النشاط السياسي السرّي الذي كان يمارسه آنذاك ، الساعون لتأسيس حزب التحرير الاسلامي ، وكانت بعض اجتماعاته السرية مع هؤلاء تنعقد في منزلنا ، حيث يدخلون احدى الحجرات ويقفلون بابها ، لكن صخب مناقشاتهم يطلعنا على طبيعة ما يدور وراء الباب . والخال الذي يتخوف من علاقاتي بالاصحاب من أقراني ، كان شديد الحرص على توسيع علاقاته بالناس ، وكان له اصحاب عديدون من مختلف الاعمار والمشارب ، كما كان شديد الحفاوة بهم مبالغاً في تكريمهم ، ولم يكن يطيق أن ينقضي يوم واحد دون أن يلتقي بناس من أصحابه . وإذا حدث أن تخلف أحد الاصحاب عن المبادرة لزيارة الخال ، كان هو نفسه يندبني لاستدعاء المتخلف من منزله وحثّه على المجيء للسمر في منزلنا .

كان الخال نافذ ، إذن ، من هذا النوع من أولياء الامور الذين يبيحون لانفسهم ما يمنعون الصغار عن القيام به . وكانت للخال سطوة على أهل المنزل كلّهم ، ليس لأنه الاكبر في العمر ، فقط ، ولا لأنه المعيل الذي يضحي بحاجاته من اجلهم ، فقط ، بل لأنه يقدم بسلوكه الأنموذج الذي يؤيدونه في قرارة أنفسهم ولا يعرفون أنموذجاً افضل منه . أما أنا ، خصوصاً بعد أن استهدفتني تعليمات الخال المتزمتة أكثر من غيري ، فكنت أضيق بمواقفه مني ضيقاً يكاد يخنقني دون أن أجرؤ على إعلان التذمر صراحة . فكان ضيقي ينعكس باشكال غير مباشرة ، فيظهر في تلكؤي في الاستجابة وبرودي في المطاوعة أو يظهر في حركاتي وأقوالي المضطربة وأشدّ ما كان يحنقني من نافذ أنه لم يتشدد مع غالب بمقدار ما تشدد معي . وكان يعلل هذا بقوله إنني ولد معدنه من ذهب وأن عليه هو أن يصون نقاوة هذا المعدن ، بينما يورد رأياً مغايراً عن غالب . وبهذا التمييز سوغ الخال سلوكه إزائي وهو يحكم قبضته حول رقبتي بحرصه الزائد عليّ وعلى مسقبلي . وكان الآخرون من أعضاء الأسرة يرون تشدد الخال معي ويشعرون بتذمري ، وربما تعاطفوا معي في حالات بعينها ، لكنهم ما كانوا يفعلون اي شيء لتبديل الوضع ، وإذا تدخلوا فلكي يحثوني على الطاعة

أو الصبر . لقد انتقلت الى نافذ ، في هذا القسم من الاسرة ، الصلاحيات الكاملة التي تخولها التقاليد للأب . وما كان من حق أحد أن ينقص قراراته أو أن يجابهه بالمعارضة .

تعذر علي أن أستمر في الرضوخ لقائمة المحظورات لوقت طويل . كنت أقدّر ، على نحو ما ، دوافع خالي نافذ ، في ذلك الوقت ، ولا أجادل في أن له الحق في توجيهي . إلا أن الإمعان في القسوة والإفتقار إلى المنطق أججا ، بمضيّ الوقت ، دافعي للتمرد . وكان هذا الدافع يتقوى حين الحظ ، أو أظن أني لحظت ، في مواقف الآخرين نوعاً من التعاطف الصامت معي . والحقيقة أني كنت قد اعتدت على الاستغراق في أنشطة متعددة ومتنوعة حتى صار الأمر عادة متحكمة بي وحاجة لا استغني عنها ، فضاعف هذا من ضيقي بمحظورات خالي وحملني على ابتكار الوسائل للتمرد عليها . وكان من المتعذر ، في سنّي وفي ظروفي تلك ، وفي ظل المكانة المعترف بها والسلطة المقررة لربّ العائلة ، أن يتخذ تمردي مظهر المواجهة المباشرة مع الخال . فكان ، إذن ، أن وجدتني منساقاً في طريق التحايل على التعليمات ، مع الاحتفاظ بمظاهر الطاعة العلنية . لست اتذكر كيف بدأ ذلك او متى بدأ بالضبط . ولكني اتذكر اشياء كثيرة تبيّن لك كيف تؤدي التربية المتزمتة الى عكس أغراضها . فأنا أتذكر أني استفدت من السماح لي بحضور دروس اللغة في الحلقة لامدد مكوثي فيها لمتابعة دروس الفقه ، أيضاً ، ثم اتفنن في اختلاق الأعذار المتنوعة لتسويغ تأخري في العودة الى المنزل . والمطالعة التي حرمت من ممارستها على سجيتي لم أتخل عنها ، في واقع الامر . ففي يوميّ السماح من كل اسبوع ، كنت اذهب الى المكتبة الظاهرية واقرأ ما يستهويني انا من الكتب ، ثم أبلغ الى الخال عناوين كتب أخرى أكون قد قرأتها سابقاً أو سمعت عنها من الاقران أو عرفت ان خالي لم يقرأها . ومن أجل المطالعة في الأيام الأخرى ، توسعت في عادة قراءة الكتب المغلّفة بأغلفة كتب مدرسية ؛ كانت هذه ، كما سبق لك أن عرفت ، حيلة شائعة بين التلاميذ . وكنّا نتبادل الكتب المرغوبة التي نتقن تغيير أغلفتها . وحين

يكون خالي في المنزل وأكون أنا مشوقاً لإتمام قراءة كتاب من هذا النوع ، كنت الجأ إلى احدى الحجرتين بدعوى حاجتي لمذاكرة الدروس في جوّ هادىء ، وافرد أمامي بضعة كتب ودفاتر وأدوات مدرسية ، موحياً بجوّ الإنصراف لاعداد الدروس ، بينما أنصرف ، في الواقع ، لقراءة ما يشوقني . وكنت ، في وضع كهذا الوضع ، أحتفظ بشيء من انتباهي لترصد حركة الآخرين من حولي . وحين أحس بما يشي بقدوم الخال نحوي ، كنت أستبدل الكتاب المحظور بكتاب مدرسيّ حقيقي وأتظاهر بالإنكباب على القراءة ، حتى يزول الخطر . ولم تكن هذه طريقة آمنة أو مريحة للمطالعة ، لكنها أفضل من لا شيء ، والكتب التي تحتاج قراءتها الى كثير من التركيز كنت أشرع في مطالعتها بعد التأكد من أن خالي ذهب الى فراشه واستغرق في النوم . ففي وقت كهذا ، كان من الممكن أن اطلق العنان لهوايتي مع امتداد الليل . وليس غريباً ، بعد ، أني اكتسب ، منذ تلك السنّ ، عادة السهر الطويل ، مثلما اكتسبت القدرة على المطالعة في أي ظرف كان .

أما التواصل مع الاصحاب ، وكان من أقسى المحظورات لأن حلقة أصحابي كانت آخذه في الاتساع حين شدد خالي مراقبته لي ، فلم يكن بمقدور أي حظر أن يلغيه . وقد تجلّي ، في هذا المجال ، صواب القاعدة التي تقول : « إن الحاجة ام الاختراع » باسطع ما يكون . والحقيقة أني استخدمت كل الحيل المعروفة ، المرض المفاجيء لصديق يرغمني الواجب على مواساته ، والحاجة لاستعارة كتاب ، أو إعادة كتاب مستعار ، او مذاكرة درس من الدروس مع زميل يعرفه اكثر مني ، او الاستعداد لامتحان صعب . ولكن استخدام هذه الحيل لم يف بالغرض كله ، فعمدت الى مراقبة عادات خالي حتى رصدت ، بأقرب ما يكون الى الدّقة ، الأوقات التي يتواجد فيها في المنزل والاخرى التي يغيب فيها ، وصرت أستغل أوقات غيابه للالتقاء مع الأصحاب ، مستفيداً من غفلة أعضاء الأسرة الاخرين أو مراعاتهم لحاجتي الى التنفس بحرية خارج المنزل ، بين وقت وآخر . هنا ، كانت خالتي شفيقة هي الأحن عليّ بين

الجميع ، وكانت الجدّة اكثرهم تفهماً ، وكانتا ميالتين للتستر على غياباتي حتى حينٍ لا تكفان عن تقريعي بسبب مخالفتي للتعليمات . وقد حدث ، مثلاً ، أن عاد خالي نافذ مرة في غير الوقت المتوقع وافتقد وجودي في المنزل ، فقالت خالتي شفيقة إنها كلفتني بمهمة طارئة ، وحين عدت ، ولكي تسهّل علي التخلص من الحرج ، هتفت الخالة وانا مقبل : « ها ؟ هل أوصلت الرسالة لصديقتنا أم سعدي ؟ » ، ففهمت الاشارة وتصرفت بهديها . ولما صرت في الحجرة وحدي ، لحقتني الخالة الطيبة وقرعتني بصوت مخنوق : « تريد أن تجرّ المصائب عليّ وعلى نفسك ، فلماذا لا تهدأ ؟ » .

بدت هذه الحيل مفيدة ، لكنها لم تلغ احتمال وقوع مفاجأة في أي وقت ، خصوصاً لأن الخال لم يكن قليل الذكاء ولا قليل الانتباه . وكان لا بد ، بالتالي ، من تواتر الاحتكاكات مع خال لا يغيظه شيء بمقدار ما يغيظه أن أخالف تعليماته التي يعتقد هو ، إعتقاداً جازماً ، بأن اتباعي لها يحقق مصلحة اكيدة لي . وكما أشرت الى هذا سابقاً ، لم يتعفف الخال عن احراجي كلما اكتشف أني أخالف تعليماته ، ولم يراع ، في هذا الشأن ، حتى اعتبارات اللياقة أزاء الآخرين . فقد كان يحدث مثلاً ، أن ينضم الخال إلينا في الجامع لأداء صلاة المغرب مع الجماعة بصحبة الجدّ ثم يمكث في الجامع بعد الصلاة ، فيما انصرف انا لمتابعة الدرس في الحلقة ، دون أن أفطن الى ان الخال لم يغادر الجامع . في مثل هذه الحالة ، كان الخال يعرج على حلقتنا ويقف ازاءها متنصتاً لما يدور فيها ، فإذا رأى أن الدرس يدور حول اللغة انصرف بهدوء ، أما إذا اكتشف أن الدرس يدور حول موضوع آخر ، لم يتورع عن انتهاري بفظاظة ومطالبتي بترك الحلقة ، وقد يصل الى حدّ لوم الشيخ عبد الرزاق لأنه يحتجز أبناء الناس في وقت يتوجب عليهم فيه أن يكونوا مع أهلهم في المنازل . كما كان يحدث ، مثلاً ، أن يقع الخال عليّ ، صدفة ، وأنا اتجول في الحيّ مع صاحب حظر علي من قبل الإتصال به . هنا ، كان الخال يثور ويخرج عن طوره تماماً ، فلا يتورع عن تقريعي في الشارع وتوجيه أحدّ الشتائم واقسى الاهانات لصاحبي .

سانتهي ، بعد ذلك بسنوات ، الى الاقتناع بأن قسوة خالي الكبير عليّ انطلقت من حبّه الشديد لي ، حتى حين عبر عن هذا الحبّ بطريقة مغلوطة تماماً . كما سانتهي الى الاقتناع بأن تزمت الخال في تربيته لي انطلق هو الآخر من رغبه خفيّة لديه في أن يراني ذات يوم وقد حققت مكانة خاصة تلائم اعتقاده المبكر بأني مؤهل لها . ولعل الخال ، الغارق هو نفسه في ظروف الحرمان ، والذي اضطرته الهجرة لقطع مسيرة حياته المرسومة ورفع عبء الاسرة الكبيرة ، توخى من حرصه الزائد علي أن يدفعني إلى مستقبل يشكل له العوض عن المستقبل الذي حلم هو به . أما في حينه فلم آخذ الأمر على هذا المحمل ، بالطبع ، ولا كنت قادراً على سبر الأغوار العميقة للنوايا الطيبة المغطاة بطبقات من القسوة والفظاظة . وما كنت ارى في سلوك خالي إزائي إلا مظاهر القسوة وما يسببه لي من حرمان وآلام وإحراجات . ولما كانت قسوة الخال منصبة عليّ باكثر مما هي منصبة على أي عضو آخر في الأسرة فقد مازجت إحساسي بالضيق أحاسيسُ سامة أخرى . وتوهمت أن خالي ما كان ليبيح لنفسه أن يقسو عليّ ، وما كان ليجرؤ على إهانتي ، لو أن أبي وأمي كانا موجودين معنا . وكنت أراني اليتيم الذي يتعرض للاضطهاد بسبب يتمه . ورحت أختزن ضيقي في داخلي وأغذيه بالحساسية فيتضخم ويخنقني . ولم يكن بأمكاني أن اعبر عن هذا الضيق إلا في انفجارات صغيرة ، تقع بين وقت وآخر ، لا تتعدى الحرد عن المشاركة في الطعام ، أو التزام الصمت المتذمر حين يتوجب أن أرد على سؤال ، أو مغادرة الحجرة التي يكون فيها الخال دون إذن منه . وكان عجزي عن التعبير عن ضيقي يخنقني هو الآخر ويفاقم في هذا الضيق .

وهكذا ، وجدتني في دوامة حقيقية يشتد وقعها يوماً بعد يوم : منزل أضيق بحياتي فيه ، فتشتد حاجتي للغياب عنه ، فيحنق غيابي الخال وتزداد قسوته عليّ ، فيتضاعف الضيق ، وتتفاقم الأزمة ، في دورة متتابعة لا مخرج منها ولا نهاية لها .

١٠

تنظيم سري على طريقة «الكاربوناري» والمبيت في المقبرة

كان أسر هذه الدوامة يشتدّ عليّ حين أشرفنا على امتحانات نهاية العام المدرسي التي تؤهلني للأنتقال الى الصف التاسع ، الرابع الاعدادي ، وتوجب عليّ أن أنصرف للتحضير للإمتحانات بجدّية زائدة ، كي أعوض ما فاتني في فترة المرض الطويلة . لقد أثار غيابي عن المدرسة ، في هذه الفترة ، شيئاً من القلق بشأن قدرتي على اجتياز الامتحانات بتفوق . وكان تحقيق التفوق ، وليس مجرد النجاح ، شيئاً ما يزال شديد الاهمية في اسرتنا . وقد وعدت الأسرة بأن أبذل جهدي حتى أحتفظ بمرتبتي المعتادة المتقدمة في الصف . وطلبت من الخال أن يأذن لي بأن أحضر للإمتحانات ، هذه المرة ، على طريقتي ، وأفهمته أن تعويض ما فاتني يقتضي أن أتعاون في المذاكرة مع زملائي . وقبل الخال طلبي ، على مضض ، دون أن يتخلى عن حذره أو شكوكه . ونعمت

بفترة ضعفت فيها رقابة الخال عليّ ، خصوصاً لأنه ، هو الآخر ، كان مشغولاً بالتحضير لامتحانات كلية الحقوق ، بالإضافة الى مشاغله في المدرسة التي يعلم فيها .

جرت العادة على أن يعطى التلاميذ بضعة أسابيع قبل الامتحانات يعفون خلالها من الدوام لكي يجدوا الوقت الكافي لمذاكرة الدروس . وكان التلاميذ الذين يدفعهم صخب منازلهم للبحث عن أماكن هادئة من أجل المذاكرة قد اهتدوا ، فضلاً عن الجوامع ، الى الأماكن الفسيحة في غوطة دمشق المحيطة بالمدينة . وأنا ، الذي كنت ، حتى ذلك الوقت ، أذهب الى الجامع الاموي ، آثرت ، هذه المرة ، أن ألتحق بالجماعات التي تذهب الى الغوطة ، لأن ابتعادي عن الجامع يجعلني بمنأى تام عن رقابة الأهل ، وخصوصاً رقابة خالي نافذ . وهكذا ، انضممت إلى الجماعات التي تسرح في الغوطة الغربية وتتجول في المساحة الممتدة بين متنزه المنشية والربوة حول ما عرف باسم طريق بيروت . وفي هذه المساحة ، حيث تتكاثف بساتين الفاكهة وتتوزع معظم فروع نهر بردى السبعة ، كان ألوف التلاميذ يتوزعون ، فرادى وجماعات ، فيذاكرون الدروس ، أو يتجادلون في شتى الشؤون ، أو يسمرون ، أو يسبحون ، حسب الاحوال والأمزجة ودرجات الاجتهاد . هنا ، كان التلاميذ يفعلون ما يعنّ ببالهم ، متحررين من رقابة الأهل والمدرسين ، مطلقين الأعنّة على أمديتها القصوى لاهتماماتهم وطموحاتهم وتخيلاتهم ، وحتى لنزواتهم التي يحظرها المجتمع . فكان من الممكن لأي شيء أن يقع ولأي نشاط أن يتم ، دون أن يخشى أحد لوم اللائمين .

في هذا الفضاء الموشى بشتى الألون والأفكار والأنشطة ، في جزيرة الحريّة الخضراء ، هذه ، كما كنّا نسميها مجازاً ، انفتح لي عالم جديد .

هنا ، التقيت بعدد من الأصحاب الذين عرفتهم ، من قبل ، في أجواء حيّ العمارة أو حيّ القزازين أو في المظاهرات . وكان من هؤلاء هايل عبد الحميد ، أو هايل الشيخ طه وفق التسميه التي عرف بها آنذاك . كان هايل طفلاً كبيراً أو فتى صغيراً ، وهو يكبرني بسنتين أو

ثلاث ، وكان يحضر لامتحانات الشهادة الاعدادية . فهو يتقدمني ، في الدراسة ، إذن ، بصف واحد . وهايل ، مثلي ، يتيم . ولعلّ هذا هو أشدّ ما اجتذبني اليه في البداية . مات أبوه مخلفاً معه ابناً أصغر منه ، هو مروان ، وابنة اصغر من الاثنين . وبعد وفاة الاب ، تمتع هايل واخواه برعاية طيبة في كنف عم متفهم وكريم الطبع هو أبو وائل الذي ضمّ ابناء أخيه الى اسرته ووفر لهم رعاية ميزهم بها حتى على أبنائه . وكان لهايل عم آخر . اكبر من الأول ، هو أبو فتحي ، وقد عرفته نموذجاً للرجل السمح المنصرف لعمله ورعاية أسرته والحادب على كل من يتصل به من أقربائه وأصحابه وأصحاب أقربائه . وفد الجميع من صفد لاجئين الى دمشق . وفي صفد ، كان أبو فتحي صاحب مهنة مرموقة فهو خياط للملابس الرجال من الزي الحديث الآخذ في الانتشار وتاجر أقمشة ، وقد تيسر له أن يجد عملاً في دمشق ، بسهولة ، وهذا ما فعله أبو وائل ، أيضاً ، ثم تشارك الاخوان مع متمول من آل النقيب من صفد ، وافتتح الثلاثة محلاً للخياطة وبيع الاقمشة في سوق الحريقة في دمشق ، فتوفر لهم دخل معقول وضعهم في عداد المتوسطين من ميسوري الأحوال ، ومكنهم من توفير عيش كريم لأسرهم وتعليم أبنائهم ، وحررهم من الضنك المادّي الذي فتك بمعظم اللاجئين .

كان هايل ، إذن ، على يتمه ، يعيش في أسرة توفر له رعاية طيبة ، وكان إلى هذا ، وبخلاف حالي ، متحرراً من التعقيدات التي تقيّد سلوكي وتعذبني . ولأمر ما ، لعله ، بالدرجة الأولى ، التأثر بالأفكار الوطنية في أسرة الحرفيين الذين صاروا ، أيضاً ، تجاراً صغاراً ، حمل هايل ، منذ وقت مبكر ، الهمّ الوطني الفلسطيني ، بالطول والعرض . ومنذ سنوات فتوته المبكره ، حصّن هايل نفسه ، تحصيناً لا يخترق ، ضد تأثيرات الإسلاميين والقوميين والماركسيين ، واعتقد بأن على أبناء فلسطين أن يشقّوا طريقهم بانفسهم ويعتمدوا ، بالدرجة الاولى ، على ذواتهم ، في العمل لاستعادة وطنهم المغتصب . وبموقفه هذا ، لم يكن هايل ضد أحد من هؤلاء ، بل كان يتصور أن بإمكان الفلسطينيين

الاستفادة من إمكانيات التيارات المحيطة كلها ، على أن يتجنبوا الذوبان فيها ، وكان يدعو الى مقاومة الذوبان . لقد حملت شخصية الطفل الدارج نحو الفتوة وطنيّة متأصلة الى جانب رومانسيّة شديدة الشفافية واصطبغت بمزيج من المثالية والواقعية جعله يعدّ بين المثاليين براغماتياً وبين الواقعيين مثالياً حالماً . وكان لدى هايل تصميم لا ينسجم مع سنّه على اقتحام المصاعب والغرق في الهموم الكبيرة . وكان هايل سباقاً ، في جيله ، الى التنبه لأهمية انتظام الفلسطينيين في منظمة خاصة بهم .

وقد سبق لهايل أن عرض ، أمامي ، أفكاره حول أهميه التنظيم ، دون أن يتيسر لنا إجراء مناقشات منتظمة بشأنها . ولأني كنت مبلبلاً بين شتى التيارات والاهتمامات ، مغموساً في المشاكل التي اعانيها في الاسرة أو مع الاسرة ، فإن أفكار هايل لم تؤثر فيّ حتى ذلك الوقت ، بأكثر مما أثرت أية أفكار اخرى . وعندما جمعتنا أفضية البساتين وتوفرت الأجواء الحرّة والوقت الكافي للحوار ، اكتشفت أن هايل قد ترجم أفكاره هذه إلى مشروع محدد ، وهو عازم على الشروع في بناء تنظيم سرّي يضمّ من يتفق معه من التلاميذ بأمل أن تتشكل النواة اللازمة للانطلاق . فاجتذبني المشروع . وانخرطتُ مع هايل والآخرين في مناقشات جادة بشأنه ، جادة بمقدار ما يكون الاطفال ، الذين حُوّلو الى الفتوة المبكرة ، جادّين حين يتصدون لأمور أكبر منهم ويقنعون أنفسهم بأن هذا هو قدرهم .

كانت أجواء العمل السرّي منتشرة في سوريا مثلما كانت جذابة ، خصوصاً مع اشتداد سطوة الديكتاتورية وازدياد تذمر الجمهور بمختلف فئاته من تسلطها . وقد جذبت هذه الاجواء كثيرين خصوصاً من بين التلاميذ الباحثين عن دور لهم في المستقبل . وكان التلاميذ الفلسطينيون هم الأشدّ انجذاباً الى العمل السرّي ، تحفزهم على ذلك ظروف البلد وظروفهم الخاصة بهم ، أيضاً . وهكذا ، ضمت الحلقة التي كان هايل يبث دعوته وسطها عدداً لا بأس به من تلاميذ الاعدادي والثانوي . وقد تعرفت في هذه الحلقة على كثيرين اجتذبهم الهدف ذاته ، وهو إقامة تنظيم سري

للفلسطينين وحدهم ، يجمع صفوفهم ويوحد قواهم ويحول دون تبددها بين الاحزاب السورية . وكان من هؤلاء أنيس الخطيب ، وقد لجأت أسرته الى دمشق ، قادمة من قرية شفا عمرو ، وصبحي عرب ، من صفد ، وهو فتى في سنّي ، يتيم الاب ، ترعاه أم متينة الشخصية لا مورد لها إلا ما تقدمه وكالة الغوث وما يجود به الاقرباء ، وهو يسكن مع اسرته التي تضم ، ايضاً ، ابناً آخر وثلاث بنات ، في حجرتين صغيرتين في منزل للسكن المشترك في شارع الامين في حيّ اليهود ، ويعاني مما يعانيه سكان المساكن المشتركة من هموم ومشاكل وصخب ومشاحنات . كما كان من هؤلاء ايضاً ، جهاد سعيد عيسى ، وهو ابن لتاجر قماش صفدي كان في بلده معدوداً بين وجهاء الحركة الوطنية ، ولما جاء الى دمشق انخرط في عالم الاعمال وحقق لنفسه مكانة تطورت بسرعة حتى صار من كبار منتجي الملابس الجاهزة في دمشق . وكذلك ، مازن الصرصور ، وهو ، أيضاً ، من صفد ، وينتمي لأسرة كانت ، آنذاك ، من أصحاب الدكاكين الصغيرة ، فأبوه وعمه يشتركان في دكان بقالة وأعمامه الآخرون يبحثون عن فرص أفضل في عالم التجارة . وقد تميز مازن باستعجاله حب الظهور وصخب المهرجانات والخطب والتوق المبكر لأن يصبح شيئاً مذكوراً ، لكنه تميز ، الى ذلك ، بوفرة النشاط وبالأنتماء الى أسرة سخيّة اليد وفرت لاجتماعاتنا كرم الضيافة الذي لا ينسى . وكان هناك آخرون ينتمون الى أسر قادمة من صفد أو منطقتها . وكنت ، بين الجميع الوحيد المنتمي لأسرة قادمة من جنوب فلسطين . وبهذه الحلقة ، توفرت لنا نواة التنظيم المنشود . وقد رتبنا أمرنا على أن نشكل التنظيم ، فعلاً ، حين يبلغ أعضاء الحلقة دزينة كاملة . وانصرفنا لاجتذاب أعضاء جدد ، كي نستوفي العدد . وكان حماس هايل الفائق يدفعنا الى الاستعجال . وقد قدرنا أن صغر سنّنا لا يوفر الاحترام اللازم لتنظيم يتصدى لمهمة تحرير فلسطين ، حتى وإن كنّا نعتقد أن امكانياتنا اكبر ودوافعنا أنقى من امكانيات الكبار ودوافعهم . وبحثنا عن شخص بالغ لنجعله واجهة التنظيم في الإتصال مع الآخرين . وقد وقعنا ، ولا أتذكر كيف تم ذلك ،

على شـاب لـم نكن نعـرفـه جـيـداً ، وهو من جـيـران هايل في السكن ، وفاتحناه في الأمـر ، فقبل المهـمـة . لم يكن أحمـد ع . تلمـيذاً مـثلنا ، بل كـان ضـارباً على الآلة الكاتبـة في مكـتب بوسط البلد يلجأ اليـه المحامـون لطبع مـذكـراتهم فيـه ، فكان احـمـد ، بهـذه الصـفـة ، على صلة بعـالم المحامين والـقـضـاء ، وكـان يُدلّ علينا ، دائمـاً ، بما يتوفـر له من المعلومـات والاسرار . ولمّا اكتملت الدزينة ، هيأنا لحدث التأسيس بكل الجلال الذي يقدر عليه الصغار حين يظنّون انهم يفتحون للتاريخ منعطفاً جديداً ليسير فيه .

كنّا ، في المدرسة ، قد تعلمنا شيئاً ، ظننّاه كل شيء ، عن الجمعيات السـرّية التي قـادت الثـورات الشـهـيـرة في التـاريخ . وكـان النمـوذج الذي عرفناه اكثـر من غيـره ، أو استـهـوانا بأشـدّ مما فعل غيـره ، هو جـمـعـيـات الكاربوناري الإيطالية . وكان لإسـم غاريبادي ، في أوساط التلاميذ الذين تعلموا في المدارس السـورية من ذلك الجيـل ، شـهـرة توازي أو تكاد تفـوق الشـهرة التي لـقادة الفـتـوحـات الاسـلامـيـة . وكنّا ، إلى هذا ، قـد سـمـعنا الحكايات التي يرويهـا كـبـار السن من أقـربائنا ومـعـارفنا الفلسطينيين عن أشكال الجـهـاد السـابقـة في البـلاد وتنظيمـاتها . ومن حصيلة بدت لنا ، آنذاك ، عظيـمـة الشأن ، قررنا أن نقيم التنظيم على أساس الخلايا السرية التي تعرفها القيادة ولا تعرف هي بعضها ، وأن نجعل لهذا التنظيم برنامجاً ونظاماً داخليـاً . ووقع الاخـتـيـار عليّ ، انا المتمـيز بين الآخرين بفـصـاحـة اللغة ، لا عدّ مشروع البـرنامج والنظام ، على ان أتعاون مع هايل في هذا المجال . وكانت الفصاحة معدودة ، في وسطنا ، دليلاً على نباهة الفكر .

وها أنا أتذكـر ، وأنا اسـتـحـضـر أجـواء هذه الفـتـرة المفـعـمـة بالحـمـاس والغـمـوض الآسـرين ، تلـك الجـدّية التي طبعت مناقشـاتي مع هايل بشأن ما ينبغي تسجيله في البرنامج واعتماده في النظام . لم يقتصر الأمر على إحساسنا بأننا نصنع التاريخ من جديد ، بل ثقتنا ، أيضـاً ، بأننا قادرون على ذلك . وقد استغرقت مناقشاتنا ساعات طويلة على مدى أيام كثيرة . كنّا نتداول فكرة ونقلّب الرأي بشأنها ، حتى إذا قررنا اعتمادها أقوم أنا

بصياغتها وأقرأ ما اكتبه ، فيقبله هايل أو يقترح تعديله ، ثم ننتقل إلى فكرة اخرى .

وبهذه الطريقة ، أعددنا البرنامج الذي كان ، في واقع الأمر ، مزيجاً من العرض التاريخي والأفكار التي تظهر حق شعب فلسطين في وطنه والشعارات المعبّرة عن الرغبة في استعادة الوطن . والفكرة الرئيسية في البرنامج كانت هي الفكرة التي حفزتنا على إقامة التنظيم ، مميزين أنفسنا عن آخرين كثيرين ، نعرفهم ، ممن عملوا من أجل الهدف ذاته ، في تنظيمات أخرى . وقوام هذه الفكرة أن أهل فلسطين مدعوون الى الإعتماد على أنفسهم ومطالبون بأخذ زمام المبادرة في الكفاح من أجل تحرير فلسطين ، ليشكلوا رأس الحربة في هذا الكفاح الذي ينبغي أن يدعمه العرب الآخرون . عدا ذلك ، تضمن البرنامج ما كان ، في واقع الأمر ، متداولاً ، آنذاك ، من أفكار وأحكام حول أسباب هزيمة العرب في فلسطين . وفي هذا الصدد ، مجدّ البرنامج بطولات شعب فلسطين ، هكذا بالإجمال وبالمطلق ، وأخذ على القيادة الفلسطينية قصورها في الاستفادة من طاقات الشعب ، كما أخذ عليها اتكالها على الدول العربية وتصديقها للوعود التي قدمتها هذه الدول .واضاف إلى ذلك كل ما كنا نردده انذاك من اتهامات أخرى للحكام والحكومات .

أما النظام الداخلي فتوجناه باعتماد اسم التنظيم الذي سميناه « صوت فلسطين » ، وعددنا شروط العضوية ، مغفلين ، مما هو مألوف في هذا المجال ، شرط السنّ . ثمّ سجلنا وجود مجلس للقيادة مكون من الأعضاء الاثني عشر المؤسسين ، على أن تُتداول رئاسة المجلس بين هؤلاء الأعضاء بحيث يتولاها واحد منهم كلّ شهر . ووضعنا نظاماً للخلايا السرية المتسلسلة ، بحيث لا يتجاوز عدد أعضاء الخلية الواحدة الخمسة ولا يعرف هؤلاء سوى المسؤول عنهم . لقد نسخنا ، في هذا المجال ، ما تصورنا أنه النظام الذي اعتمدته جمعية الكاربوناري . والمدهش أن فكرة الانتخابات والأفكار الأخرى المتصلة بالممارسة الديمقراطية داخل التنظيم لم تخطر على بال أي منا ، بالرغم من أن التنظيم نشأ ، كما تعرف ، في

أجواء الكفاح ضد ديكتاتورية الشيشكلي والمطالبة بعودة النظام الديمقراطي الى البلاد . واعتقدنا حين فرغنا من إعداد البرنامج والنظام أننا أنجزنا شيئاً خارقاً للعادة .

بهذه الذخيرة ، دعي الأعضاء الاثني عشر للاجتماع ، وتلي عليهم ما أعددناه فأقروه دون اعتراض أو تعديل . وتوجب ، وفقاً لمادة في النظام ، أن يقسم الأعضاء يميناً ينص على الأخلاص للتنظيم وصيانة أسراره والاستعداد للتضحية بكل شيء من أجل فلسطين ، وقد أوجب النظام أن يجري هذا القسم على السيف والمصحف . كان الحصول على مصحف ميسوراً ، بالطبع ، أما السيف فسبب لنا مشكلة حين تعذر الحصول عليه . وهكذا أرجيء القسم إلى موعد آخر حتى يتم تدبر الأمر . وكادت العطلة الصيفية أن تنقضي قبل أن يتمكن أي منا من العثور على السيف المطلوب . هنا ، حسم أنيس الخطيب الأمر ، وهو الذي تميز بيننا بعملية مفرطة وخفة دم تسعفه في كل الظروف : لقد أحضر أنيس الى مكان الاجتماع في أحد البساتين على طريق الربوة سكيناً كبيرة من النوع الذي يستخدمه الجزارون ثم شجعنا على الاستعاضة عن السيف بهذه السكين ، إذ ما الفرق ، أليس المهم ان تكون أداة جارحة ؟! وقد اعترضت أنا على هذا الحلّ ، فليست للسكين هيبة السيف ، ثم إن في الأمر مخالفة للنظام الذي كنا قد وافقنا عليه للتو ، وخضت جدلاً طريفاً مع أنيس . ثم حسم هايل الجدل : نقسم الآن على ما هو متيسر حتى لا يتأخر انشاء التنظيم ، وعندما نعثر على سيف نعيد القسم .

إني أرى ، الآن ، في الذاكرة . اثنيّ عشر ولداً تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، وقد تحلقوا حول مصحف وسكين ، في مكان منعزل ، في بستان قريب من « الربوة » على طريق بيروت . ويتردد في الذاكرة صدى القسم الجليل الذي يردده هؤلاء الاولاد ، معاهدين الله والوطن على أن يبذلوا جهودهم وأرواحهم من أجل تحرير فلسطين .

وبهذا ، تمت مراسم تأسيس التنظيم* . واتفقنا على أن يتولى هايل الرئاسة في الشهر الاول . وتواعدنا على الإجتماع ، ثانية ، لوضع خطة

العمل . في ذلك اليوم ، دخلت حياتي في مسار جديد . فقد بدأت الخطوة الأولى على طريق الالتزام بالهدف الوطني وتكريس كل شيء من أجل تحقيقه .

هنا ، عليّ أن أقول إننا لم نكن الوحيدين بين أبناء جيلنا الفلسطيني الذين نشطوا في هذا الاتجاه ، فقد فعل هذا كثيرون غيرنا . وفي دمشق ، وحدها ، تزامنت محاولات أخرى كثيرة مع محاولاتنا ، فيما اختار بعض التلاميذ التوجه نحو الأحزاب القائمة في سوريا والعمل ضمن صفوفها . وكان أن استأثر الحزب السوري القومي أو حزب البعث العربي الاشتراكي أو حركة القوميين العرب الناشئة بعدد من نشطاء التلاميذ الفلسطينيين ، بينما توزع النشطاء الآخرون على تنظيمات شبيهة بتنظيمنا . ولعلّي لا أبالغ لو قلت إنه ما من تلميذ فلسطيني إلا فكر ، في تلك الفترة ، بعمل شيء ما شبيه بالذي عملناه أو بالالتحاق بحزب قائم ، وذلك بصرف النظر عما إذا كان قد نفذ ما اعتزم عليه أو أن الظروف أحبطت همته .

وأتذكر من بين التنظيمات العديدة التي نشأت في ذلك الوقت من الخمسينات اثنين ، حمل احدهما اسم « نداء فلسطين » ، وحمل الثاني اسماً لم أعد أتذكره ولعله أن يكون نداء العودة أو عرب العودة أو شيئاً من هذا القبيل . أنشأ التنظيم الأول جمع من التلاميذ تميز منهم من صار ، فيما بعد ، شاعراً معروفاً ومترجماً للأدب الاسباني ، وهو محمود صبح ، والتفّ حوله عدد من الفتيان الذي اجتذبهم فيما بعد حزب البعث . وكان معظم هؤلاء يقطن وقتها في حيّ اليهود . أما التنظيم الثاني فأنشأته جماعة من التلاميذ الذين يقطنون ، بمعظمهم ، في سفوح جبل قاسيون ، في حيّ المهاجرين أو حيّ الشيخ محي الدين المتجاورين . وكان رخص المنازل في هذه السفوح أو سهولة الحصول على أرض خلاء لإقامة المساكن قد اجتذبا اعداداً كبيرة من الأسر اللاجئة للسكن في هذه المنطقة ، فنشأ تجمع كبير للاجئين الفلسطينيين فيها ، وتوزعت مدارس المدينة أبناء هذا التجمع . واذا كان التنظيم الأول قد تأثر منذ نشأته بالافكار القومية التي يروج حزب البعث لها ثم انتهى الى الذوبان في هذا الحزب ، فإن التنظيم

الثاني تأثر ، من جانبه ، بخليط من الأفكار التقليدية عن الدين والوطنية ومكارم الأخلاق وفضائل الجهاد وما الى ذلك ، فنشأ بتأثير هذه الافكار تنظيم فضفاض ، ثم لم يلبث أن تشظى هذا التنظيم فتفرعت عنه تنظيمات عدّة ضعيفة تضاءل تأثيرها حتى زال أو انتهى بعض نشطائها الى صفوف القوميين العرب او الاخوان المسلمين والجماعات الدينية الأخرى . وكان لوجود هذه التنظيمات تأثير مباشر على عملنا ، فنحن ، كلّنا ، ننشط في المجال ذاته ونتنافس في الميدان ذاته . وقد تعرض تنظيمنا لبعض الانتقادات من الآخرين ، وخصوصاً من جماعة نداء فلسطين ذات الاتجاه القومي ، فاتهمنا هؤلاء في عروبتنا وركزوا حملتهم ضدنا على أننا إقليميون إنعزاليون ، كما اتهمنا الآخرون بأننا فئة قليلة مغلقة تقبل من هب ودبّ ولا تراعي التقاليد ، ولا نقيم وزناً لقواعد الأخلاق ولا تتدخل في السلوك الشخصي للأعضاء . وكانت هذه كلها ، في ظروف سوريا ، تهماً قاسية . وبتأثير هذه التهم ، تداعينا الى تبديل اسم تنظيمنا فأطلقنا عليه أسم « عرب فلسطين » الذي اشتهر به ، وتواصينا بأن يدقق كل واحد منا في سلوكه ويحرص على عدم تحدّي التقاليد . وبين الحاجة الى التعاون ، من جهة ، والاستمرار في تبادل الانتقادات والتهم . من الجهة الأخرى ، مضى كل تنظيم في طريقه الخاص ، ولم يفلح أي من المساعي التي جرت في توحيد التنظيمات . ولعلي لا اخطيء لو قلت لك إن معظم جهود العاملين في هذه التنظيمات قد تبددت في ميادين التنافس القائم بينها .

ومهما يكن من أمر ، فإن سنتنا المدرسية التي تلت تأسيس التنظيم شهدت جهودنا المبددة في مجال المنافسة ، هذا ، مع التنظيمات المماثلة . فلما حلّت العطلة الصيفيّة ، أتيح لنا وقت أوسع للتفكير بعمل أشياء إيجابية . وكنّا قد بددنا وقتاً طويلاً في محاولاتنا لوضع خطة عمل . كنّا أسيري تصور ساذج عن الخطّة ، فظننّا أنها ينبغي أن تجيء جامعة مانعة بحيث تتحدد فيها منذ البداية الأعمال اللازمة لتحرير فلسطين كافة . وبهذا التصور ، وكما تستطيع أن تحرز ، لم نتمكن من وضع أيّة خطة . ثم

قادتنا الحاجات العملية الى التركيز على أمور بعينها . وفي جولة التحضير للامتحانات ، ركزنا جهدنا في اتجاه اجتذاب أعضاء جدد للتنظيم . وإذا راعيت طبيعة السنّ والتصورات المبالغ بها التي تقترن به ، فبإمكانك أن تقدر خيبات الأمل التي منينا بها . لقد انطلقنا من تصور بسيط آخر مؤداه أن مجرد انطلاقنا بالدعوة لتحرير فلسطين كاف لاجتذاب آلاف الراغبين في تحرير وطنهم إلى تنظيمنا . وكنّا نظن أننا صغنا دعوتنا بوضوح لا يعتوره أي لبس . فلما شرعنا في العمل النشيط لإقامة الخلايا ، جوبهنا بالفرق الشاسع بين التصورات والواقع . لم نقصّر في الدعوة أو في الاتصال بالآخرين ، إلا أن الاستجابة بقيت محدودة . كان بعض من نتصل به يحيي نوايانا دون مناقشة ، لكنه لا يريد الارتباط بأي تنظيم . هذا البعض يشكل الاغلبية ، تفاتح الواحد منهم بالأمر فيثني عليك ، ثم لا يعدو أن يقول لك : دعني وحالي ! وكان هناك الذين يتمنون المشاركة في العمل إلا أن ظروفهم الخاصة لا تبيح لهم ذلك . هؤلاء يمحضونك تأييداً لفظياً ، إلا أنهم يتجنبون القيام بأي شيء يمكن أن يؤدي إلى احتسابهم بين نشطاء التنظيمات . وهناك الذين يزايدون على الجميع في إظهار الرغبة في العمل ، فإذا دعوتهم إليه يبدأون المجادلة : من أنت كي تسبقني أو كي تكون رئيسي ؟ وكيف لي أن أثق بتنظيم لا أعرف قادته ولا من هم أعضاؤه ؟ ولماذا هذه الفكرة وليس تلك ؟ ولماذا هذه المادة في النظام وليس غيرها ؟ وما هي الضمانات من أجل هذا أو من أجل ذاك من الشؤون ؟ جدل كثير ، ومجاملات لك في الوجه وهجوم عليك من وراء ظهرك ، ولا نشاط . وهناك تأثير التنافس بين التنظيمات الكبيرة أو الصغيرة التي تنشط وسط الجمهور ذاته الذي نتوجه اليه .

لقد بذلنا ، طيلة الصيف ، جهوداً تصورناها جهود جبابرة من أجل تسويق التنظيم لنخرجه عن دائرة أعضائه الاثني عشر المؤسسين ، ولم نحقق نتائج تذكر . حتى بيننا ، نحن أعضاء الدزينة ، لم يخل الأمر من مشاكل كان بعضها صعباً . وقد احتدمت بيننا المناقشات ، ليس بسبب اختلاف الطبائع ، فحسب ، بل بسبب العجز عن تحقيق التصورات ،

أيضاً . ومع تفتح أعيننا على الواقع ، كانت الحاجة الى مراجعة النفس تسبب خلافات جديدة وتشعل المناقشات الحادّة . لقد أدركنا ، أو قل : أدرك بعضنا ، أننا عاجزون عن اجتذاب أقراننا بمجرد الدعوة للتحرير وأن لا بدّ من توفير وسائل جذابة لأغراء الآخرين . وكنّا نفتقر الى الامكانيات التي تؤهلنا لتدبير هذه الوسائل ، بل نفتقر حتى الى التصور الصحيح ، أو الموحد ، حول طبيعة الوسائل المطلوبة . وكان للسنّ ومتطلباته دورها ، أيضاً ، في بلبلة عملنا . فهذا العمل ، وفق تصورنا له ، يتطلب أن نتصرف تصرف الأنبياء أو النّساك ، فنكون صارمين وجادّين ومتشددين في مراعاة آداب السلوك والخطاب . وكان من المتعذر على الأولاد ، حتى وإن ندبوا أنفسهم للمهمة التاريخية ، أن يتجاهلوا على الدوام متطلبات الولدنة ، فيحرموا أنفسهم من التسليات ويكفوا عن العبث . وكان يحدث أن تفلت من أحدنا نكتة عابرة أثناء مناقشة جادة فينفلت الضحك المكبوت وتتوالى التعقيبات الساخرة ، ويتحلل الجوّ الصارم بحيث تصعب العودة الى الجديّة ، فينفض الاجتماع دون إتمام المناقشة . كما كان يحدث ، في حالات أخرى ، أن يوجه أحدنا الى زميله تعليقاً مغيظاً ، فيرد عليه المستهدف ، فينشب اشتباك يقطع مجرى الإجتماع ويقسم الأعضاء بين مؤيد لهذا ومنتصر لذاك أو محتج على الاثنين ، فتختفي المهمة التاريخية ، ويبدو الأولاد اولاداً فحسب . وفي النتيجة ، كان الاجتماع ينفض ، ونحن متغاضبون ، ويقتضي الأمر جهوداً كبيرة وأياماً طويلة تنقضي في استرضاء المتنابذين واعادة الوئام الى الدزينة . وكان يحدث ما هو أخطر من هذا وأشد وقعاً . فقد يتواجد اثنان أو اكثر من أعضاء الدزينة في جماعة من الأولاد ، فينشأ بينهم ما ينشأ بين الاولاد من مشاحنات وخصومات ويشتبكون بالكلام أو بالأيدي . ولا يكون لهذا صلة بشؤون التنظيم ، لكنه ينعكس ، بالطبع ، على العلاقات داخلة ويبلبلها ، ثم يتوجب على اجتماع الدزينة التالي أن ينشغل في تقصي الحقيقة واستعادة الوئام .

وكنّا قد اتفقنا حين أنشأنا التنظيم على أن ندفع لصالحه ما نحصل

عليه من مصروف من الاهل . كنّا ، بالطبع ، راغبين في الوفاء بهذا الالتزام القاسي ، إلا أن لنفس الولد حاجاتها التي لا تقاوم ، احياناً ، ومن المستحيل أن يتجنب الولد ، الى الأبد ، إغراء الظفر بقطعة حلوى . ولا بدّ ، إذن ، من أن يهن الالتزام ، من وقت لآخر . وكانت تصرفات من هذا النوع ، إذا كشفها الزملاء أو وشى بها نقص التوريد ، تسبب المشاحنات وتعرض صاحبها للإتهام بعدم المسؤلية وقلّة الوفاء ، وتورث الإحن والحزازات . ثم أن أوضاعنا الاجتماعية كانت متفاوتة في قسوتها . فهايل ، مثلاً ، كان قادراً على أن يعطي للتنظيم في العطلة وقته كلّه . وعمّ هايل لا يعترض على أن يستقبلنا ابن أخيه في المنزل ، بل إن هذا العم كان يحرص على اكرامنا في أي مرة نجيء فيها إلى منزله ، فتظل أكواب الشاي تدور بيننا ولا ينقضي اجتماع واحد دون أن نظفر بأطباق من الحلوى أو الفواكه . أما أنا ، فتوجب عليّ أن أعمل في الصيف لدعم ميزانية الأسرة .

وفي الصيف الذي أحدثك عنه ، هيأت لي وساطة ناجحة من الشيخ عبد الرزاق ان أعمل عند اثنين من معارفه تشاركا فأنشأ في « ماذنة الشحم » عند امتداد سوق « مدحت باشا » نحو هذا الحيّ مشغلاً لانتاج المرطبات ودكاناً لبيع الحلوى . وكان عليّ ، وقد ضمن الشيخ سلوكي لأظفر بالعمل ، أن أجيء الى المشغل منذ الساعة الثامنة ، وأظل فيه حتى غياب الشمس ، وأن أقوم بشتى المهام التي يفرضها صاحباه دون أن أتخصص بشيء . فكنت أعمل تارة في البركة ، وأخرى على البراد وثالثة في التوزيع على الباعة الجوالين ، أو انتقل الى الدكان حيث أخدم الزبائن وأعد الحسابات ، لأن الشريك الذي يدير الدكان أمّيّ . ثم كان علي أن أسرع الى الجامع الاموي القريب لأودي صلاة المغرب مع جدّي وخاليّ . وكنت ، بعد ذلك ، أنضمّ الى حلقة الدراسة في الجامع . وكان طبيعياً أن أجدني إثر هذا الجهد كلّه مستنزف الطاقة ، كما كان طبيعياً ، أيضاً ، الا أخصص للتنظيم إلا أقل الاوقات ، في الاماسي المتأخرة التي افلت فيها من رقابة الأهل ، أو في أيام الجمع .

وقد تسألني كيف تدبرت أمري مع الاسرة وخصوصاً مع خالي نافذ المتشدد . والحقيقة أن مغريات العمل السري ، وما يقترن به من غموض أخاذ وأحاسيس تظن معها أنك مرتبط بمهمة كبرى جعلتني غير هياب حين احتاج الأمر إلى تحدي الأهل . لقد مضت أيام الامتحانات والتحضير لها بسلام ، على كل حال ، إذ وفرت لي الحجة الملائمة لغياباتي المطولة عن المنزل . ثم جاءت نتيجة الامتحانات وظهر أني محتفظ بتفوقي في الصف ، في المواد الدراسية كافة ، فاثلج هذا صدر الجميع وفي مقدمتهم خالي نافذ الذي فرح كما يفرح طفل ، ولم يفته ، الى هذا ، أن يذكرني بأن تشدده معي كان هدفه حملي على تخصيص وقت وجهد أكبر للدراسة . وقد اعتقد الخال أن مجهوداته أعطت أكلها ، بالرغم من أني ضقت بها . ومضت الاسابيع الاولى التي تلت ظهور النتيجة بسلام ، أيضاً ، لأن خالي نافذ انشغل وقتها بالتحضير لامتحاناته هو في كلية الحقوق ، فكأن يمضي نهاره وجانبا من المساء في مكتبة الكلية . لكن هذا ما كان مقدراً له أن يستمر لوقت طويل . فمع انتهاء الامتحانات الجامعية ، عاد الخال الى عاداته المنتظمة ، وتوجب عليّ ، من جديد ، أن اخضع لرقابته الصارمة . بالطبع ، ظل من الممكن أيجاد أعذار للغياب ، غير أن الفرص ضاقت ، وازداد بذلك ضيقي بالرقابة المفروضة عليّ .

لم أفاتح الخال أو أي عضو آخر في الأسرة بشأن صلتي بالتنظيم . وقد تعددت أسباب تكتمي . كان هناك التزامي بالسريّة وحرصي عليها ، ثم معرفتي بأن خالي سيخرج عن طوره تماماً لو أدرك أني أقوم بنشاط سرّي ، خصوصاً في ذلك الوقت الذي اتسع فيه قمع السلطة للنشاط المعارض ، وزادت ملاحقاتها للنشطاء في العمل العام من كل نوع . وكان هناك سبب خاص يتصل بمشاعر الخال التي أعرفها أزاء اهل صفد ، بالذات : لقد لجأ معظم أهل هذه البلدة الفلسطينية الشمالية الى لبنان وسوريا عندما اضطروا لترك بلدتهم . وانتهى الأمر الى تجمع عدد كبير من أهل صفد في دمشق بالذات ، وانطبق الأمر ذاته على عدد كبير من اهالي القرى المحيطة

بصفد ممن كانوا يعدون ، في دمشق ، صفديين . وهكذا ، نشأ ذلك الوضع الذي شكل فيه اللاجئون من صفد أغلبية متميزة بين الفلسطينيين في العاصمة السورية . ثم حدث أن أول مدير عام اختارته الحكومة السورية لمؤسسة اللاجئين التي أنشأتها هذه الحكومة كان من أهل صفد أصلاً . وكان لهذه المؤسسة صلاحيات واسعة في الاشراف على شؤون اللاجئين وعلاقاتهم بمؤسسات الدولة الأخرى . ولما بدأت الأونروا ممارسة نشاطها ، أنيطت بالمؤسسة العامة للاجئين مسؤولية الاشراف على نشاط الهيئة الدولية ، كممثلة لحكومة الدولة المضيفة . وبحكم كون الصفديين أغلبية وتمتع المؤسسة بالنفوذ ، أنيط عدد كبير من الوظائف التي وفرتها المؤسسة ثم الأونروا بناس من أبناء صفد . واستتبع ذلك مزيداً من النفوذ ومزيداً من التميز ، قابلتها مشاعر الضيق والحسد بين اللاجئين الآخرين . وفي ظروف الحرمان والتنافس الشديد على الفرص القليلة المتاحة أمام مترصّديها الكثيرين ، تضخمت هذه المشاعر ، فصارت ظاهرة مرضية استدرجت عديدين الى اجواء الكره والتنابذ والتحاسد ، وفجّرت الواناً من المشاكل والمشاحنات الشاذة ، فسممت أجواء التجمع الفلسطيني في المدينة . وكان خالي نافذ سلبياً ، عموماً ، إزاء اهل المدن ، اذ كان يعدهم أقل صلابة وتمسكاً بمبادىء الأخلاق من أهل الريف ، فجعله هذا أسرع تأثراً بالاجواء السلبية ضد أهل صفد المعدودين من أهل المدن . وقد درج الخال على القول ، بمناسبة ودون مناسبة ، إن أهل صفد أفسد خلق الله . ولأمر ما ، كان جدّي يحمل المشاعر ذاتها تجاه أهل صفد . وكان الاثنان ، الجدّ والخال ، يرددان ، باستمتاع ، الرواية التي شاعت على لسان السلطان عبد الحميد عن اهل صفد ، التي تداولها الناس للتشنيع عليهم . والرواية تقول إن السلطان العثماني الشهير كان يرجو الله في أدعيته أن يعمّر صفد ويخرّب دمشق الشام . فلما كثر ذلك من السلطان ولم يكن هدفه من وراء هذا الدعاء مفهوماً ، تجرأ أحد ندمائه فسأله يوماً عن سرّ الدعاء الغريب . وقد أوضح السلطان الأمر ، فقال أن ناس دمشق أهل تجارة وعمارة ، فلو خربت مدينتهم فسوف ينتشرون في الارض ، فينشرون

العمار ويروجون التجارة في كل مكان . اما عن ناس صفد فقال السلطان إنهم أهل فساد ، فهو ، لهذا ، يدعو الله ان يبقي صفد عامرة كي لا يغادرها أهلها . ولك ، إذن ، أن تتصور كيف كان موقفي إزاء الخال لو أني جرؤت على إخباره بأني أنتمي لتنظيم سرّي ، وأن معظم أعضاء التنظيم هم من أبناء صفد !

على كل حال ، لم يطل الوقت حتى بدأ خالي يكتشف هذه الحقيقة . بدأ الأمر بالشكوك التي راودت الخال بعد أن كثرت أعذاري . كان صيف جديد قد حلّ ، والتحقت بالعمل أجيراً في دكان صغير هو ، في واقع أمره ، جحر من الجحور التي يضمّها خان واسع يتوسط سوق البزورية . هنا ، كان علي أن اعاون صاحب الجحر الذي اتخذ لنفسه مهنة بسيطة وهي قصّ الورق واعداده لسيتخدمه باعة السوق في الصرّ . كان صاحب الدكان من أقرباء إمرأة جدّي ، وأم عدنان هي التي ندبتني للعمل عنده في العطلة مقابل ليرة واحدة عن كل يوم عمل . وكان الرجل ، وقد نسيت اسمه ، أجرد شعر اللحية . بديناً ، كثير العلل ، كسولاً كسلاً مزمناً ، فكان يعمل أقلّ الوقت ويستريح معظمه ، تاركاً لي مهمة العمل . كان هذا الرجل يجيء بلفّة ورق كبيرة كل يوم ، فننقلها هو وأنا لنقيمها على حامل يدور باللفة حين أدير أنا اليد التي تحركه . وكان عليّ أن اقطع ورق اللفة الى مقاسات تلائم حاجات الباعة ، أفعل ذلك فيما يجلس هو في ركن من الجحر ، فيشرد ، أو يغفو ويعلو شخيره ، ولا يفيق إلا إذا توقفت حركة المحور . ثم يبقى عليّ بعد الفراغ من التقطيع أن أوزع رزم الأوراق على الزبائن في الدكاكين المجاورة . وقد الفتُ أن اجيء الى الجحر عندما يجيء اليه رب العمل المتباطيء هذا ، ولا يكون ذلك قبل الساعة التاسعة . فكان هذا الترتيب يتيح لي أن أعرج على هايل أو سواه من رفاق التنظيم في الصباح الباكر ، كلما اقتضى الأمر ، ثم استمر في العمل حتى منتصف النهار ، ففي هذا الوقت ، يحل ربّ العمل مكاني في تقطيع الورق ، فيما يتوجب عليّ أن أذهب إلى داره في حيّ المهاجرين لأجلب منها الغداء الذي أشاركه فيه . وكان المشوار الى الحيّ البعيد

يقتضي استخدام الباص في الذهاب والإياب ، والتصعيد ، مشياً ، في الشوارع والأزقة التي تخترق سفوح الجبل ولا يصلها الباص . هذا المشوار كان يستغرق ، في العادة ، بين ساعة ونصف وساعتين . أما أنا ، الذي الف انجاز المهام بسرعة ، فكنت قادراً على اختصار الوقت الى ساعة واحدة ، وذلك حين يقتضي عمل التنظيم أن أقوم بمهمة ما في الوقت الفائض . ثم ، كان بالإمكان ، دائماً ، اختلاق الأعذار لمزيد من التأخير في العودة الى العمل . وبعد الفراغ من تناول الغداء ، كان ربّ عملي يتوجه الى مقهى قائم وسط الخان ، فيدخن الشيشة ويشرب الشاي بينما أتابع أنا العمل . وكان ربّ العمل يتعجل الإنصراف بعد أن يستوفي حظه من التدخين والشراب فيتوقف العمل في حدود الساعة الخامسة ، فتبقى لي ساعتان قبل حلول موعد صلاة المغرب ، فاستغلّهما كما أريد .

لكن هذه الأوقات المتاحة ، بتقطّعها على هذا النحو ، إذا لاءمت المهمات الطارئة والمشاورات السريعة ، فإنها لم تلائم الاجتماعات الطويلة والمناقشات العديدة التي ألفنا التخويض فيها . وقد اضطرتني الحاجة إلى اختلاق مزيد من الأعذار للغياب في غير الأوقات الآمنة ، فبدأت شكوك الخال حين تواترت الغيابات زيادة عن المألوف . ولأمر ما ، لم يشر الخال أمامي الى شكوكه ، ولعله توجس ، هذه المرة ، أمراً خطيراً فكتم الشكوك كي لا يثير حذري وكي يتمكن ، بالتالي ، من ضبطي متلبساً . غير أن الخال ، غير الكتوم في العادة ، باح بالشكوك والهواجس أمام أعضاء الأسرة الآخرين ، فجاءني التحذير من خالتي شفيقة . كانت هذه الفتاة الطيبة تتوجس شيئاً ، هي الأخرى ، إلا أنها لا تعترض ، فلما تبيّن لها أن الخال يترصدني بأمعان نبهتني الى ذلك ، راجية ألا أضع نفسي في مواجهة مشاكل جديدة . وبالرغم من ازدياد حذري ، وقع ما ليس من وقوعه بدّ ، وأمسك الخال بأول الخيط ، بالصدفة . حدث ذلك عندما احتاج خالي نافذ لتفصيل بذلة جديدة ، فهداه أحد أصحابه الى دكان آل عبد الحميد ، اقرباء هايل ، في الحريقة ، حيث يمكن الحصول على بذلة محترمة ومعاملة طيّبة بسعر معقول ، وهو ما يتوخاه الخال . وعندما تمّ

التعارف ، انتبه ابو وائل ، عمّ هايل الطيب ، الى الاسم ، فاستتبع هذا السؤال عن درجة القرابة بين الخال وبيني . فلمّا قدم الخال المدهوش إجابته واستوضح ، من جانبه ، عن وجه المعرفة بيني وبين السائل ، قال أبو وائل : « فيصل صديق ابن أخي ، الروح بالروح ، وهما لا يفترقان » ، وتفنن العمّ في الاشادة بمزاياي وحسن تربيتي وسلوكي المهذب . وبذلك ، لم يزد أبو وائل عن أن اثبت للخال أنه يعرفني ، حقاً ، معرفة تامة ، وانني من المترددين المواظبين على منزله .

في مساء ذلك اليوم ، عدت الى منزلنا في الوقت الآمن . وكنت ، بالطبع ، خالي البال مما يبلبل أفكار خالي الحانق . كانت الأسرة قد أخذت مجلسها على السطح وهي تستعد لتناول العشاء ، ولفت نظري أن جدّي كان هناك ، ففرحت به ، والقيت السلام ببشاشة ، وبادرت بتقبيل يد الجد وهو جالس ، ثم توجهت الى المغسلة الموجودة في المطبخ لأغسل يديّ استعداداً لتناول الطعام . هنا ، كانت خالتي شفيقة تسكب الطبيخ في الطبق المشترك ، فلما لحظت دخولي توقفت على الفور ، وأخذت تلطم خديها بحركة تتعمد ألا يصدر عنها صوت ، وهي حركة تعني لمن يعرف خالتي أن حدثاً خطيراً قد وقع وأنها تتوقع نتائج أخطر . لم أحزر شيئاً . وأدركت هي أني لا أعرف ما جرى ، فهمست بنبرة يختلط فيها القلق عليّ والتعاطف معي : « ما هذا الذي تعملـــه ، أما عندنا كفاية مـــن الهموم ! ؟» . ولم أفهم ، لكنني أدركت أني في ورطة ما ، فشئت أن أستوضح الأمر من الخالة . غير أن صوت نافذ لم يمهلني ، وقد اطلق الخال نداء حانقاً اقتحم المطبخ وأرعب شفيقة التي لم تجد ما تفعله ، بعد ، سوى أن تعاود السكب وهي تجمجم بتمتمات غير مسموعة . هتف الخال باسمي ، وأضاف : « تعال ، لا تهرب ! » ، فعدت الى المجلس متوجساً أقسى المتاعب .

كان الجدّ ، الذي اتضح أنه إستدعي إستدعاء ولم يقدم من تلقاء نفسه ، يرجو الخال أن يوجل ما يعتزم القيام به الى ما بعد العشاء . لكن الخال كان مشحوناً بالغضب وعاجزاً عن ضبط نفسه ، فتجاهل رجاء

الجدّ . وتدفق من فم الخال سيل متلاحق من العبارات ، اختلطت فيها الشتائم والتعريض بي ونتف الوقائع التي اطلع عليها للتو . بكلمات أخرى ، كان الخال يزعق بكل ما يرد على لسانه ، وكان مضطرباً أشدّ الاضطرابات ، حتى لقد لطم رأسه اكثر من مرة ، دون أن يكفّ عن الزعيق . ووقفت أنا إزاء الخال واجماً غير فاهم ولا عارف كيف أتصرف . وأدركت أن أي رد فعل مني لن يكون من شأنه إلا أن يؤجج اهتياج الخال ، فهدأت نفسي وتحصنت بالصمت . وبقي الآخرون واجمين ؛ أطرق بعضهم راسه ، ووجه بعضهم ناحية الخال نظرات جامدة أو نقلوا هذه النظرات بيننا نحن الاثنين . ولا بدّ أن الجميع توقعوا أن يهدأ الخال من تلقاء نفسه بعد أن يفرغ ما في جوفه . لكن موجة الزعيق اشتدت حتى صارت صراخاً متصلاً غير مفهوم . وكانت شفيقة قد قدمت من المطبخ ووقفت واجمة كغيرها والطبق بين يديها ، فلما أيقنت أن أمر الخال يسير إلى أسوأ وضعت الطبق وسط المجلس وصرخت في وجه نافذ : « استهد بالله يا أخي ، ارحم نفسك وارحم الولد . . . وارحمنا ! » . قالت شفيقة عبارتها بنبرة فيها من الاحتجاج اكثر مما فيها من الرجاء ، ثم اقتعدت الارض وراحت تبكي وتلطم خديها بصوت مسموع هذه المرة ، وهي تردد بنبرة نائحة : « ماذا جرى لكم يا أولاد عبد المجيد ! » . لقد اثر نواح شفيقة في الجميع ، فزاد وجومهم واشتدّ تصلب السحنات ، إلا في نافذ . فهذا الخال ، الحنون إزاء شفيقة في غير هذه الأحوال ، بدا ، إذ ذاك ، غير آبه باحتجاجها او بحزنها ، فواصل الزعيق ؛ لم يرحم اخته ، ولم يرحم نفسه ، ولم يرحمني ولا رحم احداً ، وكان من شأن ذلك ان أجج حنق شفيقة وكاد يودي بها الى الاغماء . الحقيقة أن الخالة استلقت على الأرض فعلاً ، وظهر تشنج أطرافها بوضوح ، وتحول نواحها الى حشرجة يقطعها ضيق التنفس .

هنا ، جاء دور الجدّة لتتدخل ، فوجهت لنافذ نداء حازماً : « بس ! إن لم ترحم نفسك ، فارحم هذه المسكينة ! » ، ثم أمرت الجدّة غالب بأن يناولها إبريق الماء الذي كان قريباً منه ، وراحت ترش القطرات على

وجه الخالة التي تتنفس بجهد شديد . وخلال ذلك ، وجهت الجدة نحو نافذ نظرة لائمة ، فصمت هذا ، فجأة ، وسربل الصمت المجلس كله .

كانت تلك هدنة ، فقط ، وقد استفدت من هذه الهدنة فانصرفت الى الداخل ، محتفظاً بانتباهي الكامل لالتقاط ما يجيء من ناحية السطح من نأمات . وكان صوت الجدّ هو أول ما اخترق الصمت ، وقد بلغني منه ما طلبه من نافذ حين نصحه بأن يأخذ الأمور بالرويّة ولا يحملها أكثر مما تحتمل . ثم تحدثت الجدّة ، فقالت إن الولد ولد ، وهو ، على كل حال ، لم يرتكب اثماً شنيعاً . ثم تحدث خالي عمر الحريص في العادة على تهدئة الامور دون أن يغضب نافذ او يظهر معارضة صريحة لمواقفه . بدأ هذا الخال بلفت نظر أخيه الى أن الزعيق لا يحلّ المشكلة ، ثم نصحه بأن يستدعيني ويكلمني بالحسنى ويبين لي ما يأخذه عليّ . وحين أوجز عمر رأيه ، صبّه في الاتجاه الذي يرضي نافذ ، دون أن يجاريه في القسوة عليّ ، فقال : « الشدّة مطلوبة مع الأولاد ، لكن شرط أن تؤدي الى نتيجة . وحين يعرف الولد خطأه فهو لن يعود اليه » . وبدا أن نافذ قد هدأ ، وقد اخذ يرد على محادثيه بصوت خافت . وتصورت أن حدّة العاصفة قد انكسرت ، وأن الأمر لن يعدو واحداً من هذه التحقيقات المتواترة التي أتعرض لها من وقت لاخر ، وهيأت نفسي للمواجهة على هذا الاساس .

في غضون ذلك ، وإذ لم يستدعني أحد الى المجلس ، رحت ، وأنا منزو في ركني في الحجرة الصغيرة ، أتشاغل بتقليب كومة الكتب والاوراق العائدة لي ، دون أن أوليها اهتمامي . وفجأة ، أحسست بأني أفتقد شيئاً هاماً اختفي من هذه الكومة ، ثم اتضح الامر لي بغير التباس : لقد اختفى ، حقاً ، كتاب المطالعة الذي استعرته قبل يومين من أحد الاصحاب ، والذي موهته ، كالعادة ، بغلاف كتاب مدرسي . كان الكتاب المختفي رواية مترجمة لم اعد اتذكر ، الآن ، عنها سوى عنوانها وهو « كيد النساء » . وكان بين أسباب عودتي المبكرة الى المنزل رغبتي في الاستفراد بهذه الرواية المشوقة لاتمّ قراءتها . وأدركت ان كومة كتبي قد

تعرضت للتفتيش ، دون ريب ، ولا بدّ أن يكون المفتش هو خالي نافذ ، فشحذت ذهني لأعرف ما إذا كان الخال قد وقع على اشياء اخرى محظورة غير تلك الرواية . وكان أخشى ما أخشاه ، في تلك اللحظات ، أن اكون سهوت عن أوراق عائدة للتنظيم وأن يكون الخال قد وقع عليها . فرحت أقلّب كومتي بعصبية ظاهرة واهتمام زائد واتفقد محتوياتها . ولم أكن قد اطفأت هواجسي ، حين استدعيت الى السطح مرة أخرى . دعاني الجدّ هذه المرة ، وكانت في صوته نبرة ملاينة .

استجبت للنداء بحركة وئيدة ، ووقفت بمواجهة الجالسين غير متجه لأحد منهم بعينه ، فوجهني الجدّ : « قبّل يد خالك ، واطلب منه السماح ! » . وكنت ، خلافاً للعادة المتبعة في الأسر التي مثل أسرتنا ، قد كففت عن تقبيل أيدي الكبار ، مستثنياً من ذلك الجدّ والجدّة وحدهما ، وذلك منذ هاجرنا من بلدنا . ولم يسبق لأي من خاليّ الكبيرين أن مدّ يده لي أو ألمح إلى رغبته في أن أقبل يده . ولهذا ، فاجأني طلب الجدّ ، لا لشيء الا لأنه غير مألوف ، فبدوت كأني متردد في الاستجابة له . ثم ظهر سبب آخر للتردد ، إذ لم يصدر عن الخال ما يدل على استعداده لإعطائي يده أو قبوله بتقبيلي لها . ولا بدّ أن نافذ أساء فهم ترددي فعدّه تمنعاً . وكان في هذا ما كفى لكي يغلي المرجل من جديد : « كيد النساء ؟ ما الذي تعرفه ، يا مسخ ، عن النساء ، لم يبق إلا هذا ، الم أقل لكم ، أفسد خلق الأرض ، أهل صفد هؤلاء ، لقد خرّبوا عقل الولد » .

بعد ذلك ، تدفقت الشتائم ، فطالت هايل وأهله وأبناء بلدته جميعهم . ولم أدرك سبب ربط الخال بين « كيد النساء » التي أفهم أن يغيظه وجودها مع كتبي وبين أهل هايل الذين يذكرهم الخال أمامي لاول مرة ، ولا كنت أعرف أن الخال تعرف على هؤلاء الأهل . وبحمية الولد المحاصر ، أطلقت العبارة الأولى التي اتفوه بها منذ وصلت الى المنزل : « ما دخل هايل وأهله ؟ » ، فكأنني اطلقت على الخال قذيفة متفجرة . لقد هبّ نافذ كالملسوع ، والتقط من كومة الاحذية المتجمعة بقربه فردة

كبيرة ، وانهال علي ضرباً بالحذاء الثقيل . فاجأني الهجوم . كان يكرّ كالاعمى ، والحذاء يحط على كل مكان في جسدي دون ؛ وكنت أتوقى الضربات باليدين وبالقدمين ، فلا ينجم عن ذلك إلا هياج المهاجم .

لم يستغرق هذا المشهد ، على الاغلب ، سوى ثوان معدودة ، فة جميع من في المجلس ، بمن فيهم غالب ، وتعاون هؤلاء ، فأبعدو عنّي . ووقفت الجدّة بأزائي وطوقتني بذراعيها وأخذت تواسيني . تأثير هذا المشهد عليّ كان هائلاً . فقد وجدتني أهان كما لم أه قبل ، لا لشيء إلا لأني أقرأ رواية يقرأها آلاف الناس غيري ، يتعرضوا للملامة ، أو لأني أعرف فتى من أسرة محترمة هو هايل .

كنت أرتعش في حضن الجدّة وانشج دون أن تسعفني الدمو تعرف أنت انها جفت في مآقيّ منذ سنين . وثقلت عليّ آلام ا والروح . واحسست بأني في دوامة تلفّني بعنف وتحجُب عني م حولي . لقد صرت ، كلّي ، في داخلي ، في دائرة محكمة من ا ولم أفق مما أنا فيه إلا حين بدأت أتحسس اللمسات الحانية التي تخ خالتي شفيقة بها . كانت الخالة قد أحضرت ماء وراحت تمسد بأصابعها الحادبة ، فيما تواصل الجدّة احتضاني ومواساتي . وكانت صامتة تسحّ من عيني الخالة دون انقطاع ، كما كانت تشنجات م ترعش أصابعها . وكانت الجدّة صامتة ، ولكنّ عينيها كانتا تر نظرات ملتهبة نحو نافذ ، بين فينة واخرى . وكان عمر مطرقاً اضطرابه بالعبث بحبّات مسبحة أمسك بها بين اصابعه . وانصرف الى ناحية منزوية على السطح فوقف مشدود القامة مولياً ظهره للمج أما الجدّ ونافذ فكانا يتبادلان حديثاً هامساً .

استعدت نفسي ، لكني لم أخرج من سهومي للتو . وتعذر ع افكر تفكيراً منتظماً أو أن أركز ذهني على نقطة بعينها ، اصطخب رأسي أفكار شتى ، دون أن أتوقف عند واحدة منها . صعب عليّ أ الإهانة ، لكني لم أجد الجرأة للرد عليها . ارهقت الآلام بدني ورو

لكني خشيت ، في الوقت ذاته ، أن أظهر بمظهر من يهدّه الألم . كنت أقرّ بأني خالفت تعليمات الخال فمن حقه ، إذن ، أن يحنق ، لكني لا أجد ما يقنعني بصواب هذه التعليمات ، بل أجد من الظلم أن الزم بها . وكنت أقدر حنو جدّي وخالي عمر عليّ ومحاولتهما التخفيف من سخط نافذ ، لكني كنت ، أيضا ، مغتاظاً من سكوتهما إزاء إقدامه على ضربي بالحذاء بحضورهما . وكان حقدي على الخال الذي اهانني طاغياً ، في تلك اللحظات ، ووددت لو أني قادر على أن أرد له الحذاء حذائين واشفي غليلي ، وازداد غيظي ليقيني من أني عاجز عن ذلك . وفجأة ، دنا غالب مني ، ومسّد رأسي ثم ربت على كتفي بحركة متعاطفة . هل أدرك الطفل الذي بقي في غالب ما يدور بنفسي فاشفق عليّ ، أم أنه شاء فقط ، أن يذكرني بحضوره ؟ لست أدري . والحقيقة أن هذا السؤال لم يرد في بالي آنذاك ، وأني لم أحمل حركته على محمل التعاطف ، في البداية . وكل ما تصورته أن غالب شاء أن يذكرني بأنه شهد ما تعرضت له من إهانة ، فوجدتني أنحّي يده بفظاظة وأزعق دون تبصر : « انصرف!» . لكني لم ألبث أن ادركت خطأ تصوري لدوافع الخال الصغير حين عانيت رد فعله على فظاظتي . فغالب ، الذي لا يفاجأ بسهولة ، لم ينصرف عني غاضباً ، كما توقعت ، بل اكتفى بسحب يده ، وقعد بجانبي صامتاً ، وفي قعدته تلك ، انتبه غالب الى أن الحذاء الذي ضربت به موجود على مقربة منه ، فالتقطه بيده . وبدل أن ينحي غالب الحذاء جانباً او يعيده الى كومة الاحذية ، راح يقلبه . واذ كنت ما أزال أسير تصوري بأن غالب يتصرف تصرف الشامت بي ، فقد وجدتني أندفع والتقط الحذاء بحركة متعجلة . فلما صار الحذاء في يدي ، وجدتني اقذف به ناحية الشارع . مستخدماً اقصى ما توفر لذراعي من عزيمة . هنا ، فقط ، اتضحت حقيقة موقف غالب ، فقد هبّ من مقعده والتقط فرده الحذاء الثانية والقى بها هي الاخرى باقوى ما استطاع ناحية الشارع ، ثم أمسك بي وأوقفني ووقف معي بمواجهة الآخرين .

مرة أخرى ، لا بدّ أن يكون خالي نافذ قد أساء فهم دوافعي حين

القيت الحذاء الى الشارع . ثم حين رأى وقفتي المتحدية أنا الذي رفضت أن استسمحه قبل قليل . وقد التقط الخال أقرب الأحذية اليه ، ونهض ، وفي هيئته ما يشي بأنه عازم على معاودة ضربي . عندها ، دون أن أدري كيف حدث ذلك أو لماذا ، وجدتني أفرّ من وجه الخال وأتجه الى الدرج المفضي الى الشارع . يقيناً إن الخوف من الضرب لم يكن هو دافعي الى الفرار . وأغلب الظن أن الرغبة في الخلاص من الموقف الشائك الذي وجدتني فيه هي التي وجهت خطابي . وقد هبطت الدرجات الأولى جارياً . فلما و جدتني على أول منعطفات الدرج ، وقفت لحظة ، وهتفت بما انطقني به مخزون الآلام المتراكمة : « هذي الدار ليس فيها مطرح ليتيم» . قلت هذه الكلمات ، ثم تابعت الهبوط جارياً إلى أن تسلمتني ظلمة الطريق .

ها أنت ترى أني هربت من المنزل ، دون أن أفكر بذلك مسبقاً . لقد تصرفت كسجين لاحت له فكرة الهرب في لحظة مواتية فافلت من السجن دون أن يحسب أي حساب للعواقب . فلّما احتوتني العتمة واكتنفتني هدأة الشارع الذي اوى ناسه الى منازلهم ، راحت السكرة ، كما يقولون ، وجاءت الفكرة ، فما الذي أستطيع أن أفعله في هذا الليل البهيم ! ؟ لو وجدت أقران السمر من أبناء الحيّ لانضممت اليهم . لكن الأسر التي استدعت ابناءها للعشاء احتبستهم ولن يظهر أحد منهم في الشارع حتى الصباح . ولو كان لي في المدينة أقرباء غير اعضاء الاسرة التي أفرّ منها ، لبادرت بالالتجاء اليهم . لقد قطعت هذه الغربة اللعينة الأوصال وباعدت بيني وبين الاقرباء الذين عشت معهم في القرية . وهل كنت ساتعرض لما القاه من ظلم لو أني كنت مع أمي وأبي أو لو أن جدي سلمان الذي يؤثرني على أولاده كان موجوداً ، أو لو أني كنت محاطاً بالعدد الكبير من الأقرباء الذين يحترمون سمعة أبي ويقدرون مكانة جدّي سلمان ؟

ومع هذه الافكار ، برز التساؤل عن الخطوة التالية ، فما الذي استطيع أن أفعله أنا الولد الذي فرّ من أسرته دون تفكير بالعواقب . هل التجيء

إلى أحد أصدقاء الاسرة ؟ خطر لي هذا الحل ، غير أني استبعدته ، ففيه تعميم للفضيحة ، وهو يعني ، فضلاً عن هذا ، أني اسلم نفسي لمن سيبادر الى إعادتي الى أهلي دون تردد ، وربما سيقرعني ويضع اللوم عليّ ، أيضاً . وإذ لم أكن أحمل في جيبي قرشاً واحداً ، ولا كانت معي اوراق تثبت شخصيتي ، فإن التوجه الى فندق . لم يكن وارداً في الحسبان .

وهكذا ، رحت أتجول على غير قصد في شوارع الحيّ وأزقته ، وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي . وكانت الفكرة الوحيدة العملية التي لا تفتأ تطرق هذا الرأس ، كلما نحيت فكرة غيرها ، أن أجرجر قدميّ ناحية المنزل وأصعد الدرج كما هبطته وأعود الى الأسرة ، فأعتذر عما بدر مني وأطلب السماح من الخال . ولكنّ عناد الولد منعني من أن أعرض نفسي لهذه المهانة .

وحين قادني التطواف غير المقصود الى الزقاق الذي يفضي الى حيّ « الشرف الأعلى » . حيث يسكن هايل ، تذكرت أن بأمكاني أن التجيء إلى هذا الصاحب واسرته الطيبة فصار لي قصد عزمت على بلوغه ، فنشطت خطاي ، غير أن هواجس جديدة داهمتني فبطأت سيري . فما الذي سأقوله لهايل ، هل أخبره بأني ضربت لاني أقيم علاقة معه ، اليس في هذا احراج لي وله ، وكيف افسر الأمر لاسرته ، وهل ستقبل الاسرة التي لها هي الأخرى تقاليدها ومكارم أخلاقها ان تؤوي إبناً فاراً من أهله ، أم أنها ستتصرف كما يتصرف سواها في هذه الحالة فتعيد الفار الى منزله؟ وبسيطرة هذه الهواجس ، عاودت التطواف على غير هدى ، وراحت الأفكار الجديدة تصطخب في رأسي بجانب الأفكار السابقة وتزيدني اضطراباً . ولاحظت أني ، منذ فكرت بالذهاب الى هايل ، ما أزال أطوف في الدائرة التي تحيط بحيّ الشرف الاعلى ولا أتخطاها . ووقفت لحظة ، جمدت خلالها حركتي واصطخاب الأفكار في راسي ، ثم حزمت أمري ، فاعجلت السير نحو منزل هايل ، وطرقت الباب بعنف ، كأني أخشى أن يعاودني التردد .

فتح لي الباب العم أبو وائل ، وكان على ما بدا لي ، قد عاد لتوّه من

دكان الخياطة . وإذ كان ترددي على المنزل في أوقات مختلفة أمراً مألوفاً ، فلم يفطن العم المضياف إلى أن في زيارتي هذه شيئاً غير عادي ، وقد رحّب بي بحرارة ، كما ألف أن يفعل في كل زيارة ، وصحبني الى الحجرة التي يشغلها هايل وأخوه مروان اللذان رحبا بي ، دون أن يفطنا لشيء . وقعد أبو وائل معنا فترة . قص علينا ، خلالها ، قصة تعرفه على الخال نافذ والحديث الذي دار بينهما بشأني . ولدهشتي الشديدة ، سمعت من أبي وائل رواية لا تتفق ، أبداً ، مع الحنق الذي تلبس خالي بسبب معرفتي بهذه الاسرة . فقد ذكر أبو وائل أن خالي ، حين عرف أني من رواد منزلهم ، بارك هذه العلاقة واشاد بمكانة الاسرة وسمعتها الطيبة وحسن اختياري لأصحابي . ووجدتني ، مرة أخرى ، إزاء تناقض المنطق الذي يحكم تصرفات خالي . فأمام الأغراب ، حرص الخال على أن يتصرف بما تفرضه آداب السلوك وأن يؤدي ما توجبه من مجاملات تجاه الاسرة التي تستقبل ابن أخته وتحتفي به . لكن هذا لم يمنع الخال من أن يعاقبني لأني أقمت علاقة مع هذه الاسرة . وبعد رواية ابي وائل وما أظهره من إعجاب بخالي ورغبته في تمتين العلاقة معه ، صار من المتعذر عليّ أن أقدم أنا روايتي عن الوجه الآخر من الصورة ، وقررت أن أكتم ما جرى ، ليس عن العمّ ، وحده ، بل عن هايل ، ايضاً . هنا ، ادعيت أني جئت من أجل التحية وتبادل حديث عاجل مع هايل حول شأن مشترك . ولما عرض عليّ العم أن أتناول العشاء ، صار عليّ أن أتابع ما بدأته ، فزعمت أني تعشيت للتو في منزلنا . ثم غادرت هؤلاء الناس الطيبين كي يتمكن هايل ومروان من الانضام لبقية الاسرة على المائدة ، إذ لو بقيت مدة أطول ، فيما لا تسمح التقاليد لغريب بمجالسة النساء ، لترتب عليهم أن يقسموا المائدة ويجيئوا بعشاء الأخوين الى الحجرة التي تضمنا . وهكذا ، ودعت على عجل ، وانصرفت .

مرة أخرى ، وجدتني في الشارع ، دون أن يلوح لي أي حل . فلم أجد أمامي بداً من أن أواصل السير على غير هدى . لقد راودتني من جديد ، بالطبع ، فكرة العودة الى المنزل ، غير أني نحيتها مرة أخرى ، وكان ما

عرفته من تناقض مسلك الخال قد قوى عنادي . وتابعت هيامي في طرقات دمشق . ما أصعب السير على غير هدى على ولد لا يجد له مأوى في مدينة كبيرة ، حين يتوجب ان يتجول في الليل وهو يتوهم ان كل عين تقع عليه تشك في أمره وتحزر أنه مشرداً كنت أعرف أن بإمكاني أن ألتجيء إلى الجامع الأموي حين يفتح الجامع أبوابه قبيل موعد صلاة الفجر . ففي رحاب الجامع الذي لا يكون مكتظاً في هذا الوقت ، والذي يكاد يخلو من الزوار بعد الصلاة ، أستطيع أن أنتحي زاوية غير مطروقة واسلم بدني للنوم . أما قبل ذلك فأمامي هذا الوقت الذي لا أعرف مقداره ولا كيف سأقضيه ولا ما الذي قد يقع لي خلاله . وإذ لم يكن لي أي هدف ، فقد حاولت أن أصطنع أهدافاً لسيري . فقررت أن أتجه الى المرجة حيث يمكن أن أعرف الوقت في ساعتها الشهيرة . وهكذا ، سرت في شارع الملك فيصل ، ومررت بجانب الأسواق التي تقوم في هذا الشارع أو تتفرع منه بدكاكينها المغلقة والظلام الذي يكتنف هذه الدكاكين . وحين وصلت الى المرجة ، رأيت أن الساعة لم تتجاوز العاشرة إلا بدقائق قليلة . وأجريت حسبة سريعة ، فادركت أن أمامي ما لا يقل عن أربع ساعات قبل أن أتمكن من الإيواء الى الجامع . هنا ، خطر لي أن أتابع السير في الاتجاه الموصل الى متنزه المنشية حيث يمكن أن أقضي بعض الوقت على كرسيٍّ في المتنزه . فسرت بمحاذاة ضفة بردى ، حيث تتجاور الخمارات والفنادق الرخيصة ذات السمعة السيئة . وقد ساءني أن أجد نفسي في هذا الجوّ المسكون بضجيج السكارى المنبعث من داخل الخمارات والأخيلة الشاذة التي تتلامح في هذا المكان ، فعجلت خطوي ، وجاوزت جسر فكتوريا ، ثم اتخذت طريقي على الرصيف الخالي في شارع شكري القوتلي ، وسرت ، متنبهاً ، الى أضواء السيارات ، ومحاذراً أن تقع عليّ عيون المارة . وبحذري وتهيبي ، وصلت الى مدخل المتنزه ، متعجلا فرصة الابتعاد عن الطريق العام . هنا ، كان على الأمل الذي هدهدته طيلة الطريق ان يخيب . فقد تبين لي أن المدخل قد سدّ بحاجز خشبي يمنع الدخول الى اللمكان في الليل . لم يكن الحاجز عالياً ، وكان من الممكن

أن اتسلقه ، كما كان من الممكن ، أيضاً ، أن اتسلق السور الذي يحيط به . والحقيقة أني فكرت بذلك . غير أن تواتر عبور السيارات بأنوارها الكاشفة والهواجس التي استولت عليّ خوفتني من أن حركتي سوف تكشف وتثير الشكوك وتعرضني للفضيحة . وقد خشيت ، أيضاً ، من أن يكون للمتنزه حارس يقيم فيه فيكتشف أمري . وهكذا أحجمت عن المجازفة . ولكي لا أعود من الطريق الذي جئت منه ، درت حول السور وسرت في الشارع الذي يصعد نحو مبنى مدرسة التجهيز الاولى أكبر مدارس المدينة وأشهرها ، ثم درت حول المبنى المهيب لأعبر الأزقة المتشعبة التي اسلمتني الى سوق ساروجة . هنا مررت بجانب مدرستي وتأملت بوابتها العالية التي كنت أراها ، لأول مرة ، وهي مقفلة . لكم تبدو الامور مختلفة في الليل ، خصوصاً حجوم الأشياء! واستغرقت في التأمل محاولاً تتبع النقوش المحفورة على خشب البوابة والتعرف على تفاصيلها وأشكالها دون أن يسعفني النور الضئيل المنصبّ على البوابة من مصباح الشارع في التحقق من شيء . وكنت أسير تأملاتي حين اخرجني منها وقع خطوات منتظمة قادمة نحوي . كانت تلك هي خطوات الحارس الليلي . ولم يكن هذا أول حارس أراه أثناء تجوالي ، لكنه كان الأول الذي اجتذبه وجودي في مكان لا يطرقه أحد في هذا الوقت . والحقيقة أني خفت ، فكيف سأشرح الامر لو طلب مني رجل الامن هذا شرحاً ؟! وقد أبهجني أن الرجل الذي خفف خطوه حين باراني دون أن يتوقف ، اجتازني واستعاد وقع خطواته المنتظمة دون أن يسألني عن شيء ، وقد واصل سيره الوئيد ، ولم يكن قد ابتعد حين سمعته يقول بنبرة مرنمة : : « يا ليل ، يا عالم الاسرار ، يا ليل ، يا ستّار ! » .

تابعت سيري حتى وصلت طلعة سوق الهال عند التقائة بسوق ساروجه . هنا ، في المكان المألوف بالنسبة لي ، رأيت ، على اليسار ، البقالية التي بدأت مشاكلي مع أهلي بسبب طيبة صاحبها . أما على اليمين حيث ينحدر شارع سوق الهال الفسيح ، فكانت اكوام البطيخ المتجاورة في عرض الشارع اميز ما يميز المشهد . وقد تجمع حراس هذه

الأكوام في حلقات وكانوا يتسامرون ويأكلون البطيخ . واجتذب مروري انتباه الحلقة الاقرب ، وطاردتني تعليقات متنوعة صدرت عن هذه الحلقة ، وكان منها تعليقات حملت مغزى قبيحاً لم يخطئه فهمي ، فحثثت الخطى لأبتعد باسرع ما أستطيع ، فطاردتني التعليقات الساخرة والضحكات الماجنة ، فتحولت الى الجري ، وظللت أجري الى أن ابتعلتني العتمة وأحاط بي السكون من جديد .

الى هنا ، كانت قدماي قد كلتا ، وكان الجوع الذي ذكرني به مشهد البطيخ قد أخذ يفتك بي بغير رحمة ، وكانت برودة منتصف الليل تفعل فعلها في بدني ، أنا الذي لا يرتدي الا البنطلون والقميص ذي الكمين القصيرين . ولم أجد في هذه البقعة ، من حيّ العقيبة ، المطرح الملائم الذي استطيع أن أقعد فيه للراحة دون أن أجازف باثارة حذر الحراس الليليين . كانت المساجد التي أعبر بقربها مقفلة ، والحوانيت والدور متصلة ببعضها ، فليس بينها فجوات أتوارى فيها عن العيون ، ولم يكن هناك متنزه أو حديقة . والمكان الوحيد الذي يمكن التواري فيه كان مقبرة الدحداح التي غدت قريبة . وقد عنّ على بالي أن أتوجه الى المقبرة التي أعرفها جيداً . وما كان عليّ إلا أن أنعطف ناحية اليسار ، وامشي قليلاً فانعطف ناحية اليمين لأبلغ المقبرة من الجهة المقابلة لجهتها التي تطل على منزلنا . وهنا يمكن أن أجلس أو حتى أن اتمدد بين غابة القبور التي تضمها هذه المقبرة . وقد فعلت هذا ، ووجدتني في نهاية المطاف بجوار الأموات . اخترت أن ألج المقبرة من اكثر مداخلها بعداً عن المكان الذي يقيم فيه حارسها . ثم أخترت فسحة بين قبرين مرتفعين مجللين بالرخام ، فاسندت ظهري على أحدهما واقتعدت الارض ومددت ساقيّ .

في تلك اللحظات ، كان راسي خالياً من الافكار ، وما كان يشغلني إلا حاجة البدن للدفء والنوم والطعام . وكان متعذراً أن أجد الدفء بين القبور أو أن أحظى بوجبة طعام وأنا ضيف على الأموات ، فأملت بأن اظفر بغفوة . حاولت أن أنام . غير أن برودة الرخام الذي أسندت ظهري إليه اخترقت عظامي ، فابتعدت عنه وتمددت بكليتي على الأرض العراء بين

القبرين . وغلبني النعاس فغفوت لبعض الوقت ، غير أن صلابة الأرض ورطوبتها لم يلبثا أن اقضا مضجعي ، فجافاني النوم بالرغم من حاجتي الشديدة له . وعدت الى وضعي السابق ، فتكررت الحكاية . ثم داهمني المغص الذي هيجه البرد والجوع . وفكرت بأن أغادر المكان ، الا أن افتقاري لهدف آخر اتوجه إليه أمسكني ، ورحت أزجي الوقت بين التمدد والقعود والوقوف أو المشي ، غير قادر على الحسم . ثم وقع أمر طارىء ، فقد اجتذبت إنباهي حركة جماعة من الناس مقبلة نحو المقبرة . ولما أمكن أن أتبين هيئات القادمين ، اتضح أنهم ثلاثة رجال يدخلون من الباب الذي دخلت منه ، حريصين على عدم إثارة الضجيج ، وهم يبحثون عن مكان يختلون فيه . وراقبت القادمين فرأيتهم يتوجهون الى ناحية غير بعيدة عني ويقعدون بين قبورها . لقد غابت أجسادهم عنّي دون أن يغيب الهسيس المتسلل من تلك الناحية . واتقدت هواجسي ، فمن هم هؤلاء ؟ قد يكونون ناساً بلا مأوى التجأوا ، مثلي ، الى المقبرة! وقد يكونون من الناس الذين اسمع الحكايا عنهم ، ممن يقصدون الاماكن غير المطروقة ويتعاطون المخدرات أو يمارسون انواعاً اخرى من الموبقات ، وقد يكونون من لصوص القبور ، أو من طريدي العدالة ، أو أي شيء آخر . المهم أن وجود هؤلاء الثلاثة على مقربة مني أفقدني الإحساس بالامان ، فقررت أن أغادر المكان . وكل ما شغلني ، في تلك اللحظة ، هو التوصل الى طريقة أبتعد بها دون أن أجذب الإنتباه . وبدأت انسحابي متسللاً ، وأنا أسير على ركبتيّ وراحتيّ كفيّ ، واكتم آلام الوخزات التي اتعرض لها . ولما قدرت أني أبتعدت بما فيه الكفاية ، أو قل : لمّا ضقت بالألام ، نهضت وأطلقت ساقيّ على مداهما الواسع . وكان في هذا ما نبه الجماعة الى وجودي ، فاطلقوا ، بدورهم ، سيقانهم على أمديتها وجروا في الاتجاه المعاكس . وبالرغم من أني استشعرت فرارهم فاني لم أطمئن ، وظللت أجري إلى أن بلغت الشارع الذي يقع منزلنا فيه ، دون أن أعي أني توجهت نحوه .

في تلك اللحظة ، وأنا أسير كل تلك المشاعر المحبطة ، داهمني الإحساس بالاستعداد للاستسلام والعودة إلى الأسرة صاغراً ؛ لم يغب

عن بالي أي شيء مما يفرضه كبرياء الطفولة وعنادها ، إلا أن حاجتي إلى الأمان والراحة والدفء والشبع والإلفة كانت هي الأقوى . ولم أتردد ، فاجتزت الأبنية الثلاثة التي تفصل بنايتنا عن المقبرة بأسرع ما أستطيع ، مصمماً على أن أنفذ ما اعتزمت عليه . لكن باب المدخل كان مقفلاً ، وهذا أمر لم أضعه في حسابي ، فأنا لم أتأخر في العودة الى المنزل في أي وقت سابق إلى الساعة التي يقفلون فيها باب البناية . وأن اطرق هذا الباب كان يعني أن أتسبب في فضيحة ؛ وأن أزعق فمعناه أن تجلجل الفضيحة قبل أن أدخل . وراودني الأمل بأن يكون النوم قد جافى أحداً من أعضاء الأسرة فخرج إلى السطح . فبهذا الأمل الغامض ، ابتعدت عن المدخل ، ورحت اتمشى في مكان في الشارع يمكن للواقف على السطح أن يراني فيه . وأرسلت الى السطح نظرات متعاقبة ، فلم تقع إلا على السكون والعتمة اللذين يلفانه . وقررت أن أواصل الترقب لعل شيئاً ما ينبثق من العتمة والسكون . ولكن ترقبي هذا قطعته حركة بدرت من الطابق الارضي . ففي هذا الطابق ، مما يلي الشارع ، حجرتان تستأجرهما أسرة فلسطينية يعيلها موظف في مرتبة دنيا في الاونروا . وكان هذا الرجل ، واسمه أبو زياد ، يتسم على العموم بطيبة زائدة ، إلا أن فيه خصلة نفرت سكان الحيّ المحافظ منه ، فقد كان سكيراً . ولأن موارد الرجل لا تأذن له بالتردد على الحانات ، فقد كان يشرب في المنزل ، يعود من العمل ومعه الزجاجة ، ويظل يشرب حتى ينطفىء فينام ، ليعيد السيرة ذاتها في اليوم التالي . لم يكن أبو زياد ، هذا ، ليؤذي أحداً ، لكن خالي كان يحظر علينا أن نقيم أية صلة معه . ومن الحجرة التي ينام فيها أبو زياد . أنبثق الضوء ، فجأة ، فدنوت من النافذة وسمعت وقع خطوات اتجهت الى داخل الطابق ثم عادت إلى الحجرة ، فقدرت ان الرجل اتجه الى المرحاض وعاد منه . وراودتني نفسي أن أدق على النافذة واطلب فتح الباب ، لكني تهيبت في اللحظة الأخيرة من موقف خالي نافذ الذي لن يستسيغ عملاً أقوم به أنا ويؤدي إلى اقحام رجل يكرهه هو في شؤوننا ، فلجمت رغبتي ، ثم طويتها كلية ، حين انتهى إليّ شخير الرجل الذي غرق في النوم .

وكان من شأن هذه الحركة أن اعادت لي تهيبي كلّه ، فقررت أن أصرف النظر عن العودة المهينة الى المنزل ، وتابعت تجوالي في الطرقات ، من جديد . غير أني وضعت لنفسي ، هذه المرة ، أهدافاً أتجه اليها ، لا لشيء الا لأسير على هدى ، فلا تثير خطواتي المترددة شكوك الحراس . وهكذا ، اتجهت نحو حيّ « باب السلام » ، الى سوق الدباغة ، واقنعت نفسي بأن من المفيد أن اتعرف على موقع الدكان التي يملكها صاحب منزلنا أبو حسني . وعبرت شبكة الأزقة التي يسلمك أحدها للآخر . في هذا الوقت من الليل تقع العين في الطرقات الخالية على عابرٍ هنا ، وآخر هناك ، من المتجهين الى الدكاكين التي تبدأ العمل باكراً . وقد تقع على دكان مفتوحة . فهناك دكاكين بيع الحمص والفول والنيفة ، والأفران ، والعاملون فيها يأتون اليها منذ منتصف الليل ليحضروا بضاعتهم التي يتوافد اوائل الزبائن لشرائها بعد صلاة الفجر . وحين تكون مثلي متشرداً في هذا الليل ، فلا بدّ أن تحسّ بالتعاطف القوي مع الناس الذين يحرمهم الجري وراء الرزق من متعة النوم . في باب السلام ، لم أهتد الى دكان أبي حسني فأتجهت ناحية « باب توما » ، ثم عبرت الزقاق الطويل الملتوي المفضي الى الحريقة ، وانعطفت في الشارع الطويل المتصل بسوق مدحت باشا والمفضي الى البزورية . وكانت حركة ما قبل الفجر قد نشطت في وسط المدينة هذا وأخذت أنوار مؤنسة تشع من دكاكين باعة السحلب والحبوب المحلاّة ، كما أخذت نداءات هؤلاء المنغمة والأدعية التي يوجهونها الى ربّ السماء بأمل أن يرسل عباده لشراء بضاعتهم ، تتمدد في الفضاء .

كان لا بدّ من أن أستنتج ، مع هذه الحركة الناشطة ، أن الجامع الأموي فتح أبوابه ، وكنت ، على كل حال ، متعباً ، وقريباً من الجامع ، فتوجهت اليه . كان باب الجامع الجنوبي الذي ينفتح على سوق الصاغة والبزورية مقفلاً ، فدرت دورة قصيرة أوصلتني إلى الباب الغربي . هنا ، كان حارس يعرفني قد فتح الباب لتوّه ، ولا بدّ أنه فوجيء بأن يراني أول الوافدين . وقد استقبلتني نظرات فيها شيء من الإندهاش وكثير من الأنبهار بهذا الولد التقيّ الذي يسبق كبار السنّ الى بيت الله هذا . ومع

النظرات ، ردد الحارس عبارات مشجعة . لكن هذا كلّه اربكني بدل أن يشدّ من عزيمتي . ولم أعرف كيف أرد على عبارات الحارس ، فاجتزته متعجلاً الولوج الى الحرم . وكانت أنوار المصابيح وثريات الكريستال البديعة التي تتوزع في أرجاء الحرم تغمر هذه الارجاء بالنور الذي شملني بدفئه وسطوعه وانتشلني من حالة الضياع التي كنت فيها . ثم لم يلبث أن أخذ المواظبون على صلاة الفجر في موعدها بالتوافد على الجامع . كان هؤلاء خليطاً من النساك والدراويش والباعة ورجال الدين الذين يقطنون قريباً من الجامع أو يشغلون حجرات المدارس الدينية المحيطة به : يأتي الواحد من هؤلاء بخطى وئيدة ، ويتجه الى ركنه المختار في الحرم ، فيجلس مع مصحف يقرأ فيه ، أو يستكين منصرفاً الى التأمل أو ترديد الأوراد التي يحفظها . اما أنا فقد اخترت ركناً منعزلاً أعرفه جيداً في ناحية الحرم الشرقية ، وهناك ، مددت بدني على السجادة الوثيرة ، غير عابىء لشيء ولا راغب في شيء سوى الراحة ، وغرقت في النوم فوراً .

ولا بدّ أن أكون قد نمت قرابة ساعتين حين أيقظني الخادم الموكّل بتنظيف هذه الناحية من الجامع . لم يشتبه الرجل بوجود شيء غير طبيعي في وضعي ، ولا بدّ أنه ظن أني غفوت بعد الصلاة كما قد يحصل لأي انسان ، وأعتقد أنه يفعل خيراً إذ يوقظني لأنصرف الى المشاغل التي ينصرف اليها الناس في الصباح . كانت شمس ذلك اليوم الصيفي قد غمرت كل الارجاء بأشعتها المتسربة عبر عشرات النوافذ منذرة بقدوم يوم آخر قائظ . وكان الجامع قد خلا إلا من خدّامه والقليل من المتعطلين . وإذ لم أكن قد نلت حاجتي من النوم فقد بقي ذهني مشتتاً ، وانضافت آلام الجوع فجعلتني مضيّعاً تماماً . وما الذي يستطيع مثلي أن يفعله في وضع كهذا الوضع ؟ والحقيقة أني حرت ، وبدا أني قد اسقط في النوم ثانية . ولعل هذا هو ما انتبه اليه الرجل الذي أيقظني ، فقد هتف بنبرة محرضة : « نوم الضحى يقطع الرزق ، قم الى شغلك يا ولدا» . ولم يكن ، بعد ، بدّ من أن أقوم ، فنهضت متثاقلاً ، وتوجهت الى المتوضأ ، وهناك غمرت وجهي غمراً بمائه البارد مستجلباً بعض الصحو

ومؤملاً في أن أحصل على صفاء الذهن . وفي غضون ذلك ، قرّ قراري على أن أذهب الى هايل ، قبل أن أتوجه للعمل ، فاصارحه بما جرى لي والتمس عنده ما يهدىء آلام الجوع . وهكذا ، غادرت الجامع بخطوات عازمة ، واخترقت جلبة الصباح المهيمنة على حيّ العمارة .

فتح هايل نفسه الباب ، ووشت نظرته والطريقة التي استقبلني بها بأنه يعرف شيئاً ، لكنه لم يتطرق للموضوع ، بل اقتادني الى الحجرة حيث كان فطوره ، هو ومروان ، معداً ، ودعاني الى تناول الطعام ، فلما ظهر عليّ شيء من التردد قال هايل بنبرة حاسمة : « لا تكابر ، كل ، أنت لست غريباً بيننا!» . وكان في هذا القول ما يكفي لإقناعي بأن هايل قد عرف ما جرى . ولم أشأ أن أفتح أنا الموضوع ، فأنكببت على الطعام ، بانتظار أن يفتحه هايل . وفيما رحت الوك اللقم ، التقطت عيني النظرات التي تبادلها هايل ومروان ، فأدركت أن مروان عرف هو الآخر ، وأن هذا الأخ الصغير يشفق عليّ وكنت أضيق بالشفقة ضيقاً لا أستطيع مغالبته ، فغصصت باللقمة التي كانت في حلقي ، وبذلت جهداً ملحوظاً كي أتمكن من ابتلاعها ، وغمرني إحساس كريه بالمهانة . غارت الشهية وبطؤ إقبالي على الطعام ، وصار عليّ أن أغالب ارتعاشات متتالية راحت تهز بدني كله . وقد التقط الصديق المتفهم معاناتي ، وملأ كوبي بالشاي ، وقال بنبرة ودودة : « إشرب ، الشاي ينعشك ! » ، ثم ملأ كوبه وكوب أخيه الصغير ، وراح يترشف شايه بتؤده ، وكل ما فيه يوحي بأنه ينتظر أن أفرغ من وجبتي قبل أن يشرع في الحديث .

بدأ هايل حديثه فور خروج مروان من الحجرة : « أمس ، بعد أنصرافك ، جاء جدّك وخالاك الكبيران ، كانوا يبحثون عنك وكانوا قلقين ، حكى خالك نافذ أشياء كثيرة ، لكنّي لم أفهم ، إنهم يحبونك ، دون شك ، لكنّ لهم عقلاً ، كيف أقول ، أنت تعرف فلا لزوم للشرح . والآن هيء نفسك للعودة الى المنزل ، عمّي أبو وائل وعدهم بأن يحضرك حين تجيء الينا ، وهو جاهز» . ومن حديث هايل ، عرفت أنهم ، في المنزل ، أرسلوا غالب ليعيدني بعد أن غادرتهم غاضباً . فلما لم يعثر

غالب علي ، انطلقوا جميعهم للبحث عني وتوزعوا في اتجاهات عدة ، ولما اعياهم البحث ، جاءوا الى هنا مؤملين ان يجدوني .

وددت لو احكي بدوري ، غير أن شيئاً في داخلي لجم لساني ، فلم أزد على أن أصغيت لهايل محتفظاً بصمتي التام . ولم يطالبني هو بأي شرح ، وكان هذا سلوكاً أريباً منه . وأدركت أن عليّ أن أتخذ قراراً ، وأن خياري الوحيد هو العودة الى المنزل . لكن ذلك حزّ في نفسي وزاد في تكبيل لساني . كان هايل يتأملني ولسان حاله يقول إنه ينتظر أن يعرف ما الذي عزمت عليه . وحين وضعت نظراته هذا السؤال أمامي بوضوح ، قلت بعناد طفل يعرف أنه أسقط في يده : « سأذهب الى دكان الورق ، ولو كانوا جادّين فهم يعرفون الدكان » . التقط هايل من هذه الاجابة ، بالطبع ، ما كان حريصاً عليه وهو موافقتي على العودة الى المنزل . وحين قال هايل : « أنت نبيه » ، فهمت أنه موافق على خطتي ، وأسعدني ذلك .

هتف الرجل البدين حين ولجت مدخل الجحر : « ها هو قد جاء ، الحمد لله! » . وكان جدي عبد المجيد يجلس في قعدة غير مريحة فوق لفّة الورق القائمة في ركن الجحر ، وعصاه ، التي لم تعد تفارقه منذ أقام في دمشق ، منتصبة بين يديه . ولكم بدا هذا الجدّ حزيناً ومهموماً في تلك القعدة! كانت تعابير الوجه منطفأة ، وقد أضفى نور المصباح الكهربائي الشحيح مزيداً من الشحوب على هذه التعابير . فداهمني الاحساس بالذنب ، ووجدتني اندفع ناحية الجدّ ، واركع على ركبتيّ وأدفن وجهي في حجره ، وأنشج وأختلج وأنا أتمتم : « سامحني يابا ! » .

يبدو أن جدي فوجيء بالمسلك الذي لم يتوقعه من ولد عنيد ، فلم يدر كيف يتصرف للوهلة الاولى . لكنّ عاطفة الجدّ المختزنة لم تلبث أن تدفقت ، فأخذ يمسد راسي بيديه ، ثم لم يلبث أن نشج ، هو نفسه ، وهو يردد : « هكذا أنتم يا أولاد سلمان ، لا تضعونها واطئة لأحد ، حتى لأقربائكم ! » . وبدا الجدّ ، مع هذا سعيداً ، وقد وقف وأوقفني إزاءه وأخذ يتأملني : « أنت بخير ، وهذا من فضل الله » . ثم ناولني الجدّ صرة :

« جئتك بهذه ، أرسلتها لك أم عدنان ، كل ، لا بدّ أنك جائع ! » .
ووجدتني أقول ، راغباً في تطمين الجدّ القلق ، ليس غير : « أنا شبعان» .
ثم تناولت الصرة .

تحادث جدي مع ربّ عملي ، وكان الحديث موجهاً لي أنا الآخر .
واقترح الجد أن أعمل ذلك النهار لبضع ساعات ، فقط ، وقال انه سينصرف لقضاء بعض الحاجات ثم يعود في الظهيرة ليصحبني بنفسه الى المنزل . وقد وافق الرجل الكسول دون ممانعة ، بل إنه مضى لأبعد من ذلك فعرض أن يصحبني الجد منذ الآن .

ومع انتصاف ذلك النهار ، كنت ، وراء الجدّ ، أصعد الدرج الذي هبطته ليلة أمس .

١١ هروب آخر من الاسرة، ثم عودة بلا قناعة

هذه الحادثة تبعتها فترة سلام أشبه ما تكون بالهدنة . لم يبدل خالي المتشدد طبعه ، لكنّه اضطر لأن يأخذ طبعي العنيد بعين الاعتبار . وإذا كان الخال قد بقي هو الأقوى ، فقد كسبتُ أنا ، على كل حال ، نقطة . ثمّ إن الاسرة كلّها انشغلت ، بقية ذلك الصيف ، بسلسلة من الأحداث المتتابعة مما ليّن مراقبة الخال لسلوكي وقلل فرص الإحتكاك بيننا .

بدأ الأمر بالمشكلة التي واجهها الشقّ الآخر من الاسرة . فقد أعلن حيدر ، شقيق أم عدنان ، رغبته في الزواج وحاجته للسكن وحده في المنزل . كان حيدر بحكم الشرع هو وارث نصف المنزل فيما تقاسمت ام عدنان وشقيقتها ام وليد نصفه الآخر . وكان الأخ ، بهذا ، صاحب الحق الأول بالإستفراد بالمنزل المشترك ، مع استعداده لترضية الأختين ، إما بشراء حصتيهما أو بدفع أجرة لهما . المهم أن الأسرة توجب عليها أن تبحث عن مسكن جديد . وكان من شأن هذا ، بحكم ارتفاع أجور

السكن ، أن يفرض أعباء مالية جديدة ، ويقتضي إعادة توزيع دخل الاسرة بين شقّيها المنفصلين ، الأمر الذي يؤدي الى مزيد من التضييق على الجميع .

والحقيقة أن أمّ عدنان ، المخيّرة بين أن تبيع حصتها أو تؤجرها لأخيها ، آثرت البيع ، فأملت في الحصول على مبلغ من المال تشتري ببعضه ماكينة خياطة وتحتفظ ببقيته كاحتياطي لأيام أقسى قد تجيء . وأبلغت أم عدنان إلى الأخ رغبتها في البيع ، فاتضح أن حيدر لا يملك المال الكافي وأنه حين عرض الشراء كان قد بيّت أمراً ، ثم صمم على أن يقتطع من الثمن المتوجب عليه دفعه المبالغ المتراكمة له في ذمة الاسرة . ودخل الجميع في حسابات شاقة ومعقدة . وفي المحصلة ، ظفرت أم عدنان بماكينة الخياطة وحدها ، أما الأمور الأخرى فلم يتضح لي كيف جرت تسويتها . في غضون ذلك ، نشط البحث عن منزل للإيجار . ولم يكن الحصول عليه سهلاً ، ولا أمكن تدبير الأجرة المطلوبة إلا بعد نزاعات داخل الاسرة بشأن اعادة توزيع الدخل . وبعد بحث عسير ، وقع الجدّ على شقة في بناية جديدة ، في زقاق القاري بجوار مدرسة مكتب عنبر الشهيرة .

كان صاحب البناية وهو من آل القاري الدمشقيين يملك داراً من الطراز العربي فسيحة ، فاقتطع جانباً من الدار واقام عليه هذه البناية ليستثمرها في زيادة دخله ، وكانت هي البناية الوحيدة الحديثة في الزقاق كلّه ، وقد ميزها لونها الابيض عن الدور الطينية المحيطة بها والوانها الكامدة . وقد قسم الطابق الارضي الى محلّين تجاريين ، فاستأجر صانع أثاث احدهما وجعله مشغلاً للموبيليا ، وأستأجر الثاني بائع مرطبات . أما « النصاصي » ، وهي ، في العادة ، طابق قليل الارتفاع يلي الطابق الارضي ، فقد استأجرها صاحب المطبعة التي تشغل قبو البناية ، وجعلها مستودعاً للورق والكتب . فوق ذلك ، ضمت البناية طابقين ، فيهما أربع شقق ، وملحقاً أقيم على جانب السطح ، فيما ابقى الجانب الآخر للاستخدام العام . وقد استأجر الجدّ شقة في الطابق الذي يعلو النصاصي وهو معدود الطابق الثاني في البناية . وفي هذه الشقة ذات

الأمتار المربعة الخمسين . أقام الجدّ وأم عدنان وأولادهما الذين كانوا قد صاروا ، في ذلك الوقت خمسة . واحتاج الأمر ، بالطبع ، الى نفقات إضافية وشراء أثاث جديد ، مما فاقم الهموم المالية للاسرة وأثار مزيداً من المنازعات بين شقّيها .

وكانت ذيول هذه المشكلة ما تزال تسحب آثارها السلبية ، حين برزت مشكلة أخرى هددت وجودنا في الملحق وأوجبت علينا أن نبحث نحن ، أيضاً ، عن مسكن جديد . هذه المشكلة سببها غالب ، أو قل : إنها بدأت قبل ذلك ، ثم فعل غالب ما أدى الى استفحالها .

لم نكن مرتاحين في سكننا في الملحق . كنّا ، نظرياً ، مستأجرين لمنزل مستقل ، وكنّا ندفع أجرة تفوق ما تستحقه حجرتا الملحق الصغيرتان ، ثمناً للاستقلال في السكن . أما عملياً فإن اقامتنا في الملحق اقترنت بمنغصات كثيرة من تلك المنغصات التي تسمم حياة سكان المنازل المشتركة . فملاك الطابق الارضيّ كانوا ، كما عرفت ، يؤجرون اثنتين من حجراته ويحتشدون بعددهم الكبير في بقية الطابق . ولم تكن المساحة المتوفرة لهؤلاء كافية لانشطتهم الكثيرة المتنوعة ، فكانوا يستخدمون الفضاء الملحق بالطابق ، والذي تطل عليه نوافذ الشقق الأعلى والأبنية المجاورة ، للقيام بعدد من هذه الأنشطة . كانت نسوة هذا الطابق يغسلن الملابس في الفضاء ، يسخّن الماء على نار الحطب ، فيصعد الينا الدخان الممزوج بضجيج النسوة ، فنضطر إلى إغلاق النوافذ أو نتحمل الإزعاج . وكانت عملية الغسيل تفرض على النسوة أن يتخذن أوضاعاً تضطر الواحدة منهن الى الكشف عن اجزاء من بدنها لا تكشفها المرأة المحافظة أمام الغرباء . وكان يحدث أن يتلصص هذا أو ذاك من الرجال في الجوار على جمع النسوة ويكتشفن أمره فتثور المشاجرات ويشتد التصايح . وكان كل رجل في الجوار معرضاً للإتهام بالتلصص وبالتالي للفضيحة . وكانت بين نسوة الطابق عانس معقدة ، تجاوزت سن الشباب دون أن تبلغ السن الذي تكفّ المرأة فيه عن إثارة الضجيج حول جسدها . هذه العانس كانت مصدر معظم المزعجات التي يتعرض لها الجيران . فهي تقضي معظم وقتها لائبة

في الفضاء أو مضطجعة في ركن من أركانه ، وتظل تتطلع الى أعلى لتتأكد من أن أحداً من الجيران لا يراها . وكانت هذه العانس تنفجر بالصراخ اذا لمحت أحداً . وكان الصراخ يسلمها الى نوبات تبدأ بالتشنج وكثيراً ما تنتهي بالإغماء . وكان هذا يتكرر كل يوم ، تقريباً ، وربما وقع أكثر من مرة في يوم واحد . وكان في هذا الطابق ، أيضاً ، رجل مسنّ هو الأب أو الجدّ ، وهو إنسان شديد الإنطواء على نفسه وقليل الاهتمام بالآخرين . وقد امتهن هذا العجوز مهنة يمارسها في المنزل فيزعج بها كل من يحيط به ، وهي مهنة غريبة مثل صاحبها . ويبدو أن الرجل كان قصاباً في وقت من الأوقات ، ثم فقد دكانه لسبب أو لآخر فاختار تجارة بسيطة لكنها قذرة ، إذ كان يدور على دكاكين القصابين في السوق العتيق فيشتري ما يفيض من شحم الذبائح الذي يكون الفساد قد بدأ يحلّ به ، يدفع الرجل في هذا الشحم أبخس ثمن ويجيء به الى المنزل ويخلطه بأشياء لا ندري ما هي فيستخرج نوعاً من السمن ثم يحمل مستخرجه هذا ويبيعه في القرى الفقيرة .

أما العذاب فكنا نتعرض له أثناء عملية إذابة الشحم على النار التي يوقدها العجوز في فضاء البناية . كان الأمر اشبه بمحرقة للجثث المتفسخة ، وكانت الرائحة التي تصعد من أرض الفضاء الى أنوفنا تحدث فينا تأثيراً لا يوصف . وكانت هذه المعاناة الفظيعة تتكرر مرة أو مرتين في الاسبوع ، حسب أحوال السوق ، وتدوم في كل مرة بضع ساعات . وقد حاول أهلي أن يحملوا العجوز على التوقف عن تجارته السامة هذه ، أو أن يقوم بالعملية خارج المنزل ، فلم يفلحوا ؛ بدأوا معه بالحسنى ، فلم يستجب ، وهددوه بالشكوى عليه الى السلطات فلم يرتدع . ثم اتضح أن أبا حسني ، صاحب ملحقنا ، قد حاول قبلنا أن يوقف العملية وهدد العجوز بما هدده أهلي به . لكن ، اتضح ، أيضاً ، أن صاحب الملحق عاجز عن تقديم الشكوى ، فهو نفسه أقام الملحق الذي نستأجره بغير ترخيص من السلطات وقد هدده صاحب الشحم الزنخ بالشكوى عليه لو تدخل في شؤون رزقه . وغني عن القول إن ما ردع أبا حسني عن الشكوى ردعنا عنها ، أيضاً .

أما الطابق الذي يشغله أبو حسني وأسرته ، فقد طالتنا منه مزعجات أقلّ وإن كانت من النوع المغيظ . كان ربّ الاسرة ، كما ينبغي أن يقال ، شديد الإستقامة حريصاً على عدم الحاق الأذى بأحد ، وكان ، من هذه الناحية ، مثالاً للجار الطيب الذي يراعي حرمة الجيرة ويؤدي حقوقها . أما المزعجات فقد نجمت عن تشبث هذه الأسرة الكامل بالتقاليد المحافظة . ولما كانت هذه الأسرة تستخدم السطح الذي يمتد حول ملحقنا كمنشر وكمكان للسمر في ليالي الصيف والاستدفاء بالشمس في أيام الشتاء ، ثم لما كانت نساء الأسرة حريصات على عدم الظهور أمام الرجال الغرباء ، فقد أوجب هذا وذاك على رجال أسرتنا وزوارها من الرجال أن يغادروا مجلسهم على السطح كلما احتاجت زوجة أبي حسني او واحدة من بناته للظهور على السطح . وكان هذا يبلبل مجرى حياتنا المألوف ويعرضنا للاحراجات أمام زوارنا .

هذه المنغصات وأمثالها كانت تطرح ، بين وقت وآخر ، فكرة البحث عن سكن جديد لأسرتنا . لكن الفكرة كانت تطوى أمام معرفتنا بمصاعب الانتقال ونفقاته ، لتظهر من جديد كلّما اشتدّ الكرب . ثم جاءت فعلة غالب فحسمت الامر .

كان غالب بصاصاً على النساء ، يستمتع بالتلصص ولا يردعه عرف أو تقليد أو استنكار ، ولا يخجله التقريع الذي يتعرض له . بل إن غالب الذي تطارد عيناه النساء بصفاقة ، كان يبتهج حين تظهر المستهدفات استياءهنّ ، ويجعل من الحكاية طرفة يلوكها ويتندر بها . وكانت ابنتا صاحب الدار تدرجان نحو الفتوة وتتفتق اعضاؤهما عن هذه الانوثة التي تصطخب تحت ثياب البنات وتشي بها حركاتهن والتفاتاتهم وتعابير الوجوه . وقد تحلت إحدى البنتين ، وهي الاصغر ، واسمها مريم ، وكانت من مجايليّ ، بطبع مرح وروح سمحة . وكانت مريم صديقة حميمة لخالتي شفيقة ، فهي تتردد على الملحق باستمرار وتتصرف ببساطة وانطلاق وتصد تحرشات غالب بها دون أن تجعل منها حكاية . أما البنت الثانية ، واسمها أمينة ، فكانت على النقيض من الاولى تماماً . فهي ذات

طبع كئيب وروح دائمة التذمر ، يسوءها ما لا يسوء غيرها وتشكو حتى مما لا يشكو منه أحد . هذه البنت صارت هدفاً لغالب ، حفزه نفورها منه على الإمعان في مناكفتها ، وكان يفعل ذلك كلما لاحت له فرصة أو كلما تمكن من اختلاق فرصة . وكانت هي دائمة الشكوى من المضايقات التي تتعرض لها ، تشكو الأمر لأهلي وتشكو لأهلها ، فتتكرر المشاكل بين الجانبين . ولم تفلح ملاحظات الأهل في ثني غالب عن مضايقة إبنة الجيران . وانتهى أهل البنت الى التشدد في منعها عن المجيء الينا أو الظهور في الأماكن التي يحتمل وجود الولد المعتدي فيها ، فقلت فرص غالب للتحرش بالبنت وكدنا ننسى الحكاية .

وفي يوم من الأيام ، جاءت البنت الى السطح لنشر الغسيل وهي تظن ان منزلنا خال بينما كان غالب ، في حقيقة الأمر ، الوحيد الموجود في المنزل . وقد روّت أمينة أن غالب فاجأها بظهوره بجانبها ودعاها للإختلاء به ، فلما رفضت دعوته ، حاول جرها بالقوة .

ثارت ، بالطبع ، ثائرة ابي حسني . وأعلن الحرب ليس على غالب ، وحده ، بل على الاسرة كلها ، لأنها دأبت على التساهل مع ابنها الفاسد حتى وقع ما وقع . ولم يطلب أبو حسني أقل من أن نترك الملحق .

لو أن أبا حسني قدم طلبه هذا لسبب غير هذا السبب لتلقى ، على الأغلب ، وعداً قاطعاً بالاستجابة له . فقد كان ضيق الأسرة بظروف سكنها قد بلغ ذروته . أما وقد قرن أبو حسني طلبه باثارة فضيحة تتعلق بموضوع حساس هو العرض ، فقد استنفر ما تفرضه التقاليد المستقرة في أعماق النفوس من ضرورة تضامن أعضاء الأسرة كلّهم مع ابنهم المتهم في شرفة وتجندهم للدفاع عنه ، بما هو دفاع عن سمعة الأسرة كلها . وهكذا ، رفض أهلي الطلب ، بل رفضوا الإقرار بصدق رواية أمينة ، وتشبثوا بالرواية المغايرة التي قدمها غالب . وأنا أجزم بأن أهلي كانوا في دخائلهم ميالين لتصديق رواية البنت ، فهم يعرفون ابنهم ويعرفون سوابقه ، غير أن نوازع التضامن مع القريب ، ظالماً كان أو مظلوماً ، ضد الغريب ، والحرص على سمعة الأسرة هي التي دفعتهم الى المجابهة . وإزاء رفض الأسرة الحاسم

لطلبه ، هدد أبو حسني باللجوء الى القضاء . وكان في هذا التهديد ما يشي بأن الرجل عازم على تضخيم الفضيحة . وظن أهلي ، في البداية ، أن الرجل عاجز عن الإلتجاء إلى القضاء لأن الملحق غير مرخص ، فاستهانوا بتهديده . ثم عرفت الأسرة ، وكان أبو حسني ، وقتها ، قد قدم دعواه إلى المحكمة ، أن صاحب الملحق يخطط لهدمه كي يبني على السطح طابقاً كاملاً ، مرخصاً هذه المرة . وهكذا تعرض غالب للإتهام بمحاولة اغتصاب البنت . وكانت نقطة الضعف في هذا الاتهام افتقار أصحاب الدعوى إلى أية اثباتات غير رواية ابنتهم للواقعة . هذا الضعف عالجه أبو حسني ، فاتفق مع زوجته ، أم البنت ، على أن تشهد أمام القاضي ، بأنها رأت بعينيها غالب وهو يجر البنت وأنه لولا ظهورها ، هي أم حسني ، لتمت الجريمة المنكرة . هنا ، أدرك أهلي أن في الأمر خطورة حقيقية ، فهذه الشهادة ، بالإضافة لشهادة البنت نفسها وما يمكن تجميعه من شهادات الجارات المستاءات من غالب ، ستعد في المحكمة أدلة قاطعة .

انقسمت الأسرة في الرأي أمام الخطر الداهم . فكان من رأي خالي عمر أن نطوي المسألة بالتي هي أحسن ونبحث عن مسكن جديد ، مقابل سحب الطرف الآخر لدعواه من المحكمة ، ما دمنا قد كنا ، بالأساس ، بصدد القيام بذلك . وكان من رأي الجدّ والجدّة أن نصالح صاحب الملحق مع الوعد بإخلاء المسكن فنفترق دون عداء . إلا أن نافذ ، الذي غدا طبعه ميالاً اكثر فأكثر الى الحدّة ، عدّ قبولنا بالإستسلام إقراراً بالتهمة ، أي اقراراً بتشويه سمعة العائلة ، وأصر على مواجهة التحدي في المحكمة والعمل على تبرئة غالب ، قبل أي شيء آخر . وكان لخالي الكبير منطقه الدامغ الذي فعل فعله في طيّ الإقتراحات الأخرى ، اذ وضع أمام الجميع هذا السؤال : من هو صاحب الملك الذي سيقبل بتأجيرنا منزله إذا لم ننجح في تبرئة غالب ؟

وحين تقرر المضيّ في المجابهة أمام المحكمة ، استنفر جدّي همته العتيقة وخبراته القديمة في المحاكم ، وبدأ العمل الجاد لتوفير أدلة البراءة لابنه

المتهم . واقتضى الأمر الاستعانة بمحام ، فاختار الجدّ محامياً نابهاً من معارفه الفلسطينيين . وبالتعاون مع هذا المحامي ، اعدت الاحتياطات لمواجهة كل الاحتمالات ، بدأوا بإحالة غالب الى الطبيب الشرعي لتقدير سنّه ، فاظهر تقرير الطبيب الشرعي أنه دون سن المسؤولية القانونية ، وكان في هذا ما يساعد على تجنيبه العقوبة لو ثبتت التهمة عليه . وحصل المحامي على نسخة من الطلب الذي تقدم به أبو حسني الى البلدية للحصول على ترخيص ببناء الطابق الجديد ليطعن في الشكوى من أساسها باعتبار أنها افتعلت إفتعالاً لتسوغ إخراجنا من المحلق ، دون تعويض . وأجتُذِب عدد كبير من معارف أسرتنا للادلاء بشهاداتهم بهدف إظهار مدى حسن سمعة أسرتنا والتزام أعضائها الدائم بآداب السلوك . وجُنّد الوسطاء والوسيطات للاتصال بالجيران المستاءين كي لا يدسّوا أنوفهم في هذه القضية الشائكة . وكانت هيئة جدّي في تلك الايام تعيد إلى الأذهان هيئته المألوفة حين كنا في فلسطين ، وكان هو يخوض فيها المعارك ويصول ويجول في المحاكم لمواجهة شتى أنواع الخصوم . والحقيقة أن كل شيء أعدّ للدفاع على أتم وجه يمكن إعداده . لكن بقيت حكاية شهادة أم البنت بوصفها السلاح الذي قد يفسد كل الاعدادات . ثم أخذت القضية مجراها المألوف ، فيما بقي القلق حول تأثير هذه الشهادة ، واستمر البحث عن وسيلة لمواجهتها ، دون طائل . كان المحامي هو الاشد قلقاً . لقد ضمن الرجل الخبير أن لا يعاقب غالب بالحبس ما دام تحت سن المسؤولية ، لكنه لم يضمن الظفر بتبرئته من التهمة الشنيعة ، أي الحصول على الشيء الذي تهتم الأسرة به أكثر من أي شيء آخر . وفجأة ، جاء الحلّ من حيث لا يحتسب أحد منّا . كانت حكاية اعتزام ام حسني حلف يمين كاذب قد شاعت وأثارت شتى الأقاويل واسهمت في إطفاء حماس الكثيرين ممن كانوا مستعدين للشهادة ضد غالب . ثم اتضح أن أم حسني كانت وقت وقوع الحادثة ، حين جاءت ابنتها اليها شاكية ، في منزلها مع زوار جاءوا بهدف جسّ النبض لخطبة أمينة لابنهم . فلما سمع هؤلاء أن أم البنت تعتزم حلف يمين كاذب ساءهم ذلك ، وهددوا بالاحجام عن اتمام الخطوبة . وكان هذا ضغطاً فعالاً ، فقد حسب أبو

حسني حساب العواقب ، هو الذي كان ، في دخيلته ، وبحكم تربيته المحافظة وتديّنه ، متهيباً من مغبة حلف اليمين الكاذب . وهكذا ، أرسل أبو حسني مبعوثيه للتفاوض على تسوية . وقبل أيام من الموعد المقرر لجلسة المحكمة ، أبرمت التسوية ، فتعهد أبو حسني بسحب الدعوى والكف عن التشهير بنا ، مقابل تعهدنا بإخلاء الملحق .

وفيما كانت هذه الحكاية تعصف بالجميع وتفري اعصابهم ، واجهت الاسرة خطراً آخر استهدف ، هذه المرة ، خالي عمر . وكان ذلك هو خطر المرض الفتاك الذي اتضح انه استقر في صدر خالي . بدأ الأمر بالأعراض البسيطة التي لا ينتبه أحد لخطورتها : الأرق ، وأوجاع الرأس ، ونوبات السعال المتقطعة . ولمّا كانت كلفة العلاج فوق طاقة الأسرة ، اتبع الخال عمر الوصفات الشعبية المعتادة : الكمادات الدافئة ، وعصبات الرأس ، ومنقوع الشاي والميرمية والأعشاب الأخرى . ثم تطور الأمر ، فازداد تواتر النوبات كما ازدادت حدّتها ، وهزل بدن الخال ، وقلت شهيته للطعام وكسا الإصفرار وجهه ، دون أن تتبدل وسائل العلاج . وما أكثر الليالي التي أمضيناها أرقين حين تعصف الآلام الفظيعة بالخال ويكاد السعال يوقف انفاسه ، وهو بيننا موزع المشاعر بين الامتنان لمساهرتنا له والأسف لما يكبدنا إياه من معاناة . ثم جاء الوقت الذي بصق الخال فيه بقعة دمّ ، فكانت تلك هي الإشارة التي لم يبق معها مجال لمغالطة النفس .

داهم السلّ خالي عمر . وعندما اضطر الخال لمراجعة الطبيب ، اتضح أن المرض قد سكن الرئتين وأخذ يفتك بهما . وفي وسط يعدّ فيه التعرض للمرض عيباً ، توجب أن نكتم الأمر ، كما توجب أن نحتاط كي لا تنتقل العدوى للآخرين . وفي مواجهة الخطر الذي هدد حياة المريض ، ما كانت الاسرة لتضنّ بشيء من أجل الشفاء . ولكن حال الاسرة ، كما تعرفه ، لم يكن مسعفاً ، فصار عليها أن تلزم نفسها بتضحيات جديدة كي توفر ما يتطلبه العلاج من أدوية غالية الثمن واطعمة خاصة مرتفعة الكلفة . إن أسرة لا يحصل أعضاؤها على حاجتهم الكاملة من الغذاء في الاحوال العادية لا بدّ أن تجوع في هذا الظرف الاستثنائي . كانت تلك تجربة لا

أنساها . وقد خاضت الأسرة كلّها المعركة القاسية ضد المرض . وهنا ، أيضاً ، تجلت همة الجدّ كما تجلت مقدرة الجدّة الفائقة على تدبير الامور . وها أنا أتذكر كل الحيل التي اتبعاناها كي لا يتحسس خالي عمر ، الحساس جداً بطبعه ، إزاء التضحيات التي فرضها مرضه على الأسرة . لقد أصر الجدّ على أن ينتقي بنفسه ما يلزم لأكل المريض ويجيء به إلى الملحق كل يوم . وكان هذا الجدّ يجلب أشياءه الى المطبخ ويسلمها لخالتي شفيقة . وكان الجد وابنته يتبادلان حديثاً حول هذه الأشياء بصوت مرتفع كي يسمعه الخال المريض الممدد في الحجرة المجاورة . ويدور الحديث على نحو يتوهم معه الخال أن اطايب الطعام المجلوب وفيرة ، وهي كافية لاطعام الجميع : « هذا المعلاق طازج تماماً . حضّري منه قطعة من الكبد لأخيك عمر ، واطبخي الباقي لغداء الاسرة » . يقول الجدّ هذا الكلام . بينما لا يتجاوز ما جلبه قطعة الكبد اللازمة للمريض . وحين يحلّ موعد الغداء ، كانت الخالة تحمل قطعة الكبد الى عمر في فراشه ونتحلق نحن ، في الحجرة الأخرى ، حول أي شيء أمكن اعداده لوجبتنا ، فنأكله ونحن ندير بيننا أحاديث يتوهم الخال منها أننا نتلذذ بأكل المعلاق . ويحضر الجدّ ما يكفي من الفاكهة للمريض وحده ، لكن الخالة تتعمد أن تزعق : « لماذا هذا كله ، ونحن لم نأكل ما عندنا ، بعد ! ؟» . هل انطلت الحيل ، حقاً ، على الخال العليم بأحوال الأسرة ؟ من يدري ؟ ثم ما الذي كان بمقدوره أن يفعله لو لم يحمل نفسه على التصديق ؟! كنّا نحن بحاجة لأن نخفف عن المريض ، وكان هو بحاجة لتجنب الإحراج .

في ذلك الصيف ، داومت على العمل في دكان الورق ، وعمل غالب في دكان آخر . وكنت أسلم اجرتي كاملة للأسرة ، وصار غالب يفعل الأمر ذاته في تلك الظروف . وتسنى لي ، أيضاً ، أن أتردد على المكتبة الظاهرية في بعض الايام التي ينتهي فيها عمل الدكان مبكراً . أجيء الى قاعة المطالعة في حدود الساعة الخامسة بعد الظهر وأبقى فيها الى أن يقفلوها في السابعة ، فيكون موعد صلاة المغرب قد حلّ ، فانتقل من المكتبة الظاهرية الى الجامع الاموي القريب منها . وأودي الصلاة ، وأتابع الدروس في حلقة الشيخ عبد الرزاق . وكنت وقتها أتابع الرحلة مع طه

حسين ، وقد اكتشفت « شجرة البؤس » و « دعاء الكروان » و « على هامش السيرة » ، وجذبتني « الأيام » وأثرت فيّ تأثيراً خارقاً وأطلقت أخيلتي في اتجاهات شتى ، حتى لقد تمنيت ، بين ما تمنيته ، أن أكون أعمى اذا كان العمى سيجعل مني شبيهاً لطه حسين . واكتشفت الأصعب من كتب هذا الكاتب ، فشرعت في قراءة « الفتنة الكبرى» ، وطاب لي أن احاور شيخي بشأنها . وواصلت ، في الوقت ذاته ، قراءة توفيق الحكيم ، واكتشفت عبد القادر المازني فاجتذبني أسلوبه الساخر النفاذ ، وبدأت ملامساتي الأولى مع كتابات عباس محمود العقاد ، ووقع لي كتاب للرافعي فنفرني أسلوبه الصعب وعسر عليّ فهمه فلم أتم هذا الكتاب .

وفي مجال التنظيم ، خطونا خطوة أخرى غير مسبوقة ، وها أنا لا أتذكر الآن ما الذي دفعنا الى الإقدام عليها . هل كان الدافع هو التنافس مع التنظيمات المماثلة والرغبة في التميز عنها ، أم هي معتقداتنا البسيطة التي قامت في ذلك الوقت على أساس أن لا بدّ من العمل الملموس لأن الكلام غير كافٍ ، أم أن قدماء المجاهدين الذين كنا نتصل بهم هم الذين شجعونا؟ أيا كان الدافع ، فإن هايل عرض في اجتماع الدزينة أن الوقت قد حان لتدريب أعضاء التنظيم على العمل المسلح ، وعلينا أن نكدّ ذهننا ونضاعف جهودنا لتوفير الوسائل لبلوغ هذا الهدف . وناقشنا الأمر ، في هدي المعلومات عن الكاربوناري والشيخ عزّ الدين القسام . لم يكن في محيطنا غابات نستتر فيها ، ولا كان بحوزتنا أسلحة أو امكانيات للحصول على السلاح . لكن ، كان لدينا الحماسة ، وكان لدينا أفكارنا ، فأقدمنا على الشيء الوحيد المتيسر : استأجرنا حجرة طينية ، مما يستخدمه النواطير ، في بستان من بساتين منطقة الزبلطاني ، شرقيّ المدينة ، لنتخذها قاعدة سرّية لانشطتنا ، وابتكرنا أسلوب التدريب الذي يلائم امكانياتنا ، فقررنا أن نمارس الرياضة لتقوية الأبدان ، وأن ندرب أنفسنا على المشي الطويل ، على أساس أن عملنا المسلح المقبل لتحرير فلسطين سيتطلب قطع مسافات طويلة . وأضفنا الى هذا تدريبات عسكرية على الزحف والقفز والمناورة والكرّ والفرّ واعداد الكمائن . وكنّا أثناء هذه

التدريبات نسلح أنفسنا بعصيّ خشبية أعددناها بحيث تشبه البنادق . وهكذا ، استعضنا بالبستان عن الغابات وبالعصيّ عن السلاح .

والحقيقة أن البستان تحوّل الى قاعدة نلتقي فيها بعيداً عن العيون سواء كانت عيون الأهل أو عيون السلطة ، التي نفترض أنها تترصدنا ، أو عيون التنظيمات التي تنافسنا . وكان وضع البستان مواتياً ، فهو صغير ولا أحد يقيم فيه ، وصاحبه الذي استأجرناه ، منه ، بدعوى حاجتنا لمكان هادىء لمذاكرة الدروس ، لم يكن يتردد على المكان في الاوقات التي نستطيع أن نجيء فيها . وفي جوار البستان ، على مدّ البصر ، بساتين أخرى وأفضية وأجمات وفروع نهر واقنية وطلعات ونزلات تتيح لنا ، كلّها ، فرصاً أوفر لتنويع مناوراتنا . وكنّا سعداء بما انجزناه سعادة لا توصف . وكان لكلمة « القاعدة السرية » وقع السحر في نفوسنا ونفوس الأعضاء الذين نجتذبهم الى التنظيم ونهيئهم لمفاجأة التعرف على القاعدة . لقد صار لنا شيء في اليد اكثر من الكلام ، وصار بيننا هذا السّر الذي لا يعرفه سوانا وما يقترن بالسرّ من الغموض اللذيذ وما يستتبعه من تعميق روح التضامن والتكاتف بين الحافظين له . كنّا ، كلّنا أو بعضنا ، نجيء الى القاعدة بعد أوقات العمل أو الدراسة . فنعقد الاجتماعات التي يطيب عقدها في هذا الجوّ ، خصوصاً في المساء ، حين نشعل مصباح الكاز ونتحلق حول نوره ونناقش الأمور الجادة ، أو نتدرب ، أو نذاكر دروسنا . وكنّا نردد الشعار الذي أشعناه بيننا : إعداد القاعدة هو الخطوة الأولى لتحرير فلسطين . وكنّا ، بهذا ، نستعير أسلوب العرب القوميين الذين ألفوا أن يصفوا أي إنجاز يتحقق في دنيا العرب بأنه الخطوة الأولى لتحرير فلسطين .

في هذا الوقت ، كانت حركة القوميين العرب التي أسسها د . جورج حبش وعدد من أصدقائه في الجامعة الامريكية في بيروت ، تمدّ نشاطها الى سوريا وتجتذب بعض الفلسطينيين من أبناء الجيل الشاب . وكان ناس من هذه الحركة قد قاموا بمحاولة لاغتيال الشيشكلي ، فأثارت هذه المحاولة موجة من الاهتمام بالحركة ودفعت مزيداً من الشباب للبحث عن نشطائها وكان حزب البعث ، الداخل في مجابهة حادة مع ديكتاتورية الشيشكلي ،

يجتذب نشطاء آخرين . وبالرغم من الخلافات الكثيرة بين الحركة والحزب ، فقد اتفقا ، كلاهما ، على التنديد بأية تنظيمات أو دعوات تقوم على أسس اقليمية ، أي لا تنطلق من اعتبار النضال لوحدة البلاد العربية هو مفتاح حل مشاكل هذه البلاد ، كافة . وقد اعتبر الطرفان قضية فلسطين قضية العرب الاولى ، وصبّا جزءاً كبيراً من دعايتهما في ميدان هذه القضية . ونظر الطرفان بريبة شديدة الى الدعوات التي تماثل دعوتنا ، أي التي تنطلق من القول بخصوصية القضية الفلسطينية ، وتدعو إلى اعتبار أبنائها هم المسؤولين عن شؤونها قبل غيرهم . وقد صار علينا ان نخوض مناقشات مضنية مع المتأثرين بالدعوة العربية القومية . وكنا نجهد أنفسنا ، بعدّتنا الفكرية الطريّة وحماسنا المتقد ، كي نثبت ، من جهة ، أننا لسنا ضد العروبة ، ونسوّغ ، من جهة أخرى ، دعوتنا ألى تكتيل الفلسطينيين في تنظيم خاص بهم. ولا بدّ من القول إننا كنّا ضعفاء أزاء طغيان الفكر القومي العربي ، بالاضافة إلى ضعفنا إزاء ما يجتذبنا ، نحن أنفسنا ، من طروحات القوميين ، ويجعل الواحد منّا مبلبلاً بين التعميم والتخصيص . وإذا كان عامل واحد هو الذي أبقانا متماسكين وحال دون ذوباننا في المحيط الكبير الذي يتشكل حولنا ، فلا بدّ أن ذلك هو روح العصبة التي شدتنا إلى بعضنا منذ أنشأنا التنظيم وعناد الأولاد المصرّين على السباحة ضد التيار . وكان هناك ، مع هذا كلّه ، تشبّث هايل عبد الحميد بضرورة الاستمرار بما بدأنا به وقدرته على ابقائنا حوله بشتى الوسائل .

ومهما يكن من أمر ، ودون إغفال لأهمية قضية فلسطين ، فإن اشتداد سطوة النظام الديكتاتوري حملت القوى السياسية في سوريا على تركيز جهودها في الشؤون الداخلية . وقد لجأت قوى المعارضة كلّها إلى العمل السري. وكنّا ننشط على هامش هذا العمل ونستفيد ، بالطبع ، من الخبرات التي يوفرها ، ونوسع معارفنا وعلاقاتنا وسط الحلقات المتخفية التي تترصدها أجهزة الأمن وتلاحقها . وكان هذا كلّه جذاباً ، فضلاً عن أنه مفيد . وحين انتهت العطلة الصيفية وعدنا الى المدارس ، وجدنا أنفسنا منخرطين كلّية في الشأن السوري . كان حزب السلطة ، الذي

اسمـاه مؤسســـوه « حزب التحرير العربي» ، بطبيعته الانتهازية وتكوينه الرجراج ، عاجزاً عن تزيين الصورة القبيحة للديكتاتورية أو أجتذاب التلاميذ الى تأييد الحاكم الفرد . وبقيت الهيمنة الفعلية في المدارس بيد قوى المعارضة . ومع اتفاق أطراف المعارضة المتعددة على العمل ضد الديكتاتورية ، لم يتوقف الجدل بينها بشأن الامور الأخرى ، وكان كل طرف منها حريصاً ، بالطبع ، على اجتذاب التلاميذ الى صفة. وفي المدرسة الثانوية الأهلية ، صرت أنا الممثل المعترف به لعرب فلسطين ، وتعامل ممثلو التنظيمات السرية معي على هذا الاساس ، وجهد هؤلاء الممثلون لاجتذاب جماعتنا الى المشاركة في النشاط المباشر ضد السلطة ، وحملنا على الاقتناع بأن إسقاط ديكتاتورية الشيشكلي هو الخطوة الاولى المطلوبة باتجاه تحرير فلسطين .

في تلك السنة المدرسية ، وقد صرت طالباً في الصف التاسع ، الرابع الاعدادي ، توجب عليّ أن أعمل للظفر بشهادة الدراسة المتوسطة ، البروفية ، وكان هذا العمل يقتضي جهداً دراسياً مضاعفاً ، فيتوجب عليّ أن اكرس للدراسة وقتاً أطول. وانتهت الاسرة ، التي بحثت طويلاً عن مسكن جديد ، الى أستئجار شقة في بناية القاري ، حيث يسكن الجد ، وهكذا ، شغل شقّا الاسرة شقتين في بناية واحدة. وكانت إحدى الشقتين ، كما تعرف ، في الطابق الثاني ، أما الشقة التي انتقلنا اليها فكانت في الطابق الثالث . وبهذا التجاور ، اتسعت العلاقات بين شقّي الاسرة ، وزادت المناكفات والمشاجرات ، أيضاً ، بين الناس الذين « تحت » والآخرين الذين « فوق » ، حسب التسمية التي شاعت للتمييز بين شقيّ الاسرة الواحدة المتحدين والمتنابذين ، في آن . وبالانتقال الى مكتب عنبر ، صار مشواري اليومي الى المدرسة أطول . ففي الذهاب ، صار عليّ أن أقطع سوق مدحت باشا بطوله ، وأجتاز منطقة الحريقة التجارية حتى أبلغ فم سوق الحميدية ، ثم أنحدر الى السنجقدار ، واخترق سوق علي باشا في طرف السوق العتيق ، لأصعد في الأزقة الملتوية فأبلغ شارع سوق ساروجه . وفي الأياب ، صار عليّ أن أعيد هذا المشواركلّه بالمقلوب . لكن هذا الوضع كان ملائماً لي في أحد وجوهه ، على الأقل . فقد اقتنع

الأهل بصعوبة قدومي وسط النهار لتناول الغداء في المنزل . وبذلك ، توفرت لي ساعتان كل يوم أقضيهما على هواي أثناء استراحة الغداء ، فتوفر لي الوقت الكافي للمناقشة مع الأقران وقضاء شؤون التنظيم وما أرغب به من مشاغل جذابة أخرى. وصار بإمكاني أن ألتقي ، خلال هاتين الساعتين ، بهايل والآخرين من أعضاء التنظيم ، كلما اقتضى الأمر. وكان أكثر ما نقوم به في هذه الاستراحة هو التوجه الى الكلية العلمية الوطنية ، المدرسة القريبة من الثانوية الاهلية. وكانت هذه الكلية معقلاً للقوميين العرب الذين يحظون بدعم صاحبها ومديرها. وفيها درس غسان كنفاني الذي يكبرني ببضع سنوات وترك بصماته التي لا تمحى ، قبل أن يغادر سوريا للعمل في الكويت .

في تلك السنة ، زاد عدد أنصار عرب فلسطين حتى كاد يبلغ الخمسين. وفي يقيني أن الزيادة ما كانت لتتحقق لولا جاذبيه القاعدة السرية. وقد انيطت بي ، انا عضو الدزينة القائدة ، مسؤولية حلقة ضمت أربعة من هؤلاء الأنصار ، كانوا ، مثلي ، من تلاميذ المرحلة الإعدادية. وكنّا وقتها أسرى الإعتقاد بأن علينا ، نحن أعضاء القيادة ، من أجل بناء تنظيم قويم وفعال ، أن « نثقف » الأعضاء الجدد ، مفترضين ، ضمناً ، وبغرور يستر النقص في واقع الأمر ، أننا نحن أنفسنا ، « مثقفون » . لقد خلق لنا هوس التثقيف مشكلة مزمنة ، فلم يكن ثمة برنامج محدد نتبعه في العملية ، ولا كان بإمكاننا ، في ظروفنا تلك ، أن نهتدي الى برنامج . وبإمكانك أن تدرك بسهولة ما الذي كان من الممكن لولد في الاعدادية أن يثقف به ولداً مثله في تلك الفترة من الخمسينات ، حين كانت المدارك ضيقة والكتب قليلة والحصول عليها صعباً والخبرات قليلة . بالرغم من ذلك ، حاولنا أن نفعل شيئاً ، لا لسبب إلا لإحساسنا الغامض بأهمية التثقيف ، ولأن التنظيمات القومية التي تستهين بنا كانت تتفاخر بوجود أعداد كبيرة من المثقفين في صفوفها ، فلا يليق بالتنظيم الفلسطيني أن يكون ناقص الثقافة.

وقد عانينا من نقص معلوماتنا عن القضية الفلسطينية وقلّة معرفتنا

بتطوراتها التاريخية . ولم تكن الكتب التي أرخت لهذه القضية قد ظهرت انذاك ، او شاعت ، فصار علينا أن نتلمس السبل لنتسلح بالمعرفة اللازمة لدعم وجهة نظرنا في الجدل الذي نخوضه مع المنافسين أو نجتذب به الأنصار الجدد. وكان الإتصال بالمجاهدين الفلسطينيين القدماء واحدة من وسائلنا للتزود بالمعرفة ، فقررنا التوسع به ، حتى نسمع من المجاهدين شهاداتهم عن وقائع جهاد الشعب الفلسطيني . كان ذلك عالماً غنياً تكشف لنا بخبرته الكثيرة . وكان مجاهدو فلسطين ، وقد صاروا لاجئين منسيين ، شديدي الحفاوة بهؤلاء الفتيان من أبناء الجيل الجديد الذين يبحثون عن أسلافهم . ولم يكن هؤلاء المجاهدون يضنون بالوقت أو الكلام ، ولا تهيبوا من الخوض في موضوعات قد يعرضهم الخوض فيها للأذى . وكان بين الذين تعرفنا عليهم في تلك الفترة رجل يسكن في بستان الحجر ، وقد نسيت اسمه ، ولعل اسم عائلته ان يكون «القطب» اذا لم تخني الذاكرة . كانت نصائح هذا الرجل بين الاسباب التي حملتنا على استئجار القاعدة . وقد أطلعناه على السّر فزادت ثقته بنا. وكان هو ،بالنسبة لنا ، لقيه ثمينة ، فهو لم يكن مجاهداً عادياً ، ولكنه كان ممن عملوا مع حركة القسّام وظلوا فيها حتى تشتتها في العام ١٩٣٥ . وعندما توزع الباقون من حركة القسام على تنظيمات المجاهدين الأخرى ، التحق هذا الرجل بفصيل من مجاهدي ثورة ١٩٣٦ ، وشارك في عمليات حساسة بينها عمليات كان لها صدى واسع في البلاد. وبعد استئناف الاعمال الثورية في العام ١٩٤٧ ، انخرط الرجل في تنظيم الجهاد المقدس وتخصص في المتفجرات وبرع في اعدادها. وكنّا نجلس بين يدّي الرجل ، ونصغي اليه ، ونحن مبهورون بالبساطة والشجاعة التي اتصف بهما عمل المجاهدين في جيله. أما هو فبدا أن اهتمامنا بالتردد عليه واحترامنا الصادق له وتوقنا الواضح للاستفادة من خبراته قد أحيت في نفسه الإحساس بالأهمية ، بعد أن ظنّ أنه نُسي . ووجد الرجل في اندفاعنا لتجديد العمل الثوري ، نحن الفتيان الذين غادروا الوطن أطفالاً ، الدليل الذي يؤكد له على أن الجيل الجديد لن ينسى قضية الوطن المغتصب . وبعد أن توثقت علاقة هذا المجاهد بنا على نحو ذابت معه أي تحفظات ، عرض علينا

الرجل المساعدة في تدريبنا تدريباً عملياً على اعداد المتفجرات ، وقال أنه مستعد لأي شيء اذا تدبرنا نحن أمر الحصول على المواد الاولية. وبامكانك أن تتصور إلى أي حدّ استهوانا هذا الاقتراح. لقد نقلنا ، هايل وأنا ، الاقتراح الى اجتماع الدزينة ، فجرى تبنيه على الفور بحماس شديد ، وعشنا أياماً ظننا خلالها أننا مقبلون على خطوة حاسمة ، وأطلقنا الأعنّة لشتى التصورات المهيبة . غير ان تحقيق الاقتراح كان ، بالطبع ، أكبر من امكانياتنا كلّها ، فلم يلبث أن طوي ، كما طويت اقتراحات أخرى جليلة كثيرة .

عالم قدماء المجاهدين الذي تهيأ لي الأيغال فيه كان شديد التنوع كثير الالوان. وكان هؤلاء المجاهدون أنواعاً متباينة من الناس . فكان بين هؤلاء من انتهى به الأمر الى اليأس التام والأعتقاد بأن الطرق كلّها مسدودة وأن أية تضحيات جديدة لن تنفع في فتحها. هؤلاء كانوا يرون السواد المحيط ولا يرون غيره ، فالقيادات الفلسطينية بالنسبة لهم عاجزة ، والحكام العرب باعوا فلسطين ولن يفعل أي منهم شيئاً مفيداً لها ، واليهود ومعهم الاميركان هم ، وحدهم ، القادرون على فعل ما يريدون ، والعالم كلّه ، شرقه وغربه ، خاضع لنفود الصهيونيين العلني او الخفيّ فهو لا يهتم الا باليهود ومصالحهم ولا يفعل في الشرق الاوسط الا ما يقوي اسرائيل ويجعل يدها قادرة على ضرب العرب في أي وقت ، الرأسماليون بالنسبة لهؤلاء صهاينة معلنون ، والشيوعيون صهاينة متخفون ، ولا فارق بين الجانبين حين يتعلق الامر بفلسطين . وكان من المجاهدين ناس انطووا على أنفسهم ، يستعيدون حلاوة تجربتهم ومرارتها فيعيشون على الذكريات ، تاركين للظروف أن تجدد الأمل باستئناف الكفاح. وكان من المجاهدين من واءم أحواله مع الظروف المستجدة ، فالتحق بالعمل الذي تيسر له وانصرف بكليته الى تدبير أمور معيشته ورعاية اسرته ، ومن هؤلاء من احتفظ بعلاقه ما مع مكتب الهيئة العربية العليا ، حيث كان ما يزال بمقدور هذه الهيئة ان تقدم معونات متواضعة للملتصقين بها من ناسها القدماء . ومن المجاهدين من انتهى إلى هذا النوع من العطالة عن العمل الذي يهيء له التصرف كوجيه بينما يعمل هذا أو ذاك من أبنائه أو إخوانه لتوفير ما يلزم

لإعـالـة الأسـرة ، في هذا أو ذاك من الاعـمـال والبلدان . وأقل هؤلاء المجاهدين هم الذين كانوا معنيين بالبحث عن انطلاقة جديدة . وقد قام هؤلاء بمحاولات ، فانتهى بعضها الى الفشل من تلقاء ذاته ، وأحبطت السلطات الحذرة بعضها الآخر ، وبقي البعض على محاولاته لتلمس الطريق ، وكان رجل المتفجرات الذي استقطب اعجابنا واحداً من هؤلاء .

في هذه الاجواء ، حين كنّا ما نزال نسعى الى تحقيق الاقتراح بالتدرب على المتفجرات ، وما نزال أسيري الهواجس التي تقترن بهذا المسعى ، وقع الحادث الذي حملنا على اقفال القاعدة والكف عن التردد على البستان ، فحرمنا من أحب ما أنجزناه الى نفوسنا . جرى هذا في وقت ما من ربيع العام ١٩٥٣ . وقد أبلغ الينا اهلُ أحمد ع . ، الذي سبق أن اخترناه واجهة للتنظيم بسبب حاجتنا لمن يكبرنا في السن ، أن الشرطة جاءت الى منزلهم واعتقلت أحمد . ولم نعرف سبب الاعتقال ، فقرّ في أذهاننا أن أحمد اعتقل بسبب علاقته بنا ، وهجسنا بأن أمرنا سوف ينكشف للسلطات . وهكذا ، بادرنا على الفور الى اتخاذ سلسلة من الاحتياطات كان من بينها إلغاء القاعدة ووقف الاجتماعات وقصر لقاءاتنا ببعضنا على ما هو ضروري جداً. في ذلك الوقت ، كان نشاط المعارضة للديكتاتورية قد اتسع وتنوعت أشكاله ووسائله وميادينه واختلط العلني منه بالسري. كما كان تشدد السلطة ضد المعارضة واجراءات قمعها لها قد اتسعت هي الأخرى . ولأننا كنّا اسيري هواجس مبالغ بها حول دورنا واهميتنا ومراقبة أجهزة الأمن لنا ، فقد فسرنا اعتقال الشرطة لأحمد على النحو الذي ذكرته لك ، ولم نكلف أنفسنا مغبّة تحري الأمر على حقيقته. بل إننا ، حتى بعد أن اتضح أن الرجل اعتقل بتهمة عادية لا صلة لها بنا ، تمسكنا بتفسيرنا الأول . وتوهمنا ، أو أوهمنا أنفسنا ، أن الشرطة تموه بشأن التهمة حتى نقلل حذرنا فتوقع بنا جميعاً بضربة واحدة. واذ كنّا عاجزين عن الإختفاء ، لم يبق أمامنا ، مع وقف انشطة التنظيم ، سوى ترقب ما قد تجيء به الأيام المشحونة بالنذر والهواجس.

ولّما مرّت أيام وأسابيع عديدة دون أن يقع شيء مما نتوقعه ، لم نقرّ

لانفسنا بأن نشاطنا أقلّ أهمية من أن تنشغل به أجهزة الامن ، بل نسبنا عدم تعرض السلطة لنا الى انشغال أجهزتها بالمعارضة التي يتسع نشاطها في كل لحظة. وانتهينا الى الإعتقاد بأن السلطة ستتفرغ لنا حين تفرغ من معركتها مع المعارضة ، فقررنا أن نواصل الحذر الى أن تنجلي الامور على نحو واضح.

كانت تلك أيّاماً لا تنسى. كنت أسعى بين الناس على مألوف عادتي ، مخفيّاً ، بالطبع ، هواجسي ، ومستمتعاً ، في الوقت ذاته ، بأمرين معاً : الإحساس بالأهمية والإعتزاز بقدرتي على إخفاء مشاعري . والحقيقة أننا عددنا فترة وقف النشاط ، هذه ، فترة كمون ضروري من أجل صيانة القضية وتجنيب بذرة الثورة الدمار ، فعددناها ، بهذا ، مهمة تاريخية نتولاها ، ورحنا نستذكر الحالات المماثلة التي مرت بها الثورات التي قرأنا عنها . وكان من شأني في تلك الفترة ، أكثر من أية فترة أخرى ، أن اقارن نفسي ، بيني وبين نفسي ، بعظماء التاريخ الذين بدلوا وجه العالم لأنهم ضبطوا أنفسهم وصبروا على المكاره. والمدهش أن هواجسنا وتخيلاتنا بقيت على حالها ، حتى بعد أن ترك أحمد السجن بكفالة ، وقال لنا هو ، بنفسه ، إن اعتقاله تم لسبب يتعلق بعمله في مكتب الطباعة. لقد كان استغراقنا في التصوارات الجيدة قوياً ، فلم يعد بمقدورنا أن نتواضع بسهولة. ومع أن أحمد قطع صلته بالتنظيم نهائياً وانصرف لتدبير أمور الحاكمة التي أحيل لها ولم نعد نراه ، فإننا لم ننته الى الاقتناع بأن الأمر ليس حيلة من الشرطة.

هذه الهواجس بدوافعها المختلفة لا يقع فيها إلا اولاد في سنّنا. وقد كان لها ، على كل حال ، شيء من الفائدة. ذلك أن توقيف أنشطة التنظيم وفّر لي وقتاً أطول من أجل الاستعداد للامتحانات. وساعد على ذلك أننا في التنظيم ، مسوقين بتصورنا لدورنا وأهميتنا ، اتخذنا قراراً بأن نخصص الوقت لمذاكرة الدروس ونجهر بذلك ، بحيث يرانا الجميع منصرفين الى الدراسة ، واحتسبنا هذا في باب التحوّط لتضليل الأجهزة المعنية بمراقبتنا. وهكذا ، توزعتنا الدروب على طريق بيروت من جديد. وكنّا نُرى ونحن

سائرون بين الاشجار أو جالسون قرب الغدران والكتب في أيدينا . أما الشؤون الأخرى فصرنا نتداول الكلام حولها في لقاءات لا تضمّ اكثر من اثنين أو ثلاثة منّا ، وندبّر الأمور على نحو يبدو معه لمن قد يراقبنا أنها تتم بغير إعداد مسبق.

في ذلك العام ، كان وضعي في الدراسة قد بدأ يتزعزع. لقد ظللت منذ انتسابي للمدرسة حتى الصف الثامن متفوقاً في الدراسة ، وظفرت بالدرجات الأولى . أما في تلك السنّة فقد بدأ الحال يتبدل. ومن الحق أني احتفظت بالتفوق في المواد الادبية ، فكنت أحسن طلاب الصف ، وربما المدرسة كلّها ، في اللغة العربية ، ومن أحسنهم في التاريخ. لكني بدأت أستصعب المواد العلمية ، وخصوصاً مواد الرياضيات والفيزياء والجغرافيا. واذ كنت في سنة حاسمة ، هي سنة شهادة حكومية ، ولأني خشيت أن أحنق أهلي علي بأكثر مما هم حانقون ، فقد توجب على أن أضاعف اجتهادي لاظفر بعلامات مرتفعة ، إن لم تكن متفوقة . ثم إن الظفر بهذه العلامات كان له هدف عملي ، إذ أني بها ، وحدها ، أستطيع أن أنتسب الى مدرسة حكومية في المرحلة الثانوية. وكان أهلي يطمحون إلى أن يروني تلميذاً في مدرسة التجهيز ، ولم يكونوا راضين عن مستوى المدرسة غير الحكومية التي أنا فيها. والواقع أني انصرفت ، خلال الشهرين اللذين سبقا الامتحانات ، إلى تحضير الدورس ، بهمة عالية ومواظبة تامة. وقد أدركت ، خلال ذلك ، كم أثرت الحياة المضطربة على مستواي التعليمي ، فبذلت جهدي لأعوض ما فات. واستعنت بالزملاء على فهم ما غمض علي من المواد العلمية. وبهذه العدّة ، توجهت الى الامتحانات بثقة ، وخرجت منها وأنا واثق من أن النتيجة ستكون النجاح. إلا أن القلق ركبني أثناء انتظاري للنتائج ، فقد خشيت ألا أحصل على العلامات العالية. لكنّي أخفيت قلقي . حتى إذا جاء يوم إعلان النتائج وتحلقنا حول الراديو الذي اقتنيناه في منزلنا الجديد ، وتلا المذيع اسمي بين اسماء الناجحين ، لم يغمرني الفرح للتوّ ، وكان عليّ ان أنتظر صدور الأسماء في الجرائد ، ففيها ينشرون مجموع العلامات التي حصل عليها الناجح.

وفي اليوم التالي ، جاءت الجريدة في وقت مبكر ، جلبها جدّي العائد من السوق ، فيما نحن متحلقون حول مائدة الافطار. وقرأ خالي نافذ في وجه الجدّ، ما يشي بعدم الرضى. فاختطف الخال الجريدة اختطافاً ، وحبست أنا أنفاسي. وبحث الخال عن اسمي بعصبية ظاهرة. فلما وجد الخال الإسم وعرف أن مجموعي جاء دون ما يرغب فيه ، أطلق العنان للشتائم . لقد أخرج الخال من جوفه في ذلك الصباح كل ما اختزنه في فترة الهدنة.

يومها ، هربت من الأسرة للمرة الثانية ، ورحت ، خلال النهارات ، أزور الأصحاب ، متصيداً لقمة أحصل عليها دون أن أطلبها ، إذا سمحت الظروف بذلك ، أو أفشل في الحصول عليها فتستمر آلام الجوع ومذلاته في اعتصاري. كما رحت أبحث عن عمل في المشاغل والدكاكين التي تستخدم الأولاد في عطلة الصيف. أما في الليالي ، فتكرر تطوافي في شوارع دمشق وأزقتها. دام ذلك ثلاثة أيام بلياليها ، بعدها ، اعادني الجدّ الى المنزل. وقد توجب عليّ ، هذه المرة ، أن اطلب الصفح صراحة من الخال الغاضب ، وأتعهد بأن أولي عنايته أكبر لدراستي في العام القادم ، وأنقطع عن صحبة من يعدّهم خالي رفقاء السوء. فطلبت الصفح ، وقدمت التعهد. وكان ذلك بدافع الحاجة ، وحدها ، ولم أكن ، بالطبع ، مقتنعاً به. وكظمت غيظاً يأكلني وإحساساً بالاغتراب عن الأسرة لا أجد له علاجاً.

١٢

خبرات جديدة عند المحامي وفي حارة اليهود

هروبي الثاني ، هذا ، فتح أعينْ الكبار في الأسرة على خطورة ما انتهى إليه أمري كولد عنيد مهدد بالفساد . لم يعد الأمر ، بالنسبة لهم ، أمر اختلاف في الأمزجة بين خَالي نافذ وبيني ، بل صار أمر الولد الذي اضطرب حاله كلّه ، ومن الممكن أن يضيع تماماً إذا لم يتداركوه بالعلاج الناجع . ويبدو أن هؤلاء الكبار قد تشاوروا طويلاً مع بعضهم البعض وانتهوا الى الاتفاق بشأن ما يلزم للمعالجة . وقد شعرت حين رجعت إلى المنزل بأن أموراً ما قد أعدت بين الكبار لتبديل حالي .

بدأ هؤلاء بتحديد علاقتي بالجامع . وكان خالي نافذ ما يزال على اعتقاده بأن مبعث الفساد كلّه نابع من علاقتي بالمشايخ الذين يرى أنهم هبلوا عقلي . وجاءت التعليمات هذه المرة صارمة ، فتوجب على أن انقطع عن حلقة الدراسة في الجامع انقطاعاً تاماً . ويبدو أن أحد كبار الأسرة ، وربما كان الجدّ او الخال نفسه ، قد اتصل بالشيخ الكبير ، الشيخ صالح ،

وأبلغ اليه قرار الأسرة بهذا الشأن ، وأن الأمر شاع بين أتباع الشيخ. فقد صار هؤلاء يتجنبون الأحتكاك بي ، كأنهم عزموا على ألا يسببوا لي أو للشيخ مشاكل مع أهلي . أما الصلاة في الجامع ، فصار علي أن أؤديها كلّما اقتضى الأمر بصحبة جدي ، شريطة أن أعود الى المنزل فور الفراغ منها ، حتي لا تتوفر لي أية فرصة للإتصال بالحلقة. وقد لفت نظري أن خالي نافذ واظب على حضوره صلاة المغرب مع الجدّ في الايام التي تلت رجعتي الى المنزل . ولا بدّ أن يكون الخال فعل ذلك ليتأكد بنفسه من تنفيذ أمر المقاطعة ويتدخل لو حاول زملاء الحلقة أن يتصلوا بي.

خطة أخرى اتخذها الأهل ، وكشف لي خالي نافذ نفسه هدفها حين قال إنهم رتّبوها ليبعدوني عن جوّ « الهبلان » الذي يشوش عقلي. كان بين أصدقاء العائلة محام فلسطيني معروف في اوساط اللاجئين هو اليافاوي خليل جبري. وكانت لهذا الرجل سمعة واسعة على أساس أنه إنسان طيب وخلوق ومتدين ، كما كانت له السمعة ذاتها على أساس أنه من الوطنيين الفلسطينيين المخلصين وممن أقاموا ، منذ كان في يافا ، صلات حميمة مع ناس الحركة الوطنية السورية الأوائل . ويبدو أن أهلي فاتحوا صديقهم بهواجسهم بشأني فأظهر الرجل المتفهم استعداده لتقويم ما وصف بأنه اعوجاجي. وهكذا ، اتفق الجميع على أن أعمل ، ذلك الصيف ، في مكتب المحامي فيتولى هو رعايتي وتفتيح مداركي على عالم الواقع. وكان أن أتاحت لي الظروف المعقدة التي أمر بها أن أعرف هذا الانسان الرائع.

كان خليل جبري أهلاً للسمعة التي يتمتع بها ، فهذا الرجل المحافظ كان محبّاً للحياة منغمساً في العلاقات الاجتماعية من أوسع ابوابها ، ولم تدفعه المعتقدات المحافظة الى التزمت كما فعلت بخالي. توفرت في الرجل السمات التي يحبذها أهلي ويرجون أن انتفع بها : حسن السلوك والروح العملية ، كما توفرت له السمات التي تجتذبني ، وأولها وأهمها حبه للآخرين وحرصه عليهم واهتمامه بشؤونهم وتفهمه السمح لأحوالهم وإحجامه عن التعامل مع أي انسان آخر بفظاظة. والحقيقة أنني ، أنا الذي التحقت بمكتب المحامي مرغماً في البداية ، لم ألبث أن اكتشفت في

الرجل هذه المزايا التي جعلتني أخلص في خدمته وأستفيد أتم الفائدة من مصاحبتي له. كان خليل جبري متديناً ، وكان تدينه عميقاً ، حقاً ، حتى لقد كانت له بعض الممارسات ذات الطبيعة الصوفية يقوم بها ولا يتحدث عنها الا بأوجز العبارات. لكن تدّين الرجل لم يجعل منه ذلك الإنسان الذي يقف عند النصوص والتقاليد المتوارثة فيلزم نفسه بها فيصبح مقلداً كأنه آلة ، كما كان شأن معظم من عرفت قبله من المتدينين. عند خليل جبري ، كانت القاعدة المفضلة أن أساس الدين هو حسن المعاملة والأحسان الى الآخرين والإمتناع عن إيذائهم. وكان الرجل في سلوكه يطبّق هذه القاعدة على نفسه ويتخذها مقياساً للحكم على الآخرين ، ولا يتردد في التضحية بوقته أو بجهده أو بماله حين يحتاج أحد لتضحية منه. أما السمة الغالبة في سلوك خليل جبري ، فكانت مرحه الشديد. كانت روح مرحة تسكن هذا الرجل وتشعّ من حوله في أي مكان يحلّ فيه ، فلا يكاد يحلّ في مجلس حتى يشيع الابتسام وينطلق الضحك وتتوالى الفكاهات التي يتفنن في روايتها أو تأليفها ، دون توقف. حتى قاعات المحاكم ومجالس القضاة التي تفرض طبيعتها ان تكون صارمة وجهمة ، كان ظهور « الاستاذ » فيها كافياً لتليين عضلات الوجوه المتجهمة وإشاعة الأجواء الطلقة وتبديل الهواء المتجمد.

وقد تميز « الاستاذ » بجسد مفرط في البدانة ، وربما كان أسمن رجل في دمشق آنذاك ، فكانت له كثافة حضور مادية فضلا عن كثافة حضوره الروحي ، بحيث لا يمكن لأحد موجود في المحيط الذي وجد فيه الأستاذ ان يمنع نفسه من التوجه اليه. فكان الاستاذ ، إذن ، سيّد المجالس وملك الحديث فيها. وبهذا وبغيره ، كان خليل جبري علماً في الوسط القضائي يعرفه الجميع ويتصلون به ، وكان نجماً في المحاكم يحبّه القضاة ويستريحون لحضوره. كان الأستاذ يبدأ يوم عمله بالمجيء الى المكتب ، وغالباً ما يكون ذلك في الساعة التاسعة ، حين اكون أنا قد سبقته ونظفت الحجرة الصغيرة الوحيدة ، التي هي هذا المكتب ، وهيأت الملفات التي سيستخدمها في يومه. وبمجيء الأستاذ ، كان الشاي يحضر ، يحمله إلى

المكتب صاحب البوفيه الموجود في مدخل البناية والذي يعرف مزاج زبونه فيحضر له ما يناسبه دون طلب مسبق. وفي العاشرة ، كان الاستاذ يحمل ملفاته إن كان عددها قليلاً ويتوجه الى المحاكم وأبقى أنا في المكتب. وحين يكون عدد الملفات كبيراً ، كان الاستاذ يصطحبني معه ، وكثيراً ما يبقيني برفقته وهو يتجول بين محكمة وأخرى حتى موعد التوقف عن العمل. بعد هذا ، كان الاستاذ يعود الى المكتب ، أو نعود إليه معاً ، وتكون في الانتظار وجبة الغذاء الدسمة التي أعدت في منزله والتي حملها الى المكتب ابنه حامد. وكان الأستاذ يصرّ على أن اشاركه الطعام ، لا يتساهل في هذا ، حتى في الاوقات التي يكون علي فيها أن أغادر المكتب. لقد عرفت في حياتي اكولين كثيرين ، لكنني لم أعرف منهم واحداً يشبه خليل جبري. كان هذا الرجل قادراً على أكل ما يكفي خمسة رجال أصحاء ، دون أن يبدو عليه أنه فعل شيئاً استثنائياً . وكان يتصرف مع الطعام كما يتصرف في أحواله كلّها ، يقبل عليه بمرح ، ويعالج شتى أنواعه بعناية شديدة ، فلا يتعجل التهام اللقم ولا يبلعها إلا بعد أن يشبعها مضغاً ، ولا يشرع في إعداد لقمة جديدة إلا بعد أن يبتلع سابقتها. وحين يتم الإستاذ التمتع بوجبته ، كان يأخذ شمّة وافرة من الصعوط الفاخر الذي يتفنن في جمع أفخر أنواعه ، ثم يسلم نفسه لاغفاءة على الكرسي ، ليبدأ بعدها في استقبال رُواد مكتبه ، والاستماع لقضاياهم ومناقشتهم فيها.

وبمضي الوقت ، عرفت في الرجل مزايا أخرى عززت قناعتي باستقامته وتشدده في الإلتزام بدواعي الشرف والنزاهة وزادت إعجابي به. وكان « خليل بك » ، كما يسميه زبائنه ، يقبل أن يتولّى القضايا التي يثق بأن أصحابها على حق ، حتى حين يكون هؤلاء عاجزين عن دفع أتعاب المحامي ، بل حتى لو كانوا عاجزين عن دفع الرسوم الضرورية وتوجب أن يدفعها هو من جيبه. وفي مقابل ذلك ، كان خليل بك يأبى تولي القضايا التي يبدو له أن أصحابها ظالمين أو أنهم يريدون التهرب من الوفاء بحقوق خصومهم . وكان الأستاذ حاسماً في هذا المجال ، فلا ينجح أي ضغط أو

إغراء في ثنيه عن التصرف وفق ما يمليه عليه ضميره . وأتذكر مرة جاء فيها إلى المكتب رجل أعمال من اصدقاء الاستاذ وطلب منه أن يتولى الدفاع عنه في قضية مرفوعة ضده الى المحكمة . ففي ورشة عمل تابعة لهذا الصديق ، سقطت خشبة كبيرة على أحد عمال الورشة فقضت على العامل ، فتوجهت أسرة الضحية الى المحكمة مطالبة بالتعويض الذي يفرضه القانون على صاحب الورشة. وقد كنت حاضراً ، حين روى الصديق لخليل بك هذه الحكاية على نحو أظهر أن رجل الأعمال يعدّ نفسه غير مسؤول عما وقع للعامل ، ما دام الأمر أمر قضاء وقدر ، ويطلب المساعدة من المحامي كي لا يضطر لدفع التعويض . هنا ، سأل الاستاذ محدثه بنبرة بتّ أنا أعرف أنها تعكس استياء يحاول السيطرة عليه : « هل بادرت ، بنفسك ، الى تقديم اي مساعدة لأسرة الفقيد ؟ هل تحملت ، مثلاً ، تكاليف الجنازة ؟ هل أرسلت لهم كيس طحين أو صفيحة زيت ؟ هل تفقدت حال الأسرة التي فقدت معيلها في ورشتك ؟ هل ذهبت ، على الأقل ، للتعزية وعرضت المساعدة ؟ » . وقد فوجىء رجل الأعمال بأسئلة خليل بك المتدفقة ، ونبرته المتهمة ، وقال في معرض الدفاع عن نفسه : « خرجت في الجنازة ... هذا ما فعلته » . وهنا ، أذنَ خليل بك لحنقه كلّه أن يظهر : « تقتلون الناس وتمشون في جنازاتهم ! » . قال المحامي هذه العبارة ، وصمت لحظة ، ثم سدد الى محدّثه نظرة ثاقبة : « إسمع يا صاحبي ! أنا أعرف أنك لم تتعمد قتل الرجل ، لكن هذا لا يعفيك من المسؤولية ، فالمتسبب ضامن حتى لو لم يتعمد ، هذا هو القانون. ومن يدري؟ فقد يكشف لنا التحقيق أن الحادث وقع نتيجة إهمال ، وهذا يجعل مسؤوليتك مضاعفة. وهناك ، فوق هذا كلّه ، الضمير. أنت رجل مقتدر ، ولا يضرك أن تساعد الأسرة المنكوبة . واذا أردت أن أتولى قضيتك فعليك أن تدفع للأسرة التعويض الذي يقرّه القانون ، وأنا أتعهد بأن احل المشكلة دون محكمة. أما اذا جئتني لاساعدك على هضم حقوق الأسرة ، فهذا لن يكون » . وعندما غادر رجل الأعمال المكتب ، وهو الذي لم يرجع اليه على كل حال ، كان الاستاذ ما يزال مهتاجاً فقال

لي : « شفت ؟ يعطيهم الله من ماله ، بحساب وبغير حساب ، فيبخلون حتى في أداء حقوق بسيطة كهذه الحقوق » . وبهذا ، كان الاستاذ قد أخرج كل ما في جوفه ، ثم ابتسم فجأة ، وسألني : « لقد طردته ، الم يكن ذلك طرداً ؟» ثم هتف : « أحضر الزبون التالي ، آمل ألا يكون من نوع صاحبي هذا ، عديم الضمير !» .

سبق أن قلت لك إن مكتب المحامي كان مكوناً من حجرة واحدة ، فكنت أبقى بجانبه معظم الوقت وأطلع على ما يدور فيها وما يحكى من قصص متنوعة . وقد أسهم هذا في توسيع مداركي ، ووضعني في عالم ما كان لي أن أعرفه في تلك السنّ المبكرة ، لو لم تتح لي هذه الفرصة.

إستأجر خليل جبري الحجرة في شقة من بناية ، في زقاق رامي المتصل بالمرجة ، ضمت ثلاث حجرات أخرى . هذه الشقة اشتراها واحد من أصدقاء محاميّ ، هو نسيب البكري ، ابن الاسرة الدمشقية الثرية الذي تعاون مع الحسين بن عليّ شريف مكة وأبنه الامير ثم الملك فيصل وكان بين نشطاء الثورة العربية ، ثم ساهم في تأسيس مملكة فيصل قصيرة العمر في دمشق. وكان « نسيب بك » هذا ، وهو المعدود ، أيضاً ، بين وجهاء الحركة الوطنية السورية ، قد انتهى الى الوضع الذي لا يمتهن فيه رجل مثله مهنة معينة بل يتفرغ للعلاقات العامة ، على طريقة زعماء تلك المرحلة ، ويترقب الفرص التي تهيء له تقلباتها الظفر بمنصب سياسي . وكان الابن البكر لنسيب بك ، وهو عطا ، قد تخرج من كلية الحقوق ، فاشترى أبوه هذه الشقة ليجعلها مكتباً للابن ومقراً يعقد فيه ، هو ، الأب ، لقاءاته مع أقرانه . وبحكم علاقة قديمة بين خليل جبري ونسيب البكري ، وافق الأب على طلب المحامي الفلسطيني باستخدام واحدة من حجرات الشقة ، لأن موارد المحامي اللاجيء لم تسمح له بالحصول على مكتب أوسع . وكانت المفارقة شديدة الوضوح بين الفخامة التي تكسو الحجرات الثلاث التي يستخدمها عطا بك ابن نسيب بك والصالة التي أعدت كمكان للإنتظار ، وبين البساطة الشديدة التي تعم الحجرة الرابعة. وكانت هناك مفارقة اخرى ، فالحجرة البسيطة تحولت الى

خليّة نحل لا يتوقف العمل فيها ؛ أما المكتب الفخم بحجراته الثلاث وصالة انتظاره فقد افتقر إلى الزبائن وبقي معظم الوقت مسكوناً بالهدوء ، إلا حين يحلّ به نسيب بك ويستقبل فيه زواره من السياسيين . ولم تكن نظرة المحامي الشاب لجاره تخلو من الحسد ، وإن احتفظ إزاء الجار بآداب السلوك وبالتوقير اللازم لصديق الأب. وبالرغم من تواجد المحاميين في شقة واحدة ، فلم تقم صلات كثيرة بين الاثنين. وكان باب الحجرة التي يستخدمها خليل بك يفضي الى الممر العام في الطابق ، فكان زبائنه ينتظرون دورهم للقائه ، في هذا الممر . ولم يكن خليل بك ، إذن ، بحاجة لدخول الشقة إلا من أجل الوضوء الذي يقوم به ، غالباً ، حين يكون زميله خارج المكتب. والزيارت القليلة التي يقوم بها خليل بك لمكتب جاره كانت تتم حين يجيء نسيب بك الى المكتب . وقد حرص خليل بك ، مرة ، على أن يقدمني للرجل الزعيم وتعمد أن يعرفه عليّ بوصفي أبناً لمجاهد فلسطيني . وهكذا تسنى لي أن أعرف هذا الرجل من آل البكري الذين قرأت عنهم في كتب التاريخ المدرسية . فالمعروف أن الامير فيصل ، ابن الشريف حسين ، تردد على دمشق وأقام عند آل البكري هؤلاء أيّام كان هذا الامير ينظم صفوف العرب القوميين تمهيداً لثورتهم ضد الدولة العثمانية. ويعرف كل من تعلم في المدارس السورية حكاية البرقية الشهيرة التي ارسلها الأمير إلى آل البكري والرمز الشهير الذي حملته عبارة « أرسلوا الفرس الزرقاء » فحملت به أمر قيادة الثورة في مكة الى رجالها في دمشق ليبدأوا العمل. وقد تعرفت في نسيب البكري على نموذج للزعماء السوريين من أبناء العائلات الشهيرة من كبار ملاك الارض.

كان لا بد أن تبهرني رائحة التاريخ المرتبطة بهذا الاسم ، وأن أحس بالإفتخار إذ يتيح لي أن أجالسه وجهاً لوجه. مع ذلك ، وبالرغم منه ، أستطيع أن أقول إني لم أحس بالراحة في حضرة هذا الرجل. فقد كان في مظهر الرجل وطريقته في الكلام والتعبيرات التي تتوالى على صفحة وجهه أشياء تشعرني بأني في حضرة إنسان من طينة غير الطينة التي أنتمي اليها وأني لا أستطيع أن آلفه أو أحبّه . أني اجهل لماذا تملكني هذا

الشعور في مجلس نسيب البكري ، ولا أستطيع أن أتبين ، على وجه يقيني ، سبب نفوري منه . بالرغم من ذلك ، فأنا أتذكر اشياء قد تساعدك على فهم السبب ، وإن كنت غير واثق ، الآن ، من أن الحجم الفعلي لهذه « الأشياء » كان ، حقيقة ، بالضخامة التي بدت لي آنذاك . قدمني محاميّ لنسيب بك هذا ، كما ذكرت لك ، بصفتي إبناً لمجاهد ، فلم يظهر في رد فعل الزعيم أن هذه الصفة أحدثت أي وقع خاص في نفسه. وهو ، على كل حال ، لم يأبه لوجودي طيلة الوقت الذي قضيته في مجلسه مع أني حاولت أن أسترعي انتباهه اليّ بشتى السبل . ولم يكن هذا كل ما في الأمر ، ولا كان أعمقه أثراً في نفسي ، فمن المألوف ، بعد كل حساب ، ألا يأبه رجل كبير له وزن نسيب بك ، بولد مثلي ، أيا كانت الصفة التي تميّز هذا الولد. ولعل أكثر ما آلمني كان سلوك نسيب بك إزاء صديقه المحامي. كان خليل بك ونسيب بك متعادلين في المكانة حين يتعلق الأمر بتاريخهما الوطنيّ ، فكل منهما انخرط في العمل العام في سن مبكرة . وكان الاثنان قد تعارفا منذ وقت طويل . وقد الف نسيب بك أن ينزل في ضيافة خليل بك عندما كان يزور يافا . وهكذا . فهما ، الى ما جمعهما في الشأن العام ، صديقان ، فهما ، إذن ، ندّان ، وليس في هذا الوضع ما يسوغ لنسيب بك أن يتعالى على صديقه بأي نحو من الانحاء. بالرغم من ذلك ، فقد كان في مسلك الزعيم السوري إزاء صديقه الفلسطيني شيء من التعالي ، شيء لا تلمسه باليد أو النظر لكنك تستشعره استشعاراً ، شيء لا يظهر في الحركة ذاتها ، ولكنه يرشح من خلال فقدان الحركة للحرارة ، ولا تفصح عنه عبارات الحديث إلا أنه يسيل مع النبرة المسترخية . وقد رحت ، أنا المسكون بفلسطينيتي ، أتساءل : لو أن خليل جبري ما يزال في يافا وأن نسيب البكري جاء اليها لاجئاً ، فهل كان محاميّ الطيّب سيعامل صديقه بترفع ؟ ولأن هواجسي بهذا الشأن افتقرت إلى الدوافع الواضحة فإني لم أجرؤ على مفاتحة الاستاذ بها ، فطويتها وانطويت عليها.

في ذلك الصيف ، عرفت نوعاً آخر من السوريين العاملين في الحقل

العام. شخصاً يختلف كل الاختلاف عن نسيب البكري. كان هذا هو المحامي نصوح الغفري. وكان يشغل مكتباً في الشقة المجاورة لمكتب خليل بك. وبحكم الجوار، كنت أتردد على هذا المكتب، حيث تعرفت على السكرتيرة التي تعمل فيه، وهي فتاة لا تكبرني الا بسنتين أو ثلاث . ولما توطدت معرفتي بهذه السكرتيرة ولحظت أنها لا تضيق بزياراتي ، ازداد ترددي على المكتب، وخصوصاً في الاوقات التي يذهب فيها المحاميان الى المحاكم ولا يصحبانا معهما. وفي أغلب الأيام، كنت أقضي عند السكرتيرة وقت الاستراحة الذي يستسلم فيه الأستاذ لإغفاءته اليومية ويكون فيه محاميها قد ذهب لتناول الغداء. وقد عرفت الكثير عن نصوح الغفري من سكرتيرته جانيت، هذه، وانتهى اليّ ما يدور حوله من همس وأقاويل قبل أن التقيه. كان الغفري شيوعياً معروفاً، وكنت أحمل في ذهني صورة مرعبة للشيوعي؛ فهو الإنسان الذي لا يؤمن بدين أو نظام ولا يعترف بمكارم الأخلاق بل يسعى لهدم ما بناه المجتمع من عادات وأصول وحرمات؛ وهو الساعي لاستبدال المجتمع القائم بآخر فاسد متحلل تنعدم فيه الضوابط ويباح في الاستيلاء على ممتلكات الآخرين، وتغيب فيه القيود على علاقات الناس ببعضهم فيتزوج الرجل أخته وتخون المرأة زوجها علناً ... وما الى ذلك بما هو مرعب. وكان الناس في الجوار، وخصوصاً في مكتب عطا البكري، لا يذكرون جارهم الشيوعي، هذا، بالخير. حتى خليل بك الذي لا يشترك في الهجوم على زميله كان لا يدافع عنه . أما جانيت فكانت تعطيني صورة مغايرة عن الرجل، فهو، في أحاديث سكرتيرته، شهم ومستقيم وشجاع، يقف ضد الأغنياء لانهم جشعون ومستغلون ويدافع عن الفقراء الذي هم أغلبية الناس لأنهم مظلومون. وكانت جانيت تهمس : هو وحزبه ضد السلطة، ورجال التحري يراقبونه كل الوقت، حتى تليفونه مراقب، لكنه لا يهابهم. وكنت أواجه جانيت بما أسمعه عن الرجل من غيرها، فنتجادل ولا نكفّ عن الجدل. والحقيقة أن تناقض الصورتين بلبلني. وزاد في بلبالي أن المحامي الشيوعي كان، دائماً، منصرفاً إلى عمل ما لخدمة الفقراء الذي

يحتشدون في مكتبه ويبدون ممتنين لما يقوم به من أجلهم دون أن يكونوا هم أنفسهم شيوعيين . هذا البلبال دفعني الى مفاتحة خليل بك بالأمر . تطرقت لهذا الموضوع مع محاميّ مدفوعاً بالرغبة في أن أحسم الأمر. ووجهت سؤالي لخليل بك حين كنّا نتناول طعام الغداء ، فصمت ، وامتدّ صمته لحظات طويلة فيما واصل التمتع بالوجبة . وظننت أن الاستاذ لم يسمع السؤال أو أني لم أكن واضح العبارة ، فكررت سؤالي عن المحامي الجار بصيغة أخرى : « هل صحيح أن الشيوعيين أشرار » ؟ .

يومها ، تبسط خليل جبري في الكلام ، وهو يعرض لي رأيه. كان واضحاً أن الامر معقد بالنسبة له هو الآخر . فهو يعرف أن الشيوعيون لا يقيمون وزناً للدين ، وأن منهم من يجهر بالالحاد ، ولكن هذا ، عند خليل بك ، أمر يحاسبهم الله عليه في الآخرة ، ما داموا لا يؤذون العباد. وجارنا ، كما يراه خليل بك ، رجل طيّب حقاً وليس في سلوكه مع الناس ما يؤاخذ عليه. أما ما يأخذه خليل بك على الشيوعيين ، ومنهم هذا الجار ، ولا يسامحهم بشأنه ، فهو موقفهم من قضية فلسطين وتبعيتهم للروس الاجانب ، فهم قد أيدوا قيام دولة اسرائيل على أرض فلسطين ، ودعوا الفلسطينيين للقبول بدولة لهم على جزء من وطنهم ، فقط ، وهم ، في هذا المجال ، يحذون حذو موسكو وينفذون الأوامر التي تجيئهم منها. ووجدتني أقول بعد استماعي للشرح الطويل : « هذا يعني أن الشوعيين عملاء ، لا فرق بينهم وبين عملاء الانجليز ، اليس كذلك ؟» . فنظر اليّ خليل بك نظرة واهنة ، كان موعد اغفاءته قد حلّ منذ زمن ، وأغفى قبل أن يجيبني. هنا ، جريت ، متأثراً بما سمعته ، ناحية جانيت وهتفت قبل أن أحيي : « استاذك عميل لموسكو ، وهو الى هذا ، لا يريد تحرير فلسطين». واجهت الفتاة ثورتي بسماحة ، ولم تزد على أن ابتسمت ، ثم مدّت لي كوب الشاي الذي تحضّره في هذا الوقت بانتظار مجيئي اليها. لقد اطفأ كرمها بعض اهتياجي ، فجلست قبالتها ، لكني لم افارق تجهمي. وتبسمت جانيت ، ثانية ، ثم قالت ، بنبرة من يشرع في الحديث عن موضوع جديد : « لماذا لا تقابل الاستاذ نصوح ، هو يعرف أنك تجيء الينا

ويعرف أنك فلسطيني ، هل تريد أن أرتب لك موعداً معه ؟» .

لقد سرني أن يجدني نصوح الغفري شخصاً مهماً فيخصص وقتاً للحديث معي. لكن هذا ، بالذات ، استنفر عنادي مسبقاً ، فجئت الى الموعد وأنا مصمم على أن لا أتساهل في الحديث مع هذا المفرّط في حقّنا في فلسطين. وبهذه النية ، ولجت الباب الذي فتحته جانيت ، وتعمدت أن القي التحية بصيغة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . متحدياً ، ضمناً ، ما افترضته من الحاد مستقبلي ، ومتقصداً أن استفزه بذكر الإسم المقدس. وكانت مفاجأتي الاولى حين رد الرجل تحيتي بأحسن منها حسب أدق الأصول الاسلامية : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » دون أن يشي أي شيء في نبرته أو تعابير وجهه بأنه يسخر مني. ولو لم أكن ذلك الولد القادم بروح التحدي لهدأتني هذه البادرة ، لكني كنت ، حقاً ، ذلك الولد ، فطرحت ، على الفور ، سؤالي حول قضية فلسطين بصيغة ظننت أنها ستخرج هذا الشيوعي عن طوره : « لماذا يريد الشيوعيون اعطاء فلسطين للصهيونيين ؟» .

ما أكثر ما قاله المحامي الشيوعي في ذلك اللقاء وفي لقاءات أخرى تيسرت لنا في ذلك الصيف ، وكم كان باله طويلاً وهو يعرض بأناة رؤيته لتطورات القضية الفلسطينية وتعقيداتها ، ويحاول اقناعي بصواب موقف الشيوعيين. لكني ، بالرغم من ذلك ، لم اقتنع . فقد كان هناك ، فوق المنطق الذي استخدمه المحامي وأهم منه بالنسبة لي ، إيماني البسيط لكن الراسخ ، بأن فلسطين هي وطن الفلسطينيين ، وقد اغتصب جزء كبير من هذا الوطن بقوة العدوان وشرد أهله وظلموا فلا يجوز الاقرار بنتائج هذا الظلم ، لأي ذريعة من الذرائع ، حتى لو كان ذلك من أجل الابقاء على الجزء الآخر. وكانت هناك ، أيضاً ، هذه المرارة التي تسكن روحي وهذا الاحساس بالقهر وهذه المعاناة الشخصية ، وكلها تحملني على عدم التسليم بالأمر الواقع أو القبول بجواز أن يلغي الظلم حقوق الآخرين . كما كان هناك ، الى هذا كلّه ، عنادي أنا الداخل في النقاش مع المحامي لأبيّن أني على حق وأن الشيوعيين على باطل ، واستكثاري على نفسي أن أهزم في

هذا النقاش. في مقابل هذا ، لم يبق حواري مع المحامي الشيوعي بغير تأثير علي ، فقد وجدتني إزاء إنسان متفهم مسلح بآداب الحوار والرغبة في إقناع الآخرين . ورأيت كيف أن هذا المحامي لم يستصغر شأني أنا الولد الذي يعمل أجيراً في مكتب زميل له ، بل بذل جهداً صادقاً لإقناعي ، مما عنى لي أنه يعاملني معاملة الندّ . فأثرت هذه الامور فيّ ومحت من ذهني إلى حد كبير تهاويل الصورة المرعبة المرتسمة فيه عن الشيوعيين. وقبل نهاية العطلة الصيفية ، حين عرفت أن الشرطة اعتقلت نصوح الغفري ووضعته في مخفر الشيخ حسن الرهيب ، شعرت بأسف حقيقي وتعاطف عميق مع الرجل. وقد قلت ، يومها ، لجانيت الحزينة إن محاميها يستحق الآن لقب البطل. وعندما أفرج عن الرجل ، بادرت لزيارته وقدمت له تهنئة حارة بالسلامة. وأردت يومها أن أعاود الحديث عن القضية الفلسطينية ، فقاطعني الرجل بلباقة : « شف ما نحن فيه ، على الديمقراطيين كلهم أن ينحّوا خلافاتهم جانباً ويركزوا عملهم لاسقاط الديكتاتورية. وهي ستسقط حين يتّحد الجميع في مقاومتها ».

وفي هذا الجوّ الذي تكشف لي خلال عملي مع خليل جبري ، نشأت لدي هواية جديدة مارستها باندفاع وبقيت أمارسها لسنوات عديدة تالية. فقد اجتذبتني وقائع المحاكمات التي تجري في محكمة الجنايات. شاقتني جوّ المحكمة وأزياء القضاة والمحامين والاجراءات المرسومة المتبعة ، كما شاقتني القصص التي ترتسم امامي عبر الإفادات والشهادات المتنوعة والصراع الذي يدور بين النيابة العامة والدفاع. ولعل أشدّ ما شاقني في وقائع المحاكمات قدرة الأطراف المتصارعة على تقديم روايات متناقضة للواقعة الواحدة وسوق البراهين التي يقنعك كل منها بصواب الراوي. كنت قد قرأت « يوميات نائب في الأرياف » لتوفيق الحكيم ، وعرفت شيئاً عن اجراءات التحقيق والمحاكمة ، فلما رأيت محاكمة حقيقية أدركت كم أن المشاهدة أمتع من القراءة. كنت أراني في كل قضية إزاء جريمة مختلفة عن الأخرى. وكنت أجد في كل محاكمة إعادة تمثيل عملية للجريمة ، وهي اعادة لا تتم مرة واحدة بل مرات ، فالدفاع يقدم

عرضاً ، والادعاء الشخصي يقدم ثانياً ، والنيابة العامة تقدم ثالثاً مختلفاً عن الاثنين. تستمع لما يقال في العرض الاول فترى وجهاً للحكاية يكاد يقنعك بأن المجرم الجالس في القفص بريء أو أنه ضحية لظروف قاهرة لا يملك لها دفعاً. ويتكرر الأمر ، لكن لحملك على الإقتناع بما هو مغاير في العروض التالية ، وتحتار ، ثم تترقب حكم القضاة بشوق ، فلا تستطيع أن تفوت فرصة الحضور للاستماع الى الحكم ، ويلزمك خلال ذلك كلّه ، أن تتدرب على تشغيل عقلك بتمحيص الروايات ومحاولة استخلاص ما هو صادق او كاذب فيها واستباق حكم القضاة الذي يبنونه على استخلاصاتهم هم. وهناك متهمون تجد نفسك متعاطفاً معهم فتسوؤك الوقائع التي تنذر بانهم قد يدانون او يعاقبون . وهناك متهمون تكرههم حتى وأنت ترى أن أدلّة إدانتهم غير كافية ، فتتمنى لو أن محامي الإدعاء أو وكيل النيابة أبرع مما هما عليه في الواقع ليتمكنا من توفير أدلة الإدانة ، وتغتاظ إن كان محامي الدفاع بارعاً فتمكن من دحض دليل أو إحباط شاهد. في محكمة الجنايات ، تجد نفسك إزاء عالم الجريمة ، وقد أحاط به المجتمع فأنت تشهده بتفاصيله كلّها دون أن تكون في خطر ، وأنت ترى أطرافه كلّهم عن كثب ، دون أن تكون لك صلة بأي منهم ، وأنت تعيش هذا العالم بكل تلاوينه ، دون ان تحتاج للانخراط فيه.

في ذلك الصيف ، طغت هذه الهواية على هواياتي كلّها ، حتى لقد ضؤلت أمامها هواية المطالعة. وصرت أستأذن خليل بك حين تكون في المحكمة قضية من نوع شائك او حين أكون قد رأيت فصولاً من قضية وحان وقت فصل جديد. ولم يكن الرجل يمانع ، بل إنه كان يشجعني . وكان يحلو لمحاميّ أن يمتحن قدرتي على استيعاب ما أراه ، فيوجه لي أسئلة ، ثم يشرح لي ما يخفى علي ويحثني على التنبه لمجريات المحاكمات في ضوء شروحه . وكان هذا كلّه ، بالاضافة لما فيه من متع ، عظيم الفائدة. لقد أراد أهلي أن أستفيد من وجودي مع المحامي الصديق ، فتحقق ذلك ، لكنّه تحقق على نحو أرضاني تماماً.

مجال آخر انفتح في ذلك الصيف. فبانتقال الاسرة للسكن في مكتب

عنبر ، صرنا قريبين جداً من حيّ اليهود ، أو حارة اليهود بالتعبير الدمشقي. وكان هذا الحيّ ، قبل مجيء اللاجئين الفلسطينيين الى دمشق ، يضمّ أغلبية يهودية يجاورها عدد من الأسر المسيحية وأقل منه من الأسر المسلمة. وهو واحد من أحياء دمشق القديمة تتراصف فيه الدور ذات الطراز العربي وتتخلله شبكة من الأزقة الضيقة تقطعه طولاً وعرضاً وتصله بالأحياء المجاورة فلا يميزه عن الأحياء القديمة الأخرى إلا إسمه . وعندما قامت الدولة العبرية في فلسطين ، تطلع يهود الدول العربية الى الهجرة اليها. وهكذا ، أخلت أسر كثيرة في الحيّ دورها ووجدت طريقها إلى إسرائيل. ولم تكن هذه هجرة شرعية ، فالقانون السوري يحظر على المواطنين السوريين التوجه الى اسرائيل بحكم حالة الحرب القائمة معها . فكان المواطنون اليهود الراغبون في الهجرة يتسللون تسللاً مخالفين القانون. وقد وضعت السلطات السورية يدها على الدور المهجورة وتولت المؤسسة العامة لشؤون اللاجئين الفلسطينيين الإشراف عليها. وكان أن عمدت المؤسسة الى إسكان أسر فلسطينية في الدور التي هجرها أصحابها اليهود. وقد سبق لك أن عرفت أن زميلنا في قيادة عرب فلسطين ، صبحي عرب ، كان يسكن في واحدة من هذه الدور مع أسرته . وكان كثيرون من زملاء المدرسة أو ممن تعرفت عليهم خارج المدرسة يسكنون في الحيّ اليهودي. وقد تصادف أن أحد التنظيمات المنافسة لعرب فلسطين ركز نشاطه في هذا الحيّ بحكم تواجد معظم أعضائه فيه. وهكذا ، قادتنا المنافسة إلى الإهتمام بهذا الحيّ ، وكان صبحي القاطن هناك هو المسؤول عن نشاطنا فيه. فلما سكنت في الجوار ، تقرر أن أنضم إلى صبحي ، وتوجب علينا ، هو وأنا ، أن نخترق أرض التنظيم المنافس ونستفيد من علاقاتنا الشخصية مع أبناء الحيّ من الفلسطينيين كي نوسع وجودنا التنظيمي فيه. وقد أضيف إلى مجال نشاطنا ، صبحي وأنا ، مخيم اللاجئين الصغير الذي نشأ فوق أرض عراء جنوبي الحيّ بجوار مدرسة الأليانس. وكانت هذه المدرسة التي انشئت قبل العام ١٩٤٨ ليتعلم فيها أبناء اليهود قد خلت من تلاميذها اليهود ، فجعلت الاونروا منها مدرسة للتلاميذ الفلسطينيين. وبمضيّ الوقت ، ومع اتساع المخيم المجاور وتزايد عدد

القاطنين في الحيّ والأحياء المجاورة من الفلسطينيين ، صارت الأليانس اكبر مدارس الاونروا ، وضمت اكبر تجمع للمعلمين ، كما صارت مركزاً لنشاط الاحزاب والتنظيمات.

هذا الوضع جعلني على تماس مع اليهود الباقين في الحيّ. لم تنشأ العلاقات للتو ، بالطبع ، فقد كان التهيّب متبادلاً . ومن الصعب أن نقول إن اليهود الباقين في الحيّ قبلوا ، بسهولة ، أن يحلّ اللاجئون الفلسطينيون في الدور التي كانت لأبناء دينهم . كما لم يكن من السهل أن يتصرف اللاجئون بعفوية تامة إزاء هؤلاء اليهود. لكن حاجات الجيرة والنوازع الإنسانية العميقة كانت أقوى من أن تكبلها الإعتبارات السياسية إلى الأبد. فكان لا بدّ من أن تنشأ ، ولو بالتدريج، تلك الصلات التي تقوم بين الجيران. كانت الصلات تبدأ ، في العادة ، على استحياء واستجابة لضرورات لا يمكن إغفالها ، ثم تتطور وتتسع ويكتشف المتجاورون أن هواجسهم إزاء بعضهم البعض مبالغ فيها. وكان الأمر ينتهي إلى ما ينتهي اليه الجيران من إقامة علاقات بناءة أو الدخول في منازعات ، دون أن يكون للمؤثرات السياسية دخل كبير فيها.

والحقيقة أن صلتي الأولى مع يهود من هؤلاء بدأت في قسم الشرطة. قبل ذلك ، كنت أعبر أزقة الحيّ فأتجنب الإحتكاك بسكانه اليهود كما يتجنبون هم الإحتكاك بي ، أصادف واحداً منهم ماراً ، أو تقع عيني على حلقة من العجائز جالسات للثرثرة أمام إحدى الدور ، فاعبر بأسرع ما استطيع. وكان أصحابي في الحيّ يحدثونني ، وغالباً ما يكون ذلك باندهاش شديد ، عن اكتشافاتهم فيه. أغلب الاحاديث تدور حول الرشوات التي دفعها للشرطة الذين غادروا الحيّ من اليهود كي يتمكنوا من التسلل خارج البلاد ، أو حول المشاكل الاجتماعية الناجمة عن هجرة الشباب من الذكور وبقاء إناث الحيّ عوانس.

أما أكثر الحديث ، مما كانت له صلة باهتماماتنا الراهنة ، فكان يدور حول موقف الشرطة : لقد عرف أصدقاؤنا أن رجال الشرطة يحصلون على رشاوى منتظمة من اليهود بدعوى أنهم يوفرون لهم الحماية من تطاولات

الفلسطينيين عليهم. وكان هذا يتضمن اتهام الفلسطينيين بأنهم قد يعتدون على جيرانهم اليهود لولا يقظة الشرطة ، وهو أمر وجدنا من الضروري أن نتجند لنفيه. من هنا ، بادر عدد من الشباب الفلسطينيين المهتمين بالشأن العام للاتصال بجيرانهم اليهود ، فنجحوا ، أو فشلوا ، في إشاعة الطمأنينة ، ولم يكفّوا عن بذل الجهد للدفاع عن سمعة مواطنيهم. وكان بعض المرتشين من رجال الشرطة ، مدفوعين بالرغبة في استمرار الحصول على الرشوة ، يبالغون في إبراز أي مظهر سلبي للعلاقة بين الجيران ، فيجعلون من الحبّة قبّة ، كما يقال ، ويجلجلون بأية واقعة مهما كانت صغيرة. وقد جئت إلى الحيّ ، مرة ، لأقابل صديق الدراسة فايز ، حين كان أبوه وأسرته مشتبكين في خناقة حامية مع جيران يهود. كانت قذائف الشتائم قد استنفدت ، فانتضيت الأسلحة المنزلية وبدأ الأمر على وشك أن يتحول الى اشتباك بالمكانس والعصيّ. وقد وقفت ، بالطبع ، في الجانب الذي تقف فيه أسرة صديقي ، دون أن أتمكن من استطلاع السبب الذي نشبت الخناقة حوله. ووصلت الشرطة ، واقتادت الجميع الى القسم. وبدأ التحقيق وسط اللجب الشديد الصادر عن الجماعتين وهما تتبادلان الصراخ فتؤكد كل واحدة منهما أن الأخرى هي التي بدأت الاستفزاز. هنا ، ساستبق الوقائع لاطلعك على سبب الخناقة كما اسر به فايز لي. كان هذا الصديق قد ألف أن يلاطف ابنة الجيران اليهودية . وكانت هذه الإبنة واخت لها أصغر منها قد ألفتا أن تشاكسا فايز. وفي ذلك اليوم ، اكتشفت الفتاتان سلكاً فالتاً من تمديدات الكهرباء ، فراحتا تعبثان به وتستمتعان بما يسببه عبثهما من تشويش في الراديو الذي يتحلق فايز واسرته حوله. وكتم فايز عن أهله معرفته اليقينية بأن البنتين تقصدانه هو بعبثهما. واهتاج أبو فايز الذي لم يجد لهذا العبث تفسيراً سوى اعتقاده بأن جيرانه اليهود يتقصدون إزعاجه هو الفلسطيني. وانتهى الأمر بأن فقد أبو فايز سيطرته على نفسه وانفجر ما يختزنه في داخله من آلام ومرارات فخرج الى البنتين وتصدى لهما. فكانت الخناقة التي شهدتُ ختامها.

راقبت مجرى التحقيق في القسم ، ولاحظت ، دون عناء ، انحياز

الرقيب المحقق للأسرة اليهودية. وعندما جاء دوري وسألني الرقيب ، غير مخف استهانته بي ، عن سبب اشتراكي في الخناقة ، جاء جوابي مشحوناً بغيظي مما أعرفه عن الرشوات وما أشهده من انحياز . وهكذا ، قلت للرقيب إني جئت في الختام فلم يتح لي أن أشترك في شيء . وأردت أن أعرّض بموقف الشرطة ، فاضفت ، دون أن أسأل : « لم أعرف أن الطرف الآخر في الخناقة هو يهودي. وأنا لا اشترك في أي خناقة مع اليهود » .

هذا هو القول فسرته الأسرة اليهودية على غير ما قصدت من ورائه في حينه ، فظنت أن هذا الولد الفلسطيني يتعمد أن يعلن عن أنه لا يعادي اليهود. وعدّت الأسرة ذلك شجاعة مني ، خصوصاً أني أعلنته في تحقيق رسمي بحضور أصدقائي. انتهت الخناقة ، كالعادة ، بالمصالحة بين الأسرتين ، بل صارت فاتحة لعلاقات طبيعية تطورت بينهما. ونالني من الخناقة هذا الرأي الحسن الذي كونته الأسرة اليهودية عني ، وهو رأي فتح لي منزل هذه الأسرة فصرت من زواره. بدأ ذلك بعد أيام من الخناقة. وكنت أغادر منزل فايز حين فوجئت بواحدة من البنتين واقفة بانتظاري في الزقاق . وتقدمت البنت وقالت بما يشبه الهمس : « امي تريد أن تراك » ، فتبعتها ، لأني لم أشأ أن أبدو فظاً. وبعد أن ولجت باب الدار ، انتظرت بقربه بحكم العادة المتأصلة حين ندخل منازل الأسر المسلمة ، فنتريث لاعطاء الفرصة للنساء من أجل الاستعداد لاستقبال الغريب. غير أن البنت التي تقودني هتفت بمرح ، وقد انتبهت لتوقفي : « لا تتردد ، لن يأكلوك هنا ! » . ولم تنتظر أن أتحرك من تلقاء نفسي ، بل جذبتني بيدها وانطلقت بي الى الحجرة التي تنتظرني أمها فيها. لقيت ترحيباً ودوداً من الأم. وتبسطت المرأة الجالسة على صوفا مغطاة ببساط شرقيّ النقوش في الحديث معي ، وتوالت أسئلتها بليونة ، عن الأحوال والأهل ، والدراسة ، والمكان الذي جئت منه ، وما إلى ذلك. وفيما نحن نتحادث ، جاءت البنت التي تبين أن اسمها أوديت بشاي وكعك معد في المنزل. وكنت ما أزال تحت تأثير الاستقبال المفاجىء فلم أمد يدي إلى ما قدم لي ، فحثتني الأم على التصرف ببساطة ، واختارت من طبق الكعك قطعة قدمتها لي

هنا قلت للأم : « مثل هذا الكعك نعدّه نحن في أسرنا في الأعياد » . فقالت هي : « أعرف ، حدثني بهذا اللاجئون القادمون من هناك » . قالت السيّدة اليهودية : « من هناك » . ولم تقل « من فلسطين » او « من اسرائيل » ، وقد لفت استخدامها لهذا التعبير دون سواه نظري فرحت افكر في مغزاه ، وصمتت هي برهة ، ثم وجهت لي نظرة مباشرة وانتبهت الى أن نظرها تركز على عيني العوراء. فاطرقت برأسي ، وقطعت هي الصمت بسؤال لا أدري لماذا هجست في تلك اللحظة بأنها ستوجهه لي : « كيف حدث هذا ، ما الذي اصاب عينك ؟» .

لأمر ما ، لعله أن يكون مفهوماً في موقفي ذاك ، تعمدت في روايتي للحادث الذي أودى بنور عيني أن يتضح أن المصيبة وقعت بسبب الحرب التي شنها علينا الصهيونيون اليهود وأخرجونا خلالها من قريتنا. أنت تعرف أن الأمر كان كذلك ، بالفعل ، بمعنى من المعاني ، فأنا ، اذن ، لم أكذب ، كل ما هنالك أني أردت أن تفهم السيدة اليهودية هذا الأمر بوضوح تام. واستمعت هي إلى روايتي دون أن يبدو عليها أي اندهاش ، ثم صمتت لحظات أخرى ووجهت إلي تلك النظرة المباشرة ، وقالت : « أعرف امرأة في هذا الحيّ ، هي ، كيف أقول ، يهودية ، وهي تستطيع معالجة عينك » . وقد أخذت بهذا العرض ، وهممت بأن أقول شيئاً ، وكنت أنوي أن أسأل هذه المرأة عن سرّ اهتمامها بي ، هي التي لا تكاد تعرفني ، غير أن إيضاحها سبق السؤال : « من أجل هذا أردت أن تجيء الينا ، أنت شاب طيب » .

ربما كان من المهم أن أقول لك إن احتكاكي في ذلك الصيف بالعالم الجديد الذي دخلته بصحبة خليل جبري قد فاقم ، من جديد ، إحساسي بالضيق من وجود هذه العين التي تشوه وجهي. كنت ، بالطبع ، اكتم إحساسي بالضيق ، لكنه كان يمضّني ليل نهار وينغص عليّ المتع التي تيسرت لي . فكنت ، إذن ، على استعداد للإستجابة لأية بارقة تنطوي على الأمل بالخلاص والحقيقة أن جدّي لم يتوقف عن البحث عن حلّ لمعضلة العين. وخليل بك ، نفسه ، كان قد ارسلني قبل اسابيع الى

طبيب عيون مشهور من اصدقائه. ولكن هذا الطبيب جزم ، كما فعل زملاؤه الذين رأوني قبله ، أن الوقت قد فات . وقد كرر هذا الطبيب ما اجمع عليه الآخرون ، فقال ، أن الحل الوحيد المتبقى هو استئصال العين المصابة ووضع عين زجاجية مكانها. ونصح الطبيب بالتعجيل بإجراء العملية لأن الأمر متعلق بسلامة العين الأخرى . وكان جدّي على كل حال قد سلم بما قاله الاطباء بهذا الشأن ، وعرف أن هذه العملية مكلفة ونفقاتها فوق طاقتنا ، فتوجه الى الاونروا ، فقيل له انهم مستعدون لتغطية النفقات . ولكن اجراء العملية متعذر في غير مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت. وكان علي ، اذن ، ان انتظر دوري في القائمة الطويلة للمحتاجين الى الذهاب الى مستشفى هذه الجامعة والظروف التي تسمح بارسالي الى لبنان. وها هي هذه المرأة تلوّح لي بأمل غامض ، فلم لا أجرّب؟! .

وفي اليوم التالي ، دخلت داراً اخرى من دور الحيّ ، بصحبة ام اوديت. ودار بي سلم خشبيّ عتيق ومعتم حتى بلغت حجرة منزوية في الطابق العلوي. قالت مرافقتي : « هذه ام شوعا » . كانت أمامي عجوز أكل الدهر وشرب عليها وعلى الزيّ الذي تلبسه ، وقد جلست في ركن من الحجرة يضعها في الضوء الداخل من النافذة الوحيدة التي رفعت ستائرها. أما الستائر الأخرى فكانت مسدلة ، فكان جوّ الحجرة ، على العموم ، معتماً. ودعتني ام شوعا للجلوس قبالتها بحيث اواجه الضوء ، والقت نظرة على عيني المصابة دون ان تمسّها ، ثم قالت بنبرة حرفية : « دواؤك عندي ، وهو يكلفك عشرين ليرة » . وقبل أن اقول شيئاً ، اضافت هي : « تدفع النصف الآن ، والنصف الثاني بعد الشفاء. عشرون ، فقط ، من اجل خاطر ام اوديت » . بكشف على عيني مثل هذا الكشف المهمل وبحديث لا يتناول الا الاجرة. ما كان املي بالشفاء لينتعش. وكنت قميناً بأن ارفض للتوّ واهرب من هذا الجوّ الذي لا يوحي بأية ثقة. لكن الغريق يتعلق ، كما تعرف ، ولو بقشّة. وفاقد الأمل في شيء عزيز لا يكفّ عن الحلم بوقوع معجزة. وقد كان هذا هو حالي مع العجوز . واجريت

حسبة عاجلة. فخليل بك كان يدفع لي خمسين ليرة في الشهر حسب اتفاقه مع أهلي ، هو مبلغ ادفعه انا لدعم ميزانية الاسرة. أقدمه كلّه للجدّة فتعطيني هي عشر ليرات لمصروفي. لكن الرجل المتفهم ، وقد عرف اني لا احصل الا على هذه الليرات العشر ، قرر ان يدفع لي خمس عشرة ليرة اخرى واوصاني ان اتمتع بها واكتم الامر عن الآخرين ، وهكذا ، كان في مقدوري ان ادفع الاجرة التي تطلبها العجوز ، فأبلغت اليها موافقتي على شرطها ، وتعجلت التعرف على الوصفة التي ستعالجني بها.

الا ان هذه العجوز لم تؤخذ بالحاحي ، بل قالت بهدوء مغيظ : « احتاج لايام من أجل إعداد الدواء ، ارجع اليّ بعد اسبوع فتجده جاهزاً!».

قد يصعب عليك أن تتصور كيف امضيت اسبوع الانتظار. فبعد أن عقدت الاتفاق مع العجوز المعالجة ودفعت مقدم الأجر ، اطلقت العنان لوهم أسرني ، واقنعت نفسي بأن بين هؤلاء المعالجين الشعبيين من يصنع المعجزات التي يقصر عنّها امهر الاطباء. ورحت استعيد في ذهني حكايا كثيرة سمعتها عن امراض أزمنت وعجز الطبّ عن شفائها فشفاها ناس من هؤلاء. لقد سممت العاهة التي لا يمكن اخفاؤها حياتي وخلقت لي عقدة شديدة التأثير على سلوكي. ثم تضاعف تأثير العقدة في ذلك السنّ الذي تنمو فيه احاسيس الذكورة وأحتاج فيه الى أن احظى باعجاب الفتيات. وقد اسلمتني العقدة الى الاعتقاد بأنه ما من فتاة ستعجب بي ، فصرت أتجنب ملاطفة أية فتاة. وبانبثاق الامل بدواء العجوز اليهودية ، تفجرت الاحاسيس المكبوتة كلّها ، وامضيت اسبوع الانتظار غارقاً في احلام اليقظة. فصرت اتخيلني ذلك الفتى الصبيح ذي العينين الفاتنتين ، واستحضر في مخيلتي الفتيات اللواتي سأتمكن من اغوائهن ، وارسم الخطط للايقاع بهن ، واعيد رسمها ، دون توقف. وما أن انقضى الاسبوع حتى وجدتني اصعد السلّم الخشبي ، وحدي هذه المرة ، والج باب الحجرة المنزوية واقف في مواجهة العجوز الغارقة في ضوء النافذة. ولما رأتني

العجوز امامها ، تمعنت برهة في هيئتي ، ثم نهضت بجلال ، وتوجهت بخطوات وئيدة الى ركن في الحجرة هو أشدّ اركانها قتاماً ، فيه صيوان يضمّ ، على ما بدا لي ، اسرار العجوز. واولتني المرأة ظهرها لحظات ، ثم عادت وفي يدها قارورة من الحجم الذي توضع فيه قطرات العيون ، وقالت وهي تناولني القارورة : « هذا كحل صنعته من سبع موادّ لا يعرف سرّها غيري. تكحّل به مرتين في اليوم واحدة في الصباح والثانية في المساء ، وبعدها يكون الشفاء!». والحقيقة أن القارورة المتواضعة ، بكحلها الذي بدا لي من النوع المألوف ، صدمتني ، وشككت في أن يكون لهذا الكحل السحر الذي تنسبه العجوز له. لكنني لم أجرؤ على الافصاح عن شكوكي امام المهابة المحيطة بتلك المرأة . فأخذت القارورة وانصرفت شاعراً بأني خائب الرجاء. ولا بدّ ان تكون العجوز قد استشفت هواجسي ، فقد استوقفني صوتها وانا ما أزال على السلم ، وسمعتها تقول : « اذا لم تحصل على النتيجة المرغوبة بعد سبعة ايام ، ارجع لي ، لا تيأس ! » .

والذي حصل اني رجعت بعد سبعة أيام ، ذلك ان الكحل أثر على لون العين العوراء فحوّله من الرمادي الفاتح الى الرمادي القاتم. وحصلت على قارورة فيها ، بدل الكحل ، مرهم ، وهو ، مثل الكحل ، مصنوع من سبع مواد تعرف العجوز ، وحدها ، سرّها. ثم رجعت بعد سبعة أيام اخرى ، وتكرر رجوعي ، حتى انقضى الصيف كلّه. دون أن اظفر الا باليأس التام من هذه العجوز ومن طبّها. وفي غضون ذلك ، كنت أشكو امري الى أم اوديت كلّما لقيتها ، وكانت هذه المرأة التي تصرفت بنية مساعدتي تصبرني . فلما يئستْ أم أوديت ، كما يئست أنا ، توجهت الى العجوز ولامتها على تعليلي بالأمل الخادع واستنفاد نقودي. لكن العجوز المداوية لم توخذ بهجوم صديقتها عليها ، بل قالت بثقة ان استعصاء العين على الشفاء ، بالرغم من الأدوية الفعالة ، يعني أن هناك سحراً مرصوداً يحول دون شفائها ، ولن تنفع الادوية ما لم يفك هذا السحر. وقد أرسلت لي العجوز مع أم أوديت نصيحة بأن أتوجه الى سيدة اخرى سمتها باسمها لأن هذه السيدة ذات باع طويل في فك السحر

المرصود. وبهذه النصيحة ، انكشف امامي بوضوح المدى الذي تدفعني فيه عجوز تعرف كيف تتدبر امر الحصول على المال ، وكففت عن الاهتمام بها.

وخلال ترددي على دار العجوز ، تعرفت على شاب يهودي لا يكبرني الا بسنوات قليلة واسمه شوعا. وها أنا لا أتذكر ان كان من اقرباء العجوز او مجرد قاطن في دارها يحمل الاسم ذاته الذي يحمله ابنها. كان ابو شوعا واخوته الاكبر منه قد وجدوا طريقهم للهجرة الى اسرائيل. ثم ماتت امه قبل أن تلحق بهم ، وتزوجت اختاه يهوديين من حلب فذهبتا للسكن مع زوجيهما في تلك المدينة السورية البعيدة ، وبقي وحيداً. وكان شوعا قد ظفر بالشهادة الثانوية للتوّ. لكن ظروفه لم تسمح له بالالتحاق بالجامعة ، فالتحق ، بدل ذلك ، بدكان كبير في سوق الصالحية يملكه يهودي من معارف اسرته وبدأ عمله كخياط متدرب في الدكان . وقد بقي شوعا يعاملني معاملة متحفظة اثناء ترددي على الدار للعلاج ، كما يفعل ، في واقع الامر ، مع الزوار الذين يجيئون لهذا الغرض كلّهم . ثم لقيني شوعا ، مرة ، عند ام اوديت ، فلما عرف قراري بالتوقف عن الجري وراء وعود العجوز ، أيدني تماماً. وفي هذا اللقاء ، عاملني شوعا بطريقة مختلفة عن السابق ، وصرنا ، بعدها ، اصدقاء.

١٣

اقتحمت الشرطة حرم الجامعة فاستقال العميد

سنتي الاولى في المرحلة الثانوية كانت سنة الاضطرابات المتواصلة التي وسمت حياة سوريا في المواجهة مع النظام الديكتاتوري . وقبل أن اجدني منخرطاً في هذه المواجهة ، شأني في ذلك شأن العديد من التلاميذ ، توجب علي أن اخوض مواجهة أخرى في المنزل . وكانت شهادة خليل بك عن عملي معه وسلوكي خلال الصيف قد اقنعت خالي نافذ بأني اعود الى الطريق المستقيم التي يريده هو لي . وقد خفّ تشدد الخال ازائي ، واستعادت علاقتي به تلك المودّة التي افتقدتها ، منذ هاجرنا من بلادنا . لكن المشاكل تجددت في نهاية العطلة الصيفية حين صار عليّ أن أحدد الاختصاص الذي سأتبعه في الصف الجديد . كانت المرحلة الثانوية ، في ذلك الوقت ، تدوم سنتين وتضمّ فرعي اختصاص أحدهما علمي والثاني ادبي . ولم يساورني اي شك في أن رغبتي وامكاناتي

تؤهلني للانتساب الى الفرع الادبي. أما الخال فقد أصر على أن انضم الى الفرع الآخر. كان لي منطقي الواضح والحق بالنسبة لي ، فقد بتّ اجد صعوبة كبيرة في هضم مادتي الفيزياء والرياضيات ، وخصوصاً في حفظ القوانين والرموز وبالتالي في معالجة المسائل ، ولا يستبعد ان تزداد هذه الصعوبة في السنوات القادمة . ثم أنني كنت ، بالمقابل ، متفوقاً في دراسة المواد الادبية ، بالاضافة الى أن طموحي لدراسة الادب في الجامعة كان قد تبلور ، بدرجة كافية من الوضوح ، منذ انهيت المرحلة الاعدادية. وما استجدّ في هذا الصدد هو تفكيري بأن أدرس القانون لاصبح محامياً. والفرع الادبي يؤهلني للانتساب لكلية الآداب او كلية الحقوق في الجامعة ، فلا داعي اذن لهذه المعاناة التي سأتكبدها حين ادرس العلوم. وكان لخالي ، من جهته ، منطقه الواضح والمتماسك. فعند الخال ، ليست رغبتي سوى نزوة اوجدها تعلقي بهذه المطالعة التي لم يؤيدها في أي وقت ، ومن الممكن لهذه النزوة أن تختفي عندما أكبر وانضج واعرف مصلحتي . وفي يقين الخال أن مصلحتي تكمن في دراسة العلوم حيث تؤهلني الثانوية العلمية للانتساب الى كلية الطب او كلية الصيدلة اي للظفر بمهنة من هذه المهن المحترمة التي حرمته منها الظروف. اما الصعوبة التي اجدها في دراسة العلوم فالخال ينسبها الى انصرافي أنا عن التركيز على هذه المواد ، واستغراقي في التركيز على المواد الأسهل ، أي الى ارادتي ، وهو يجزم بأن الذكاء والمقدرة لا ينقصاني وكل ما ينقصني هو الارادة والعزم على تخصيص الوقت والجهد للدراسة وليس لهذه المساخر التي يرى اني انشغل بها ، دون طائل. وكان الخال يضيف الى الحجج التي يوردها بهذا الصدد ان الشهادة العلمية تؤهلني ، هي الأخرى ، للانتساب الى كلية الآداب او كلية الحقوق اذا تمسكت بعد سنتين بالانتساب لواحدة منهما. وكان الخال يردد اني كنت ، انا نفسي ، قبل أن يفسدني المشايخ ومساخر الأصحاب متفوقاً في المواد العلمية وليس الادبية ، وحدها. وأيّد أهلي كلّهم ، بمن في ذلك جدّتي المتفهمة وخالتي الحانية ، وجهة نظر الخال. ولم أملك ، في نهاية المطاف ، الا أن أرضخ. ولكن

رضوخي عنى انطوائي على آلام ممضة ، وجعلني أحسّ بأنني ضحية تزمّت الاهل واصرارهم على أن يصنعوا مني ما يريدون هم لا ما أريد أنا او ما تؤهلني له امكانياتي .وهكذا ، توجب عليّ أن اعاني الاهوال مع الفيزياء والرياضيات ومعادلاتها ورموزها التي توجع رأسي . وقد صرت واحداً من أضعف تلاميذ الصف العاشر في المواد العلمية ، دون أن اكون بليداً او خامل الذهن. وظهرت المفارقة سافرة اذ كنت ، في الوقت نفسه ، افضل تلميذ في مواد اللغة العربية وآدابها والتاريخ والتربية الوطنية والمنطق. بل إني كنت ، حين يتعلق الأمر باللغة العربية ، وخصوصاً قواعدها ، أعدّ ، في الصف نداً للمدرس ذاته ، وكان المدرس والتلاميذ يعاملونني على هذا الاساس.

وفي تنظيم عرب فلسطين ، كنا ما نزال تحت تأثير الخوف من انكشاف امرنا ، فبالغنا في اجراءات التخفي. وقد تسبب هذا في تضاؤل الانشطة الخاصة بالتنظيم. وتزامن هذا الوضع مع اتساع العمل السياسي المعارض للسلطة في البلاد كلها وزيادة مساهمة المدارس والجامعة فيه. كل هذا أدى الى اجتذاب عدد من انصار التنظيم للانخراط اكثر فأكثر في الحياة العامة السورية ، وبهوت فكرة الدعوة للعمل الفلسطيني المستقل. والواقع أنه كان من المتعذر الاستمرار في الترويج لفكرة العمل الفلسطيني المستقل عن مجرى الحياة العامة في البلاد بينما كان تأثير الديكتاتورية السلبي منصباً على الجميع ، مواطنين ولاجئين. كانت النضالات التي تخوضها قوى المعارضة السورية هي التي تجتذبنا ، بينما تدنى الى حد كبير الاهتمام بالنشاطات الفلسطينية المنفصلة عنها. وكانت قوى المعارضة ، على كل حال ، تطرح في دعايتها التحريضية مآخذ كثيرة تمس مواقف الديكتاتور من القضية الفلسطينية وتعاونه مع الدول الاستعمارية التي تدعم اسرائيل. بل كان بعض القوى يتهم اديب الشيشكلي بالعمالة للمخابرات الاميركية والتواطؤ مع اسرائيل . وكان هذا كلّه يستخدم في الدعوة الى تشديد النضال ضد الديكتاتورية وتحريض الجمهور فيزيد من انجذابنا ، نحن الفلسطينيين ، الى انشطة المعارضة.

هنا ، قد ينبغي أن أذكر لك أن هذا الجوّ اجتذبني انا بأكثر مما اجتذب زملائي الآخرين في التنظيم. كان هايل ، مثلاً ، يدعو الى ان نساهم في الانشطة ضد الديكتاتورية على أن نفعل ذلك بطريقة تؤكد على استقلالنا. وكان هذا رأياً وجيهاً ، لكن التنفيذ كان متعذراً ، فلم يكن حجمنا كلّه يسمح لنا بالتميز وسط المعامع الكبيرة التي تشهدها البلاد. واصغر منه كان حجمنا في كل مدرسة على حدة. والى هذا كله ، كانت هناك حاجتنا للتخفي. لا يعني هذا القول اننا لم نحاول ان نتصرف وفق اقتراح هايل. الا انني كنت واثقاً من أن احداً غيرنا لم يحسّ بأن اشتراكنا في انشطة ينخرط فيها الوف الناس كان عملاً مميزاً لتنظيم عرب فلسطين. يضاف لهذا ان الواحد منّا ، نحن اعضاء التنظيم ، كان يشترك في النشاط الذي يدور في مجاله ، سواء صدرت له بذلك تعلميات من التنظيم ، أو لم تصدر.

ومهما يكن من أمر ، فقد وجدتني منخرطاً بكليتي في النشاطات التي تنتظم تلاميذ المدارس. وكنت مساهماً نشيطاً في حلقات النقاش التي تشهدها اروقة مدرستي كل يوم ، وفي المظاهرات التي تعاقبت بتواتر سريع منذ افتتاح العام المدرسي. وكان الجوّ في المدرسة جوّ غليان متزايد ، فصار من شأن اي سبب ، مهما ضؤلت اهميته ، ان يحفز التلاميذ عل التظاهر. وفي ذلك الوقت من عمر النظام الديكتاتوري ، صارت كل مظاهرة تنتهي بصدام صغير او كبير مع الشرطة ، وصار المتظاهرون ، يظهرون جرأة اوضح واقداماً اشدّ وشجاعة اكبر في تحدّي قوة السلطة.

كان النشطاء من التلاميذ المتصلون بهذا او ذاك من احزاب المعارضة او زعمائها هم الذين يوجهون حركة التلاميذ في المدرسة ، مستفيدين من الجو الجاهز للاستجابة . وكانت المدارس الخاصة هي التي تأخذ ، في أغلب الاحوال ، المبادرة للاضراب او التظاهر فتتبعها المدارس الحكومية. ففي المدارس الخاصة ، تكون سطوة السلطة أقل ، فالمعلمون اقلّ ارتباطاً بالحكومة وكذلك التلاميذ. وهنا ، لا تستطيع دوائر التعليم الرسمية ان تفرض العقوبات المباشرة على المتهمين بالتحريض كما تستطيع ان تفعل

بسهولة في المدارس الحكومية. وكانت المظاهرات غالباً ما تبدأ على هذا النحو: نجيء الى المدرسة في الصباح فنعرف ، عبر التحريض الذي يبثه موجهو الأنشطة ، ان علينا اليوم التظاهر لهذا السبب او ذاك. وتشيع روح الاستعداد ، فما ان ندخل حجرات الدراسة حتى يبدأ احد الصفوف ، على الأقل ، بانشاد النشيد المتعارف على أنه اشارة انطلاق: « يا ظلام السجين خيّم ... » ، وتستجيب الصفوف الأخرى فتجلجل اجواء المدرسة بالهدير الموحد. ويخوض كل صف مواجهته مع مدرّسه . فإن كان المدرس من انصار المعارضة ، وغالباً ما يكون كذلك ، فإن الخروج من الحجرة يتم دون مانع. اما ان كان المدرس من الهيّابين فانه يستدعي المدير. ومع الاستاذ سليم الذي يعرف عنه كل تلميذ انه من انصار المعارضة ، كان الأمر ينتهي ، بعد جدل شكلي قصير ، بالخروج من الصف دون مانع حقيقي. وحين يستكمل الخارجون من الصفوف احتشادهم في الباحة فيما تستمر اناشيدهم المدوية ، تنفتح البوابة الكبيرة ، يفتحها تلاميذ مقدامون او يفتحها بواب متحمس لهؤلاء الفتيان الذين يتحدون سلطة لم يعرف هو في ظلها الا العوز والكمد. وينبثق الجمع من البوابة وتمتد طوابيره في الزقاق ، وتنفرد اليافطات المعدة مسبقاً فتعلو الرؤوس ، وتتردد الهتافات التي يحفظها التلاميذ عن ظهر قلب والأخرى التي يبتكرونها لهذه المناسبة. وقد اوجد تراكم الخبرات اعداداً كبيرة من الزجالين الذين يتفننون في تأليف الهتافات وتلحينها ، وهي الظاهرة التي اعطت لمظاهرات دمشق سمتها المميزة المشهورة. ثم يأخذ الجمع مكانه في شارع سوق ساروجه فيتسرب منه من يتسرب من التلاميذ غير الراغبين في التظاهر ، وينضمّ اليه من ينضمّ من المواطنين الموجودين في المنطقة . ويتجه الجمع ، اول ما يتجه ، الى الكلية العلمية الوطنية القريبة ، ويكون طلابها قد سبقوا جيرانهم في الخروج الى الشارع او اصبحوا جاهزين في الباحة للانضمام اليهم ، ويكبر الجمع ، وتتكرر الوقفات امام كل مدرسة على الطريق ، ويصبح الهدف هو التجهيز الاولى .

كان المتظاهرون القادمون الى هذه المدرسة الحكومية الكبيرة يتجمعون

في الفضاء العريض الممتد امام المدرسة والذي يفصلها عن الجزء الشرقي من حديقة المنشية. ولامر ما ، كان النجاح في حمل هذه المدرسة على التظاهر من عدمه هو الذي يقرر نجاح المظاهرة كلها او فشلها. والواقع أن الشرطة كانت تحشد قوتها الرئيسية امام هذه المدرسة بالذات وتضرب نطاقاً حولها قبل وصول المتظاهرين من تلاميذ المدارس الأخرى . فهنا ، كانت تدور ، اذن ، الصدامات مع رجال الشرطة في اوقات التوتر : ينتشر المتظاهرون في الفضاء ، ويشاغل بعضهم الشرطة ، فيما يوالي الآخرون الهتاف وانشاد الاناشيد كي يسمعها طلاب التجهيز وهم في صفوفهم . وغالباً ما كانت إدارة التجهيز تبذل جهدها لتهدئة تلاميذها ، فيما يبذل زعماء التلاميذ جهدهم للتغلب على الادارة. وتفعل الهتافات المنطلقة في الفضاء فعلها في التحريض ، فيقع الشرطة بين ضغطين ، ضغط الخارج وضغط الداخل. وحين ينتهي الأمر بتغلب الشرطة يتشتت المتظاهرون ، فتعتقل الشرطة بعضهم وينجوا الآخرون ، ويضطر تلاميذ التجهيز الى الرضوخ . اما حين يتغلب المتظاهرون ، وهو ما كان يحدث في اغلب الاحوال ، فإن رجال الشرطة كانوا ينسحبون او يفرون ، ويرفد تلاميذ التجيهز المظاهرة بجمعهم الكبير ، ويصير الهدف هو الجامعة ، فهناك بحرالطلاب الاشداء في مواجهة الديكتاتورية. ومن هناك ينطلق نهر المتظاهرين الذي ترفده الجداول القادمة من مدارس المدينة من شتى أنحائها.

كان الصدام مع الشرطة غالباً ما يتم بتبادل القذائف ، ،يقذف التلاميذ جمع الشرطة بالحجارة ويلقي هؤلاء الشرطة على التلاميذ قنابل الغاز المسيل للدموع. وكانت هذه القنابل شديدة التأثير على المتظاهرين وذات وقع حاسم في تفريق صفوفهم وتشتيت المظاهرات. غيران هذا لم يستمر الا لبعض الوقت . اذ سرعان ما تعلم المتظاهرون سبل المناورة للتخفيف من تأثير القنابل ، والعودة للتجمع من جديد ، كما تعلم هؤلاء كيف يمسكون القنبلة التي تحط بينهم قبل ان يفرغ غازها ويرمونها ناحية الشرطة ، وراحوا يتلذذون بالتفرج على رجال الشرطة المذعورين . واكتشف بعض المتظاهرين

السلاح المضاد للغاز ، وكان هذا هو البصل ، فشاع استخدامه . وصار العازمون على التظاهر يجلبون البصل في حقائب الكتب منذ الصباح ويوزعونه على الآخرين قبل الشروع في الصدامات.

وبمضي الوقت ، ومع تواتر المظاهرات والنجاحات التي يحققها المتظاهرون في التخلص من مطاردة الشرطة او في الحاق الهزيمة بهم ، ومع فقدان الشرطة لحوافز الثبات في الصدام وتعجلهم الفرار ، تضاءل تهيب المتظاهرين وصاروا اشدّ جرأة .

اعطت مظاهرات طلاب الجامعة وتلاميذ المدارس الصورة الاشدّ بروزاً امام الجمهور لمقاومة السلطة . لكن المظاهرات لم تكن الشكل الوحيد لهذه المقاومة ولا الحاسم. ولقد اتفقت الاحزاب والشخصيات الوطنية كافة على التعاون لاسقاط الديكتاتورية واعادة البرلمان المحلول ورئيس الجمهورية المنتخب شرعاً. وكان من شأن المظاهرات ان تزعزع هيبة السلطة المهيمنة وتشتت قوى النظام . لكن الامل بتوجيه الضربة النهائية انعقد على الجيش. من هنا توحد عمل المعارضة لزعزعة مكانة الديكتاتور في الجيش واكتساب انصار للمعارضة فيه. وقد شاع في المدارس ان الاحزاب شكلت قيادة واحدة لتنسيق عملها وان بين ضباط الجيش من يناصرون هذه القيادة ، وان الجوّ في الجيش يتحول بسرعة ضد الديكتاتور. ثم تواترت الانباء عن ضباط معارضين يجري اعتقالهم وعن وحدات عسكرية تتمرد واخرى يشيع التذمر بين صفوفها . وفعلت هذه الانباء فعل السحر في تنشيط همم المتظاهرين وتشجيع الجمهور على اظهار سخطه وتوسيع دائرة المعارضين.

ولا بدّ أنك تقدر أني لم اكن في سنّ او وضع يسمحان لي بالتعرف على دهاليز السياسة ومناوراتها في سورية . كل ما في الامر ، او أهمّ ما فيه ، بعبارة أدق ، ان الانضمام لمقارعي السلطة كان يلذّ لي ما دامت هذه السلطة مبغوضة ، وما دامت اجراءات قمعها تطال اعداداً متزايدة من الناس كل يوم. ولا أظن ان بين الانشطة العامة التي تستهوي الفتيان ما هو أمتع من مقارعة سلطة مبغوضة والاشتراك المباشر في مجابهة ممثليها.

وها أنا أتذكر تفاصيل واحدة من المجابهات الكبيرة . كنّا ، كما تدل على ذلك الصور المختزنة في ذاكرتي ، في فصل الشتاء. وقد علمت المدارس منذ الصباح الباكر ان طلاب الجامعة يعتزمون القيام بمظاهرة كبيرة وهم يطلبون دعم تلاميذ المدارس. وفي الثانوية الأهلية ، احتاج الامر الى وصلات قليلة ، فقط من « يا ظلام السجن خيّم ... » لنخرج الى الشارع. وعندما بلغنا الكلية العلمية الوطنية ، كان تلاميذها يتدفقون من بوابتها ، فاندمجنا بهم وسار الجمع نحو التجهيز الاولى . هناك كان الفضاء مكتظاً بالتلاميذ الذين قدموا من مناطق اخرى . وكان نطاق الشرطة المضروب على المدرسة محكماً. وعندما وقع الصدام الذي لا بدّ منه ، انهالت رمايات التلاميذ على الشرطة من الجانبين ، من داخل المدرسة ومن الخارج ، واكتسح الطرفان حاجز الشرطة الفاصل بينهما فانهار بسرعة. ومن التجهيز ، توجهت مظاهرة ضخمة نحو الجامعة. لم يمش المتظاهرون مشياً ، بل جروا باقصى سرعة واشدّ عزيمة فاكتسحوا في طريقهم حاجز الشرطة المقام في طرف الشارع المفضي الى مدخل الجامعة. وهناك ، عند المدخل ، كانت الشرطة ، التي تحظر عليها الانظمة دخول الحرم الجامعي ، قد اقامت حاجزاً ثانياً. وتوقعنا ان تنشب معركة حامية ، غير أن الأمر جرى على غير ما توقعنا ، فقد تنحى رجال الحاجز من تلقاء انفسهم عن المدخل واذن لنا بولوجه بسلام. وبانضمام الحشد القادم الى الحشد الذي يكتظ به الحرم الفسيح ، بلغت المعنويات أوجها واشتد دوي الهتافات على نحو لم أسمع مثله من قبل.

وعندما امكن تنظيم الصفوف ، اندفعت من بوابة الجامعة طلائع مظاهرة هائلة الحجم. وفردت فوق الرؤوس اليافطات التي كتبت عليها شعارات المعارضة ، وبدأت المسيرة الصاخبة التي فرض الازدحام ان تسير ببطء. وكنت ما أزال وسط الجموع التي لم تغادر الحرم ، بعد ، حين بلغت المسيرة المنعطف المواجه لتكية السلطان سليم. وقد تسنى لي ان ارى ما جرى عند المنعطف من موقعي وراء سياج القضبان الحديدية الذي يطوق منطقة الجامعة . وقد انتظم عند المنعطف صف من الشرطة وبايديهم بنادق

مسددة ناحية المتظاهرين. وعندما لم يعد يفصل بين الجانبين اكثر من عشر امتار، دوى صوت ضابط كبير في مكبر للصوت، طالباً من المتظاهرين التراجع، وصدر الانذار : العودة الى حرم الجامعة او اطلاق النار. وقد اهاج الانذار متظاهري الصفوف الاولى بدل ان يخيفهم، فعرّى هؤلاء صدورهم في مواجهة البنادق، واندفعوا ، وهم يهتفون بايقاع مجلجل : « حريّة ! حريّة ! حريّة ! ... » . وأز الرصاص ، فحصد عدداً من القتلى والجرحى . وأزاء انهمار الرصاص ، تراجع المتظاهرون، واغلقت بوابة الحرم ووجدنا انفسنا محاصرين فيه.

في ذلك اليوم ، تواصل الاشتباك بين الطلاب والشرطة عبر السياج . وانهالت قنابل الغاز المسيل للدموع، وامتلأت الاجواء برائحة البصل. وفي ذلك اليوم ، نفدت الحجارة التي هيأها الطلاب مسبقاً، فتكونت فرق مهمتها البحث عن حجارة وتوفير الذخيرة للمحاصرين في الحرم ، وانضممت الى واحدة من هذه الفرق. كنا ننحدر من الناحية الجنوبية للباحة لتجميع الحجارة من طرف النهر الذي يفصل هذه الباحة على الملاعب البلدية، ثم ننقل ما نلتقطه الى ناحية السياج ، في حركة دائبة لا تتوقف. وكنت فرحاً بالمهمة التي اتولاها، وقد عددت نفسي، بالقياس لاقراني من ابناء المدن، أنا القادم من الريف، خبيراً في انتقاء الحجارة الملائمة للمقاليع. وقد برع من الطلاب رماة فائقو الدّقة واوقعوا اصابات موجعة في صفوف الشرطة. ولا بدّ أن استمرار الرمي الكثيف قد أدهش الشرطة ، ولا بدّ أنهم اكتشفوا مصدر الذخيرة التي لا تنضب. فلم يلبث ان وجه هؤلاء قنابلهم الغازية ناحية ضفة النهر مما اوجب علينا أن نتسلح بمزيد من البصل الواقي.

في غضون ذلك ، صبّ الشرطة الذين يحاصرون المكان نقمتهم على الطلاب الذين يغادرونه . لم يكن الطلاب كلّهم منخرطين في المواجهة ، وقد آثر بعضهم الانصراف كي لا يحسبوا في عداد المتمردين. وهناك حتى من بين المنخرطين في المواجهة من توجب عليه الانصراف ، لسبب أو لآخر. وكان على المغادر أن يمرّ، بالطبع، على حواجز الشرطة التي توزعت

المنعطفات المحيطة. هنا، كان الطالب يتعرض لتفتيش دقيق واستجواب متعجل. كانت لدى الشرطة قوائم بأسماء المحرضين المعروفين. وكانت الحقائب تفتش، وكذلك الملابس، والايدي تفحص وتشم، بحثاً عن آثار الحجارة ورائحة البصل. وقد انتشرت الانباء عن اعتقالات كبيرة طالت من يستحقها ومن لا يستحقها من المغادرين.

وعندما حلّ الوقت الذي لا أستطيع أن أتأخر بعده عن العودة الى المنزل، برزت هذه المشكلة امامي، فكيف الجو من الحصار دون ان أقع في أيدي الشرطة؟ والحقيقة أني غالبت حاجتي الى الانصراف فترة اخرى. ولم يلح في الجوّ ما يشير الى ان الاشتباكات ستتوقف. وبالرغم من خجلي الشديد، تبعت حاجتي وفاتحت احد الطلاب الكبار بهواجسي. انتقيت هذا الطالب من بين الذين كانوا يوجهون الانشطة، فسلمني هذا لطالب آخر اخذني الى الحمامات. وهناك تولاني آخرون، فغسلوا يدي بامعان وتشمموهما، ونفضوا الغبار عن ملابسي، وعندما اطمأنوا الى تغييب أية آثار اطلقوني. واذ لم يكن في هيئتي او سنّي ما يوحي بأني طالب جامعي، واذ كان اعترافي بأني تلميذ في الثانوي يعادل الاقرار بأني جئت الى الجامعة من أجل التظاهر، فقد هداني الطالب الذي رتبّ اموري الى الحكاية التي ارويها حين تستجوبني الشرطة. وهكذا، غادرت البوابة وانا موزع المشاعر بين الشجاعة التي نمتها المواجهة والتهيب الذي اعتراني لوجودي في الشارع وحدي. وعندما استوقفني الحاجز ورماني احد رجاله بالسؤال المتشكك، قلت اني ابن الجنايني الذي يعمل في حديقة الجامعة. ورويت لسائلي ان ابي جاء بي معه لاساعده، ثم فرقتنا الاحداث ولما فشلت في العثور عليه قررت العودة وحدي الى المنزل. ولا بدّ أن هيئتي الزرية قد لعبت دورها في اقناع الشرطة بصدق الرواية، فلم يأبهوا لشأني، حتى لقد مررت دون ان اتعرض للتفتيش.

انتشرت حكاية المجابهة الجارية في الجامعة وتداول الناس وقائعها في منازلهم واستمعت الى اهلي وهم يتحدثون عن معركة الجامعة، دون أن أجرؤ على الاعتراف بأني اشتركت فيها. وفي الصباح، حين وصلت الى

المدرسة ، كان التلاميذ في حالة غليان ، وقد تقرر الاستمرار في التظاهر فلم ندخل حجرات الدرس. بل رحنا نتداول حول انجح السبل للوصول الى الجامعة المحاصرة كي ندعم الذين باتوا الليلة الماضية فيها . وكان هؤلاء قد استأنفوا الهجوم على الشرطة منذ ظهر ضوء النهار . كان من المتعذر ان نتوجه في مظاهرة ونخترق الحصار ، فقد استنفرت السلطة قوات الشرطة كلها ، وجاءت الى المدينة بوحدات من قوات الدرك التي تعمل في الريف ، واقامت حواجز حصينة ، ومنعت عبور الطرق المؤدية للجامعة . وعلى هذا ، تقرر ان يتدبر كل واحد منّا أمره حتى نتسلل الى الجامعة كافراد . وقد تحددت طرق التسلل التي اكتشفها منظمو الإضراب. فكان على البعض ان يعبروا مخاضات بعينها في النهر من ناحية الملاعب البلدية ، وعلى سواهم ان يذهبوا للعيادات والمشافي التابعة للجامعة فيدخلوها بحجة أو بأخرى وسيجدون هناك من يرشدهم الى سبيل الالتحاق بالحرم . وهكذا ، وجدت نفسي ، بعد ساعة ، في المعمعان من جديد ، والاشتباكات دائرة على أشدها.

في ذلك اليوم ،صمم الطلاب ، الذين امضوا اكثر من اربع وعشرين ساعة دون طعام ، على اختراق الحصار مهما تطلب من تضحيات . ولم يكن النهار قد انتصف حين بلغ الحماس حداً لم يعد بامكان اي تعقل أن يسيطر عليه . وهكذا ، تجمع عند البوابة حشد كبير من الطلاب المقدامين ، وقد تزود كل منهم بكمية وافرة من الحجارة ، وكرّ هؤلاء في الطليعة وتبعتهم الجموع ، في هجوم مفاجىء على الشرطة ، وانهالت قذائف الطلاب على الحواجز بكثافة لم تبق للشرطة فرصة للمناورة. وما هي الا دقائق حتى خلت الحواجز من المتمترسين ، عندها فرّت الشرطة في اتجاهات متعددة فتراجع قسم منهم ، ممن كان على يمين الحرم الجامعي ، ناحية الثكنات العسكرية المجاورة ، وانحدرالذين كانوا عند مدخل التكية ناحية شارع شكري القوتلي وتجمعوا وراء الجسر ، وفر آخرون باتجاه وسط المدينة حتى بلغوا ساحة الحجاز وتجمعوا بجانب فندق الاوريان بالاس. وبهذا ، انتقلت الحواجز الى نقاط ابعد عن الجامعة . وسيطر الطلاب على

المنطقة الخلاة وصارت مباني المشافي والعيادات تحت سيطرة الطلاب.

صار الطلبة في وضع افضل للمناورة . ووفرت منطقة المشافي الواسعة مصدراً طيباً للحجارة ، وصار بامكان الجائعين ان يحصلوا على طعام ، كما صار بامكان الجهدين ان يظفروا بالراحة ، واطمأن الجميع على امكانية توفير العلاج السريع لمن يتعرض للاصابة. وقد وفّر الوضع الجديد ميزة اخرى لأن الطلاب صاروا على تماس مع حي الحلبوني السكني واهله المتعاطفين معهم ، الأمر الذي سهل الحركة عبر هذا الحي ودوره وازقته لمن يحتاج لمغادرة المنطقة المحررة او يرغب في المجيء اليها.

وفي هذا الوضع ، حيث لا تستطيع قذائف الشرطة ان تحط الا على ارض الشارع ، لم يعد المتظاهرون كلهم مجبرين على التجمهر في مكان مكشوف. والحقيقة أن هؤلاء سرعان ما توزعوا الى فرق. فراح بعضهم يناوش الشرطة على هذه الناحية او تلك ، وانصرف بعضهم لنقل الذخيرة والتموين من منطقة المشافي ، ولجأ بعضهم الى الاستراحة في ابنية هذه المشافي ، وصار بالامكان استبدال الفرق المجهدة او الجائعة باخرى ظفرت بالراحة والشبع. واستمرت الاشتباكات طيلة اليوم ، ثم تجددت في الصباح مستهلة اليوم الثالث لاضراب الجامعة.

لم يقتصر تأثير هذا الاضراب على دمشق ، بل حفز المدن السورية الاخرى على التظاهر ، ووجدت السلطة نفسها بمواجهة تحركات واسعة ترغمها على تشتيت قواها . ولأن ولاء الجيش للسلطة لم يكن مضموناً بعد ان تكاثر ظهور المتمردين والمعارضين في صفوفه ، فقد صرف الديكتاتور ، والذي هو ، أيضاً ، قائد الجيش ، النظر عن استخدام الجيش في قمع المتظاهرين. وانيطت المهمة بالشرطة ثم اضيف اليها الدرك. وكان المتظاهرون يتطلعون ، من جانبهم ، الى كسب تأييد الجيش بالكامل ، ويضعون في الحسبان تشجيع العسكريين على دعم المعارضة . وراعى المتظاهرون هذه النقطة مراعاة دقيقة ، فامتنعوا عن التعرض للعسكريين الموجودين في الثكنات المجاورة ، وكان هؤلاء يعبرون المنطقة التي يسيطر عليها الطلاب بأمان شديد ، يمرون بها مشاة او في آلياتهم فلا يتعرضون

لأي أذى. بل ان من المتظاهرين من كان يتقصد توجيه نداءات التشجيع للعسكريين . وشاع في اوساط الطلبة ان بعض وحدات الجيش يرسل موفدين من قبله للاطلاع عن كثب على ما يجري . فزاد الاهتمام بالعسكريين وغالى المتظاهرون في التعامل معهم بايجابية.

اروى لك هذا كله لتعرف كيف امكن للسلطة ان تفضّ الإضراب في نهاية المطاف. ففي ظهر اليوم الثالث ، بدا ان قوى الشرطة التي تواجه الطلاب قد ضعفت . واخذ الطلاب يفكرون بانقضاض جديد يوسعون به دائرة سيطرتهم وينقلون الاشتباكات الى مركز المدينة. هنا ، ظهرت قافلة من الشاحنات العسكرية بالوانها وارقام لوحاتها المميزة . اقبلت القافلة من ناحية الثكنات وترادفت شاحناتها على امتداد الشارع الذي يشغله قاذفو الحجارة ، سائرة بالبطء الذي تتميز به حركة القوافل العسكرية. وقد افسح المتواجدون في الشارع الطريق للشاحنات ، فيما راحوا يوجهون نداءات التحية والتشجيع لركابها. وفجأة ، توقفت الشاحنات كلها بحركة واحدة ، وانثال من صناديقها اعداد كبيرة من الرجال الذين تبين انهم من الشرطة والدرك ، واخترق هؤلاء فرق المتظاهرين الموزعة على امتداد الشارع وبدأوا حركة ناشطة للاعتقال والمطاردة . وكانت المفاجأة كاملة وكانت نتيجتها مذهلة ، فقد تشتتت جموع الطلبة المباغتة وحشر معتقلون كثيرون في صناديق الشاحنات ، واسقط بيد الجميع ، ثم تردد هتاف واحد : « الى المشافـــي ، احتمـوا بالمشافي ! » .

جريت مع من جرى باتجاه المشـافي ، دون أن احـدد مكاناً بعـينه لألتجيء اليه. الكل كان يجري تحت وقع المطاردة المثابرة مؤملاً ان يبتلعه واحد من الابنية المنتشرة في المنطقة. ولم اهتد الى شيء افعله سوى مواصلة الجري. وفي لحظة كان فيها احد المسلحين يطاردني انا بالذات ولا يفصلني عنه الا مسافة قصيرة ، رأيت يداً ممدودة من نافذة صغيرة في حجرة قامت منفردة وسط المباني وكانت اليد تشير لي كي اجيء اليها. كانت الحجرة تعلو مصطبة تصلها بالارض بضع درجات ، فقفزت هذه الدرجات بنطة واحدة. واهتديت الى الباب المفتوح في الناحية الخلفية

والقيت نفسي داخل الحجرة ، وانقفل الباب فوراً. واغلب الظن ان المسلح الذي يطاردني لم يلمحني في اللحظة التي انعطفت فيها الى خلف الحجرة. لقد وقف هذا المطارد امام المصطبة دون ان يصعد اليها ، ولم يتمكن بالتالي من رؤية أي باب ، ثم ابتعد من تلقاء نفسه ، ولا بدّ ان الرجل كان اما محتاراً أو خائفاً من اقتحام مكان مجهول. وايا كان الامر فقد نجوت من الاعتقال.

اليد التي هدتني الى النجاة كانت يد فتاة في مقتبل العمر تشغل هذه الحجرة وتخيط فيها الأردية البيضاء التي يستخدمها الاطباء والممرضون. وكانت ام الفتاة التي الفت ان تجيء لمساعدة ابنتها موجودة معها. وقد انقذت المرأتان اربعة طلبة قبلي. وبانضمامي الى الجمع ، صار من المتعذر ان تتسع الحجرة للمزيد. وقد توجس الذين سبقوني ان يعود مطاردي للبحث عني بعد أن رآني وأنا أختفي في هذا المكان ، فبادروا الى اتخاذ بعض الاحتياطات . بدأ هؤلاء باطفاء نار المدفأة حتى لا يلحظ احد في الخارج الدخان ، وحمل اثنان منهم ثوبيّ قماش ووقفا بازاء الباب متحفزين لتطويق من قد يقتحم الحجرة بهذا القماش. ودعينا جميعاً لالتزام الصمت التام حتى يمكن أن نتبين طبيعة اي حركة تدور قرب الحجرة . ووقفت الفتاة خلف ستارة النافذة لتراقب المحيط. والحقيقة أن المسلح الذي طاردني رجع بعد قليل وتوقف من جديد ، امام الحجرة ، فاشتدت الاستعدادات . لكن الرجل لم يطل الوقوف ، وقد أنبأنا وقع خطواته بانصرافه قبل أن تنبئنا الفتاة بذلك. فاسترخت الاعصاب المشدودة واذن منقذيّ لانفسهم بتبادل الحديث.

لقد غمرتني لفتة الفتاة ومبادرة هذه الجماعة لانقاذي بمشاعر دافئة ؛ كان بامكانهم أن يتجاهلوني فلا يجازفوا بلفت النظر الى ملجئهم الآمن ، ولكنهم جازفوا . واحسست بالفة شديدة مع المكان ونزلائه بالرغم من أني اراهم لأول مرة. وعندما قدمت لي أم الفتاة كوب الشاي الطافح ، شعرت كأني اتناول الكوب من يد امي وانا جالس بين إخوة متضامنين . كان الجميع لا يعرفون كيف ستكون الخطوة التالية ، وكان هذا الأمر يشغل

تفكيرهم ، أما أنا ، وارجوا ان تفهمني حين اقول هذا ، فقد تمنيت ان يدوم الدفء الروحي الذي توفر لي وان لا تكون هناك خطوة تالية.

كنت بين الملتجئين الى الحجرة اصغرهم سناً والوحيد القادم من مدرسة ثانوية ، اما الآخرون فكانوا طلاباً في الجامعة. وكان من الطبيعي ، حين أذن باستئناف الحديث ، أن أسأل عن اسمي واسم مدرستي وانتمائي. وقد اجبت على الاسئلة ، واضفت دون أن أسأل انني فلسطيني ، وشعرت بأن هذه الاضافة أحدثت وقعاً طيباً في نفوس مستمعيّ وسرني ذلك. ثم انطلق الحديث بمشاركة الجميع. وما كان ليدور الا حول الاحداث التي تعصف بالبلد.

في غضون ذلك . اخذ يجتذب انتباهنا صُوات نسائي جماعي ينطلق من المشافي المحيطة بنا ويتكرر بين وقت وآخر. ولا بدّ لك ان تعيش في دمشق لتدرك كم تتقن نساؤها اطلاق الصوات وكم يكون تأثيره عميقاً . والصوات ، في العادة ، يجيء حزيناً. أما الصوات الذي كانت تلتقطه مسامعنا فكان ممزوجاً بنبرة احتجاج لا تخطئها الأذن . وكان بإمكاننا ان نفترض اسباباً مختلفة لهذا الصوات ، غير أن الرغبة في التيقن حرقت الجميع. وانتهى الأمر الى قرار وافقت عليه الخياطة الشابّة وقبلته أمها بالرغم مما ينطوي عليه من مجازفة ، فصار على الشابة أن تذهب لاستطلاع الأمر بنفسها. وهكذا ، لبست مضيفتنا المقدامة زي ممرضة كاملا ، واستطلع احدهم الفضاء امام الحجرة فوجده خالياً ، فانطلقتْ الى الخارج. وعندما رجعت الموفدة للاستطلاع ، كان في جعبتها حزمة من الاخبار. فقد اقتحمت قوات الشرطة والدرك ، التي نشط عزائمها النجاح في تشتيت المتظاهرين ، منطقة المشافي والجامعة بكاملها واعتقلت آلاف الطلبة والاساتذة. ولأن في اقتحام الحرم الجامعي مخالفة صريحة للقانون ، فإن عميد الجامعة الدكتر قسطنطين زريق قدم استقالة فورية ضمنها احتجاجه الصريح على انتهاك السلطة لحرمة الجامعة . وامعنت السلطة في انتهاك الحرمات ، فصدرت الاوامر للشرطة باقتحام مهاجع المرضى لتصيد المتظاهرين الذين اختفوا فيها. وقد اتضح ان ممرضات المشافي واطباءها آووا

الفارين من وجه الشرطة. فلما بدأت الشرطة باقتحام المباني أُلبس الطلبة اردية الاطباء والممرضين ، أو وضعوا على عجل في أسرة المرضى وغمروا بالاغطية. وحين انكشفت الحيلة ، راح الشرطة يداهمون المهاجع ذاتها ويقبضون على المختفين تحت الاغطية. وكان اقتحام المهاجع هو مبعث هذا الصوات الذي تطلقه الممرضات تعبيراً عن الاسى والاحتجاج. وقد عرفت الموفدة ، الى هذا ، ان الشرطة والمخبرين السريين ضربوا نطاقاً حول المنطقة كلّها ، وهم يعتقلون من يشتبهون به ممن يصل الى أيديهم.

شيء هام فعلته الموفدة في جولتها الاستطلاعية هذه ، فقد اتفقت مع صديقات لها على أن يبلغن اليها أي تطور جديد. وكان هذا ، بالنسبة لنا نحن المحصورين في الحجرة ، مبعث الأمل بأن لا ننقطع عن الخارج.

ما أكثر الذي سمعته او تعلمته خلال الساعات الطويلة في تلك الحجرة . ففي ساعات الانتظار الذي لا نعرف نهايته ، امتدّ الحوار طويلاً بين الطلاب الاربعة ، وشكلت أنا والفتاة وأمّها جمهور المستمعين. وتصادف ان كل واحد من الاربعة كان ينتمي لحزب مختلف عن حزب الآخر ، فتهيأ لي ان اسمع الآراء المتعددة واتعرف على خبرات منوعة. كانوا جميعهم متفقين على ضرورة التعجيل في العمل الذي بدأ للخلاص من الديكتاتور ، وبدوا واثقين من أن ساعة الخلاص قد اقتربت ، ولكن اراءهم تباينت بعد ذلك. فجابرالقادم من اللاذقية والذي ينتمي الى حزب البعث ويدرس الحقوق كان يصر على ان تحرير البلاد التام لن يستكمل الا بتحقيق الوحدة العربية واقامة النظام العربي الاشتراكي الواحد ، وكان يعزو كل المصائب التي احاقت بسورية الى بقاء العرب مجزئين . والطالب الثاني الذي نسيت اسمه ، وهو كردي قادم من الجزيرة ويتحدث كما يتحدث الشيوعيون دون ان يفصح عما اذا كان منهم او لا ، كان يرى أن دوافع الصراع مع الديكتاتورية هي طبقية تماماً ولا دخل للشأن القومي العربي فيها ، كما كان يرى أن ظفر البلاد بالديمقراطية سيساعد على تطويرها الى الامام ، بصرف النظر عن مسألة الوحدة العربية. واما الطالب الثالث ، وهو ابن عائلة حلبية تعيش في دمشق وتؤيد حزب الشعب الذي

ينتمي اليه رئيس الجمهورية ورئيس البرلمان المخلوعان ، فكان يتجنب مجادلة زملائه في آرائهم دون أن يخفي عدم ايمانه بها ؛ وكان يركز على ضرورة عودة الشرعية والحياة البرلمانية العادية ، ويرى أن عودتهما ستفتح المجال لكل صاحب رأي كي يعبر عن رأيه ، وان هذا هو مفتاح التطور. وكان الرابع دمشقياً اصيلاً يعرّف نفسه بأنه مستقل ، ويضيف انه من الذين يؤيدون الحزب الوطني. وكان متفقاً في الرأي مع زميله من حزب الشعب بشأن اهمية الشرعية والحياة البرلمانية ، لكنه لا يؤيده في ضرورة اعادة الذين نحوا من الحكام ، بل يرى ضرورة بدء العهد الجديد القادم بانتخابات جديدة . وكان الجدل بين الاربعة يحتدّ في بعض اللحظات وترتفع الاصوات ، فتضطر صاحبة المكان او امها ، المتنبهة دوماً ، الى التذكير بضرورة الحذر. لم تكن اراء البعثي او الشيوعي جديدة علي كلية ، فقد ألفت أن اسمعها من زملائهما في المدرسة. اما الجديد فكان بالنسبة لي ما يقوله الآخران . وقد تابعت الجدل بانتباه ، وكنت اجدني متعاطفاً مع الطالب اللاذقاني . وجاء وقت خجلت فيه من بقائي مستمعاً ، فأردت أن ادلي بشيء يجعلني شريكاً في المناقشة ، فقلت شيئاً عن ضرورة تحرير فلسطين . لم اقل الكثير ، لكن ما قلته كان كافياً لانعاش الجدل من جديد.

على هذا النحو ، انقضت بقية النهار ، ثم اخذ الظلام يجلي النور عن الحجرة. واقتضت دواعي الحذر الا نشعل المصباح الكهربائي . وكنّا غارقين في العتمة وفي المناقشة التي تشعبت موضوعاتها ، حين اخترقت طرقات على الباب الصخب الذي يملأ الحجرة. كانت تلك ممرضة قدمت لتنبئنا بما استجد. وكان أهم ما أنبأتنا به الممرضة انه صار بامكاننا أن ننصرف. ولقد نُظمت الامور مع اصحاب المنازل المجاورة لمنطقة المشافي بحيث يتسلل الطلبة الذين نجوا من الاعتقال عبر هذه المنازل. ووفق الترتيبات المعدّة ، انزل الينا سلم خشبي من المنزل المجاور فصعدناه ، ثم هبطنا سلماً آخر فصرنا بين أهل هذا المنزل. ولقد تصرف هؤلاء الناس بحذر ، لكن بمودة. وافهمنا أهل المنزل ان نظام منع التجول مفروض على المدينة ، وقالوا

بصراحة انهم عاجزون عن استبقائنا عندهم لكنهم واثقون من أننا نستطيع ، بشيء من الحذر ، أن نصل بيوتنا ، وارشدونا الى الطرق التي عرفوا انها اكثر اماناً من غيرها. وتسللنا عبر الظلام الواحد تلو الآخر.

وصلت الى المنزل دون أن أهتدي الى سبب يسوغ غيابي الطويل ، وكان أهلي ، على كل حال ، قد عرفوا ان المدارس اضربت منذ الصباح وتوقعوا عودتي المبكرة الى المنزل ، فلما تأخرت وافتقدوا آثاري ، ركبهم القلق والهواجس . وعندما جوبهت بأسئلة خالي نافذ ، لم أجد أفضل من أن أجهر بالحقيقة ، فعلت ذلك باوجز عبارة : « كنت في الجامعة مع المضربين » .

وكان أن دخلت مع الخال في جولة من ذلك الجدل الذي لا يبيح لأي منا ان يفهم الآخر أو يراعي مزاجه . لم يعترض الخال ، هذه المرة، على مساهمتي في النشاط العام ، او قل : أنه لم يركز حديثه على هذه النقطة ، فقد كان الانخراط في مقارعة السلطة قد غدا مبعث تفاخر ، وكان خالي نفسه ، بالرغم من أنه موظف حكومة ، لا يخفي سخطه على السلطة. أما ما ركز الخال عليه فهو كوني اصغر من أن انخرط في امور مثل هذه وأقل شأناً من أن آمل بدور لي في اسقاط النظام. وازاء فكرة مثل هذه ، مثيرة لحساسيتي ومهينة لمشاعري ، وجدتني أزعق في وجه خالي : « أنا حرّ، أعملُ ما اقتنع به ولا يقيدني رأيك فيّ » .

وانتهى الأمر بليلة أخرى من ليالي التشرد. ولكن الحال اختلف في هذه الليلة عن حال مثيلاتها السابقات . كنّا في الشتاء وبرده ، وكان نظام منع التجول لا يسمح بالمجازفة بالتطواف في أرجاء المدينة ولا يأذن بفتح الجوامع في وقت مبكر. فلم أجد مكاناً الجأ اليه سوى المقبرة. لقد كانت ليلة لا انسى قسوتها طيلة حياتي.

١٤ اوفدت لاحراج الحاج أمين فانتهيت إلى تقبيل يده

تجددت انتفاضات الجمهور ، ليس في الجامعة السورية ، وحدها ، بل في اماكن اخرى عديدة ، في طول البلاد وعرضها . ونشّط توالي الانتفاضات عزائم القوى السياسية ، وشدد تعاونها في العمل لاسقاط الديكتاتورية . وحسم توالي الانتفاضات ، أيضاً ، مواقف المترددين بين ضباط الجيش ، وانضمت أعداد كبيرة منهم الى من سبقهم في التنسيق مع المعارضة ، واخذت الوحدات العسكرية تنشق عن القيادة ، الواحدة تلو الاخرى . وفي نهاية المطاف ، حمل الزعيم (العميد) اديب الشيشكلي حقيبة قيل إنها مليئة بالاموال وفرّ من البلاد ، وانهار النظام دون أن يجد من يدافع عنه. تمّ هذا في أواخر شباط / فبراير ١٩٥٤ ، وعاد هاشم الاتاسي ، رئيس الجمهورية الشرعي ، الى القصر الجمهوري . ودخلت سوريا ، بهذا ، مرحلة جديدة ، هي المرحلة التي انتعشت فيها الحياة الديمقراطية واتسعت الانشطة السياسية والثقافية وجذبت اعداداً

اكبر من الناس للانخراط في العمل العام. وقد هيأت هذه التطورات الجوّ الملائم لتنظيم عرب فلسطين كي يستعيد عافيته ويتحرر من هواجس التعرض للقمع ويوسع انشطته وينتقل بها الى العلنية.

في هذه الفترة ، حصل خالي نافذ ، وكذلك خالي عمر على الاجازة من كلية الحقوق ، فانفتحت امام الاسرة فرصة تحسين وضعهما الوظيفي ، مثلما انفتحت امام الاسرة فرصة الانعتاق من العوز . وقد آثر عمر الذي شفي من مرضه شفاءً تاماً أن يبحث عن وظيفة حكومية جديدة غير وظيفة المعلم. اما نافذ فانخرط مع صديق له في الاعداد لمشروع خاص. كان هذا الصديق هو عربي محي الدين ، وهو من قرية « كفر حارب » السورية التابعة لمحافظة حوران والواقعة قريباً من « فيق » ، في مكان قريب من « الحمة » مطل على حدود فلسطين . وكان عربي قد تخرج من كلية الحقوق قبل خالي ، وانضمّ الى سلك الشرطة برتبة نقيب وشغل وظيفة في مديرية الامن العام في دمشق. وبعد انهيار النظام الديكتاتوري ، وربما بسبب تردي سمعة هذا السلك ، قرر النقيب الحقوقيّ الاستقالة وبدء حياة من نوع آخر. وتزامن هذا مع الوقت الذي أخذ خالي نافذ يبحث فيه عن عمل جديد. وتعاون الصديقان ، ثم قرّ قرارهما على انشاء مدرسة خاصة في فيق ، حيث لم تتمكن المدرسة الحكومية الموجودة هناك من استيعاب التلاميذ الراغبين في الدراسة الاعدادية والثانوية كلهم . وبدأت التحضيرات لاستصدار الرخصة اللازمة وتهيئة المبنى وما الى ذلك . حتى امكن ان تفتح المدرسة ابوابها لاستقبال تلاميذ في الصفوف الاعدادية الاربعة مع بداية العام المدرسي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ . وانتهت مساعي خالي عمر بالحصول على وظيفة في وزارة المالية وعين مكان عمله في محافظة الجزيرة فعاد الى هذه المحافظة محاسباً بعد أن عمل فيها معلماً . وهكذا فارق الخالان الكبيران منزل الاسرة من جديد. وكان بمقدور نافذ ان يجيء للزيارة في عطل نهاية الاسبوع. أما عمر فلم يتيسر له المجيء الا في الاعياد الكبيرة أو حين يحصل على الاجازة السنوية . وفي هذا الوقت ، حصل غالب على الشهادة الثانوية ، وانتسب الى كليّة التربية التي تؤهل مدرسين

للمدراس الثانوية . وترفعت انا الى الصف الحادي عشر ، الثاني الثانوي ، وهو الصف الذي احصل فيه على الشهادة الثانوية ، وفق النظام الذي كان معمولاً به حتى ذلك العام.

في ضوء هذه التطورات ، توفرت لي حرية اوسع لممارسة النشاط العام والمطالعة وما الى ذلك . ومع تحسن الدخل ، خرجت الاسرة من الفقر الذي كابدته طيلة سنوات الى وضع متوازن يمكنها معه ان تظفر بالضرورات دون عناء . ولو لم تكن الاسرة كبيرة العدد لامكن ان تحظى بشيء من الرفاه.

وكان من نتاج الوضع الجديد ان اعفيت من المشوار الصباحي الطويل الى سوق الهال ، اذ صار بامكاننا ان نشتري حاجات الاسرة من الجوار. وصارت الاسرة تشتري الخبز بدل اعداده في المنزل ، فلم يعد علي أن أتردد على الفرن . ولأني صرت تلميذاً في صف الشهادة الثانوية ، فقد اعفتني الاسرة من مهمة جلب الحليب الذي توزعه الانروا كل صباح ، وانيطت المهمة بمن هم أصغر مني من ابناء ام عدنان. ثم إن مجالس الجدّ مع اصحابه في المتنزه او في الجامع لم تعد تجتذبني ، فقل ترددي عليها ، فيما غرقت في هموم ومشاغل غير تلك التي ينشغل بها أعضاء الاسرة.

بكلمات اخرى ، صرت مستقلاً ، الى حد كبير ، عن مجرى الحياة اليومية للاسرة واعضائها. والفوا هم شذوذي فقلّ تقريعهم لي. وانطبق هذا على درجة استغراقي في الخلافات بين اعضاء الاسرة المنقسمة الموزعة على شقتين . لم يقلل تحسن الدخل من حدّة المشاكل ، بل ان منها ما زاد حدّه . وكان منبع المشاكل هو الخلاف على تقسيم الدخل ، وهو خلاف يتجدد او يتفجر عند تقسيم اي شيء يجيء الخالان به الى الاسرة من مكانيّ اقامتهما في الريف او عند حاجة اي من شقيّ الاسرة لنفقات طارئة. وكانت ام عدنان تشك في التقديرات التي يعلنها الخالان لدخلهما ، فتظن ان نافذ يربح في المدرسة اكثر مما يصرح به ، وان عمر يحصل في عمله ذي الصلة بسكان البادية على مبالغ كثيرة غير راتبه الاصلي كما يتسنى لسواه من موظفي الحكومة مما هو معروف ومتداول .

وكان هذا الشك سبباً لخلافات لا تتوقف. وكانت العينان المدققتان
عدنان تراقبان كل شيء يجري في الشقة العليا ، وكانت تفسر كل ش
بما يستجيب لشكوكها وتستخلص ما يلائمها ولا تكفّ عن التبرم.
ظهر احد سكان الشقة العليا بهندام جديد ، او ظفرت الخالة شفي
بحلية ، او حظي ضيف بوليمة فاخرة ، عدت أم عدنان هذا دليلاً ،
اليسار الذي يتمتع به ابناء الضرة مما لا يتوفر لشقتها مثله. وبق
الخلافات ، كما كانت ، سماً يخرب العلاقات داخل الاسرة ويق
اعضاءها الى معسكرات. ولم ينج الصغار من تأثير هذا الانقسام ح
حين لا يرغبون في ذلك.

في هذا الجو الذي يشيع فيه التحاسد ويكثر القيل والقال ويتح
الصغار الى نمامين ، بارادتهم او غصباً عنهم ، احتفظت بموقف محايد
اتزحزح عنه ، والزمت نفسي بأن أسلك السلوك ذاته في الشقتين ، ،
أولي سكان كل منهما المودة ذاتها. وامتنعت امتناعاً حازماً عن الس
بالنميمة او نقل الكلام. لم تفلح في ثنيي عن هذا النهج حتى شطارا
ام عدنان البارعة في استدراج الآخرين الى البوح بما يعرفون ، كما لم تف
توسلات خالتي شفيقة ولا اغراءاتها هي التي تتحرق توقاً لمعرفة ا
التفاصيل عما يدور « تحت » ، في شقة امرأة أبيها. وبمضيّ الوقت ، حظ
موقفي هذا باعجاب الطرفين ووفر لي مكانة خاصة في الشقتين كلتيهم
وكفّت ام عدنان عن محاولات اجتذابي للثرثرة ، واولتني مهمة أك
وادعى لتأكيد المودة ، فصارت تبوح هي لي بآلامها وهواجسها ووجد
فيّ المستمع الصبور والكتوم ، بعد أن ملّ الآخرون من الاستماع اليها. أ
الخالة شفيقة فكفت عن محاولات اغرائي بالحديث مرغمة وليس ع
طيب خاطر. وكانت الخالة تهتف ، كلّما اشتد ضيقها بتكتمي : « اعرف
اني اتعب نفسي بلا فائدة ، انت من طينتهم ، الم ترضع حليب
عدنان ؟ ! » .

والحقيقة أني ، حين صممت موقفي هذا في البداية ، فعلت ذلك
بدافع الرغبة في تجنب مزيد من المشاكل لنفسي. لكن الأمر طاب لي

فيما بعد، خصوصاً بعد أن لمست فوائده . وقد تجلت اطيب النتائج في موقف اخوالي الصغار، اولاد أم عدنان، مني، وفي العلاقة الحميمة التي ربطتني بهم. كان هؤلاء قد كبروا، فعدنان دخل المرحلة الثانوية ، ودخل مروان المرحلة الاعدادية، وهشام وهيام او شكا على انهاء المرحلة الابتدائية ، ودخل احسان المدرسة ، هو الذي ولد بعد هجرتنا من فلسطين . وكانت ام عدنان ، بوعي او بغير وعي، تعد اولادها ذخيرتها في المواجهة مع الذين « فوق » وعدتها للمستقبل. واذ لم تكن المرأة الشامية راضية عن سلوك اولاد زوجها وتزمتهم باي حال من الاحوال، فقد عملت كل ما هو صحيح او غير صحيح ، لينجوا اولادها من تأثير اخوتهم الكبار. وكانت علاقة هؤلاء الصغار باخوتهم الكبار تتراوح بين الجفاء الذي يحلّ حين تحتدم المشاكل والتواصل الحذر الذي يتيسر في اوقات الهدنة .اما معي فقد اختلف الأمر تماماً ، اذ بقيت في كل الاحوال أخاً حبيباً لهم ، كما بقيت ، دائماً ، الجسر الذي يصل بين الشقين وناسهما حين تنغلق سبل الاتصال الاخرى كلها.

ثم أن تمرداتي المتعاقبة ضد تزمت خالي الكبير، وهي التمردات التي ادهشت الجميع في البداية ، لم تلبث أن جعلت لي في أذهان اخوالي الصغار صورة الفتى الشجاع الذي يقدم على ما لا يجرؤون عليه . كانوا هم، مثلي، ضحايا للتزمت بصورة أو بأخرى، كانوا تواقين للتمرد. لكنهم لا يذهبون الى الحدّ الذي ذهبت اليه. وقد رأى الصغار في محاولاتي للتمرد وما حققته لنفسي من استقلال نسبي قدوة يتطلعون للاحتذاء بها، لكنهم ما كانوا مستعدين لدفع الثمن الذي ادفعه ، او لعل الاصوب القول انهم ما كانوا مرغمين على ذلك ، فقد كان لديهم أب وام، خصوصاً ام، جاهزين لرعايتهم وللتدخل الفعال لو لحق بهم ظلم. لقد دعمت أم عدنان رغبة اولادها في التحرر من سطوة الاخوة الكبار، بل شجعتها. لكنها فعلت ذلك في الحدود التي لا يستبيح الصغار فيها لانفسهم الخروج على التقاليد التي تؤمن هي بها . وفي كل الاحوال ، استفاد الصغار من تمرداتي ، استفادوا على الجانبين ، فكل مكسب نلته نالوا هم مثله ، اما

السمعة السيئة التي لصقت بي ، فلم تلصق بهم. وكان الخال الكبير حين يقارن بيني ، في تمرداتي، وبينهم ، في هدوئهم ، يجد أسباباً كثيرة ليفضلهم عليّ ، وكثيراً ما كان يعمد ، في هذه الحالات ، الى زيادة اهتمامه باخوته الصغار وتكثير هداياه وعطاياه الخاصة لهم. وفي قرارة انفسهم ، كان الصغار يحسون اني اخوض معركتهم هم ، أيضاً ، واجلب لهم مزايا كثيرة ، دون أن يتكبدوا ما اتكبده من آلام ، فكان هذا يزيد حبّهم لي وتضامنهم العلني او السري معي . وفي تلك السنة المدرسية التي احدثك عنها ، والتي غاب خالاي الكبيران خلالها عن المنزل ، توثقت علاقتي باخوالي الصغار الى الحدّ الذي لم يعد من الممكن ان تنفصم او تضعف بعده.

في تلك السنة ، اشتد انجذابي الى ما يجري خارج سورية واهتمامي به. كانت ثورة « الضباط الاحرار » او ثورة يوليو ، في مصر ، قد بدأت تشع ألقها في المحيط العربي . وبرز اسم جمال عبد الناصر كمطالب مثابر بجلاء قوات الاحتلال البريطاني عن مصر ، فبدأت نظرة الناس تتحول لصالح الضباط الاحرار وزعيمهم . والواقع أن الضباط الاحرار استولوا عل الحكم في مصر في وقت كانت فيه سوريا راضخة لحكم عسكرها. واذا كان الرأي العام في سورية ، الجمهوري بأغلبه ، قد ايد اسقاط الملكية المصرية الفاسدة ، فإنه لم ينتبه ، في البداية ، الى الفرق بين حكامه وحكام مصر العسكريين هؤلاء ، بل انه ارتاب بهؤلاء الحكام حين الغوا الحياة البرلمانية في بلادهم وحظروا الاحزاب وفرضوا الاحكام العرفية. غير أن النظرة السلبية لم تستمر الا لبعض الوقت ، وقد بدأت المقارنة بين نوعين من الحكام العسكريين تضطرب منذ شرع حكام مصر في تطبيق الاصلاح الزراعي وتوزيع الارض على الفلاحين الفقراء الأمر الذي كان موضع تقدير وثناء في الاوساط الشعبية في سورية. وعندما وقعت اتفاقية الجلاء مع بريطانيا ، وكانت سورية قد تحررت من ديكتاتوريتها ، بدا ان ثورة يوليو وزعيمها عبد الناصر قد كسبا نقطة عند الرأي العام السوري ، وصار امرهما موضع نقاش في الاوساط السياسية السورية ، بعد أن كانت هذه مجمعة

على المعارضة . غير أن التأثير الايجابي لهذه الخطوة تضاءل عندما نشبت الخلافات داخل مجلس قيادة الثورة الذي أنشأه الضباط الاحرار ، حول مسائل الديمقراطية . ولا شك في أن المزاج العام في سوريا كان ضد عبد الناصر الذي ظهر كمتشدد ضد احزاب اليسار واليمين على حد سواء . وعندما احتدم الصراع مع « حركة الاخوان المسلمين » في مصر ، نشط اخوان سورية المسلمون لتعبئة الرأي العام ضد ثورة يوليو وزعيمها . وكان مصطفى السباعي ، زعيم الحركة في سورية ، خطيباً قديراً وذا تأثير حاسم على الجمهور ، وأتذكر اني استمعت اليه عندما جاء ليخطب في الجامع الاموي ، كما استمعت اليه عندما خطب في جمهور متظاهر امام البرلمان ، فبكيت ، في الحالتين ، مع من بكى حزناً ، وهتفت مع من هتف ضد المظالم التي حلت بقادة الاخوان في أرض الكنانة. وهكذا ، تماوجت المواقف في سوريا ازاء ثورة يوليو بين التأييد لبعض اجراءاتها والمعارضة لبعضها ، والحيرة حول عدد منها الى أن دخل عبد الناصر في المجابهة التي افضت الى العدوان الثلاثي. هنا ، بلغ التأييد لعبد الناصر ذرى تحقق فيها ما يشبه الاجماع على زعامته ، في محطات بعينها في تلك المرحلة . وعندما ابلغ عبد الناصر الى الجمهور العربي في بلدانه المختلفة انه كسر احتكار الغرب للسلاح وان مصر اشترت السلاح من المعسكر الشرقي ، كان ذلك فاتحة الاعتراف به كزعيم عام للحركة العربية القومية المتصادمة مع دول الغرب الرأسمالية. وقد مارس عبد الناصر هذه الزعامة ، فعلاً ، برضى غالبية السوريين ، ومع اعجابهم الشديد ، خلال الانشطة التي اسهم السوريون فيها بدور كبير ، وخصوصاً في مواجهة حلف بغداد.

في ظل هذه التطورات وبتأثير التطورات الداخلية ، تميزت الحياة السياسية السورية ببروز معالم جبهة تقدمية واسعة ، كان البعثيون والشيوعيون في طليعة نشطائها. وقد اجتذبت الجبهة قطاعاً من البرجوازية الوطنية يتزعمه خالد العظم الذي صار يوصف بأنه المليونير الاحمر. وفي اطار هذه الجبهة ، تميز البروز الكاسح لخالد بكداش الذي حظي بعضوية البرلمان عن مدينة دمشق في اول انتخابات عامة اعقبت سقوط

الديكتاتورية ، فاشتهر كأول شيوعي عربي يدخل برلماناً. كان بكداش زعيماً من الطراز الاول ، وكان ، هو الآخر ، خطيباً قديراً بارعاً في اقناع مستمعيه والتأثير عليهم ، ثم اتضح أنه ، أيضاً ، برلماني من طراز رفيع . ومع أن بكداش كان النائب الشيوعي الوحيد في البرلمان ، فقد حقق لحزبه حضوراً فاق حضور احزاب تملك مقاعد وفيرة فيه. وتطور أمر هذه الجبهة الواسعة الى التبلور في تجمع برلماني اطلق عليه اسم « التجمع القومي». وأبرز التجمع ثلاث نجوم كانت اسماؤهم على السنة جميع الناس هم اكرم الحوراني ، الزعيم العملي لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وخالد بكداش ، الامين العام للحزب الشيوعي السوري ، وخالد العظم البرجوازي المستنير الراغب في تطوير علاقات سورية مع الاتحاد السوفياتي والاستعاضة بها عن العلاقات المجحفة مع دول الغرب.

وفي مقابل التجمع القومي التقدمي ، انشأ اليمين المحافظ تجمعه او تجمعاته ، وظهرت الكتل والتجمعات الوسطية ، وتوزع الزعماء التقليديون رئاسات هذه الكتل . غير أن التأييد الشعبي الكاسح لمواقف التقدميين وسياساتهم وضع المحافظين في عزله ، والجأ كثيراً من الوسطيين المترددين الى التعاون مع التجمع القومي بصورة أو بأخرى. زعماء الاخوان المسلمين ، وحدهم ، تقريباً ، تميزوا عن بقية المحافظين بمقدرتهم على الاحتفاظ بقواعد شعبية مؤيدة لهم . وقد خاض الجانبان ، التقدمي والمحافظ ، اعسر امتحان للقوة في انتخابات تكميلية جرت في العام ١٩٥٦ ، حين توجب ملء عدد من المقاعد التي شغرت في مجلس النواب. يومها ، صارت دمشق اهم ساحات هذا الامتحان . فقد رشح المحافظون للمقعد الوحيد الشاغر في دمشق اكثر زعمائهم شعبية وهو مصطفى السباعي وتكتلوا حوله. أما التقدميون فتكتلوا حول محام بعثي شاب هو رياض المالكي. وكان هذا المرشح ، فضلاً عن أنه من الوجوه الجديدة الواعدة ، أخاً للضابط عدنان المالكي الذي خطى بسمعة طيبة وسط الجمهور لانه قاوم الديكتاتورية بصلابة وصمد في السجن حتى النهاية ، ثم تعرض للاغتيال على يد شاب من الحزب السوري القومي

واستنكرت جريمة اغتياله على اوسع نطاق. وقد استقتل كل جانب لانجاح مرشحه. وكان أن انخرطت دمشق كلّها ، بل قل : سورية كلها ، في المعركة الانتخابية الفرعية ، هذه ، على نحو لم اشهد له مثيلاً ، لا من قبل ولا من بعد.

ولأمر ما لم أتبينه ، آنذاك ، بوضوح ، وجدتني متعاطفاً مع مرشح التقدميين ، بالرغم من نشأتي المتدينة وتأثري الطويل بالمرشح الآخر وبراعته الخطابية. وقد انخرطت ، بكليتي ، في الجدل الذي اججته المعركة الانتخابية والانشطة التي اقترنت بها . لم أكن قد كففت عن التديّن ، ولكني لم أهضم تطويع العواطف الدينية لاغراض سياسية وجعل الدين في خدمة الرجعية . وكان الشيخ الشهير احمد كفتارو قد تكتل مع مؤيدي المالكي واخذ يتصدى في احاديثه في الجوامع لتفنيد حجج الاخوان المسلمين. فاجتذبني احاديث كفتارو الشيقة وصرت من رواد مجلس الوعظ الذي يعقده كل اسبوع في جامع يلبغا ، في المرجة ، والمجلس الاسبوعي الآخر الذي يعقده في جامع « ابو النور » في حيّ الاكراد . وحين تمخضت المعركة الانتخابية عن فوز رياض المالكي ، وجدتني ارقص في الشوراع مع انصاره الذي احتفلوا بالفوز على اوسع نطاق.

لقد رمزت نتيجة الانتخابات التكميلية ، هذه ، الى أن ميزان القوى السياسية في سورية يميل ميلاً واضحاً لصالح التقدميين . وانعكست النتيجة في كل مكان . فاتسع التجمع البرلماني القومي ، ودخل وزيران بعثيان في الحكومة وتولى احدهما ، وهو صلاح البيطار وزارة الخارجية ذات الاهمية الخاصة . وحل اكرم الحوراني في رئاسة البرلمان محل رئيسه المحافظ ناظم القدسي ، وآلت زعامة الاتحاد العام لنقابات العمال الى أيدي التقدميين . وبالاجمال ، شهدت البلاد تلك الحالة من النشاطات التي تستهدف تطوير الحياة الاجتماعية والسياسية على اسس تقدمية ، وهي حالة تميزت بالتناغم الكبير بين جمهور الريف والمدن وقياداته السياسية

وبالمساهمة الواسعة من الجمهور في النشاط العام. وبدا ان سورية موشكة على أن تصير حمراء على ايدي البعثيين الذين يدعون الى الاشتراكية والشيوعيين الذين يدفعون بقوة باتجاه مزيد من التعاون مع الاتحاد السوفياتي.

في هذه الفترة ، اشتدت ضغوط الدول الغربية على سورية ، وبرز مشروع ايزنهاور لملء الفراغ في الشرق الاوسط بوصفه العنوان الاسطع لفرض الهيمنة الغربية واحباط النمو الواسع للحركة العربية القومية المناهضة للاستعمار . كما برز التهديد التركي بوصفه المؤشر على احتمالات التدخل العسكري في سورية ، فضلاً عن التهديد الاسرائيلي المتواصل . وكان رد الفعل الشعبي على هذه الضغوط مذهلاً ، فكانت المظاهرات المعادية لامريكا وحلفائها لا تتوقف. وعندما اعلن عن تشكيل المقاومة الشعبية كميليشيا ترعاها الدولة ، تزاحم الناس بالالوف على مراكز التطوع وواظبوا على التدرب على السلاح . وكانت الجامعة والمدارس في حالة غليان مستمر واظهرت انها جاهزه للتحرك ضد أية بادرة معادية . فكان يكفي ، مثلاً ، ان يشيع ان مسؤولاً أمريكياً او بريطانياً او فرنسياً قادم لزيارة بغداد او عمان حتى تمتلىء الشوارع بمظاهرات الاستنكار . كما كان يكفي ، مثلاً ، أيضاً ، ان يشيع أن مالك ارض طرد فلاحين من مساكنهم حتى يطوق المتظاهرون مبنى البرلمان ولا ينفضوا الا بعد صدور القرار بمنع الطرد. وفي « عرب فلسطين » ، كنا ، كأعضاء ، موزعين بين مساهمتنا الفردية في الانشطة التي تجتذب جموع التلاميذ كلهم ، ومساهماتنا في الانشطة الاخرى التي يخطط لها التنظيم . وبقرار من التنظيم ، انخرطنا في المقاومة الشعبية لنظفر بفرصة التدرب عل السلاح. والحقيقة ان ايا منا كان سيفعل ذلك من تلقاء نفسه لو لم يتخذ التنظيم هذا القرار . وبهذا ، اتيحت لي أوّل فرصة للتدرب على سلاح حقيقي .كان الامر ، حين اقيسه بما توفر لي من معارف لاحقة حول الاسلحة ، ساذجاً ، فالتدريب لم يتعدّ تمارين بسيطة على فكّ البندقية ذات الطراز الفرنسي وتركيبها واطلاق النار منها . اما في حينه فبدا لي هذا شيئاً خارقاً . وما ازال اتذكر

اليوم الذي اخذت فيه مجموعتنا الى حقل الرمي ، فقد اعتبرناه يوم عيد. وعندما استلقيت بمواجهة الدريئة واطلقت الرصاصات الخمس التي سلمت لي واصبت الهدف ، فرحت فرح من اطلق النار على الاستعمار، شخصياً ، واصابه في القلب.

تميزت هذه الفترة بترسخ شعبية عبد الناصر بين الجماهير العربية ، وخصوصاً الجمهور الفلسطيني ، على نحو حاسم . فهو بطل الجلاء . وهو الذي تحدى عنجهية اسرائيل واذن للفدائيين الفلسطينيين بأن ينطلقوا من غزة ويقوموا بعمليات فيها ، وهو الذي ساند الثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي مثلما ساند ثورات التحرر الاخرى في أي مكان في افريقيا وآسيا ، وهو الداعي النشيط لحركة عدم الانحياز ، وهو محبط حلف بغداد الاستعماري ومانع امتداده ليشمل بلاداً عربية غير العراق ، وها وهو ، اخيراً ، يعلن وقوف مصر الحازم مع سورية ضد التهديدات التركية ، ويتصدى لمشروع ايزنهاور ويسعى لتكتيل العرب جميعهم ضده. وعندما راحت دول الغرب تماطل في تنفيذ وعودها بتمويل بناء السد العالي المصري وتوجه الانذارات لعبد الناصر ، ثم عندما اشتركت اسرائيل في توجيه الانذارات ، بدا ان الناس في سوريا جاهزون كلهم للانخراط في المقاومة ، ولم يعد بمقدور أي تحفظات أن تؤثر على مكانة عبد الناصر وسط الجمهور . وقد أنشد الناس الى متابعة التطورات يوماً بيوم. وتشكلت « اللجنة العليا لنصرة مصر» فضمت اكرم الحوراني وخالد العظم وخالد بكداش. وعمت مظاهر التضامن مع مصر انحاء سورية كلّها ، فشكلت حملة شاملة لم يتخلف احد عن الانخراط فيها.

في عرب فلسطين ، اتخذنا قرارنا بأن نسهم في هذه الحملة . كان الأمر بالنسبة لنا هو أمر مواجهة اسرائيل والامبريالية والدفاع عن بلد عربي مهدد من قبلهما. وامام مظاهر الاهتمام الشعبي وبتأثير الدعاية الواسعة عن الاسلحة الحديثة التي تزود بها الجيش المصري والجيش السوري ، تصورنا ان المعركة الحاسمة لتصفية الحساب مع اسرائيل ومن يقف وراءها قادمة ، كما تصورنا ان النصر فيها مضمون للجانب العربي.

وصرنا نتابع مظاهر التضامن التي تبديها البلاد العربية كلّها ، "فنتخيل قوة هائلة وهي تتشكل بزعامة عبد الناصر ، ونعتقد بأنه ما من شيء قادر على الوقوف في وجهها. وفي سوريا ، حيث نعيش ، كنّا نعاين هذه الصورة باسطع ما تجلت به ، فقد تبارت فئات الشعب كلّها ، العمال ، والفلاحون ، والمهنيون ، والمثقفون ، في التعبير عن الاستعداد للتضحية. وكان راديو « صوت العرب » سلاح الدعاية الناصرية الجديد ، يقدم لنا صورة مماثلة وهو يصور ما يجري في البلاد العربية الاخرى ، فيزيدنا حماساً ، وثقة بالنصر.

في هذا الجوّ الذي ارتفع فيه الصوت القومي العربي وبرزت معالم عربية وحدوية سافرة ، صار الاستمرار في الدعوة الى خصوصية القضية الفلسطينية امراً صعباً للغاية . وأنا أتذكر ان ابرز التنظيمات المنافسة لعرب فلسطين في دمشق انحلّ في ذلك الوقت وانتسب معظم اعضائه الى حزب البعث ، بينما تلاشى وجود التنظيمات الاخرى او اتبع مصائر مماثلة. ولم يبق في ساحة التميز ، على كل حال ، غير عرب فلسطين وقليلين آخرين . ويعود الفضل في بقاء التنظيم ، جزئياً ، الى قوة تأثير هايل الذي لم يتزعزع ايمانه بخصوصية الوضع الفلسطيني حتى في ظل طغيان المدّ القومي. كما يعود الى ان التنظيم انخرط في الحملة العامة ، بل استثمر اجواءها لتوسيع انشطته . كان القرار ، كما ذكرت لك ، هو المساهمة في الحملة ، وقد قمنا بذلك بكل امكانياتنا ، وحرصنا ، في ذلك الوقت ذاته ، على ابراز الوجه الفلسطيني للانشطة التي نقوم بها ، فاجتذبنا من يحرص على ذلك من الفلسطينيين ، واقمنا ، بوصفنا تنظيماً ، اتصالاً مع اللجنة العليا لنصرة مصر. وكان من نصيبي ان كلفت انا وصبحي عرب بالاتصال بعضو اللجنة اكرم الحوراني الذي رحّب بنا بأريحيته المعروفة ، ثم احالنا الى معاونيه مع توصية مشددة منه بأن تلبّى طلباتنا كافة وان نعامل معاملة خاصة .

وها أنا أتذكر مرة قررت فيها اللجنة العليا تنظيم يوم للتضامن مع مصر ووضعت برنامجاً حافلاً بالانشطة لذلك اليوم ، وقد دعي جمهور دمشق

للقيام بمظاهرات تنطلق من احياء المدينة ثم تتجمع في الملعب البلدي . وقتها ، اجتهدنا في عرب فلسطين ان ننظم مظاهرة تضم الفلسطينيين وتحمل علمهم وشعارات تضامنهم مع مصر ، واخترنا مخيم الاليانس مكاناً للتجمع والانطلاق. وبذلنا نشاطاً هائلاً كي تكون المظاهرة لائقة من حيث الحجم والمظهر والسلوك . طلبنا إذن اللجنة العليا فوافقت على مظاهرتنا. وزودنا مكتب اكرم الحوراني بما يلزم للمظاهرة من معدات ، فحصلنا عل الاعلام واليافطات التي تحمل شعارات ذلك اليوم. ثم هيأنا من جانبنا يافطات اخرى خاطتها أم صبحي واخواته ، وكتبنا عليها الشعارات الخاصة بالفلسطينيين . وكان من ابرز هذه الشعارات : « جندونا! » ، وقد كتبناه على يافطات كبيرة بخط أحمر كبير.

وخلال اتصالاتنا لاعداد المظاهرة ، علمنا ان الحاج أمين الحسيني موجود في دمشق ، وعرفنا الموعد الذي تقرر للقائه التقليدي مع اصدقائه القدماء في النادي العربي بدمشق. وخطر لنا أن نوجه الدعوة للحاج امين كي يتصدر المظاهرة التي كنّا نعد لها ، وكنّا بهذا نبيت نيّة غير بريئة ؛ فقد الفنا في دعايتنا ان ننتقد قيادة الحاج امين ونتهمها بالتعالي على الجمهور والاكتفاء بالنخبة . وتوقعنا أن يرفض الزعيم الفلسطيني دعوتنا للاشتراك في المظاهرة ، فيعطينا رفضه سبباً ملموساً للبرهنة على صواب رأينا في قيادته وصدق دعوتنا للشعب الفلسطيني كي يعتمد على قيادة جديدة . وقد وقع الاختيار عليّ كي انقل الدعوة الى الحاج امين في النادي العربي ، فافرحني هذا التكليف واهاج حماسي للمواجهة ، اذ ما الذي يمكن ان يتاح لي ، انا الفتى ابن السابعة عشرة ، اعظم من أن أتحدى رجل التاريخ ، هذا ، وجهاً لوجه !

في الموعد المحدد ، ذهبت ، مفعماً بحماسي ، الى النادي العربي ، ارتقيت الدرجات المفضية الى الطابق الثاني بخطوات وثابة ، واخترقت الجمع المحتشد عند المدخل وفيه من اعرف ومن لا أعرف من وجوه الفلسطينيين ، واعلنت دون مقدمات اني راغب في مقابلة المفتي . لم يكن في هيئتي او سنّي ما يشجع مرافقي الزعيم على الاستجابة لطلبي.

والحقيقة أن المرافق الذي خاطبته استهان بالطلب الى حدّ أنه ابى أن ينقله الى صاحب السماحة. وقد اكتفى هذا المرافق بالقول : « سماحته مشغول ، تعال في وقت آخر الى مكتب الهيئة العربية العليا في حيّ المزرعة ! » . لم يفاجئني الرد المستهين ، فقد كان فيه تأكيد لرأيي في المفتي وجماعته . واذ كنت مدفوعاً بروح التحدي ، فقد اطلقت حنجرتي بالصوت العالي ، وافضت في كلام مؤداه انه لا يجوز لقائد فلسطيني أن يرفض مقابلة واحد من أبناء الشعب. وبالصخب الذي افتعلته ، افلحت في اجتذاب انتباه واحد من اللصيقين بالمفتي هو الاستاذ فوزي النحوي ؛ كنت اعرف الرجل اما هو فلم يكن يعرفني ، وقد خرج من الحجرة التي يجلس فيها مع المفتي ليستفسر عن سبب صراخي . وحاول الاستاذ النحوي هذا ان يقنعني بما عجز المرافق عن اقناعي به ، لكني الححت على مقابلة المفتي للتوّ ، ورفضت أن أبوح بالسبب لأحد غير المفتي ذاته . هنا ، كان الحشد كلّه قد صمت وراح يصغي لحواري مع الرجل الذي يلاينني دون طائل . وتهيأ لي ان المستمعين معجبون بجرأتي ، فامعنت في الصراخ ، فلم يجد الاستاذ المحرج بداً من تهدأتي ، ولم أهدأ انا الا عندما وعدني بأن ينقل طلبي . وفي فترة الانتظار ، جاء من يدعوني الى الجلوس ، لكني ابيت ان اغادر موقعي واصررت على البقاء بأزاء باب الحجرة التي رجع اليها الاستاذ فوزي . كنت موزع المشاعر بين اعجابي بجرأتي وخشيتي من ان لا يقبل الزعيم لقائي وتفكيري في ما يجب عليّ عمله . ولم أدر كم طال انتظاري بالضبط ، الا أني اتذكر اللحظة التي انفرج فيها باب الحجرة وظهر المفتي وسط جمع من المحيطين به : الوجه المهيب ، والعمامة الشهيرة ، والنظرة المطمئنة ، والابتسامة التي تشبه ابتسامة الجيوكندا ، والحركة الوئيدة ، وكل ذلك الجلال الذي يحيط برجل التاريخ الفلسطيني. وقد اخذت بهذا كلّه ، ولم افطن لنفسي ومهمتي الا حين تقدم الاستاذ فوزي واجتذبني ناحية المفتي الذي كان قد صار في وسط الحشد : « هذا هو الفتى المتشوّق لرؤية سماحتكم » . بهذه العبارة ، وبنبرة استثارني النفاق اللزج الذي يبلّلها ، قدمني الاستاذ النحوي للزعيم وهو يدفعني لأقف قبالته . ومدّ المفتي لي يده التي الف ان

يقبلها الناس ، جاعلاً ظاهر كفّه الى أعلى في حركة تشي بأنه يتوقع مني ، انا ، أيضاً ، أن اقبل هذه الكفّ . وعليّ أن اصارحك بأني كنت قد حسبت حساب هذه الحركة واعددت نفسي لها ، فلم امتنع ، فقط ، عن تقبيل اليد ، بل تناولتها وقلبتها وهززتها هزّة المصافحة. وكان هذا ، بالنسبة للحضور جميعاً ، علامة تمرد سافرة على التقاليد ، وهو ما اردته انا بالضبط.

كان اشد المحرجين ازاء تصرفي غير المتوقع هو الاستاذ فوزي النحوي ، وقد اضطرب الرجل كلّه ، ولم يدر كيف يتصرف ، فآثر الصمت فيما وجه لي نظرة مشحونة باللوم والحنق ، وهزّ رأسه بحركة تعني أن ما قمت به شيء معيب . اما المفتي نفسه فبدا عليه انه لم ينتبه لشيء غير عادي في مصافحتي له . لكنني انا انتبهت الى ان المفتي اولاني ، منذ تلك اللحظة ، انتباهه الكامل كما اولاني نظرة متفهمة ، دون أن تفارقه الابتسامة الغامضة. وقبل أن اتمكن من قول شيء ، سألني المفتي : « من اين انت ؟ » ، فقلت : « من المسمية » ، فتابع : « الكبيرة ام الصغيرة؟». ولما تيقن من اسم القرية التي جئت منها ، سألني : « ابن من أنت فيها ؟ » . وظننت ان رجلاً في مكانة الحاج امين لن يتعرف على اسم ابي الذي مات منذ سبعة عشر سنة وهو شاب صغير ، فنسبت نفسي الى جدّي ، فقلت : « ابن عبد المجيد الحوراني » . نطقت بالاسم متوقعاً ان يتذكر المفتي هذا المؤيد المزمن من مؤيديه فيأخذ ذلك بعين الاعتبار ويتأثر الحاضرون فيكفوا عن احراجي بنظراتهم. أما ما ادهشني فهو ان الحاج امين لم يتذكر صاحب الاسم ، فحسب ، بل برقت نظرته بالتماعة مودة وهو يسألني « أأنت ابن الحورانية أم ابن الشامية ؟ » . في تلك اللحظة ، شعرت ، وأنا اجيب على السؤال ، مطرقاً ، بخجل حقيقي أزاء هذا الرجل الكبير الذي احتمل فظاظتي ولم يمنعه سوء تصرفي من الاهتمام باحوالي . ولا بدّ أن المفتي ادرك أن توفزي قد انحلّ واني صرت طوع بنانه ، فقد ربّت على كتفي بحركة حانية واستفسر عن السبب الذي جاء بي اليه. وبعبارات لا أعرف كيف فهمت ، قدّمت

للزعيم الدعوة على اساس ان وجوده على راس المظاهرة يشرفنا نحن منظميها ، فضلاً عما يحمله من مغزى سياسي كبير. كنت قد صرت الولد الذي يعرض طلبه برجاء ويأمل في ان يستجاب ، وصار هو الوالد الكبير الذي يفهم دوافع الطلب ويقدرها. وقال المفتي انه يبارك عملنا ويعتزّ بمبادراتنا ويتمنى لنا النجاح . اما عن المشاركة في المظاهرة ، فقال ان صحته لا تسمح له بقطع هذا المشوار الطويل. كان الرجل قد سيطر عليّ فلم أجد ما اناقشه به بشأن اعتذاره . وربت المفتي على كتفي ثانية ، وقال ، في اشارة لانهاء المقابلة : « سلم لي على الرجل الطيب ، ابو نافذ رجل حبيب » . وعندما همّ المفتي بالتحرك ، وجدتني مدفوعاً لتناول يده وقد عزمت على تقبيلها ، الا انه سحب يده قبل أن تبلغها شفتاي ، وقال : « رح على بركة الله ! ».

١٥

عملت في مصبغة فتحولت إلى منتدى للمناقشة

حررني غياب خالي نافذ عن المنزل واستغراقه في شؤون مدرسته الجديدة في فيق من معظم القيود المنزلية التي كانت تحد حركتي في المجالات التي تستهويني . وهكذا ، استغرق العمل العام جلّ وقتي ، وكذلك المطالعة ، ولم اخصص للدراسة الا الوقت الذي نمضيه في المدرسة . ولم يكن هذا ، على كل حال ، وقتاً طويلاً في تلك السنة المدرسية التي تعاقبت فيها الاضرابات على نحو لم يسبق له مثيل . وعندما حان وقت التحضير لامتحانات الشهادة الثانوية ، كنت أعرف أن عدتي لها قليلة الشأن . وقد حاولت ان أتدارك الامر ، قمت بذلك في الاسابيع الاخيرة من العام المدرسي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عندما اعفينا من الدوام على الصفوف كي نستعدّ للامتحانات . واجريت حسبة عملية ، فنظام الامتحانات يوجب على التلميذ كي ينجح ان يجمع نصف العلامات على الاقل في معدله العام ، ويبيح للتلميذ ان يحصل على أقل

من النصف في مادتين اثنتين ، فقط ، شريطة أن لا تهبط علامتاه في أي من المادتين عن العشرين في المائة. ولم أجد صعوبة في تدبير امري مع المواد الادبية ، وكنت واثقاً من اني سأحصل في هذه المواد على علامات مرتفعة توفر لي المجموع العام اللازم للنجاح. لكنني خشيت الا احصل في كل من الرياضيات والفيزياء على العشرين في المائة التي تمثل الحدّ الادنى فيكون في هذا رسوبي. كانت حصيلتي في هاتين المادتين خلال العام الدراسي أقلّ من قليلة ، بل اني ، في واقع الامر ، دأبت على تصعيد الاسباب التي اتذرع بها لاتجنب حضور دروسها ومع كل الجهد الذي بذلته في فترة التحضير ، والذي ركزت جانباً كبيراً منه على المادتين الخطرتين ، لم اتمكن من تحقيق تقدم يذكر. وفي الامتحان ، وجدتني عاجزاً عن معرفة ما تطلبه أسئلة الرياضيات ، فقدمت ورقتي شبه بيضاء. وتكرر الامر ذاته ، تقريباً ، مع الفيزياء. ولما تيقنت من ان اجابتي كانت ضعيفة في مادة الجغرافيا ، أيضاً ، فقد تحققت من ان التنتبجة ستكون الرسوب. وكتمت الامر عن أهلي ، مؤجلاً لحظة الصدام المتوقعة مع خالي نافذ الى ان تظهر النتيجة بعد اسابيع.

وبعد هذه الاسابيع ، وكان نافذ قد جاء للاقامة معنا اثناء العطلة الصيفية ، كما جاء عمر للاقامة الدائمة بعد ان نقل عمله الى مدينة دمشق ، حل اليوم المرتقب. وفي الموعد المقرر لاذاعة اسماء الناجحين من الراديو ، زوغت عن المنزل ، وتعمدت أن اطيل الغياب بأمل أن اعود والاهل نائمون . لكن النوم لم يطاوع احداً من ساءتهم النتيجة ، وقد كانوا في انتظاري بوجوه تتماوج على صفحاتها شتى التعابير السلبية. وحين دخلت المنزل ، وجدتني بمواجهة حلقة جللها الصمت والوجوم. ولم يرد احد على تحيتي ، الا خالتي شفيقة التي جمجمت برد تحمل نبرته انذاراً يشير الى ما ينتظرني . كان الاهل قد تداولوا في الامر قبل وصولي واختلفوا حول ما ينبغي عمله معي . وقد بذل خالي عمر ، الذي صار ميالاً أكثر للمسالمة منذ نجاته من المرض ، جهداً كبيراً لتهدئة نافذ . وكان عمر ، في معرض مطالبته لنافذ بعدم التسرع في رد الفعل ، قد منّى اخاه بأن تكون النتيجة

مجرد اكمال في مادة او مادتين بحيث يمكن تدارك النجاح في الدورة الثانية . أما الجدّة فقد استحلفت نافذ ان يمرر الليلة بسلام الى أن تنجلي تفاصيل النتيجة في الصباح. وكان نافذ قد وعد بأن يكظم غيظه ، الا أن الآخرين لم يثقوا بأنه قادر على ذلك ، فظلوا على توجسهم من رد فعله. وقد استمر الصمت والوجوم لحظات اخرى بعد وصولي. ثم دعتني خالتي شفيقة للحاق بها في المطبخ. وهناك ، حكت لي ما جرى في غيابي ورجتني ان اراعي الظرف فلا أقدم على أي استفزاز.

والحقيقة أني بدوت ، ازاء هذا كلّه ، غير مبال. فأنا لم افاجأ بالنتيجة ، وقد عزوت سبب رسوبي الى ارغامهم اياي على دراسة فرع لا استسيغه ، وكأنما شاقني ان ارسب في الامتحان لأني وجدت في هذا عقوبة لهم ، بمعنى من المعاني ، وليس لي. قلت هذا للخالة المرتاعة من منطقي ، فرجتني أن اخفض صوتي حتى لا يسمعني خالي نافذ. ثم طلبت من الخالة شيئاً آكله وانصرفت الى الطبق والذي وضعته أمامي كأن شيئاً لم يكن ، ولعلي كنت ابتسم او امازح خالتي حين اقبل نافذ على المطبخ. ولا بدّ ان استهانتي بما وقع لي قد هالته فما عاد بمقدور اي شيء ان يحول دون انفجاره. بدأ الخال بزعقة زلزلت شفيقة الطيبة ، فقد لامها على انصرافها لاطعام الولد « الساقط الداشر » ، ثم زعق في وجهي : « هذا الطعام الذي تأكله لا تستحقه ! » . وربما توقع خالي ان تخنقني ملاحظته فارد عليه فنشرع في هذا اللون من الشجار الذي يفرغ توتر الاعصاب ويريحها في نهاية المطاف. والحقيقة ان الملاحظة القاسية احنقتني ، الا أني لم اخرج عن طوري ، بل تعمدت ان اتمسك بمظهري الهادىء وقلت كأني أتمّ حديثاً سابقاً مع خالتي : « أخوك يستكثر عليّ اللقمة ، معه حق ، اليس هو الذي يدفع ثمنها ، أنها غلطتي أنا حين آكل من جنيّ يديه ثم لا أقبل ان اكون عبداً له » . كانت هذه السخرية اقسى مما يستحقه الخال ، وكان في مضمونها هزء بأنبل ما فيه هو الذي يضحي بهنائه الشخصي من أجل الاسرة. وانا لم اقصد وقتها أن اكون لئيماً ، كل ما في الامر أني أردت أن أردّ طعنته لي فخرج من فمي هذا الكلام

اللئيم ، دون رويّة ، ولم يعد بمقدوري أن اتراجع عنه او اصحح اتجاه الطعنة التي وجهتها الى الخال المتوفز. ولم يكن غريباً ، بعد ذلك ، ان الخال خرج عن طوره . فأخذ يتحرك ويسكن ، يندب ويشتم ويقذف عبارات تلاحقت بسرعة بحيث لم يستكمل النطق بها. وحين قال شيئاً مفهوماً كان هذا الرجل المتعلم ، الخارج عن طوره . يزعق في وجهي : « لم يبق غير هذا يا أبن لبقة ! » . ووجد الخال ، وهو في حاله تلك ، عصا المكنسة فالتقطها وكرّ ناحيتي وفي نيته ان يضربني بها . عندها ، فقط ، وقفت ، وتهيأت للدفاع عن نفسي ضد هذه المهانة الجديدة ، غير أني لم احتج لاستخدام يدي ، فقد سبقني خالي عمر فطوق اخاه بذراعيه واخرجني من المطبخ ، وهو يشير لي كي ابتعد بحيث لا تقع عين نافذ عليّ.

يومها ، غادرت المنزل ، معتزماً أن تكون هذه المرة هي الاخيرة التي لا رجعة عنها.

كنت تواقاً الى الاستقلال .وقد استقرّ في ذهني ان التمتع بالاستقلال مستحيل في هذه الاسرة التي الزمت نفسها باقسى ما في الريف والمدينة من تقاليد محافظة. وكان شعوري بالانتماء للاسرة ، انا اليتيم الذي انضمّ اليها بعد أن فقد معيليه الآخرين ، قد تضاءل الى ادنى حد. ولم يكن هذا الشعور ، على أي حال ، كاملاً في أي وقت من الاوقات. كان المنطق المسيطر عليّ يؤكد لي على أن من واجب الخال أن يواسيني حين أرسب في الامتحان بدل أن يقرعني ، كما أن من واجبه ان يعتذر ما دام هو المتسبب في هذا الرسوب ، وان يترك لي حرية اختيار الدراسة التي تلائمني. أما ان يهجم الخال عليّ بعصا المكنسة ، انا الشاب الذي يعدّ نفسه قائداً سياسياً مندوباً لدور تاريخي عظيم ، فأمر فوق الاحتمال ، وهو يدل على تعذر استمراري في العيش في هذا الجوّ.

لم اقض تلك الليلة في الشوارع. كنت قد كبرت ، وكانت حكاية خلافاتي المتواترة مع الاسرة قد شاعت بين الاصحاب فلم اعد بحاجة الى اخفائها. وكان لي اصحاب كثيرون اتجه اليهم ، وقد اخترت ، تلك الليلة ، التوجه الى منزل عضو في قيادة التنظيم ، واحد من الدزينة ، هو ابراهيم

كلّسلي. اخترت هذا المنزل بالذات لأن صداقة حميمة تربطني بابراهيم، ولأنه كان من السهل الدخول الى الدار التي يقطن فيها مع اسرته، في اي وقت في الليل او النهار، دون ان اقلق الاسر الاخرى القاطنة في الدار ذاتها. كان ابراهيم يتيم الأم، تزوج ابوه بعد وفاة امه وظفرت الاسرة بحجرتين في دار كبيرة للسكن المشترك، وقد افردوا لابراهيم حجرة مستقلة، ومن مزايا هذه الحجرة انها تقع بجوار مدخل الدار، فتكفي طرقات على نافذتها حتى يفتح ابراهيم الباب فأنضمّ اليه دون ان أثير انتباه الآخرين. ذهبت، اذن، الى ابراهيم دون تردد، وايقظته من نومه، وجلسنا نتبادل الحديث والشجون الى مطلع الفجر. وفي تلك الجلسة، دخنت سيجارتي الاولى، وتذوقت اول جرعة من العرق. كنت محتاجاً لما يهدئني وكان ابراهيم حفياً بي.

وفي الصباح، ذهبت الى المدرسة لاطلع على النتيجة التفصيلية لامتحاناتي، واتضح لي ان ما توقعته كان صحيحاً، فالنتيجة رسوب وليس اكمالاً، وهذا معناه ان امامي سنة اخرى اذا اردت ان اظفر بالشهادة الثانوية. كنت واثقاً من اني ساظفر بها ما دمت اتمتع بالحرية واقدر على اختيار الفرع الادبي، كما كنت مصمماً على متابعة الدراسة في كل الظروف. أما المهمة العاجلة التي حددتها لنفسي فكانت العثور على عمل اعيش منه. وجاءت الفرصة الملائمة بالصدفة وبأعجل مما توقعت. اذ انني كنت قد تعرفت خلال صديقي فايز على ابن خالة له هو سمير النقيب. وكان لسمير هذا دكان لتنظيف الملابس، او مصبغة كما يسمونها في دمشق، في حيّ القصور. وكنّا قد الفنا، فايز وأنا، أن نتردد على المصبغة كزوار، وكان يشوقنا ان نساعد صاحب الدكان في عمله كلما تسنى ذلك. وفي ذلك الصباح، لقيت فايز في المدرسة، فقد رسب هو الآخر في الامتحان، وجاء ليحصل على التفاصيل، وحدثته بما وقع لي مع اهلي، فاقترح ان نزور سمير لأن زبائنه في الحيّ الراقي كلّهم من التجار ورجال الاعمال وكبار المتنفذين، وقد يستطيع سمير ان يقنع واحداً منهم بتدبير عمل لي، وتوجهنا الى المصبغة بهذه النيّة. وكعادة ناسنا حين يلجأ اليهم

احد وهو في ضيق ، هوّن سمير الامر وجزم بأن تدبير عمل لي سهل ولا بدّ ان يتمّ في وقت قريب. والحقيقة ، أن الرجل الراغب حقاً في المساعدة باشر الاتصالات على الفور وتلقى وعوداً كثيرة من تلك التي يجزيها ذوو المكانة العالية لمن هم دونهم من غير ان يشغلوا انفسهم بأمر الوفاء بها. وتوجب عليّ ، اذن ، أن أتردد يومياً على المصبغة لملاحقة الوعود. واذ لم يكن لديّ ما افعله سوى ذلك ، فقد اخذ مكوثي في المصبغة يطول ، ورحت اساعد سمير في العمل ، اغسل ثياب الزبائن واكويها باشراف صاحب المصبغة ، او اوصلها الى اصحابها في المنازل. وكان سمير ، وكنيته التي نخاطبه بها « ابو وليد » ، يكافئني على جهدي باشراكي في وجباته التي يتناولها في المصبغة وشراء السجاير لي.

وتعاقبت أيام دون أن يحقق اي من الاصحاب الوعود وعده ، بل أن كثيرين منهم انتهوا الى اظهار ضيقهم بالحاح صاحب المصبغة. وكان ترددي على المكان ومساهمتي في العمل فيه قد صارا جزء ثابتاً من برنامجي اليومي . وكان تقدمي في اتقان المهنة سريعاً. وهكذا ، انبثق الحلّ من تلقاء ذاته : عملت في الدكان. وخصص لي ابو وليد اجراً مقداره ليره ونصف عن كل يوم عمل ، فيما ظل يشركني في وجبة الغداء التي يحضرها من منزله. واستجاب ربّ العمل الصديق لرغبتي ، فأذن لي بالمبيت في المصبغة.

عندما وصلنا الى هذا الاتفاق ، تبدل وضعي في المصبغة بعض الشيء ، فلم اعد الصديق الزائر الذي يتبرع بالمساعدة ، بل صرت ، أيضاً ، الاجير المكترى ، وصار علي أن اعمل منذ شروق الشمس حتى المغيب ، وان اواصل العمل حتى بعد المغيب في أيام الاعياد. ولم يكن في المصبغة الصغيرة المكتظة بادواتها مكان انام فيه سوى الواجهة. فكنت اكوم الملابس على أرض الواجهة الاسمنتية واضطجع عليها. ولأن هذا الوضع لم يكن مريحاً فإن نومي كان مضطرباً دوماً. وكنت انهض مع اول حركة في الشارع ، فاشعل موقد الغاز / الكيروسين الضخم لاسخن الماء ، وعندما تشرق الشمس اكون قد بدأت بغسيل الملابس. وكان ابو وليد

يصل الى الدكان في السابعة او الثامنة فيباشر كيّ الملابس المغسولة في اليوم السابق ، فيما اواصل انا الغسل حتى الظهر. وبعد ان نتناول ، ابو وليد وأنا ، الطعام المجلوب من المنزل ، نتابع العمل ، فإما ان اواصل الغسل او اعاونه في الكيّ.

بالرغم من مشاق هذا العمل الذي يستنزف الطاقة خلال ما لا يقلّ عن اثنتي عشر ساعة في اليوم ، لم يكن لديّ ما يدعو الى التذمر. فقد احتفظ ابو وليد بالمعاملة الكريمة التي خصني بها حين كنت أجيء الى مصبغته زائراً. فلم يكن الرجل يقرعني حتى حين اخطيء ، ولا كان يزعق في وجهي لأي سبب من الاسباب ، فاختلف في تعامله معي عن ارباب العمل الذين يؤكدون سلطتهم على اجرائهم باساليب من هذا النوع. وفي تعامله معي ، حفظ ابو وليد مكانتي كمتعلم ، وكان يقدمني الى زبائن المصبغة وزوارها بوصفي الشاب المجتهد الذي يعمل ليضمن نفقات دراسته ، ويصر على القول بأن مستقبلاً باهراً ينتظرني وبأنه فخور بوجود واحد مثلي في مصبغته. ثم أن الأمر لم يكن يخلو من مسليات تتابع خلال النهار. فالدكان الصغيرة ، المعدة في الاصل لتكون مرآباً لسيّارة ، والتي يهبط القادم اليها بضع درجات حتى يبلغ مدخلها ، والتي كنا نسميها ، بسبب ذلك « الجورة » ، كانت تستقبل كل يوم انواعاً متعددة من الناس ، وكان يلذّ لي ان اتعرف عليهم واراقب طبائعهم وأوجه سلوكهم المختلفة . كان الاصحاب يترددون على الجورة حين لا يجدون شيئاً آخر يفعلونه ، فيمضون فيها اوقاتاً تطول او تقصر حسب الاحوال ، ويلونون يوم عملنا الشاق بشتى الطرائف والحكايات والمناقشات. وكان الزبائن يتوافدون لجلب الملابس او أخذها او السؤال عما تمّ بشأنها ، او التوصية بالذهاب لجلب ملابسهم من المنازل او استعجال اعادتها . ولكل زبون شخصيته ومزاجه واسلوبه المتميز في الحديث والسلوك : يقبل احدهم فادرك من اطلالته وحركاته ونبرة كلامه انه ابن اصيل لهذا المجتمع الذي نسميه الراقي ، فهو يقدم بثقة ويسأل عن حاجته بوضوح ، ويكون حديثه ودوداً دون ان يرفع الكلفة . وهو يشكرك دون مبالغة في العبارات ويدفع

حسابه ويضيف اليه البغشيش دون افراط في الكرم. ويأتيك آخر فتدرك ، دون عناء ، انه حديث نعمة ، فهو يتحرك بنزق ويتكلم بصخب ، ويحتد اذا ووجه بما لا يرضيه ، ثم يفرط في الاعتذار حين يتضح ان لا مبرر لحدته ، ويدفع الحساب دون مزاح ويبذخ في البغشيش او ينسى ان يدفعه. مثل هذا الشخص يفوته ، غالباً ، ان يوجه الشكر ، واذا شكر فقد يفعل ذلك بعبارات لجبة ، الصمت أفضل منها ، ثم يطلب ، في الختام ، ان يحمل الولد ، الذي هو أنا ، ملابسه الى منزله ويصر على ان اصل بها الى داخل المنزل وانتظر حتى تجيء الخادمة لاستلامها مني. ويأتيك ثالث ، فتلحظ انه عزيز قوم ذلّ. وهذا قد يكون تاجراً آفلس ، او موظفاً كبيراً اودت تقلبات السياسة بنفوذه ، ففقد سلطته دون ان يفقد عادات التسلط ، او ضابطاً احيل على التقاعد قبل الأوان ولم يظفر ، بعد ، بموقع يلائمه في المجتمع المدني. وكان هناك ، عدا الزبائن انفسهم ، خدمهم او من هم في حكم الخدم كالمرافقين والسواقين ، يأتي هؤلاء ، حين لا يأتي معلموهم بأنفسهم ، ويعكس سلوك الواحد منهم هذا المزيج المركب من طبعه الخاص به وتقديره لمكانة معلمه وتقديره لمكانته هو عند المعلم ، فينتج عن هذا كلّه انماط لا حصر لها من الشخصيات واوجه السلوك التي لا تنتهي من التمتع بمراقبتها.

لم يكن زبائن الجورة كلهم من الاغنياء. فبعض الزبائن كان من الشغيلة الذين تقع اماكن عملهم في الأفضية القريبة من حيّ القصور. هؤلاء كان التعامل معهم سهلاً : يجيء الواحد منهم على استحياء في البداية ، ويطلق تحية موجّهة الى الحاضرين في الجورة كلهم ، ثم يفرد الصرة التي يحملها فيكون فيها ، غالباً ، الملابس التي يستخدمها في أيام العطل والأعياد ، لأنه يغسل بقية ملابسه بنفسه ويرتديها دون كيّ. وكان ابو وليد يستقبل هؤلاء الزبائن بمودة خاصة ويتقاضاهم سعراً أقل مما يدفعه زبائنه الاغنياء ، وسرعان ما كانت الكلفة تزول لتحلّ محلها الألفة والعلاقات الحميمة. وأنا أتذكر من هؤلاء بضعة عمال ضمهم مشغل لاعداد طوب البناء المصنوع من الاسمنت او ما يسمونه « البلوك » . كان

هذا المشغل يمتد علي ارض فضاء في نهاية شارع حلب عند التقائه بساحة العباسيين ، قريباً جداً من الجورة. وكان بين عمال المشغل ثلاثة من الغرباء عن المدينة ممن يعملون ويسكنون في كوخ بسيط اقاموه في ذلك الفضاء بين اكوام البلوك والاسمنت والادوات . وكان هؤلاء قد الفوا ان يجيئوا الى الجورة ، او يدعوا رواد الجورة الى كوخهم لشرب الشاي والسمر وتبادل الاحاديث. ولم ألبث ، بعد أن صرت من العاملين في الجورة ، ان صرت صديقاً لهؤلاء العمال اتبادل معهم المساعدة ، أيضاً ، والهموم. ولا تغيب عن ذاكرتي صورة واحد من هؤلاء الثلاثة هو ابو داوود. كان الرجل فلسطينياً لجأت اسرته الى شرق الاردن. وكان يعلن ان الحاجة ، وحدها ، هي التي حملته على ترك الاسرة في عمان والمجيء الى دمشق من أجل العمل. وقد تميز ابو داوود الذي يتجنب الافصاح عن اسمه الكامل بخصلتين متناقضتين ، فهو منفتح من جهة الى اقصى حدود الانفتاح ، ومنغلق من جهة اخرى حتى لكأنه طلسم . كان الرجل ذو القامة الرشيقة والوجه الاسمر حلو التقاطيع ، كريماً ، مرحاً ، محبّاً للعشرة ، حريصاً على احاطة اصحابه بالحفاوة والمودة ؛ لكنه كان ، في الوقت ذاته ، شديد التكتم حين يتعلق الامر بحاجة الآخرين لمعرفة أي شيء عن ماضيه. وقد انتهينا الى الاعتقاد بأن وراء خروج هذا الرجل من عمان سراً يحتاج هو الى كتمانه فطوينا فضولنا وكففنا عن توجيه الأسئلة المحرجة . ثم تعزز هذا الاعتقاد حين لاحظنا ان العامل النشيط يحصر تحركاته في دائرة ضيقة لا تتعدى منطقة المشغل وجواره ويتجنب الاحتكاك بمن له صلة بأجهزة الامن.

كان ابو داوود يجيء الى الجورة ومعه السكر والشاي ، ويتبرع باعداد كل شيء عازماً على ان لا يعطلنا عن العمل . وعندما عرف ابو داوود اني أبيت في الجورة ، صار يفتعل الاسباب ليدعوني الى كوخه في المشغل : « أنوي ان أعد ، اليوم ، فتة راس لا تذوق مثلها عند أمهر روّاس في المدينة ، فلماذا لا تجيء وتجرب براعة أخيك في الطبخ ! » ؛ أو : « هذا المساء يجيئني زوار طيبون ، حدثتهم عنك وهم راغبون في الاستماع لكلام

الشبّان المتعلمين ، فلماذا لا تسرّنا بحضورك! » . وكنت اذهب ، فأجد ان الرجل المضياف قد نظف المكان ورتب المائدة وجلب العرق ، وتبدأ السهرة التي تتنوع فيها الاحاديث. فإن كنّا ، ابو داوود وأنا ، وحدنا ، دار الحديث حول هموم الغربة وما يعانيه الفلسطينيون هنا او هناك في بلاد الشتات المتعددة. أما ان كنّا في جماعة فإن متاعب العمل وشؤون السياسة توفر موضوعات شتى للاحاديث التي تدور وسط الجماعة. وبمضيّ الوقت صرنا صديقين حميمين ، وكان يطيب له ان يردد : « ستظفر بالشهادة وتحصل على وظيفة محترمة وتصير بين المرموقين ، فلا تنسى ،، عندها ، صاحبك التعيس ! » ، وكنت اضحك ، واطمئنه ، فيقول هو بجديّة : « أعرف انك أصيل » .

شخص آخر من رواد الجورة لا تغيب صورته عن ذاكرتي هو الحاج نجدت المولوي ، وكنّا ندعوه بلقبه « الحاج » كأنه اسم له . كان هذا سائقاً حمصياً يقيم في دمشق يقود شاحنة كبيرة لنقل البضائع عبر الصحراء الى بلدان الخليج. ولم يكن لهذا الرجل من سمات الحجاج الا اللقب الذي لصق به ، منذ تصادف ان وجد في مكة في موسم اداء فريضة الحج فقام براسمها ؛ كما لم يكن له من اطباع سواقي الشاحنات الا مهارته في قيادتها . عدا عن ذلك فالحاج ينحدر من اسرة حمصية غنيّة. وكان أهل الحاج قد وجهوه كما وجهوا ابناءهم الآخرين نحو التعليم ، لكنه كان ، كما يصف نفسه ، طائشاً ، فلم يجتذبه التعليم ولم يتمكن من المواظبة عليه ، بل اجتذبته هواية قيادة السيارات حتى برع فيها. وكان لهذا الحاج اخ هيأت له مكانة الاسرة وتعليمه العالي ومخالطته لعلية القوم ان يصبح بين المرموقين في البلد ، فصار صحافياً يعمل في مجلة مشهورة واسعة النفوذ هي « المضحك المبكي » ، كما صار غنياً . وفيما كان الأخ يبني مستقبله كصحافي وسياسي ، كان الحاج منصرفاً الى الشقاوة ، فتشرد هنا وهناك ، ومارس ، على حدّ تعبيره ، الموبقات كلها ، دون أن تردعه محاولات الاسرة لالزامه الصراط المستقيم. وفي النهاية ، لفظت الاسرة ابنها الضال فحرمته من المصروف. وحاول هو ان يدبر امر معيشته فتقلب في مهن

عدّة ، ثم انتهى به الامر الى المهنة التي يتقنها وتلائم نوازعه للمغامرة ، فصار سائق شاحنة للمسافات الطويلة. ثم حدث ان تزوج الحاج ، فعل ذلك في ظروف غامضة لم يكن يحب الحديث عنها ، وصار عنده اولاد ، فزادت مسؤولياته ، وما عاد دخله كسائق اجير كافياً لتغطية نفقات الاسرة التي اراد هو لها ان تعيش كما يعيش ميسورو الحال. في غضون ذلك ، كان الأخ قد انتقل من حمص ليستقر في دمشق ويصبح صاحب الاسم المعروف في عالم الصحافة و السياسية . وكان هذا الاخ قد بنى لنفسه في حيّ القصور فيلا كبيرة ذات طابقين. وعندما عزم الحاج على الاستقرار ، جاء الى اخيه وساومه بدعوى انه انتهى الى الهداية وانه راغب في حياة مستقرة تلائم اسم العائلة. اقول : ساومه والادق ان اقول ان الحاج ابتزّ الأخ ، باسم الحرص على سمعة العائلة ، فطلب ، منه ان يعينه في تدبير اكلاف الحياة المطلوبة . وافضت المساومة الى اتفاق ، فبنى الأخ ملحقاً على سطح بنايته ليقيم الحاج واسرته فيه ويظلوا تحت رقابته ، واشترى شاحنة للحاج ليؤمن له دخلاً كريماً ، واشترط ، مقابل ذلك ، ان يكفّ الحاج عن الشقاوة وان يسلك سلوك ابناء العائلات الطيبة . والحقيقة أن سلوك الحاج كان قد انتهى الى ذلك اللون من الهدوء الذي لا يطفيء ما تحت الرماد لكنه لا يؤججه ، فقد صار يعمل بما يكفي الحاجات الضرورية ، يقبل العرض اذا استهواه او لاءم رغبته في السفر ، ويرفضه حين لا يجد ضرورة له . وصار الحاج يعتني بمظهره ويلزم نفسه بآداب السلوك ، ويخالط المجتمع الذي يختلط به اخوه ، لكنه بقي قادراً على اقامة اوثق الصلات بمجتمعات الشغيلة والكادحين.

وحين رأيت الحاج لاول مرة في الجورة ، كان امامي وجيه معتبر انيق الهندام الى حدّ مذهل ، حليق الذقن مصفف الشعر على اتم وجه. وحين تحدث الرجل ، وجدت فيه انساناً واسع الخبرة مجيداً للكلام قادراً عن ان يكون مفهوماً من اصناف الناس كلهم. فاجتذبني هذا كله الى الرجل : اما هو فاجتذبه شيء في سيرة حياتي ، وخصوصا في تمردي على الاسرة ، يذكره بماضيه ، واعجبه ، فضلاً عن هذا ، اني مصمم على متابعة التعليم مع حاجتي لهذا العمل الشاق الذي اقوم به.

والحقيقة ان تردد الحاج على الجورة زاد منذ انضممت اليها ومنذ ادى وجودي فيها الى تردد اعداد اكبر من المتعلمين من اصحابي . هنا ، كان الحاج يجد ميداناً فسيحاً يصول ، ويجول ، دون أن يصطنع ما يصطنعه وهو بين اصحاب أخيه ، وكان امام الحاج سميعة يستهويهم حديثه المفعم بالخبرة والتجارب المتنوعة . وهنا ، كان بميسور الحاج ان يجد من يناقشه في السياسة والعقائد دون ان يتعالى عليه او يتهمه بالجهل كما يفعل اخوه. والحقيقة أن الحاج كان مطلعاً اطلاعاً واسعاً على شؤون الحياة السياسية السورية وناسها ، فهو يعرف الصغيرة والكبيرة ويختزن ذخيرة من الحكايات الواقعية التي عرفها في فيلا اخيه . وكان للحاج رأي في سياسي البلد واحزابه يقوم على أساس انهم ، جيمعاً ، وصوليون ، وطماعون ، ومنافقون ؛ وكان يدعم رأيه بالامثلة . وحين يرى الحاج اندفاعنا ويتبين مقدار حماسنا ومثاليتنا ، كان يظهر اشفاقه علينا ، ويحذرنا : « ستنتهون الى أن تروا ما رأيت وتعرفون ما عرفت ، فتكفروا بالجميع وتنتبهوا لانفسكم » .

بوجود هؤلاء الناس بين المترددين على الجورة ، تحول المكان الصغير الى ما يشبه المنتدى ، وكانت احاديث السياسة هي الغالبة فيه خصوصاً في ذلك الوقت الذي كان فيه الشرق الاوسط كلّه ملتهباً بالنذر التي تشي بشتى الاحتمالات الخطيرة. وكان ابو وليد صاحب المكان ، وهو المجهد بالعمل الكثير واعباء الاسرة الكبيرة ، مسروراً لهذا التحول ، وقد بدا لي ان الأمر يسليه ويقدم له شيئاً من التعويض عما افتقده حين اضطر لقطع دراسته والانخرط في هذه المهنة . كان سمير النقيب ثاني الاخوة الذكور في اسرة كبيرة العدد. وعندما لجأت الاسرة من صفد الى دمشق ، توجب عليها ، كمعظم اسر اللاجئين ، أن تبدأ من الصفر او مما هو دونه . وقد كابدت الاسرة ما كابده غيرها من هموم في سنوات اللجوء الاولى ، وقبلت هذا كما قبله غيرها على انه وضع مؤقت يعود الناس بعده الى وطنهم. فلما طال الوقت ، دون ان تتحقق العودة او يلوح ما يدل على قرب تحققها ، بدأت هذه الاسرة بالتفكير في توفير مورد ثابت يؤمن حاجاتها.

كان الأب ، الذي احترف الوجاهة في صفد بوصفه منتمياً لأسرة من الاشراف وعاش على ريع املاكه فيها ، اكبر سناً من ان يبدأ مهنة جديدة. وكان أكبر الاخوة وهو سامي قد عمل اجيراً في مهن ودكاكين كثيرة ، فيما تابع الآخرون تعليمهم في المدارس ، ثم عصرت الاسرة نفسها وباعت ما تقتنيه من عزيز التذكارات والحليّ حتى فتح سامي هذه المصبغة في الحيّ الذي كان قيد الانشاء في بداية الخمسينات. وعمل سامي ليل نهار كي يقف مشروعه الجديد على قدميه . لكن العمل المضني كلّف الابن البكر صحته فلم يلبث ان فتك به مرض السلّ ثم اودى بحياته. وخلّف سامي في دار الاسرة ، في حيّ اليهود ، زوجة ارملة وبضعة أولاد اضيفوا الى الأفواه الاخرى العديدة المطالبة بالطعام. هنا ، توجب على سمير وعلى اخيه الذي يليه في العمر ، منير ، ان يتركا المدرسة. وقد التحق منير بمؤسسة البريد والبرق والهاتف عاملاً في قسم اصلاح الاعطال ، فيما انيطت بسمير مهمة العمل في المصبغة. ولم يلبث ان تزوج الاثنان وراحا يضيفان الى الدار الكبيرة افواهاً جديدة وتخليا عن حلمهما في مواصلة التعليم ، وان وفرا الفرصة للاخوة الاصغر منهما. وحين تعرفت على سمير ، كان قد امضى في الجورة ثلاث سنوات وبرع في المهنة وحولها الى مشروع ناجح. لكن الحنين الى التعليم الذي افتقده الشاب بقي يراوده ، فكان يجد فيّ وفي التلاميذ الآخرين الذين يترددون على الجورة والمناقشات التي تدور فيها خارج مشاغل المهنة بعض ما يلبّي هذا الحنين.

كان ابو وليد يعرف بوجود تنظيم عرب فلسطين ، ويسميه حين يتحدث عنه « جماعة هايل » على اساس ان هايل من صفد فهو ينسب الزعامة لابن بلده من باب التفاخر ، وربما ، في سياق ممازحتي لأني لا احبّذ تسمية مثل هذه التسمية. لكن صاحب المصبغة لم يكن على استعداد للانضمام الى التنظيم او الجماعة ، فنحن ، بالنسبة له ، لا نعدو كوننا فتياناً متحمسين قد يبارك امثاله جهدهم لكنهم لا يثقون به. وكان ابو وليد يمحض زعامة عبد الناصر ولاء لا لبس فيه ويعوّل عليه بوصفه القائد الفذّ القادر ، وحده ، على تحرير فلسطين. أما انا فكان تديّني قد بهت

لكني بقيت موزعاً بين ارتباطي بعرب فلسطين واعجابي بحزب البعث ودعوته القومية. وقد تعرفت في ذلك الوقت على الفريق من حركة القوميين العرب الذي كان يصدر مجلة « الرأي » الاسبوعية في دمشق. كان هذا الفريق يجتمع ويستقبل الانصار والزوار في مقرّ المجلة، في بناية القدسيّ القريبة من محطة الحجاز. وكان هايل قد تعرف على احد نشطاء الفريق وهو شاب فلسطيني اسمه عدنان مثلما تعرف على هاني الهندي. وقدمني اليهما. فصرت أتردد على مقر المجلة كلما تسنى لي ذلك ، ازور المقر في النهار حين يكون اليوم عطلة ، وازوره في الليل في أيام العمل وتمتد المناقشات لساعات طويلة ، فاشترك فيها او استمع اليها ، دون أن يجذبني فكر الحركة كما جذبني البعث. واشدّ ما كنت آخذه على مواقف الحركة في ذلك الوقت هو اسلوبها القائم على رفض الاشياء بدل تقديم اشياء ايجابية. فقد كانت الحركة ترفض مثلاً الدعوة الى الاشتراكية ، بحجة ان هذا ليس أوانها. وترفض الدعوة الى استقلال العمل الوطني الفلسطيني بحجة ان هذا ضار بالعمل الوحدوي.

وكان بين رواد الجورة ممن يشتركون في مناقشاتها بين وقت وآخر الاخوان محمد ومصطفى ، وهما دمشقيان يملكان البقالية الملاصقة للمصبغة ويعملان فيها معاً . وكان محمد من مؤيدي حزب الشعب بينما كان مصطفى من مؤيدي الحزب الوطني ، وهكذا انضافت اسماء رشدي الكيخيا وناظم القدسي وشكري القوتلي وصبري العسلي الى الاسماء التي يجري تداولها في المناقشات . وكان واحد من زملاء ابي داوود في المشغل يجهر بتأييده للشيوعيين لكنه لا يعرف كيف يعرض افكارهم المعقدة . فكان هذا يكتفي بتذكيرنا بلينين الافهم من عبد الناصر وخالد بكداش الاقدر من كل الزعماء ، ثم يعترض على ما يقال امامه مما عدا ذلك . وكان سائق شاب لضابط متقاعد قد انضم الى رواد الجورة منذ تقاعد معلمه وهو يجهر بانتمائه ، مثل سيده ، الى الحزب السوري القومي ، ومعنى هذا ان الشاب جريء جداً اذ ان الحزب حظر وحوكم اعضاء قيادته ووضع عدد منهم في السجون ، لأن الحزب تورط في اغتيال

عدنان المالكي . وكنّا نقدر جرأة السائق الا انه لم يكن قادراً على احداث
أي تغيير يذكر في مجرى المناقشات ، وان بقي قادراً على ان يشتم الذي
لمجيء على ذكرهم من السياسيين ويتوعدهم بأن يوم الخلاص منهم قريب.

١٦

العدوان الثلاثي يبدأ وأنا في « تل الزعتر »

امضيت في الجورة اشهر الصيف ، كنت مشدوداً الى المكان بحكم حاجتي الى الطعام والمأوى ، ثم زاد انشدادي اليه بعد أن توطدت علاقتي برواده ، ولكني ، مع ذلك ، وبالرغم منه ، لم اكفّ عن البحث عن عمل اكثر ملائمة. وكنت افكر في حاجتي لوقت فراغ اطول وجو افضل من الجوّ المتيسر للدراسة . ولم يسفر بحثي عن نتيجة ، فقد كان من الممكن ان اعثر على مكان آخر متواضع لكني لن اعثر فيه على رب عمل يعاملني كما يعاملني ابو وليد .

ولم يبق الجهد المتواصل الذي اقوم به في الجورة المفتقره الى التهوية والمسكونة بالحرارة والرطوبة بغير تأثير على بدني . وهنا ، حيث كنت افتقر الى الغذاء الكافي والمضجع المريح وأسلم نفسي للسهر الطويل وادخن احط اصناف السجاير ، تضعضع البدن بالرغم من أن بنيته قوية. وقد وجدتني ، مع نهاية الصيف ، اشكو آلاماً فظيعة في ساقيّ ومفصليّ حوضي وظهري .

ونسبت ذلك ، بالطبع ، الى قسوة العمل وعالجته باطالة التمدد حين تشتد نوبات الالم وتمسيدالمواضع التي يتمركز فيها. وجاء وقت صار لا بدّ فيه من مراجعة الطبيب . وكان من حقي ان اذهب الى عيادة الاونروا التي تستقبل اللاجئين مجاناً . وكانت البطاقة التي تثبت صفتي كلاجيء موجودة بحوزة أهلي. وقد عزّ عليّ أن اطلبها منهم ، لا لشيء الا لأني خجلت من ان يعرفوا ما آل اليه حالي في الجورة. والحقيقة أن جدّي عبد المجيد كان قد قام بعدة محاولات لارجاعي الى المنزل ، وأني أنا الذي رفض وكرر الرفض حتى كفّ الجدّ عن المحاولة. ولما اشتدّ عليّ الالم الى الحدّ الذي كاد يعجزني عن العمل ، تبرع ابو وليد ، دون علمي ، بالذهاب الى اهلي ليجلب البطاقة . وبهذا ، عرف الجدّ اني مريض ، فجاء الى بنفسه ، ولم يأذن بأي مناقشة ، بل حملني على اصطحابه ، فوراً لزيارة طبيب الاونروا. في هذه الزيارة التي ظفرت في نهايتها بعقار مسكن للآلام ، عرفنا ، الجد وأنا ، ان موافقة مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت على اجراء العملية الجراحية المطلوبة لعيني قد وصلت ، وأن دوري قد حلّ فبامكاني أن أتوجه اليهم في أي وقت.

كان اغراء التخلص من العاهة التي تشوه وجهي أقوى من أن يقاومه شاب في سنّي ، أيا كانت الظروف. ثم كان هناك اغراء الراحة من العمل المضني ، خصوصاً بعد أن شدد طبيب الاونروا على ضرورة الراحة وحذرني من أن مرضي سيزمن ان لم اوفر لنفسي جواً غير هذا الذي اكابده. وبهذا ، نشأ وضع جديد. وتوجب عليّ أن استخرج الاوراق اللازمة للسفر. وكان من المتعذر استخراج هذه الاوراق دون التعاون مع جدي الذي هو وليّ أمري حسب سجلاّت الحكومة. واقتضى الأمر ، اذن ، أن التقي بالجدّ كل يوم واطوف معه على الدوائر الحكومية.

كان عليّ من اجل استخراج وثيقة السفر ان احصل ، قبل أي شيء آخر ، على شهادة اقامة وحسن سلوك من مختار الحيّ الذي اقيم فيه . وكنت ما ازال مسجلاً كمقيم في الحيّ الذي تقطنه الأسرة. وقد أخذني جدّي الى مختار هذا الحيّ وطلب الوثيقة دون أن يشير امامه الى أي تبدل

في مكان اقامتي. وفي نهاية طواف استغرق عدّة أيام ومراجعات متكررة، صارت الهوية الشخصية ووثيقة السفر والاوراق الأخرى كلّها في يدي. ولم يتطرق الجدّ طيلة هذه الايام الى موضوع عودتي للاسرة، لكنه فتح الموضوع حين فرغنا من العملية التي كنا بصددها. قال الجدّ بعبارات خلت من أية نبرة آمرة: «وضعك الذي انت فيه لا يليق بابن عائلة محترمة. والعمل في المصبغة سيقضي على صحتك، فطاوعني، وارجع الينا. كل شيء يمكن أن ينصلح!». قدم جدي عرضه هذا في وقت كان فيه امتناني الشديد ازاء مساعدته لي يكسر حدّة ضيقي ويمنعني من أن أكون فظاً معه. وقد سألت الجد، متجنباً ان تشي نبرتي بالرفض او الموافقة: «أنت تعرف ان مشكلتي هي مع خالي نافذ، فما هو رأيه؟». وكأنما توقع الجدّ أن اثير هذه النقطة، فقد اجاب بغير تردد: «خالك موجود في فيق، مشغول بمدرسته، هو يحبّك، صدقني، اكثر مما يحبّ خلق الله اجمعين، ويريد لك الخير، لكنه مجروح منك. ارجع، وأقم مع اخوتك الصغار في الشقة، تحت، وواظب على الدراسة، واترك لي مسألة نافذ!». حصلت على الاجابة على سؤالي، وادرك الجدّ أن هذا لم يسرّني، وربما شاء أن يشجعني، فاضاف: «لا تنس ان الجميع يحبونك، وهم مشتاقون لك. جدتك، وام عدنان، وشفيقة، صدقني انهن يبكين لحالك!». فقلت، وقد اخذ دفق من العواطف المكنونة ينفجر في داخلي فرحت أعمل على كتمانه: «سأفكر، احتاج لوقت كي افكر، ولكني سأزور المنزل هذا المساء، من اجل الوداع قبل السفر».

والحقيقة ان عواطفي المتفجرة حملتني الى بناية القاري قبل حلول المساء. طرقت باب شقة الجدّ، فاستقبلتني عاصفة من الفرح الصافي، وتزاحم الصغار للسلام علي وانا ما أزال، بعد، عند الباب. واجتذب ضجيج الاستقبال ام عدنان فجاءت مهرولة واحتضنتني بمودة حميمة. وعندما ضمتنا حجرة الجلوس، قالت ام عدنان وهي تجفف دموعاً أذنت لها بأن تسحّ دون أن تحبسها: «الله يرضى عليك يا ولدي يا فيصل، بأمانة الحليب الذي رضعته منّي ارجع، يكفينا متاعب. ارحم جدّك، أشهد

الله أنه لا ينام الليل وهو يفكر فيك ! » . ثم اضافت أم عدنان ، وقد جفت دموعها تماماً : « الذين فوق ، أنت فاهم ، عقلهم على قدّ الحال. والفهيم الذي مثلك عليه أن يتحمل » ؛ وكررت : « عليك ان تتحمل!» ، لكنها نطقت العبارة المكررة بنبرة مشددة لتذكرني ، أنا الفهيم ، بأنها ، هي الأخرى « تتحمل » . ثم جاء الجدّ الذي لا يتخلى عن عادته في اداء صلاة المغرب في الجامع. ووضع العشاء ، ودارت اكواب الشاي ، وراق مزاجي وطاب لي السمر. وسألتْ ام عدنان ، بنبرتها التي تشدد فيها على الكلمات ذات المغزى الخاص : « الا تنوي ان تزور جدتك وخالتك؟ مسكينة ام نافذ ، واقعة بين نارين ، وعندها هذا الابن الذي سوّدت عصبيتة حياة الجميع » . فقلت ، قاطعاً اتجاه ام عدنان للتشكي ، وغير حازم امري بشأن الزيارة التي تسأل عنها : « سأزورهم ... من كل بدّ » . وادركت هي ترددي وبدت غير مستاءة ، ثم هتفت وهي تتنهد : « ايه ! اشرب شايك ، هنا تستطيع ان تأخذ راحتك على الآخر ! » .

أمضيت تلك الليلة في الشقة التحت ، ولم ازر الفوق . كنت تواقاً لرؤية الجدْة والخالة ، غير ان الكبرياء والتهيّب منعاني عن المبادرة بالزيارة . وقد كنت اخشى الا يكونوا ، فوق ، مستعدين لاستقبالي كي لا يغضبوا نافذ ، ثم انني لم اتلق دعوة منهم. اما تحت ، فسارت الامور بصورة طبيعية . ذهب الجدّ مبكراً الى فراشه ، كعادته . وساهرني الصغار الى أن الجأهم النعاس الى الفراش ، واحداً بعد الآخر. ثم امتدت السهرة طويلاً بعد أن بقيت أمّ عدنان وحدها معي . وفي تلك الساعات ، بثت المرأة شكاواها المختزنة وروت لي الحكايات التي استجدت في غيابي. وقد انصبت الشكاوى على نافذ ، فهو ، بالنسبة لأم عدنان ، رأس البلاء. أما عمر فلم يكن للمرأة ما تأخذه عليه سوى عجزه عن مخالفة أخيه. تحسن مركز نافذ في عمله الجديد وزاد دخله فزادت الحصة التي يستلمها الجدّ منه ، لكن سطوة نافذ على بقيّة اعضاء الاسرة ، بمن فيهم اولاد ام عدنان ، زادت هي الأخرى . صحيح ان نافذ ، كما أقرّت ام عدنان بذلك ، يحتفظ بكل مظاهر الاحترام والتوقير في تعامله مع الجدّ ويبالغ في تبجيله امام

الآخرين ، لكن « الولد الذي لم يكد يشمّ رائحة ابطه » ، كما تصفه أم عدنان ، يدس أنفه في كل صغيرة وكبيرة ويفرض منطقه على الآخرين ويطلب منهم اتباع السلوك الذي يرسمه لهم. وذكرت ام عدنان ان نافذ يكرر مع اولادها الحكاية التي بدأها معي ، فهو يريدهم خانعين مطواعين ، ويلزمهم بأن يعتزلوا الناس ولا يروا ما يجري حولهم في الدنيا الا ما يأذن هو برؤيته. وادعت المرأة أن نافذ لا يوزع دخله الجديد توزيعاً عادلاً ، فهو يقتر على الشقة التحت بينما يبذخ فوق وينفق الكثير على الولائم والعلاقات التي لا يقيمها الا من أجل التباهي. وشكت أم عدنان من أن نقص الدخل مع ازدياد الطلبات يرغمانها على الاقتصاد وحرمان اولادها من أشياء كثيرة ينالها امثالهم. وقالت ام عدنان انها تحاول من جانبها أن تتدارك الأمر فهي تعمل في الخياطة حتى تحمي أولادها من سطوة الأخ المتجبر. وعندما تدخلت لاذكر ام عدنان بأن التقتير على الاخوة ليس من طبع نافذ الذي يحرم نفسه مما يتمتع به اقرانه ليؤمن للاسرة كلها حياة معقولة ، ساءها قولي كثيراً ، واندفعت في رواية حكايات جديدة وتقديم امثلة اخرى عن محاباة نافذ لنفسه واهله الذين فوق على حسابها هي واولادها. وعندما ذكرت محدثتي المسكونة بالحنق على نافذ بانه حرم نفسه حتى من الزواج كي يؤمن للاسرة حياة مستقرة ، أثارها قولي واخرجها عن سمت الوقار الذي تحرص عليه. وانطلقت ام عدنان ، وهي مستثارة ، في حديث كنت اسمعه منها لاول مرة ، فاتهمت نافذ بأنه لم يتزوج لأنه معقد وانه يريد ان يبقي اعضاء الاسرة في خدمته ، وانه يرفض لهذا ان يزوج اخته شفيقه بالرغم من العروض الكثيرة التي تتوالى من طلاب يدها العديدين. والحقيقة أن ام عدنان مست ، بهذا ، نقطة تعرف أنها تشغل بالي ، وتؤرقني. فخالتي شفيقة التي أُعزّها كثيراً ، كانت قد بلغت السنّ الذي ترغب الفتاة فيه بالزواج وبناء الاسرة ، بل كانت قد تجاوزت هذا السن. وكان كل خاطب يتقدم لطلب بنت الدار الكبيرة يجابه باجابة واحدة : « لا زواج في الغربة ، وحين نعود لبلادنا يكون لكل حادث حديث ». صاغ نافذ هذه القاعدة ووافقه الجدّ عليها ، ولم يعترض الآخرون. ولم اشك في ان ام عدنان تعمدت الاشارة لهذا

الموضوع لتحرضني . ثم تبين لي أن عندها دافعاً آخر. فقد هتفت بعد لحظة صمت : « لن أسمح له بتخريب حياة أولادي . انا ، إيضاً ، عندي بنت ستكبر قريباً وعندي هذه الرضيعة ، ولا اريد لهما ان تصيرا عانستين بسبب عقدة اخيهما وصغر عقله » . وبافصاحها عما يقلقها ، هدأت ام عدنان ، ولا بدّ أنها ادركت ، أيضاً ، أن غيظي من تصرفات الخال لا يزحزحني عن موقفي المحايد ازاء الخلاف بين شقيّ الاسرة ولا يحملني على مشاركتها الهجوم عليه ، فتداركت الأمر باسلوبها اللبق ، وهتفت بنبرة مدارية : « هذا انت ، لا يأخذ الواحد منك حقاً ولا باطلا ، ولكني احبك كواحد من أولادي» .

في الصباح ، وكنت قد اطلت النوم بعد ان صحا الآخرون ايقظني صوت خالي عدنان الاجش وهزات يديه غير الرقيقة : « قم لا تفضحنا! جدتك تطلبك ، وهي غضبانة » . فنهضت ، وانا افكر بأن عليّ أن أؤدي المهمة مهما ثقلت ، اذ لا يجوز ان أتأخر على الجدّة اكثر مما فعلت. وتوجهت نحو المغسلة ، وكنت ما أزال اغمر وجهي بالماء البارد ، مؤملاً أن استعيد صحوي التام ، حين رنّ جرس الباب ، ثم لم يلبث أن جاءني الصوت الاليف ونبرته المتلهفة : « اين هو ، هذا الولد العنيد ! ؟ » . لكم احببت جدتي ! كان كافياً أن احسّ بأنها قريبة حتى تنحل تحفظاتي كلها دفعة واحدة. وقد وجدتني ، دون ان ادرك كيف تم ذلك ، غارقاً بين الذراعين الحانيتين ، وهي تقبلني وترحب بي وتبكي وتغالب دموعها في وقت واحد ، وانا استجيب لدفق الحنان واستطيب أغمار المودة الصافية المحيطة بي. واردت ان اعتذر ، الا أن الجدّة قاطعتني قبل أن اهتدي الى بقية العبارة التي شرعت فيها : « لا لزوم للكلام . أنا اعرفك ، الست ابن هذه العائلة ، كلكم رؤوس ، ورؤوسكم ناشفة ! » .

كان فرح الجدّة برؤيتي ظاهراً بوضوح شديد ، ولا بدّ ان شوقها لي هو الذي حملها على طيّ كبريائها والمجيء بنفسها الى الشقة التي لا تدخلها الا عند الضرورة القصوى. وقد اظهرت أم عدنان تفهماً اسعدني أنها فطنت لاظهاره ، فبعد أن أتاحت لي وللجدة الوقت اللازم للمناجاة ،

قدمت بخطوات ناشطة واستنفرت ما يضمه قاموسها الغني من عبارات الترحيب ، واختارت اكثر النبرات تعبيراً عن الابتهاج وحيّت قدوم الجدّة الى منزلها. ولكن الجدّة لم تؤخذ بالعبارات المرنانة ، ولم يفتها ان تظهر ملامتها لأم عدنان : « سامحك الله يا امرأة ، تكتمين عني خبر وصوله كأنه ليس ابني ! » . ولم تتخلّ ام عدنان عن بشاشتها ، فقذفت ردّها وهي تبتسم : « احمدي الله انه ما يزال موجوداً ، واسأليه! نصحته بأن يزوركم منذ جاء الينا ، لكنه فضّل أن يبقى حيث يستريح» .

الى هنا ، كانت الجدّة قد استعادت توازنها الكامل وعادت الى ترفعها المألوف ، فلم تستدرج الى الحوار الذي تظن أنه يقلل من هيبتها. واكتفت الجدّة بتوجيه نظرة خاطفة الى ام عدنان كأنها تقول لها : لست أنا التي تنطلي عليها الاعيبك في الكلام. ثم عمدت الجدّة الى تبديل مجرى الحديث ، فسألتني عن صحتي . ولما بينت للجدّة ما اعاني منه ، قالت بجدّية بالغة : « لا تهمل هذا المرض ، ففي مثل عمرك شكا ابوك من الآلام ذاتها ! » . ثم قطع وصول شفيقة حوارنا. اعلنت الخالة عن قدومها بجلبة شديدة ، فقد قرعت الجرس قرعاً متواصلاً . ثم بدأت الهجوم على أمّ عدنان لحظة دخولها فعاتبتها بتعابير قاسية ومباشرة لتكتمها على وجودي وقذفتها باتهام صريح : « اردت الاستفراد به ، ظننت انك قادرة على ادارة رأسه ضدنا ، انا اعرفك ، لكنه اصيل ابن اصلاء لا تلعب افانينك في عقله » . الا أن أمّ عدنان اتبعت اسلوب الجدّة في الترفع واكتفت بالرد بعبارة موجزة : « ضبّي لسانك يا بنت ! » . ولما بدا ان شفيقة موشكة على مواصلة الزعيق اسكتتها الجدّة : « ليس هذا وقته ، سلمي على الولد العائد ! » .

أمضيت بقية اليوم موزعاً بين الشقتين. تغديت فوق ، ثم جاء عدنان ليبلغ اليّ انهم ، تحت ، ينتظروني على العشاء ، وان للجد حديثاً خاصاً معي لا بدّ منه. وعندما هممت بالهبوط فلم يدعني احد للعودة من أجل النوم ، استنتجت انهم ، فوق ، لا يجرؤون على استبقائي عندهم ما دام الأمر لم يسوّ مع نافذ ، وآلمني ذلك ، واشفقت عليهم لجبنهم وان لم احس

باللوم ازاء أي منهم. وعلى مائدة العشاء ، افهمني الجدّ انه أتم ترتيبات السفر الى بيروت وانه سيسافر معي لأنه يخشى الطوارىء التي قد تواجهني في البلد الغريب. وقال الجدّ ، الذي انتعشت همته منذ وجد شيئاً جديداً يفعله : « خير البرّ عاجله » ، واقترح ان نسافر في اليوم التالي ، فوافقت.

وفي الصباح ، بكرت بالصعود الى الشقة العليا من تلقاء نفسي. كنت في مزاج طيب ، واسعدني ان مبادرتي طيبت ، أيضاً مزاج الجدّة. وتناولت الفطور الخاص الذي اعدته الخالة وشربت قهوتها الفواحة برائحة حب الهال الفاخر ، واستمعت الى الادعية التي تناوبت الجدّة والخالة توجيهها لربّ السماء كي يكتب لي التوفيق. وتزودت بصرة اعدتها خالتي ، وضمت فيها ما لا أدري من الاطعمة والحوائج التي ظنّت أنها لازمة للسفر.

وعندما بلغت الساعة الثامنة ، كنت بصحبة الجدّ في المرآب الذي تنطلق الباصات منه الى بيروت . دفع الجدّ ثمن تذكرتين ، واحتللنا المقعدين الذين وراء السائق واللذين يعدهما الجدّ آمن مقاعد السيارة ، وقعدنا بانتظار أن يمتلىء الباص بالركاب. وقد اقتضى الأمر أن ننتظر ساعتين كاملتين قبل أن يتوفر العدد الذي يرضى به صاحب الباص ليبدأ الرحلة. واستغرقت الرحلة ست ساعات أخرى ، ليس لأن المسافة طويلة بين دمشق وبيروت ، فهي لا تزيد الا قليلاً عن مائة كيلومتر. ولكن لأن الباص كان يتوقف في كل قرية على الطريق فينزل ركاباً ويحمل آخرين ، ولأن صاحب الباص ، الذي هو سائقه ، فرض علينا أن ننتظر ساعة في شتورا الى أن التهم الطعام الذي اعد له في أحد محلاتها. وكانت هناك ، أيضاً ، وقفتان طويلتان : واحدة عند الحدود السورية والأخرى عند الحدود اللبنانية للتدقيق في الاوراق وتفتيش الحقائب . ثم ان القسم من الطريق الذي يخترق الجبل ، وهو في الاصل طريق اعدّ لعبور عربات الخيل ، كان متلوياً وضيقاً وكان على الباص ان يعبره ببطء ومحاذرة وان يقوم بعدّة مناورات عند كل منعطف كي يتمكن من اجتيازه. كانت تلك ، اذن ،

رحلة متعبة وطويلة ، وقد استهلكنا خلالها الاطعمة التي زودتني بها الخالة وبدا الجدّ سعيداً بوجودها معنا. واشتدت عليّ آلام المفاصل وامضني الملل ، دون معين. وزاد الطين بلّة توقي الى التدخين وعجزي عن تلبيته بحضور جدّي ، انا الذي لم أجرؤ على الاقرار امامه بأني أدخّن.

وعندما توقف الباص ، في نهاية المطاف ، في ساحة البرج وسط بيروت ، كنت مستعداً لأن اضحّي بأي شيء من أجل خلوة ابتعد فيها عن الجدّ لأدخن سيجارة. لكن الجدّ الحريص عليّ في المدينة الغريبة لم يتركني ، حتى حين اقترحت عليه متذرعاً بآلام مفاصلي أن أبقى في المرآب بجانب الحوائج ويذهب هو للبحث عن فندق ملائم. بل ان الجدّ ، امعاناً في الحرص عليّ ، امسك بيدي وسار بي في زحام الساحة المحاطة بالاسواق وهو يستعلم من المارة عن فندق رخيص. وكان الجد ، المدقق بطبعه ، يجادل من يسألهم حول المعلومات التي يدلون بها كأنهم هم اصحاب الفنادق. وكان هذا يغيظني ويزيدني احساساً بالمرارة وتوقاً الى الانفراد بنفسي ، دون أمل. والحقيقة أن تطوافنا في الساحة امتد طويلاً حتى بدأت تلك الاشارات التي توحي بقرب غياب الشمس ، واطلقت بعض المحلات انوار مصابيحها الكهربائية . والتقط الجدّ نصيحة اقتنع بها من أحد باعة الصحف العابرين فتوجه بي الى الفندق الذي هدانا اليه هذا البائع.

كان الفندق الذي اهتدينا اليه بعد الاستقصاء الطويل يقع في وسط حيّ البغاء شرقي الساحة ، وهو ، ذاته ، نصف مبغى. ما كان الجدّ يعرف حيّ البغاء هذا ولا توقع الرجل الحريص ان يقع هذه الوقعة ، وهو لم يدرك طبيعة الفندق الا بعد أن سلم اوراقنا لصاحبه ودفع له اجرة مبيتنا لتلك الليلة. وقد تبين الأمر لجدّي بعد ان تركته في الحجرة التي خصصت لنا بحجة الذهاب الى حجرة المراحيض واختفيت عن نظره في احدى الشرفات لاخلو بسيجارتي . وعندما افتقدني الجدّ ، خرج للبحث عني ودار في ارجاء الطابق الذي يشغله الفندق فتكشفت له طبيعة المكان. وحين عدت الى الجدّ كان مشغولاً بالمفاجأة فلم يسألني عن سبب غيابي.

وكنت انا نفسي قد اكتشفت ما اكتشفه جدي فلم افاجأ باضطرابه بل تجنبت الخوض في الموضوع ، وان كان واضحاً ان كلاً منّا فهم الآخر. وبدعوى الحاجة لتناول الطعام ، خرج بي الجدّ من هذا المكان ، وتعمّد أن نمضي اطول مدّة ممكنة قبل أن نعود اليه. وهكذا ، سار بي الجدّ مسافات طويلة وسط المدينة مختاراً الاتجاهات التي تبعدنا عن الفندق. وبعد العشاء الذي تناولناه في مكان صغير متواضع ، فرض عليّ الجدّ مشواراً آخر طويلاً بحجة ان المشي يساعد على هضم الطعام الثقيل الذي اكلناه . اتجهنا ناحية الميناء ، ثم سرنا بمحاذاة البحر. وقدرت اننا نسير في الطريق الذي عبرناه في السيارة قبل سبع سنوات ونحن متجهون من ميناء بيروت الى دمشق. وذكرت هذا للجدّ ، الا أن ذهنه كان مشغولاً بهمه المستجد فلم يول الأمر أية أهمية ، بل حثني على مواصلة السير.

ولم يأذن الجدّ بالعودة الى الفندق الا بعد أن تقدم الليل كثيراً ، ولا بدّ أنه أمل في ان يجد المكان هادئاً في هذا الوقت. وواقع الأمر أن المكان كان ، فعلاً ، هادئاً ، حين دخلناه . غير أننا وجدنا في مواجهتنا ما حاول الجدّ ان يتجنبه ، بالضبط ، فعلى صيوان مفرود في مكان بارز في صدر الصالون ، كانت فتاة ، في مقتبل العمر تجلس جلسة ترقب ، وكانت ملابسها وقعدتها المتبرجة تنم عن طبيعة مهنتها بغير التباس. واراد الجدّ ان يعبر الصالون دون أن يظهر اي اهتمام بالفتاة ، لكنها هي التي ابتدرته بالحديث قبل أن يغيب عن نظرها. وقد ركزت الفتاة انتباهها على الجدّ وليس علي أنا. هنا قد يتوجب علي أن أقول لك ان الجدّ كان وسيماً وسامة ظاهرة وان هندامه الفاخر كان يضفي عليه تلك المهابة الآسرة التي تلتقطها العين في الوجهاء المرموقين. وقد باغتت فتاة الصيوان جدّي حين سألته بنبرة ليس فيها أي تبذل : « أنت فلسطيني ؟ » . وعندما لم يجب الجدّ عن السؤال ، اضافت هي : « المعلم قال لي هذا ، وقال انك رجل طيّب » . وكان الجدّ ما يزال في موقف المباغت حين قالت الفتاة بنبرة كلّها براءة : « انا فلسطينية ، أيضاً ، من عكّا » . وهذا القول هو الذي بلبل الجدّ على ما يبدو ، فلم يجد ما يفعله سوى أن يأمرني بالذهاب الى

الحجرة. وحين التحق الجدّ بي بعد بعض الوقت، كان وجهه يفيض بالاسى الذي تفيض به حركاته، أيضاً، ولم أكن قد غفوت، حين تمدد جدي على سريره واخذ يدندن بارجوزة من محفوظاته من تغريبة بني هلال، وهي ارجوزة تعنّ له كلما حاصرته الهموم: «آه اخ وآه اخ من ميلة النيا/ ومن مال حمله لا يكون جزوع. ان مالت الاحمال بيدي عدلتها / وان مالت الايام ما لها رجوع». وطاف صدى اللحن الشجي في الحجرة واسلمني الى احاسيس غامضة. ثم جاءني صوت الجدّ كأنه هتاف صادر من قاع بئر عميق: «نمت؟» ، وعندما فُهت بالاجابة المبتسرة هتف الجدّ بحرقة: «يا ولداه! ما هذا الذي جرى لبني فلسطين»، وشرع في ترديد ارجوزه اخرى: «يقول الزير أبو ليلى المهلهل / أحس النار في قلبي لهيباً». وطاف الصدى من جديد، وعرف الجد أني لم أنم، وصمت لحظات اخرى، ثم فاجأني صوته: «اذهب الى الشرفة ودخن سيجارة، فلا بدّ أن تنام!».

أيقظني جدي قبل أن تشرق الشمس، وكان قد أتم تحضير نفسه للخروج، وطلب مني أن الم حوائجي واحملها معي مما عنى اننا لن نعود الى هذا المكان.

كان واضحاً أن الجدّ يتعجل المغادرة، أما أنا فكان النعاس يثقل حركاتي بالرغم من ادراكي لدوافعه ورغبتي في المساعدة. وجاء المعلم «عقل»، صاحب الفندق ومديره، وعرض علينا ان يعدّ لنا فطوراً أو، على الاقل، كما قال، قهوة. واوضح عقل هذا انه لن يتقاضى ثمن الفطور، واردف ذلك بالقول انه احبنا من كل قلبه. لكن الجدّ نظر الى ساعته دون أن يكون في واقع الامر بحاجة الى لذلك، وادّعى ان الوقت ادركنا، وفاته حتى ان يشكر الرجل المتلهف على تقديم أي خدمة. واخذني الجدّ الى دكان حمصاني في الساحة وطلب لي طبق «تسقية»، وقال محاولاً أن يظهر أن مزاجه طاب: «تملأ معدتك، أنت لا تعرف طعام المستشفيات». ثم توجب ان نقوم بجولة جديدة بانتظار ان تبلغ الساعة التاسعة، موعد مثولنا أمام مكتب الدخول في مستشفى الجامعة الاميركية.

وعندما حان الموعد ، ولجنا البهو الفسيح في الطابق الا
فادهشني ، اول ما ادهشني ، ترتيب المكان والنظافة التامّة التي تـ
كل ناحية فيه. وكان هذا شيئاً لم نألفه في الاماكن المماثلة في ا
وقدمنا اوراقنا الى سيدة انيقة وبشوشة ، فتلقتنا بأدب واحالـ
طبيب ، بدا كأنه كان في انتظارنا . ووجه الطبيب اسئلة كثيـ
استمارة ضمت اوفر المعلومات عن حالتي الصحية ، ثم قام فقاسـ
ووزني وتفحص اعضائي الخارجية وجس نبضي وقاس ضغطي ،
في انفي واذني ادوات دقيقة وتفحصها ، وسجل نتائج ذلك ؟
الاستمارة. وشاء جدي أن يستفيد من وجودي في هذا المستشفى
آلام مفاصلي وذكر ذلك للطبيب ، فرد هذا بأني محال لمستشفـ
أجل العملية وان الاونروا ستدفع ثمن النفقات ، وكل علا-
يستوجب نفقات جديدة لا بدّ أن ندفعها نحن ، فصمت الجدّ والحـ
عليه. ومن هذا الطبيب العام ، تحولنا الى طبيب العيون . وقد فحص
عيني السليمة والأخرى المصابة بكثير من الانتباه ، وملأ خانات -
في الاستمارة. ثم احالنا الى الطبيب الجرّاح الذي كرر فحص
المصابة ودقق في قياساتها ثم هتف بنبرة مشجعة : « كل شيء ـ
يرام » .

استغرق تنقلنا من حجرة الى اخرى ساعتين ، وكانت اسـ
اندهاشي تتوالى ، فالى النظافة والترتيب اللذين يميزان انحاء المكان
كان هناك هذه الدقة في النظام وهذه العناية بالزوار ، كما كان هنا
الاذاعة الداخلية التي تتوزع سماعاتها في كل مكان وتنفتح بين
واخرى لتعلن عن شيء او تدعو طبيباً للالتحاق بحجرة بعينها. أما أ
أدهشني ، او قل : ما فاجأني ، فحقيقة ان الاطباء والممرضين و
الذين قابلتهم كانوا كلّهم من العرب ، انا الذي ظننت اني بالمجي
مستشفى اميركي ساتعامل مع اميركيين. وفي نهاية المطاف ، ود
تنقضي اسباب الاندهاش ، قادتني ممرضة الى الحجرة التي ساقيم فيـ
جاءت ممرضة أخرى بصرة ضمت الحوائج التي ساستخدمها اثناء اـ

البيجاما ومنشفة الوجه ومنشفة الحمام وما لم اعد أتذكره من اشياء اخرى. وانتظرت الممرضة حتى بدلت ملابسي التي جئت بها فحملتها مع صرة حوائجي الاخرى وانصرفت. ثم لم يلبث أن جاء من أبلغ الى جدّي ان العملية ستجرى بعد ثلاثة أيام ، بعد استكمال الفحوص والتحاليل والتنظيرات التي لا بد منها. ويبدو أن هذا التأخير فاجأ الجد ، فقد بدا محتاراً بشأن خطوته التالية ، ثم عاين الوقت في ساعة الحائط المعلقة في الحجرة ، وتأكد منه في ساعته ، وقال بنبرة من عزم أخيراً ، على شيء : « اسمع ! استطيع ان الحق الباص العائد اليوم الى دمشق. وسأعود اليك يوم اجراء العملية ، فلا تقلق ! » .

توفرت لي ثلاثة ايام بدت كأنها من أيام الجنّة : استراحة كاملة من أي عمل ؛ واقامة مريحة ، بل فخمة ؛ وثلاث وجبات متنوعة تحملها الى سريري سيدات انيقات وباشات الوجوه ؛ وصحبة مسلية ؛ واجواء جديدة لا تنتهي اكتشافاتي فيها. كل هذا ، وهم ، في المستشفى ، يعدّون الحجرة التي اقيم فيها من الدرجة الثالثة. وقد اكتشفت ان في المستشفى درجتين ارقى من هذه . واتيح لي أن اتعرف على مريض فلسطيني مقيم في حجرة في الدرجة الاولى حيث ينام وحده ويتبارى شغيلة المستشفى في تقديم شتى الخدمات له ، وهي حجرة تزيد مساحتها عن مساحة شقتنا في دمشق ، بل ان لحمامها ، وحده ، سعة الحجرة التي تستخدم في شقتنا لاستقبال الزوار ، وفي هذا الحمام مغطس بحجم القامة . كان الرجل الذي نسيت اسمه موظفاً في شركة نفط اميركية شهيرة هي : « أرامكو» ، وهو يعمل في السعودية ، وقد سألت هذا الرجل ، بالطبع ، عن نوع العمل الذي يقوم به ، هو الفلسطيني ، في الشركة الامريكية فجمجم باجابة غير شافية ، وادركت سرّ الجمجمة حين لاحظت الفارق الشاسع بين سلوكه البلدي وفخامة المكان المخصص له ، وحزرت أن وظيفته لا بدّ ان تكون متواضعة وانه يخجل من الاقرار بذلك. وقد شغل الرجل حجرة الدرجة الاولى لا لشيء الا لأن بين ارامكو والمستشفى عقداً دائماً يخصص لمرضى الشركة حجراً في هذه الدرجة وحدها. وفي احاديثه معي ، كان

رجل الدرجة الاولى هذا يسهب في رواية الحكايات التي تنبىء بأنه عاش في فلسطين قبل الهجرة حياة فاخرة ، وكان يتجنب التطرق لواقعه الراهن ، فاذا جاء على ذكره فبعبارات غامضة وشاكية : « في الغربة صارت الحياة بلا طعم ، والغريب مهما علت مرتبته ليس له كرامة » ، وكانت تلك هي اللازمة التي لا يني المريض عن ترديدها . وقد انعكس احساس الرجل بالمرارة وحساسيته تجاه مسألة الكرامة في سلوكه في المستشفى ، فكان دائم التوتر ، شديد التأذي ، مفرطاً في السلبية في تفسير أية حركة او عبارة تصدر عن الاطباء والممرضين وما أكثر ما كان هذا الرجل يثور دون ان يكون ثمة سبب مفهوم لثورته ، او يزعق دون داع ؛ فإذا بدا على ممرضة المرح عاب عليها ان تتبسط في حضرة مريض يعاني الآلام ؛ واذا تجهمت الممرضة قرعها بحجة انها لا تراعي حاجة المريض الى المواساة ، وما من طعام كان يعجب هذا الرجل ، وما من خدمة افلحت في استرضائه. ومجمل القول ان الرجل كان من النوع الذي يعذّب من يحيطون به دون أن يعرف هؤلاء كيف يدارونه ، وكان يلذّ له ان يخلق المشاكل. واللحظات الوحيدة التي كان الرجل يهدأ فيها وتسترخي عضلات وجهه هي تلك اللحظات التي يجدني فيها جالساً بين يديه مصغياً لحكاياته عن أيام العزّ في فلسطين. وقد فطنت الممرضات المعذبات لتأثيري عليه ، فصرن يجئن اليّ ليحملنني على الذهاب لحجرة الرجل الثائر كلما خلق لهنّ مشكلة جديدة.

عدا هذا الشخص المتعب والمسلي ، كان في الحجرة التي اقيم فيها فلسطيني آخر قدم من مخيّم عين العرّوب القريب من الخليل ، والاونروا هي التي ارسلته . وكان هذا فلاحاً لجأ الى المخيم من قرية جنوبية ، ثم التحق بالعمل مع الاونروا كوزّان في مركز توزيع الإعاشة. قد اصيب الرجل بمرض كان يسوءه كثيراً ان نسأله عنه فلم يتسن لي أن أعرف طبيعة هذا المرض ولم أعرف ان كان مرضاً غامضاً او ان صاحبه يتحدث عنه بغموض. اما الظاهرمن مرض الرجل فكان قبيحاً ، اذ أن أنفه تضخم واسود وامتلأ ورمه بالصديد حتى صارت له هيئة الباذنجانة المشوية .

وكانوا ، في المستشفى ، يأخذون هذا المريض الى جلسات علاج تطول ، فيعود منها مسربلاً بمزيد من الغموض ويأبى ان يحدثنا عما يفعلونه به في هذه الجلسات. في ما عدا ذلك ، وحين نكفّ عن الاهتمام بالباذنجانة ، كان الرجل يبدو طيباً ، بل أن طبعه لم يكن يخلو من مرح ، وكانت في جعبته حكايات كثيرة يرويها عن قريته وعن المخيّم وعن افانين العاملين في توزيع الاعاشة ووسائلهم في الغشّ. وكان هذا يسليني ، ويضيف الى ما أعرفه عن احوال اللاجئين الفلسطينيين اشياء جديدة مشوقة.

وفي الليلة التي سبقت العملية ، حرموني من العشاء. وفي الصباح ، منعوا عني الفطور ، حتى فنجان القهوة الذي لا يروق مزاجي دونه حرموني منه. ثم جاءوا ، رجلان وامرأة ، في ثياب الممرضين ومعهم نقالة تتحرك على دواليب ، فمازحوني لبعض الوقت كأنما ليهوّنوا علي ما ظنوا أني اخشاه مما أنا مقبل عليه ، وحملوني على النقالة ، واخذوني الى طابق آخر ، وأسلموني لزملاء لهم بدا لي أنهم كانوا في الانتظار. ومازحني هؤلاء بدورهم ، وفاه أحدهم بعبارات مشجعة ، ثم احاط فمي وانفي بكمامة ، وطلب مني أن أعد الارقام بداية من الواحد. وكانت السبعة تتمطى على لساني بنبرة ذات وقع غريب حين غبت عن الوعي تماماً. وعندما صحوت ، كنت في حجرتي من جديد ، وكان جدي هناك ، وقد بدا ، حتى مع قلقه الظاهر ، سعيداً بنجاح العملية. لقد اقتلعت العين الشوهاء.

عرف جدي أن كل شيء قد تم على ما يرام. وان عليّ أن امكث في المستشفى ثلاثة أيام. ثم كان عليّ بعد مغادرة المستشفى ان اقيم في استراحة تابعة للاونروا في مخيم « تل الزعتر » لعشرة أيام اخرى فاتردد على المستشفى من أجل المراقبة وتبديل الرباطات الى أن يبرأ الجرح الذي نجم عن العملية. وعلى هذا قرر الجدّ الذي اطمأن عليّ الا يبيت في بيروت ، فترك لي بضع ليرات قال انها لمصروفي حين اغادر المستشفى ، ووعد بأن يجيء الى الاستراحة بعد اسبوعين كي يصحبني في طريق العودة.

اذن ، تسنى لي أن اعرف مخيم تل الزعتر. وكانت الاستراحة التي أقمت فيها تلك الايام العشرة واحدة من دور المخيم لا يميزها عن سواها سوى سعتها وطلاء جدرانها الابيض واطلالتها على فضاء فسيح يستخدمه المرضى الناقهون للتنزه والسمر. وقد حوت الاستراحة مهجعين خصص احدهما للنساء وخصص الثاني للرجال ، وكان في كل منهما عشرة اسرة. وفي هذا المكان الذي وجدتني فيه وسط مجتمع كلّه من اللاجئين الفلسطينيين ، عرف قلبي خفقة الحبّ الاولى ، وكانت تلك خفقة حييّة الا انها كانت ، أيضاً قوية. وها أنا اتذكر ، الى الآن ، ليس اسم الفتاة التي خفق قلبي بحبها ، فحسب ، بل هيئتها وصورة وجهها وكل ما عرفته عنها خلال الايام التي امضيناها معاً ، أيضاً.

كانت سلمى في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرها ، طويلة القامة على نحو بدت معه بطولي انا ابن السابعة عشرة. وكان لوجه الصبية ذي التقاطيع الاليفة سمرة تدل على أن صاحبتها من أهل الغور ، كما كان في تعابيرها حزن يشي بأنها واجهت حياة قاسية دون أن تسلمها الى الجمود او الكآبة. جاءت سلمى الى بيروت من مخيم البداوي الذي اقيم على شاطىء البحر قرب طرابلس حيث يقيم أهلها ، واجريت لها في بيروت عملية مماثلة لعمليتي ، مع فارق وحيد بين العمليتين اذ أن عينها اليمنى هي التي اقتلعت وليس اليسرى. وكانت سلمى ، مثلي يتيمة ، لكنها فقدت الأم وليس الأب. وقد رضخ ابو سلمى لشروط زوجته الجديدة ، فقبل أن يعيش معها ، وحدها ، فيما أوكلت رعاية سلمى واخواتها الى جدّها فعاشت مع عماتها واعمامها في وضع شبيه بوضعي انا الذي عشت مع خالاتي واخوالي. والحقيقة أن صلتي بسلمى بدأت منذ اليوم الاول لاقامتي في الاستراحة حين ضمتنا مائدة واحدة على الغداء وتبادلنا الاسئلة عن الاحوال . ولقد اجتذبني شيء آخر في الوجه الهادىء والتعابير اللبقة التي لا تنسجم مع العمر الفتيّ. فلما فرغنا من الغداء وجلسنا مع الآخرين على المصطبة الظليلة امام الدار ، وجدتني اتعمد اختيار مجلسي بجانب صاحبة العين المربوطة واخصها بالحديث.

وقد كشف الحديث الذي امتدّ حتى موعد العشاء عن هذا التماثل بين وضعينا فزادني انجذاباً الى الفتاة . ولما حان موعد الانصراف الى المهاجع ، كنت قد صرت اسير الهوى المداهم وانتهى الأمر. لم أبح لسلمى في تلك الجلسة بشيء عن تعلقي بها ، ولم افصح عن الحبّ بعبارات صريحة في اي وقت لاحق ، ولكنا انتهينا الى ان نتعامل كمتحابين ، فرفعنا كل اشكال الكلفة في التعامل ، وكنا نتعجل الالتقاء ثم لا نفترق الا عند الضرورة القصوى. اما التكاشف بالحب فمنعنا عنه ذلك الحياء الذي يلجم الالسنة عن البوح بما يشتعل في الصدور فيترك لاشكال التعبير الاخرى كلّها ان تقول ما يحجم اللسان عن قوله.

وكان معنا في الاستراحة رجل لا ينسى ، كهل نحيل الجسد فصيح النظرات حلو التعابير. قدم هذا الرجل واسمه ابو طافش من طبريا ، وكان في هذه البلدة التي تزين شاطيء البحيرة الشهيرة صياداً يعيش يومه في الماء ، مغامراً في البحث عن الرزق او لاهياً في السباحة ومعابثة الاقران ، ويمضي لياليه في شرب العرق واكل المازات والسمك المشوي في المحلات التي اقيمت على شاطيء البحيرة. وعندما صار ابو طافش لاجئاً ، وضمه مخيم عين الحلوة في صيدا ، انتهى امره بعد تعطل دام بضع سنوات ، الى أن يعمل في مركز لتوزيع المواد التموينية على اللاجئين تابع للاونروا. وكان العاملون في هذا المركز يشتغلون اياماً محدودة فترتين كل شهر ويعطلون بقية ايام الشهر. وقد انبتت البطالة والحسرات في بدن الصياد العتيق عللاً لا يعرف هو نفسه عددها او انواعها. وقد اقام ابو طافش في الاستراحة هذه المرة ، هو الذي اقام فيها مرات عديدة سابقة ، ليتمكن من اتباع علاج للكلى في احد مستشفيات بيروت. وقد سألته لماذا لا يعمل ، هو المقيم بقرب البحر ، في الصيد ، وامامه البحر العريض ، فقال : « اذن ، أنت لا تعرف ؟ في لبنان لا يمنحون رخص العمل للفلسطينيين بسهولة » . واوضح ابو طافش انه عمل في البداية ، دون رخصة ، فالف ان يتسلل الى النواحي التي لا يحتشد فيها الصيادون وان يبيع ، خلسة ، ما يظفر به من صيد للجيران والمعارف ، لكنه وقع في النهاية في ايدي مراقبي الدولة ،

واقتضاه الامر الكثير من العنت كي يفلت من العقوبة ، وحرم من العودة الى البحر. بالرغم من ذلك ،لم يكن ابو طافش من الناس الذي تسلمهم الخيبات الى الاسى ، بل كان في طبعه نوع من القدرة على التكيف مع الواقع ، دون استسلام للمصاعب او استهانة بها. أنه هذا النوع الذي لا تقع في اللغة على كلمة صالحة لوصفه بدقة ، فكان راضياً بما هو فيه دون ان يفقد الأمل بأن الاحوال سوف تتحسن ذات يوم ودون أن يعلل نفسه بالاوهام . وكان أبو طافش قادراً على التمتع بالقليل مما هو متيسر له حتى وهو يدرك انه غير كاف. ومجمل القول ان شخصية الرجل بدت لي ساحرة ، وقد بدت كذلك ساحرة لسلمى ، فتعلقنا ، كلانا ، به . وكان ابو طافش يرقب كل ما يجري حوله بعين بصيرة ومتفهمة ، فلا يفوته شيء ولا يستنكر شيئاً . وقد التقط ابو طافش ، دون عناء ، مظاهر تعاطفنا ، سلمى وانا ، مع بعض ، فشجعنا ، ليس بالكلام . ولكن بما احاطنا به من حدب ورعاية. وبما تعمد ان يوفره لنا من فرص كي نظل مع بعض اطول مدة ممكنة ، دون ان يتسبب ذلك في اطلاق السنة نزلاء الاستراحة الآخرين.

وفي الاماسي ، صرنا ، ثلاثتنا ومن ينضم الينا من النزلاء ، نجلس في ركن خاص على المصطبة ، فنتسامر وندخن ونشرب العرق. وكانت في جعبة ابو طافش حكايا لا تنضب عن الصيد والصيادين ، عن سمك المشط الذي تتميز به بحيرة طبريا ، عن الايام الهنية في البلاد ، عن الجهاد والمقارعات مع الانجليز واليهود. وكان أبو طافش يتحفنا بهذا كله ويستولي على انتباهنا . وحين ينصرف الآخرون ونبقى نحن الثلاثة وحدنا ، كان أبو طافش يروي نوعاً آخر من الحكايا ، وكان في جعبته منها الكثير ، أيضاً. وباسلوبه الأخاذ ، كان ابو طافش يروي قصص الحبّ التي عاشها أو عرفها في حياته. وما أكثر الذي خبره ابو طافش في هذا المجال ، وما أحلى البسمة التي كانت تتلامح على وجهه وهو يحكي!.

وفي لحظة غابت فيها سلمى لبعض شأنها وبقينا وحدنا ، وكان ابو طافش قد أسرف في رواية مغامراته النسائية . سألني هذا الرجل المتفهم

فجأة : « هل عرفت جسد المرأة ؟ » ، فوجدتني اصارحه بأن خجلي المزمن منعني حتى من التجربة ، هنا قال أبو طافش بنبرة من دبّر أمراً وهو عازم على تحقيقه : « لن تغادر بيروت قبل أن تذوق الطعم الشهي » . وفي اليوم التالي ، زعم أبو طافش . أمام سلمى ، أنه مدعو على العشاء عند صديق له في بيروت ، وقال أنه يرغب في اصطحابي معه. وكان ظلام الليل قد حلّ حين انتقلنا ، هو وأنا ، من الاستراحة . واعدين الصبية التي لم تظهر اي اعتراض بأن لا تطول غيبتنا. ومن الباص الذي انزلنا في وسط المدينة ، قادني ابو طافش الى الناحية الشرقية من ساحة البرج ، واخذني الى امرأة قال لي أنها خبيرة في التعامل مع الخجولين من امثالي. وفي الدار التي تختلط انوار المصابيح متعددة الالوان في ارجائها وتكتظ بالنساء العاريات ، تسلمتني امرأة في منتصف العمر. فعرفت خلوتي الاولى مع جسد انثوي على سرير واحتزت على تلك المتعة الغامضة التي طالما تشوقت لتذوقها. لم أندم لأني ذهبت الى ذلك المكان ، غير أني شعرت بالذنب ازاء سلمى التي اكن لها عاطفة عذرية سامية . وقد وصلت الى الاستراحة مسربلاً بهذا الشعور. فهل احست سلمى بأني خنتها ؟ لا أعرف بالضبط ما الذي احست به هذه الصبية هادئة القسمات ، فهي لم تقل شيئا وانا لم اجيء ، بالطبع ، على ذكر الأمر ،لكنني على ثقة من أنها حزرت او هجست بشيء غير عادي وراء هذه الغيبة التي وقعت على نحو مفاجيء. وعندما عدت الى الاستراحة ، كانت سلمى على المصطبة ، وحيدة وساهمة. ولم اكد انضمّ الى اليها حتى نهضت واحضرت العشاء الذي يقدمونه لنا في الاستراحة والذي خبّأته لي لحين عودتي ، ووضعته امامي دون سؤال او جواب. عندها ، وجدتني ، مدفوعاً برغبة غامضة في الاعتراف ، اقبل على الطعام ، مقراً بهذا ان غيبتي لم تكن من اجل العشاء في دار الصديق المزعوم ، ومؤكداً هاجسها بهذا الصدد . عدا ذلك لم نتبادل كلمة أو اشارة اخرى حول هذه الغيبة. واذا كانت سلمى قد حزرت ما جرى ، حقاً ، فلا بدّ انها غفرت لي ، ذلك ان الصبية التي لم أكن قد لمستها حتى تلك اللحظة ، بادرت الى تقبيلي قبل أن تنصرف. وقد منحتني قبلة خاطفة على الشفتين عندما تمنت لي ليلة

سعيدة ، ثم مضت الى مهجعها . وكان هذا ، في زمانه ، اقصى ما يمكن أن تجود به صبية عفيفة .

وجود سلمى وحكايات ابو طافش وتلك الاماسي على المصطبة جعلت اقامتي في الاستراحة ايام هناء لا تسبر اغواره العميقة. الا أن الامر لم يمض بغير منغصات . فالليرات التي تركها لي الجدّ لم تلبث أن نفذت . واذا أمكن أن اتغاضي عن نفقات بعينها ، كالمشاركة في ثمن العرق الذي نشربه او تكرار الذهاب الى ذلك المكان شرقيّ ساحة البرج ، فقد كنت بحاجة الى ثمن السكاير واجرة الباص او الترامواي في الذهاب والاياب الى المستشفى كل يوم. ومنذ اليوم الخامس لاقامتي في الاستراحة ، صرت بلا مال ، وقد خجلت بالطبع أن اطلب معونة أحد. وهكذا نفدت سكايري دون ان اشتري غيرها ، وذهبت الى المستشفى في اليوم السادس وعدت منه ماشياً . ولأن المسافة التي قطعتها مرتين بين تل الزعتر ورأس بيروت كانت طويلة ، فقد عدت الى الاستراحة منهوك القوى ، وشتت التوق الى التدخين ذهني فزادت حالتي اضطراباً . وفي المساء ، حين ضمتنا المصطبة ، صرت اتحايل لاظفر بسيكارة من هذا واخرى من ذاك من الجلساء ، مراعياً ان لا يلحظوا افتقاري لعلبتي. لكن عين سلمى اليقظة استوعبت حالي. فلما أطل الصباح ، جاءتني سلمى بعلبة سكاير ، وقالت بمودة فاتنة : « ما كان لك ان تخفي الأمر عليّ. انت وانا شيء واحد » ، واعطتني خمس ليرات : « ستردها لي حين تنفرج الحال».

لم يتسنّ لي أن ارد دين سلمى. والحقيقة اني نويت ان اطلب الليرات الخمس من جدي عندما يجيء لاردها للصبية التي اكرمتني باكثر مما استحق . وكنت أعرف موعد سفري . وفي اليوم الذي سبق يوم السفر ، لم نحتج ، لا سلمى ولا أنا ، للذهاب الى المستشفى ، فامضينا معظم الوقت سوية ، فجلنا في أزقة المخيم وفي الافضية والانحاء المحيطة به. وكان الاحساس بدنوّ موعد الفراق يحيلنا ، كلينا ، الى هذا النوع من الصمت الذي يشتمل على حوار أبلغ من حوار الكلمات . كنّا نأكل ساعاتنا

الاخيرة مع بعض ونشربها بعمق ولا نتحدث حتى عن أحلامنا . وعندما حلّ المساء وعدنا الى الاستراحة ، فعل أبو طافش كل ما يلزم كي يتيح لنا خلوة على المصطبة فلا يتطفل احد على صمتنا ولا يقاطع احد حوار الايدي العاشقة الذي تديره الاصابع المتشابكة لاثنين لا يعرف اي منهما متى سيلتقيان ثانية ، كنّا نعرف اني عاجز عن زيارة لبنان مثلما هي عاجرة عن زيارة سورية ، فانظمة التنقل التي تحدد حركة اللاجئين لا تسمح بذلك . وكنّا ندرك أنها هي اصغر من أن تغامر بالتسلل الي حيث اقيم وليس لي مكان استقبلها فيه ، مثلما اني اعجز من أن أغامر بالمجيء الى البدّاوي حيث يتعذر ان اقيم معها . وهكذا ركزنا على هناءة اللحظة التي كنّا فيها وحظرنا على انفسنا حتى الحلم. وعندما توجب مع تقدم الليل ان تفلت الايدي المتشابكة لننصرف الى النوم ، بادرت انا فطوقت سلمى بذراعي واحتضنتها وهصرتها بكل ما املك من قوة وبادلتها قبلة مديدة . يا للولدين اللذين كنّاهما ، سلمى وأنا ويا لهذا الوداع! يقولون ان العشاق اليائسين يبكون حين يتفارقون ، ولكني اشهد أن دمعة واحدة لم تسح ، لا من عيني ولا من عينها ، ونحن نتوادع على هذا النحو.

وفي الصباح ، انتزعني من نومي العميق نداءات صاخبة واغنية ذات ايقاع مجلجل يطلقها مكبر للصوت يملأ رنينه الفضاء . كان هذا هو بائع الشعيبيات الذي يجيء الى المخيم على سيارة ومحمد سلمان وهو يغني ، بين نداء من البائع وآخر ، فكنت تسمع : « شعيبات ، سخنة الشعيبات ! » بصوت البائع ، وبعدها : « لا بدها قال ولا قيل ، لا تغيير ولا تبديل ، فاجأتينا ، القي ضرب ، على رأسك يا اسرائيل ! » ، بصوت المغنّي اللبناني . كانت اسرائيل قد شرعت في الهجوم على مصر مفتتحة العدوان الثلاثي الذي شارك فيه ، أيضاً ، كلّ من بريطانيا وفرنسا. وهكذا عرفت ، وانا اصحوا من نومي ، أن الأزمة التي شغلتني العملية عن متابعة تطوراتها قد انفجرت . وانضممت الى المتحلقين حول الراديو واستمعت للخطاب الذي القاه عبد الناصر وهو يحث الجمهور على الاستبسال في المقاومة. وتلت ذلك بيانات التأييد لمصر ودعوات التصدي

لمؤامرات الصهيونية والاستعمار. كان الجوّ مفعماً بالحنق والحماس. وقد اظهرت انباء الاذاعات ان الوضع من المحيط الى الخليج يغلي. أما في المخيّم فقد ملأ الناس الافضية وبقي صوت المغني محمد سلمان ونداءات البائع العلامة الاشدّ صخباً على أنّ سماء الشرق الاوسط قد التهبت.

في هذا الجوّ، افتقدت سلمى، فكانت المفاجأة التي ابلغها اليّ ابو طافش : جاء ابوها في الصباح، اقلقه اندلاع الحرب فجاء لأخذها قبل الاوان، ولم تجرؤ هي على ايقاظي بوجود الأب. عندها احسست بأنه لم يعد لي ما أفعله في هذا المكان، فسلمى لم تعد موجودة وأبو طافش قرر ان ينسى علاج كليتيه ويعود الى عين الحلوة ليكون بين ناسه في هذه الظروف. وخشيت أن يحول اندلاع الحرب دون مجيء جدّي لاصطحابي. غير أن الجدّ لم يخلف موعده، فقد وصل مع انتصاف النهار، وكان يتعجل مغادرة المكان اكثر منّي. وفي الباص الزاحف بطيئاً فوق الطريق المتلوي. ووسط حشد الركاب المتلهفين لمتابعة التطورات، اطلق السائق العنان للراديو. وما كان لنا في تلك الساعات ان ننشغل بغير الانباء.

وعندما وصلنا الى دمشق، تصرف جدّي على اساس اننا ذاهبان معاً الى المنزل، دون ان يستشيرني. وكان في تصرف الجدّ ما وشى بأن الأمر قد جرى تدبيره من قبل. ولم أظهر اي ممانعة . واستقبلتني الشقة العليا، وجاء سكان الشقة التحت، وتجمعت الاسرة كلّها، صغارها وكبارها. ولم يخف احد فضوله للتدقيق في ما طرأ على ملامحي من تبدل : ولقد حلّت عين صناعية لها الوان العين الطبيعية وحجمها محل تلك العين الشوهاء.

١٧ درستُ في فيق تلاميذ من جيلي ثم هربت

بينما كنت قيد العلاج في بيروت ، دارت في الاسرة مناقشات مديدة حول وضعي . وقد تولى الجدّ اقناع خالي نافذ بفتح صفحة جديدة . في البداية عارض الخال أباه . كان الخال يحبني دون شك وقد ساءه ان اضطر الى العمل الشاق ، لكنه لم يكن واثقاً من امكانية اصلاحي وتطويعي لتقاليد الاسرة . وعندما قبل الخال عودتي الى المنزل امام الحاح الجدّ والآخرين ، فعل ذلك على مضض ، ودون قناعة بامكانية نجاح التجربة . وقد اشترط الخال ، على كل حال ، ترتيباً لعودتي يجعلني تحت اشرافه المباشر . فلما عدت على النحو الذي وصفته لك ، كان كل شيء قد اعدّ . ولم يخطر ببال أحد أن من الضروري استشارتي ، لأن الجميع اعتقدوا اني سأسعد بالفرصة الطيبة التي يتيحها هذا الترتيب لي ، فهو يخلصني من شقاء الغسيل والكيّ وما يسببه لي من متاعب صحية ، ويضعني في

مرتبة مرموقة ويوفر لي لقمة نظيفة ونومة مريحة.

وقد حدث بالفعل أني لم اعترض حين اطلعوني على ما رتب لي . أما لماذا لم اعترض فمن الصعب ان اقدم اجابة دقيقة على هذا السؤال. لا بدّ ان جملة من الاسباب قد أثرت في موقفي انذاك فحملتني على القبول. كان وضعي في الجورة ، على ما توفر لي من أسباب الاستقلال ، قاسياً حقاً ، وكنت قد بدأت اضيق به ، وخصوصاً منذ اشتدت عليّ آلام المفاصل. وكانت محاولاتي للعثور على عمل آخر أقل قسوة وأوفر دخلاً قد فشلت جميعها ، ولم يلح في الافق ما يشير الى احتمال الظفر بفرصة جديدة. ثم اني كنت عازماً على الحصول على الشهادة الثانوية واستكمال التعليم الجامعي ، وكان الوجود في الجورة لا يوفر الجو الذي احتاجه للدراسة بل يضيّق الفرص من هذه الناحية ، أيضا . وفوق هذا كلّه ، كنت قد انتهيت الى الاحساس بأن أية مصاعب جديدة قد أواجهها لن تكون أقسى مما واجهت حتى ذلك الوقت ، فاستوت لدي المصائر وصرت أميل الى التجارب الجديدة حتى لو كان مستقبلها غامضاً.

واليك بيان ما رتبوه لي : لقد اتفق الأهل على أن أعمل مع خالي في فيق في المدرسة التي يدرس فيها ويملك نصفها . وتقرر أن يخصص لي راتب شهري مقداره مائة وعشرون ليرة ، على أن لا استلم انا من هذا الراتب ، نقداً ، سوى عشر ليرات من أجل النفقات الضرورية . أما الباقي فيتسلمه خالي نافذ فيغطّي منه ما احتاج اليه من مأكل وملبس وما شابه ويدفع ما يفيض لدعم ميزانية الاسرة . وقد توخوا في هذا الترتيب ان لا يصل الى يدي مال نقدي استخدمه في أوجه الفساد التي يصر خالي نافذ على أني غارق فيها. أما بشأن دراستي ، فصار عليّ أن استغلّ أوقات الفراغ للتحضير لامتحانات الشهادة الثانوية التي تبيح لي الانظمة أن أتقدم اليها دون الانتساب الى مدرسة . وقد قبل خالي أن ادرس الفرع الادبي لاقراره باستحالة نجاحي في الفرع العلمي دون مدرسة.

وعندما ضمن جدّي موافقتي على هذا الترتيب واستنتج أني راغب في فتح صفحة جديدة ، انتقل الى نقطة أخرى وانتقى أكثر العبارات

ملائمة لعرضها دون ان تنفرني. هنا اتضح ان خالي نافذ وضع جملة من الشروط التي تقيد سلوكي ليتفق مع مفاهيمه المتزمتة . فالخال يشترط عليّ ألا أدخن او اتعاطى المشروبات الكحولية ، ويحظر عليّ أن أتعامل مع أي شخص في فيق دون إذنه. وهو يحظر عليّ ، أيضاً ، أن استقبل أياً من اصدقائي المقيمين في دمشق او أجيء الى دمشق في نهاية الاسبوع والعطل المدرسية ما لم يقتنع هو بأني عازم على اتباع الصراط المستقيم . لقد أحنقني أن يملي الخال مثل هذه الشروط ووجدت فيها نذير سوء ، الا أنها لم تحملني على النكوص . وهكذا بدأت الاستعدادات لانتقالي الى فيق ، فاشتريت لي ثياب جديدة ، هي الاولى الجديدة التي اظفر بها منذ لجوئنا الى دمشق : بذلتان كاملتان ، وحذاءان ، وملابس داخلية ، وعدد من القمصان ، وحقيبة لائقة ، واحتسب الثمن سلفة على حساب رواتبي القادمة ، وهو الثمن الذي بلغ ما يعادل راتبي لشهرين.

وفي صبيحة يوم خريفيّ بارد وعاصف ، رافقت الخال نافذ الى المرآب الذي تنطلق منه الباصات والسيارات الصغيرة الى القنيطرة . وصحبنا جدي الى المرآب وكان بادي السعادة بالتئام الشمل ، كما صحبنا عدنان ومروان ، الخالان الصغيران اللذان فرحا لي لأني صرت « استاذاً » قدّ الدنيا ، ولم يفطنا ، بالطبع ، الى فداحة الثمن الذي ادفعه وانا اظفر بلقب اكبر مني واتصدى لمهمة اضخم من طاقتي. وفي المرآب ، اختار نافذ ان نسافر في الباص مع وجود السيارات الصغيرة . وعندما الحت الى أن السفر بالسيارة الصغيرة أريح واسرع ، قال هو باقتضاب : « هذا ليس شغلك ، الباص آمن » . ثم جاءت لحظة الوداع ، فقبل نافذ يدي ابيه باحترام واشار لاخويه اشارة تحية بيده وصعد الى الباص. وقبلت يديّ الجد ، بدوري ، فاحتضنني الرجل الذي يخفي قلقه على مصيري وهمس في اذني موصياً ايّاي بأن اكون صبوراً واتجنب المشاكل . وتجرأ خالي عدنان من موقعه بجانب الباص فوجه كلمة لاخيه الكبير : « دير بالك على ابن اختنا ! » . ولم يبد على نافذ ان العبارة ساءته ، الا انه واجه عدنان بابتسامة مستهينة واكتفى بذلك.

وصلنا الى القنيطرة مع انتصاف النهار. فقد استغرقت رحلة الكيلومترات الستين ثلاث ساعات كاملة ، لأن الباص توقف على الطريق في عدة محطات فنزل ركاب وصعد غيرهم ، ولأن الركاب اخضعوا مرتين للتفتيش من قبل الشرطة العسكرية التي تدقق في اوراق الذاهبين الى الجبهة واذونات سفرهم اليها. ثم توجب أن نمضي ثلاث ساعات اخرى في البلدة التي تصفعها الريح القادمة من ناحية جبل الشيخ المثلجة ، وذلك ، الى أن يحين موعد انطلاق الباص المتجه الى الحمّة والذي يمكن ان نستخدمه للوصول الى فيق. ولم يكن لدي ما أفعله في القنيطرة خلال هذه الساعات ، ولا كان من الممكن ان اتبادل اي حديث مع رفيق سفري المنطوي على نفسه. فكانت ساعات اخرى من الملل والضيق انضافت اليها لسعات البرد التي هيجت آلام مفاصلي واطلقت في داخلي ، من جديد ، ذلك السؤال الذي يبرق بين وقت وآخر : هل سأتمكن حقاً من احتمال ما أنا مقدم عليه؟ وقطع خالي نافذ الوقت بالتنقل من مكان لآخر داخل البلدة ، ورحت اسير حيث يسير ، وغالباً على مبعدة خطوات منه ، ثم شاركته الوجبة التي امر باعدادها في المطعم الصغير الذي انتقاه ، وانتقلت معه ، بعد ذلك ، الى حجرة الانتظار المدفأة في المرآب ، كل ذلك وأنا صامت تتناهشني آلام البدن والروح وتوشوش لي بأن أنكص وأعود الى تشردي واستقلالي ، دون أن أجد العزيمة اللازمة للنكوص والعودة.

وفي ختام ذلك اليوم المتعب ، وصلنا الى فيق. فوجدتني في هذه البقعة من حوران الملاصقة لحدود فلسطين ازاء قرية كبيرة ، لا يميزها عن المسمية إلا سعتها وقتامها : دور مبنية من الحجارة البازلتية غير المسواة والطين داكن اللون ، ذات طابق واحد ، تتناثر او تتلاصق ، وتتوزع على احياء عدة تفصلها ازقة موحلة ؛ وجرود قاتمة اللون يبرز فيها قتام البازلت الذي يشكل تربتها وحجارتها ، ورجال يسعون هنا وهناك بملابس اقرب الى الهلاهيل ونساء يتدثرن بجلابيبهن السوداء وعصبات رؤوسهن الأشد سواداً ، وعساكر يتعجلون الوصول الى هذا المكان او ذاك بخطواتهم الناشطة وزيّهم الذي يجعل منهم ناساً متميزين وسط مظاهر البؤس المحيطة بهم.

وقد انزلنا الباص بجانب دكان كبيرة هي ، بالاساس ، بقالية ولكن العين تقع فيها على شتى اصناف البضائع التي يحتاجها ناس القرية ، بحيث يمكن أن تجد المناخل بجانب الملابس ، والادوات الزراعية بجانب الكؤوس والأطباق ، وأكياس القطين والتمر بجانب أكوام الحطب والفحم . وقد اظهر ابو سليم صاحب الدكان الذي خفّ للترحيب بخالي فضولاً واضحاً حين رآني ، فتعجل خالي تقديمي له : « الاستاذ الجديد ، وهو ابن اختي » ، دون ان يذكر اسمي" ، ثم تعجل مغادرة المكان ليقول لي بنبرة من يصدر تعليمات : « أبو سليم رجل نصاب ، فلا تتعامل معه الا على حذر ! » . عندها ، بلغنا صوت ابو سليم من موقعه امام الدكان : « لم تقل لنا ما هو اسم الاستاذ ؟ » فزأر خالي بنبرة غاضبة دون ان يلتفت او يتوقف : « قلت لك هو ابن اختي » ، ثم نطق باسمي ، وفكر : يضيق خالي حتى بوجود اسم مستقل لي . أما الخال الذي كدّره تطفل ابو سليم فقد اضاف : « هذا الشامي الذي يأكل مال الفلاحين بالحلال والحرام يدس أنفه في كل شيء ، اذا لم تعرف كيف تتعامل معه فسينهب فلوسك » . فتشكلت على لساني العبارة الملائمة للتعقيب على هذه الملاحظة ، فأنا محروم من أمتلاك الفلوس ، غير اني كبتَها واحتفظت بصمتي . وفي تلك اللحظة ، وقعت عين خالي على زمرة من الاولاد في الطريق ، فانفردت اساريره فجأة ، واستدعاهم بنبرة آمرة ، وطلب منهم أن يحملوا حوائجنا . وقد جاءوا ، كلهم ، وتزاحموا ليظفر كل منهم بحاجة . وانتظم موكب ضم الخال في المقدمة وانا وراءه وورائي هؤلاء الاولاد الذي هدأ صخبهم فراحوا يتحادثون همساً . وقال الخال ، موجهاً خطابه لي بصوت يسمعه السائرون خلفنا : « اولاد هذي البلد شياطين حقيقيون ، سفلة مثل أهلهم ، يظهرون الأدب وهم أبخس من العفاريت . وعليك أن تخيفهم دائماً لتضمن طاعتهم » . وكانت تلك علامة أخرى غير طيبة في هذه البداية اللعينة .

ما كان معدوداً مدرسة لم يكن سوى مبنى اسمنتي من طابق واحد يحتلّ فضاء مربعاً في الزاوية التي يشكلها تقاطع الطريق العام الموصل الى

وسط فيق مع الطريق المتفرع عنه المفضي الى كفر حارب والحمّة. ويشغل المبنى ضلعي المربع اللذين تمتد خلفهما دور القرية ، فيما ينفتح الضلعان الآخران على الأفضية والجرود الممتدة حول الطريقين على مدى النظر. وهنا ، تقع العين على بقع مستفلحة وأخرى قاحلة او غير قابلة للزراعة ، ويضم المبنى ستة حجرات متلاصقة على هيئة ضلعي مستطيل : واحدة فسيحة تستخدم كادارة ، وبجانبها حجرة أصغر اعدت في الاساس لتكون مستودعاً ولكن خالي استخدمها لاقامته ، واربع حجرات للصفوف الاعدادية ، الأربعة التي تتكون منها المدرسة. ثم لا شيء آخر ، فلا حديقة ، ولا سور ، ولا حتى مراحيض.

ومنذ اللحظة الأولى التي ولجت فيها الحجرة المستخدمة للاقامة ، ادركت دون عناء أن الخال يعيش حياة متواضعة. فلم يكن في الحجرة سرير بل فراش ممدود فوق حصير يشغل صدر الحجرة وفراش آخر مطوي ، بدا لي انه اشترى حديثاً من أجلي ، وموقد كاز ، بريموس ، وبضع ادوات للطبخ ، وجرة وابريق فخاريان للماء ، ومصباح « نمرة ٤ » للاضاءة بالكاز ، واشياء اخرى قليلة الشأن. حتى ثياب الخال لم يكن ثمة خزانة لوضعها فيها ، فكانت مطوية ومستّفة في الحقائب ، وأما بذلاته ، هو الحريص على اناقته ، فقد اتضح انها معلقة في جانب من خزانة حجرة الادارة. وباللهجة الجافة التي لا يستخدم غيرها حين يتحدث معي ، وبعد أن صرف الاولاد ، أوجز الخال ما وجده ضرورياً من التعليمات لتنظيم اقامتنا المشتركة في الحجرة الصغيرة ، فعرفت ان اولاد المدرسة يتناوبون تنظيفها وينظفون ، بضمن ذلك ، ارض حجرتنا الاسمنتية ، على ان اراقبهم حين يقومون بالعملية. اما الاواني فسيقع عبء تنظيفها عليّ ، وكان هو الذي ينظفها قبل ذلك ، لأن الاولاد « الجربانين » ، على حدّ وصفه لهم ، لا يؤتمنون على تنظيف ادوات الطعام. أوضح الخال هذا كلّه ، ثم فرد الفراش المعدّ لي في الركن المقابل للركن الذي ينام هو فيه ، واضاف ان الزوار يستقبلون في حجرة الادارة. وفيها أستطيع ، أيضاً ، أن احضر دروسي في المساء.

في غضون ذلك ، قدم شريك خالي في المدرسة الذي هو المدير العام الرسمي لها ، عربي محي الدين ، أو أبو هشام كما الفت أن اناديه. اعلن الرجل عن قدومه قبل أن يلج الحجرة : « يا مرحبا ، يا مرحباً بأخينا فيصل ! » ، قالها بالفصحى ، بنبرة مرحة ، كاشفاً عن طبعه المضياف الأصيل ، ومعلناً تميز رأيه فيّ عن رأي خالي ، هو الذي يعرف ما بيننا من سوء تفاهم . وعندما ولج الحجرة ، كرر الرجل الترحيب ، واحتضنني بذراعين حفيتين ، ثم قال ، وهو يمسك بكفّي بين يديه : « نوّرت فيق ، بل حوران كلّها » . وقد حمل لي هذا الاستقبال غير المتحفظ شيئاً من الطمأنينة . لكن ، قبل أن أتمكن من قول شيء مفيد ارد به على التحية ، قاطع خالي اندفاعه شريكه : « لا تفسد الولد ! » . الاّ أن الشريك ، المعتاد على تزمت خالي وغير الهيّاب ازاءه ، ردّ بالنبرة المرحة ذاتها : « أي ولد ! هذا الشباب ، وهذه المواهب ، وتقول ولد ! الست انت الذي حدثني عن مواهبه وكفاءاته ! » . وتوجست ، أمام هذا الاطراء ، ان يصدر عن الخال ما يحرجني ، ولا بدّ ان توجسي انعكس في تعابير وجهي ، فقد نظر الى ابو هشام برهة ، ثم هتف بنبرة جادة تماماً : « خذها نصيحة مني فتستريح ، لا تأبه لما يقوله خالك في وجهك ، فهو يمدحك دائماً في غيابك ! » . وعلق الخال : « أيوه ! اذاً بدأنا معه هذه البداية ، فلا نعرف أين سننتهي » .

كان الاستاذ عربي ، وهذا ما أعرفه عنه قبل وصولي الى فيق ، شديد الولع بالصيد ، وهو يمارسه بكل انواعه وفي كل المواسم ، حتى لتظن انه لا يعيش الا من أجله. وقد أنبأنا أنه امضى النهار في مطاردة طيور الزرعي او السمّن أو السمّان ، التي تكتظ المنطقة باسرابها في موسم البذار الذي كنّا فيه ، وعاد منها بكميات وافرة ، وها هو قد جاء ليدعونا الى الطعام الذي يعدونه في منزله من صيده . وضمتنا مائدة عشاء سخيّة حضر فيها السمان المشوي والمقلي مع البصل ، كما حضرت اطباق اخرى عديدة. وتوالت اشارات اخرى حملت لي مزيداً من الاطمئنان الى أن بامكاني الاعتماد على طبع الرجل المتفتح لتعويض بعض ما يصيبني من تزمت

الخال. كان واضحاً ان هذا الشريك يكن لخالي معزّة واحتراماً خاصين ، لكنه لا يجاريه في تشدده ازاء التقاليد القديمة ولا يكتم معارضته له . كما كان واضحاً ان الرجل يتعمد ان يظهر هذه الحقيقة لي منذ البداية لأعرف ان اقامتي في المدرسة لن تكون جحيماً كلها. وقد حدث ، مثلاً ، أن مدّ مضيفنا لي علبة سجائره ، وهي ، بالمناسبة ، من النوع الذي يوزع على العسكريين بسعر رخيص بالرغم من جودته ، وعرض علي أن أدخن. فعل المضيف هذا بحركة عفوية اثناء استغراقه في رواية قصة عن الصيد ، فاستتبعت حركة عفوية من يدي باتجاه السيكارة المعروضة . غير أن خالي تدخل على الفور فجمد حركتي : « هو لا يدخن » . فلم يؤخذ المضيف موقف الخال ، بل واصل عرضه وهو يسأل : « من الذي لا يدخن ، انت أم هو؟! » . والتقط الخال بالطبع بادرة الاعتراض في نبرة شريكه ، وقال باقتضاب : « كلانا لا يدخن. في عائلتنا ، انت تعرف ، لا يدخن أحد». ومرة أخرى لم يؤخذ ابو هشام بجفوة الخال ، بل وجه الخطاب لي « دخن ! بعد هذه الوجبة تطيب السيكارة . لا بدّ انك لم تدخن طيلة اليوم!» . هنا خاطب خالي شريكه بنبرة منذرة ووجه لي نظرة تحمل المعنى ذاته : « عربي ! اقول لك : لا تفسد ابن اختي » . وفكرت ، بسرعة ، في ما يمكن ان يؤول اليه الموقف لو تحديت خالي ، وقررت ان أتجنب هذا المآل ، فقلت ، قاصداً ان اقدم نصف تنازل ، فقط : « لا اريد أن ادخن الآن ، وشكراً لك على كل حال» . فسحب عربي علبته ، وقال : « مفهوم» ، ثم اكمل بعد ان اعاد العلبة الى جيبه ووجه لي نظرة متواطئة :« تستطيع أن تعتمد عليّ » . هذه الحادثة ترتب عليها كلام صريح قاله الخال لي ونحن في طريق العودة : « لا تنسى الشرط ، لا تدخين» . فلما لم اعقب بشيء ، سألني الخال مباشرة : « ماذا تقول ؟» . وكنت لحظتها افكر في أن من المتعذر عليّ أن احرم نفسي من التدخين الا اني لا أريد أن أبدأ بالتحدي ، وواصلت الصمت ، عازماً في قرارة نفسي على أن لا أحرم نفسي من التدخين لكن ليس في حضور صاحب الشرط. وكرر الخال سؤاله ملحفاً في معرفة رأيي ، فقلت متفلتاً من اي التزام محدد : « الشرط شرط » ، ثم تشاغلت بتنحية حجر تعثرت به في الدرب المظلم ،

وتابعنا السير ، كلانا ، صامتين .

وفي الصباح ، عندما ضمتنا حجرة الادارة لمناقشة طبيعة عملي ، اتضح لي ان جهاز التعليم لا يضم مع الشريكين سوى معلم آخر اسمه عبد الله الفالح ، وهو شاب في مقتبل العمر من سكان قرية كفر حارب ، وقد حصل ، مؤخراً ، على الشهادة الثانوية ، وتقدم بطلبات عدّة للحصول على وظيفة حكومية ، وقبل ، بانتظار الفرصة المواتية ، أن يعمل في المدرسة براتب شهري مقداره مائة ليرة فقط. واظهر حديث خالي وشريكه عن عبدالله هذا انهما لا يحبّانه ، وأن الثلاثة لا يتقنون المواد العلمية ولا يحبّون تدريسها وهم يعوّلون علي للقيام بهذه المهمة . وقد ادهشني غاية الادهاش ان يتصور خالي اني قادر على تدريس المواد العلمية للصفوف الاعدادية انا الراسب في الشهادة الثانوية بسبب عجزي عن هضم هذه المواد . وزادت دهشتي حين أدركت ان خالي كتم عن زملائه امر رسوبي وانه قدمني لهم على اساس اني ظفرت بالشهادة الثانوية بفرعها العلمي. لقد وضعني تكتم الخال في موقف حرج ، ولو رفضت المهمة المعروضة عليّ لعنى هذا اني اكذبه صراحة امام أصحابه. وهكذا ، ترتب علي أن ادرس الرياضيات والفيزياء والكيمياء لتلاميذ الصفوف الاعدادية الثاني والثالث والرابع ، وان ادرس بجانبها اللغة العربية والتاريخ لتلاميذ الصف الرابع حتى استكمل الساعات الاسبوعية الاربع والثلاثين المقررة لي. وتوزع الشريكان ومستخدمهما الشاب بقية المواد.

وعندما اختليت بخالي ، بادر هو لتسويغ الوضع الذي الزمني به دون رغبة مني ، فقال ان الالتزام بتدريس هذه المواد سيفيدني في دراستي لانه يرغمني على تحضيرها تحضيراً جيداً فاعوض به المعلومات التي اضعتها في الجري هنا وهناك وراء ما لا يفيد من الانشطة . وما كان امامي الا أن اكظم غيظي لادراكي ان لا فائدة من المناقشة

وهكذا ، شلت عبئاً كبيراً وثقلت عليّ المهمة . وقد توجب عليّ أن اقضي اوقات الفراغ كله ، تقريباً ، في التحضير للدروس ، اجلس الساعات الطويلة في ضوء المصباح الكازي واجهد فكري لفهم المعلومات التي

سانقلها للتلاميذ في اليوم التالي وحل المسائل المعقدة التي ساعرضها عليهم ، بعد أن امضي النهار كلّه متنقلاً من صف الى آخر ومن درس الى سواه ، امام تلاميذ تكتظ الحجرة الواحدة بخمسين او ستين منهم.

ولكي تتصور مقدار المشقة التي كابدتها ، عليّ أن اذكرك بأن المنتسبين للمدارس الخاصة هم ، عادة ، التلاميذ الذين لا تؤهلهم سويتهم الدراسية او اعمارهم للانتساب الى مدارس الحكومة ، اي اضعف التلاميذ وأقلهم اجتهاداً ، وفي الريف ، حيث لم ينتظم تدفق التلاميذ على المدارس في العمر المناسب ، تضم صفوف المدارس الخاصة اصنافاً غير متجانسة من الاولاد. فهناك كبار السنّ ممن يحميهم الانتساب الى المدرسة من التجنيد الإلزامي وهؤلاء يتركز همهم ، في المقام الاول ، في الحصول على وثيقة الانتساب الى المدرسة كي يقدموها لادارة التجنيد فيتأجل سوقهم الى الجيش سنة بعد أخرى. وكان منهم في الصفوف التي اتولى تدريسها كثيرون ممن هم اكبر مني سناً ، انا الذي لم اكن قد اتممت السابعة عشرة بعد. وهناك الصغار الذين لم تزودهم المدارس الابتدائية المتخلفة بأقل المعلومات والذين يجدون مصاعب كبيرة في استيعاب المواد الحديثة التي يدخلها الراغبون في تطوير مناهج التعليم سنة بعد سنة على هذه المناهج. وبين التلاميذ من هم ابناء مخاتير ووجهاء . وقد فاجأ صغر سنّي هؤلاء التلاميذ فتعامل معي صغارهم في السن او المقام بغير تهيب واباح الكبار لانفسهم ان يتحدوني. والزمني هذا كلّه ان اسلح نفسي اثناء التدريس بمهابة مفتعلة ، وأن اضفي على وجهي جهامة لا تناسب طبعي ، وان اتظاهر بالقسوة التي لا تتفق مع عمري او وضعي. وواجهت اشكالات عديدة مزدوجة ، مع الادارة ومع التلاميذ ، اشكالات لا حصر لها كانت تتكرر كل يوم ، فتبقيني دائم التوتر ودائم التنبه لما افعل او لما يفعله الآخرون من حولي. ولأني توليت تدريس هذا العدد من المواد لهذا العدد من التلاميذ دون تأهيل أو خبرة ، فقد تفاقمت الاشكالات وتشابكت. وكنت ، أنا المحمول على القيام بمهمة ثقيلة دون اعداد مسبق ، أقلد من عرفت من المدرسين الذين علموني ، واتبع ما بقي في ذهني من اساليبهم.

لكن معلميّ كانوا كثراً واساليبهم كانت متنوعة ، فاختلط الأمر عليّ كما اختلط ، دون شك ، على تلاميذي ، وصار كل درس حكاية ، قد اوفق فيها وقد لا أوفق ، وذلك ، في الحالتين بالصدفة.

واتذكر مرة وجدتني فيها مضطراً لتقريع واحد من تلاميذ الصف الثامن. كان لهذا التلميذ عمري ذاته وقامة بطول قامتي ، وقد الف التقصير في اداء واجباته كما الف ان يستهين بالدرس وبالمدرس. وقد استصغر هذا التلميذ شأني فتحداني ، مرة ، وثانية ، ثم استغل التسامح الذي اظهرته في البداية فأمعن في التحدي ، وانتهى الأمر الى أن أستهوت جرأة هذا التلميذ عليّ تلاميذ آخرين ، فتشكلت في الصف مجموعة يتزعمها هو ، ودأبت المجموعة على اثارة الشغب والضوضاء كلما احتجت الى الهدوء من اجل شرح الدروس. وفي هذه المرة التي احدثك عنها ، تجاوز هذا التلميذ بالذات كل الحدود ، فقد تبين انه لم يحلّ المسائل التي كلّفتُ التلاميذ بحلها في منازلهم ولم يراجع الدرس المقرر ، وعندما سألته عن السبب اجاب بفظاظة ظاهرة : « لم أفهم الدرس امس ، نحن لا نفهم عليك » ، ثم اضاف بنبرة قرنت الفظاظة بالتحدي : « انت غير قادر على افهامي » . فتغاضيت عن الفظاظة وعن التحدي وعن التقصير ، وقررت ان اعيد شرح الدرس السابق وبدأت في الاعادة ، فإذا بهذا التلميذ يتعمد أن يلتفت حواليه ويدير حوارات ساخرة بصوت مسموع مع افراد مجموعته ، وقد كرر ذلك حتى بعد أن نبهته مرة ، وثانية ، وثالثة. لقد احنقني ، بالطبع ، هذا السلوك. وطلبت من التلميذ المستهتر ان يغادر الحجرة ما دام غير راغب في الاصغاء ، فقذفني بجواب بدا لي أنه أعدّ مسبقاً ليقذف في وجهي : « أنا هنا بفلوسي ، لن أخرج ! » . قال التلميذ هذه العبارة ثم اتخذ ، على الفور ، وضعاً يوحي بأنه مستعد للعراك. لم يعد بامكاني ان ابتلع التحدي. وادركت ان هيبتي امام تلاميذ الصف ، وربما تلاميذ المدرسة كلهم ، صارت على المحك ، وتوجب عليّ أن أحزم أمري لأعزز هذه الهيبة . وادرت في راسي عدة افكار ، فبامكاني ان اطلب مدير المدرسة ان يعاقب هذا التلميذ الوقح ، او ان اغادر الصف معلناً

اني لن اعود حتى يخرج هو منه . لكني حسبت حساب العواقب خصوصاً ازاء خالي ، الذي يتهمني بأني اتساهل مع الاولاد واتبع معهم اسلوباً ديمقراطياً لا يلائم تربيتهم وانما يزيد في افسادهم . كان الصمت المشحون بالنذر قد هيمن على الجو ، ولم يعد ملحوظاً في الصف الا النظرات الوقحة التي تبثها عينا التلميذ نحوي وموقفي الساكن ازءها. ويبدو أن التلميذ المتحدي ، وقد اظهر استعداده للعراك على نحو سافر ورأى ترددي ، ظن أنه ظفر بالجولة وانتهى الأمر ، فقد اطلق ، فجأة ، ضحكة مدوية واخذ يشير الى زملائه كي يشاركوه الضحك . هنا ، ودون أن أدري كيف تم ذلك ، وجدتني انقض على هذا التلميذ ، امسكت بذراعيه بكل قوتي وجررته من المقعد ودفعته دفعاً ناحية الباب وتابعته بركلة القت به الى الخارج ، دون أن يتمكن ، هو المباغت تماماً ، من الاتيان بأية حركة للدفاع عن نفسه. ثم التفتُ ناحية التلاميذ وقلت بلهجة منذرة : « يستطيع من لا يعجبه تدريسي ان يلحق بزميله دون أن يحوجني لارغامه على ذلك » . ولم يخرج أحد.

هذا الحادث ، الذي لا أخفي عليك أني اسفت لاقدامي عليه ، صار سبباً لتأسيس علاقة من نوع جديد بيني وبين مجايليّ من التلاميذ المشاغبين في المدرسة. فقد شاع بين هؤلاء اني ، على نحول بدني الظاهر ، اتمتع بقوة خارقة. وتطوع من هؤلاء من أفتى بأني أعرف فنوناً في العراك يتدرب عليها أولاد المدن في اندية خاصة ، فتمكن المتدرب من التغلب على أي منافس له مهما ضخمت قامته. وكان أن كفّ المشاغبون عن مناكفتي . وأخذ التلاميذ ينتبهون الى الصفات التي تميزني عمن عرفوا من معلمين قبلي ، فلاحظوا اني جاد في التدريس واني لا أتكبر على احد ولا أحجم عن مخالطة التلاميذ والخوض معهم في شتى انواع الحديث والتجاوب مع همومهم الصغيرة والكبيرة ، فبدأوا يتباورن في التقرب اليّ. ومجمل القول ان عدداً كبيراً من التلاميذ صار صديقاً لي ، وكان اصدقائي بين التلاميذ هم الذي يتولون معالجة اي زميل لهم تظهر عليه نوازع الشغب او التحدي. ولكن تحول علاقتي مع التلاميذ الى

الايجابية كلفني ان ابذل عناية أكبر في تحضير الدروس. لقد صرت أسير سمعتي الطيبة امام من ادرسهم فبت اخشى فقدان هذه السمعة. ولأن ذخيرتي من المواد العلمية ضئيلة ، كما تعرف ، فقد صرت امضي الاماسي بطولها في مكتب الادارة مع مصباح الكاز ، كي اقرأ الدروس العلمية المقررة لليوم التالي واستوعبها واحل المسائل المتصلة بها لاظهر في الصف وانا كامل القدرة . أما دروس اللغة العربية والتاريخ فلم تكلفني الا أقلّ الجهد ، وقد كانت بالنسبة لي بمثابة محطات ارتاح فيها واتمتع بها بين الدروس الشاقة ، ولا أظن الا أنها كانت ممتعة للتلاميذ ، أيضاً.

في غضون ذلك ، تأسست علاقة صداقة بني وبين المعلم الآخر. لم يكن عبدالله الفالح راضياً عن وضعه في المدرسة ، فهو يدرك أنه مستغل بأجر ضئيل ويعرف ان صاحبيّ بالمدرسة ما كانا ليشغلانه لو عثرا على معلم غيره يقبل بأجره الضئيل. وكان عبدالله يختلف مع الشريكين الى حد التنافض في الشأن السياسي بالذات ، فهو عضو في حزب البعث ومعدود من نشطاء الحزب ، في حين كان عربي محي الدين من مؤيدي حزب الشعب وكان خالي ضد الاحزاب جملة وتفصيلاً ، فإذا اقر بفضل لأي حزب فلحزب الشعب هذا. وقد عاملني عبد الله في البداية بصفتي من المعسكر الآخر ، ثم لم يلبث ان اكتشف الكثير مما هو مشترك بيننا فتبدلت معاملته لي حتى صرنا بمضيّ الوقت اصدقاء. فكنا نمضي اوقات الاستراحة بين الدروس معاً ، نتمشى على الطريق العام ، او نوغل في البريّة حين لا تكون موحلة ويصحبنا التلاميذ الذين يتقربون منّا ، ونتشاكى ، ونتبادل الآراء ونتناقش ، او ننشغل في الاجابة على أسئلة مرافقينا من التلاميذ والتحاور معهم حول شتى الموضوعات. وكان هذا الوضع يتيح لي اوقاتاً انطلق فيها على سجيتي وادخن بعيداً عن رقابة الخال الصارمة. وفي استراحة الغداء التي تمتد لساعتين ، كان صديقي يتناول وجبته التي يجلبها معه في احدى حجرات الدراسة بينما اتناول غداءي مع خالي ، ثم يبقى لنا وقت كاف لجولات طويلة نخلوا فيها الى انفسنا او نصطحب الاقربين من التلاميذ. وكان هذا البعثي يعمل جهده

لاجتذاب التلاميذ الى حزبه ، ولم يكن لدي ما أعترض عليه في هذا المجال ، فقد كنت اميل ، أنا بنفسي ، الى افكار حزب البعث.

والحقيقة أن الأمر من هذه الناحية لم يستمر دون أن يسبب لي متاعب مع خالي ، وحتى مع شريكه. فقد تناهت الى الخال وشريكه الحكايات المتداولة عن نشاط عبد الله والدعاية الحزبية التي يبثها بحضوري ورضاي. واعتقد الاثنان اني منخرط في هذا النشاط. وعندما فاتحني خالي بالامر ، لاول مرة ، لم يوجّه لي إتهاماً مباشراً ، بل اكتفى بحثّي على الابتعاد عن هذا المعلم ونعته بكل ما يحفظه قاموس الاستهانة والتحقير من اوصاف. ولما لم يلمس الخال استجابة مني ، عاد الى فتح الموضوع ، واستخدم اسلوباً آخر ، فاظهر حرصه على مصلحتي الخاصة وقال : « هم سوريون وهذه بلدهم ، ولهم أن يؤيدوا ما يشاؤون من الاحزاب ، أما نحن فغرباء ، ونحن نقيم في منطقة عسكرية كل شيء فيها يخضع للمراقبة فلا تجّر على نفسك المتاعب ! » . وقد استكثرت ان ابيع صديقي ، ولم أشأ أن امعن في استفزاز خالي ، فلم أقل له اني احبّذ افكار الحزب ، بل استخدمت اسلوبه ذاته ، فقلت : « لم أر من هذا الشاب الا كل ما هو طيب » ، ثم اضفت ما اعرفه واعرف ان خالي يعرفه ، وذلك لأبطل حجته : « صحيح اننا في منطقة عسكرية وعلينا مراعاة ذلك ، غير أن لحزب البعث اصدقاء كثيرين في الجيش ، وخصوصاً في المخابرات » . فهمر خالي بعبارة واحدة : « لا شيء يدوم » ، فعبر بها عن ضيقه ، هو نفسه ، بالحقيقة التي ذكرته بها ، وقطع محادثتنا. أما الاستاذ عربي فقد تدخل على طريقته ، بدأ بالتأكيد على انه يحبني ويحترمني ويتوقع لي مستقبلاً عظيماً ولا يوافق على مضايقات الخال لي وتقييده لحريتي ، وغير ذلك مما هو صحيح تماماً ، ثم قال انه ، من موقعه كصديق محبّ ، يرغب في اسداء النصح لي ليس اكثر . وبعد هذا التأكيد ، أفاض عربي في حديث طويل ، فتحدث عن اسرة عبد الله التي لا في العير ولا في النفير ، والتي لا تستطيع أن تحميه لو وقع له ما يستوجب الحماية ، ثم تحدث عن عبدالله ذاته وكيف وفر له هو وخالي فرصة العمل الكريم بالرغم

من اختلافهما معه في الرأي والسلوك . بعدها ، وصل عربي الى الموضوع ، فوصف ما يقوم به صديقي المعلم بأنه ضار للتلاميذ وضار للمدرسة ، فالتلاميذ اولاد اغرار لا يجوز اللعب بعقولهم الطريّة ، والمدرسة مكان للعلم وليس للمنافسة الحزبية . واستشهد عربي بنفسه فقال انه يحجم عن القيام بأية دعاية لحزب الشعب داخل المدرسة مع انه مديرها . وهاجم عربي حزب البعث واشتراكيته ودعوته الخيالية الى الوحدة العربية ، وكان من رأيه أن شباب العرب كلهم وحدويون وانهم جميعهم مع العدالة الاجتماعية التي هي عقيدة العرب والمسلمين منذ الازل ، اما اشتراكية البعث فمستوردة لا تلائم القيم المحلية ووحدويته مصطنعة يرفع شعاراتها ليستخدم الشبان لاغراض انتهازية تخدم اطماع قادة الحزب في الاستيلاء على السلطة . وختم عربي حديثه بالقول انه يربأ بي ، أنا سليل النسب الطيب والعائلة المستقيمة ، أن أصير محسوباً على ناس كهؤلاء الناس ؛ وصارحني بأن التلاميذ يسيئون فهم صمتي حين يتحدث زميلي فيعدونني من أعضاء الحزب ، وانه لم يسمح لنفسه بأن يحدثني حول هذا الموضوع الا بعد ان شاع الأمر في البلدة واعتقد اهلها اني حقاً بعثي . ومع عربي ، كنت أقل غموضاً مما كنت مع الخال ، فلم أخف ميلي إلى افكار حزب البعث وايماني بأنه حزب تقدمي واعجابي بدعوته التي تميزه عن تقليدية الاحزاب الاخرى. وقد افهمت محدثي اني لم انتم للبعث بسبب فلسطينيتي ، واعدت عرض تلك الافكار التي نتداولها في تنظيم « عرب فلسطين » ، دون أن احدثه عن التنظيم ذاته . وتناقشنا ، عربي وانا ، تلك المرة ، نقاشاً طويلاً ، وعاودنا النقاش مرات اخرى ، دون ان نصل الى نتيجة او تتقارب آراؤنا ، ودون أن يؤثر الخلاف على المودة التي تسم علاقتنا.

لم تقتصر مراقبة الخال لسلوكي على الشأن السياسي ، بل شملت شؤوني الاخرى كلها بغير استثناء . صحيح ان استغراقي في تحضير الدروس كل يوم لم يبق لي وقتاً طويلاً للنشاط خارج المدرسة . الا ان خالي الموزع بين حبه لي وضيقه بتمردي ، عدّ وجودي معه في هذا المنعزل

مناسبة لاعادة تربيتي على القيم والتقاليد التي يؤمن هو بها ، فشاء أن يربيني على أتم وجه. وكان الخال يتعمد ان ينتزعني بين وقت وآخر من الكتب ، ويصطحبني الى اماكن يختارها هو وناس يحددهم بنفسه ، كما كان يتعمد ان يشرح ما يجب عليّ أن أفعله ويبيّن لي الطريقة التي يستحسن أن أتحدث بها وأوجه السلوك التي يرى من الملائم ان اتبعها مع هذا او ذاك من الناس ، كل حسب منزلته وما يستحقه من توقير أو اهمال. وبصحبة الخال ، تعرفت على الوجهاء والموظفين المميزين ، فعرفت المخاتير وارباب العائلات المتنفذة ومدير الناحية والقاضي وقائد مخفر الدرك ، كما عرفت عدداً من ضباط الوحدة العسكرية التي تشغل هذا الموقع من المنطقة الحدودية . لكن معرفتي بأيّ من هؤلاء لم تتعد حدود المجاملات ، وما كان لها أن تتعداها ما دمت اسير الرقابة الصارمة التي تمنعني من الظهور على سجيتي بوجود الخال ، فلا يرى الآخرون مني الا صورة باهتة ، أو غامضة في احسن الاحوال. وهكذا لم أترك في مجتمع النخبة القروية هذا أية بصمات تذكر ، ولم تتأسس لي مع ناسه أية علاقات حميمة.

والى هذا ، تشدد الخال في تطبيق شرطه المتعلق بمنعي من السفر الى دمشق ، وكان هذا بين شروطه كلها أشقّها على نفسي. ولم تجد الحجج الصحيحة او المفتعلة التي تذرعت بها لثني الخال عن تشدده وحمله على كسر هذا الشرط . افتقدت الكتب اللازمة لدراستي ، وطلبت أن اسافر لاجلبها من دمشق ، فرفض ، وجلبها هو في سفرته التالية ، لم ينقص منها كتاباً واحداً. ونشرت الصحف انباء عن تعديلات كبيرة ادخلتها وزارة التربية على منهاج الدراسة الثانوية وجعلت سنوات الدراسة فيه ثلاثاً بدل اثنتين ، وطلبت السفر كي اعرف تفاصيل التعديلات وتأثيرها على وضعي ، فجلب خالي لي النصوص الكاملة للتعديلات واستقصى كل التفسيرات اللازمة وغير اللازمة. وداهمتني آلام المفاصل اكثر من مرّة واظهرت حاجتي لمراجعة الطبيب في دمشق ، فأخذني خالي الى الطبيب العسكري في فيق ، فتعهد هذا بالعناية بي وصرف لي الادوية اللازمة بعد

ان شخص المرض على أنه تهيجات عصبية. وتذرعت مرة باشتداد شوقي لرؤية جدّي وجدتي فرد الخال بصراحة فظة أنه لا يصدقني ، ولما استكثرت ذلك ، هتف مغلقاً النقاش : « لا تكن خرعاً ، ستراهم في العطلة الصيفية وتشبع منهم ! » . وادعيت مرة أن عليّ ديوناً لبعض الاصحاب في دمشق ، وقد طال عليها الامد ولا بدّ من سدادها ، فاظهر استعداده لايصال الديون الى مستحقيها ان سميتهم انا له وقال انه لن يحتسب هذه الديون من مصروفي ، فالجم حجتي.

لم أجد امامي سوى ان اتذرع بالصبر ، فتذرعت به حتى صار الاصطبار ذاته مشقة لا تطاق. ثم فعلت ما كان لا بدّ أن افعله ، فرحت ابحث عن مخارج من وراء ظهر هذا الخال الذي يخنقني بافراطه في الحرص عليّ. وكان أمامي مفترج ضيق استطيع ان استغله ، وذلك في عطلة نهاية الاسبوع حين يسافر خالي الى دمشق وينصرف عربي الى ممارسة الصيد ويذهب عبدالله الى اهله في كفر حارب فابقى وحدي ، دون رقيب او صديق. وقد افادني ان خالي كان من الناس الذي يتبعون عادات منتظمة فلا يبدلونها الا في الظروف القاهرة. وكان من عادة الخال ان يسافر الى دمشق ظهر الخميس بعد انتهاء الدروس مباشرة ، ويعود منها بعد ظهر اليوم التالي . فصرت استغل الوقت الذي يغيب فيه الخال بعيداً عن فيق في الانطلاق على سجيتي ، فاطالع الكتب التي يحنقه ان انشغل بها ، أو اخالط الناس الذين يحظر عليّ مخالطتهم . وهكذا تسنى لي أن اوثق العلاقة مع شخصين لا يحبهما خالي واقوم باشياء لا يسمح بها.

كان ابو سليم صاحب الدكان التي على الطريق العام هو اول الاثنين. فكنت اذهب الى دكانه بعد ظهر الخميس ، وقد اجتذبني اليها تنوع زوارها في هذا اليوم . ولكي تتضح لك طبيعة هذا التنوع يجدر بي أن اذكرك بأن فيق تقع لى طريق منتجع الحمة الغني بالمياه المعدنية الدافئة والذي يقصده الناس من أجل الراحة والاستشفاء. وكانت حركة الناس الى الحمة تشتد في يوم الخميس مع بداية عطلة نهاية الاسبوع وتبلغ

ذورتها بعد الظهر . وقد جعل ابو سليم من دكانه محطة مشهورة يتوقف عندها القادمون من دمشق وغيرها ليتزودوا بآخر ما يحتاجون اليه من بضائع وادوات ونصائح وهم في طريقهم الى الحمامات الشافية . وهكذا كان من الممكن ان التقي في الدكان بناس من مختلف المستويات والامزجة ، يجيء بعضهم في الباص ويجيء اغلبهم في سياراتهم الخاصة ، ويكونون مفعمين بالتوجه الى الانطلاق والمرح. وفي هذا الوقت يكون ابو سليم في اطيب مزاج ، فحركة البيع ناشطة ، وكذلك الاحاديث التي يتبادلها مع زواره ، هو الذي يتعمد دفعهم الى الكلام والبوح بما يقال وما لا يقال ، ويعرف كيف يستغل المرور العابر للناس بدكانه فيحوله الى علاقة مستمرة ويكسب من بينهم زبائن دائمين ويغريهم بما يعرض عليهم شراءه من منتوجات الريف كي يحملوه معهم الى مدنهم عند عودتهم من الحمة في اليوم التالي. وقد تكشف لي ابو سليم عن انسان غني الشخصية متعدد اوجه الخبرة ، كما تكشفت أنا له عن فتى يخفي وراء جهامة الوجه روحاً توّاقة للحياة والانطلاق . وهكذا ، صار من شأني ان امضي بعض ظهر الخميس في الدكان ، وكان يطيب للشامي النشيط ان يقدمني الى نخبة زبائنه باشكال تلائم اهتماماتهم وتجذبهم لتبادل الحديث معي. فأنا ، حين يقدمني الى المتعلمين من الزبائن ، ذلك الاستاذ الذي هجر ترف المدينة وجاء الى الريف لينشر رسالة المعرفة. وأنا ، حين يقدمني الى اوانس المجتمع الدمشقي وسيداته ، الفتى الموهوب الذي ينتظره مستقبل خلاّب وابن العائلة العريقة التي لا تختار كنائنها الا من بين كريمات الاسر المعتبرة. وعندما تتوقف حركة الزوار مع اقتراب المساء ويلذّ لصاحبي ان يخلد الى الراحة ، كنّا نجلس في ركن دافيء داخل الدكان ونلعب الطاولة ونتبادل الاحاديث التي نعيد فيها توصيف ما عايناه في ذلك اليوم من ناس ووقائع.

وكان ثاني الاثنين هو الرقيب محمود ، وهو شاب حلبي يقيم في الموقع العسكري المقابل للمدرسة تماماً. انتسب محمود الى مدرسة رتباء الجيش وهو صغير ، ولم يكن قد ظفر الاّ بشهادة التعليم الابتدائي ، وتخرج من

المدرسة العسكرية برتبة عريف ، ثم حصل على ترفيعين فصار رقيباً أوّل ، وهو يتوقع أن يحصل على الترفيع الثالث في وقت قريب فيصير مساعداً ، او وكيل ضابط. وكان هذا الشاب الذي بلغ مبلغ الرجال طموحاً ، فضلاً عن أنه جاد في عمله ومستقيم في سلوكه في وحدته ، وقد دفعه طموحه الى التفكير بتبديل وصفه في الجيش والانتقال الى مراتب الضباط. وكانت الانظمة تبيح لوكلاء الضباط حتى سن معينة ان ينضموا الى الكلية العسكرية ويتخرجوا منها ضباطاً ، شريطة أن يحصلوا على شهادة الدراسة الاعدادية ، على الاقل. وقد صمم الرقيب محمود على الظفر بهذه الشهادة حتى يحقق هدفه . تعرفت على هذا الانسان صباح يوم جمعة كنت فيه وحدي في المدرسة . جاء هو اليّ ، وسأل عن بعض الكتب المدرسية التي يحتاجها في دراسته ، وكان طبيّعياً ان يشرح لي سبب حاجته اليها ، فقادنا هذا الى احاديث متداخلة ، وانتهى الامر بأن عرضت عليه المساعدة في الدروس ، فقبل ذلك بامتنان شديد ، وصرنا نلتقي كل يوم جمعة قبل الظهر ، فندرس ونذير تلك الاحاديث المتنوعة التي تتناول حياة العسكر وظروفهم ومشاكلهم والفروق بينها وبين حياة المدنيين .

وفي مرتين اثنتين ، فقط ، وكان محمود في احدهما مسافراً في اجازة وفي الثانية مستنفراً لمهمة عسكرية ، صحبت عربي الى الصيد. في المرة الاولى ، وكنّا في الوقت الذي تظهر فيه التباشير المبكرة للربيع ، طاردت معه الغزلان . وقد ظفر عربي يومها بغزال معتبر ، فحمله الفخار على رواية الحكاية لخالي عندما رجع الخال من سفرته ، وجعلته دواعي المجاملة ينوه بمساعدتي له في المطاردة ، ويبالغ في تصوير المشاق التي تكبدتها والمخاطر التي عرضت نفسي لها وانا أتنطط بين الصخور واتقافز فوق الجور والبد للغزلان في مواجهة البنادق المصوبة عليها كي احول بينها وبين الفرار. وتوقعت ان يحنق الخال ، لكنه لم يقل شيئاً ، لاحسناً ولا قبيحاً. وفي المرة الثانية توغلت مع عربي في البرية وانحدرنا على حافة الجرف الخطر الذي يفضي سفحه الى منطقة الغور ناحية بحيرة طبرية ، ولم نعثر على

طريدة مع اننا طرقنا كل دروب الوادي على مدى ساعات ، فواصلنا الانحدار حتى بلغنا قاع الغور ، وصرنا بازاء المنطقة المجردة التي تفصل المواقع العسكرية السورية عن المواقع العسكرية الاسرائيلية. هناك اطلق عربي وزملاؤه الصيادون نارهم باتجاه الخنازير البرية التي تتمتع بالحرية في هذه المنطقة العازلة ، فاردوا اثنين منها ، لكنهم تركوها في المكان لأن أحداً في تلك الناحية لا يأكل لحم الخنزير ولا يسيغه ، ولا يقبل حتى بأن يحمله. هذه المره ، أيضاً ، روى عربي لخالي وقائع رحلة الصيد. ودون أن يفطن رفيق الرحلة الى مغزى كلامه عند الخال ، قال اني نصحت الصيادين بأن يأخذوا الخنزيرين الصريعين واستكثرت ان يضيع لحمها وذكرت اني لا اعترض على اكله. والحقيقة أني قلت يومها أكثر من ذلك ، ليس لأني احب لحم الخنزير او لا أحبّه ، بل لأني اردت ان افسر تعاليم الاسلام بشأن الخنزير تفسيراً عقلياً صرفاً ، وكانت تلك مناسبة استعرض فيها امام رفاق الصيد قدرتي على التفكير المستقلّ . وهكذا تفلسفت فقلت ان الاسلام قد حرم أكل الخنزير لاسباب صحية صرفة . واضفت اننا نعيش في منطقة معتدلة الطقس وقد صار في حوزة الناس وسائل حديثة لحفظ اللحوم فلم يبق مسوغ للتحريم. لقد امتعض الخال حين عرف من عربي ما رواه عن موقفي . وعندما ضمتنا الحجرة وحدنا قذفني الخال بحنقه : « سكت لك عن واحدة ، فزودتها ، والآن حكاية الخنزيز ، الا تستحي؟!» . ولم استح ، بالطبع ، لكن لم اذهب الى الصيد بعد ذلك . ولم يبق لي من المتع الا ما اظفر به بصحبة الدكنجي الشامي والرقيب الذي يتطلع الى الترفيع.

وعندما اتيح لي ان اسافر خارج فيق لاول مرة منذ احتباسي فيها ، جرى ذلك بصحبة خالي وتحت رقابته الصارمة . ولم نسافر الى دمشق ، كما كنت اشتهي ، بل الى الاردن كما خطط الخال . وكان الاردن ، وقتها، يعيش فرحة تلك الفترة التي الغى فيها المعاهدة مع بريطانيا وعرّب الجيش وانتعشت فيها الحياة السياسية وتقاربت فيها سياسته مع السياسة التي تتبعها مصر وسوريا. وتقرر في المدرسة تنظيم رحلة طلابية لزيارة

الضفتين . وقد تحمس خالي حماساً شديداً لهذه الرحلة واشرف بنفسه على الاعمال التحضيرية اللازمة لها.

وبالرغم من أن الخال هو الذي اقترح أن اشترك في الرحلة. فإن قسوته إزائي لم تفارقه وهو ينبئني بذلك . وكان من رأيه ان سلوكي لم يتبدل ، بعد ، الى الحد الذي يسوغ منحي هذا الامتياز ، ولكنه سيتغاضى عن ذلك ليتيح لي فرصة التعرف على اقربائنا واصحابنا من أهل فلسطين المقيمين في الضفتين الشرقية والغربية ،لعل هذه المعرفة تظهر لي كم هي كبيرة عائلة الحوراني وكم هي محترمة بين العوائل الاخرى ، فأراعي ما تفرضه سمعة العائلة من التزام بآداب المجتمع وتقاليده العريقة.

في صباح اليوم المقرر لانطلاق الرحلة ، حملنا الباص الذي استأجرته المدرسة ، عربي وخالي وأنا وخمسين تلميذاً ، ومضى بنا على الطريق المفضي الى الاردن عبر درعا. واجتزنا الحدود دون مصاعب تذكر ، ذلك ان التقارب السياسي بين المقيمين على طرفيها أدى الى تليين الاجراءات الادارية . ففي درعا ، عوملنا كمبعوثين للقومية العربية متوجهين الى البلد الشقيق المتحرر من سطوة بريطانيا الاستعمارية لكي نعزز دعائم هذه القومية فيه. وفي الرمثا استقبلنا كضيوف اعزاء ، حتى أن رجال الامن ثم رجال الجمارك الذي صعدوا الى الباص شاركونا اهازيجنا بدل أن ينشغلوا في التدقيق باوراقنا وتفتيش حوائجنا . ومن الرمثا الى اربد ، حيث توقفنا في ساحتها المركزية واختلطنا بناسها فتشكل مهرجان عفوي ، فهزجنا ، ودبكنا ، واستمعنا الى خطب القاها ممثلو الاحزاب التي رحبت بالاشقاء القادمين من سوريا العروبة . ثم انتهى امرنا الى ان توزعتنا بضعة دور في البلدة مدعوين من قبل اصحابها على الغداء ، فقدمت لنا المناسف المجللة بلحوم الخراف وصواني الحلوى المغرقة بالقطر والكثير من المجاملات الممتعة. ولم ننته من هذا كله الا وقد شارفت الشمس على المغيب. وكان مقرراً حسب برنامج الرحلة ان نبيت ليلتنا الاولى في أريحا. فأخذنا الطريق المنحدر نحو الغور حتى اشرفنا على نهر الاردن ، فسرنا على الطريق الموازي له. هنا ، أيضاً ، توجب ان نتوقف في كل قرية على الطريق . فقد حول

الفرح بالحرية اماسي القرى الى مهرجانات ، ووجدنا انفسنا ننضم في كل قرية الى الساهرين في ساحتها فنهزج معهم وندبك ونتبادل التحايا والعهود . وقد لصق في ذاكرتي ما كنّا نبدأ بقوله لكل حشد :

« بشَر ابن طلال : الاردن حميناها » .

كما لصق بالذاكرة ما كان الحشد يرد به :

« بشّر عبد الناصر : عروبة وحدناها » .

وكان الليل قد انتصف حين بلغنا اريحا وتوقف الباص في وسط البلدة. هنا ، عثرنا على حشد من الساهرين كانوا قد اتموا احتفالات ذلك اليوم في الساحة ، ثم الجأهم البرد الى احد المقاهي فاحتشدوا فيه يشربون الشاي ويتابعون احاديثهم الدافئة ويغزلون من خيوط الاحلام التي طال كبتها خططهم للمستقبل . رأيتهم مع من رآهم مثلي ممن نزلوا من الباص ، وكنت ادرك اني ارى ناساً من ابناء شعبي على بقعة من ارض وطني ، ولكني لم أحسّ أبداً انها العودة ، فما اغتصب من الوطن ما يزال مغتصباً وما أنا هنا الا في زيارة عابرة. ورآني زوار المقهى أنا وأصحابي وتعاملوا معنا بوصفنا سوريين نجيء الى بلدهم في رحلة مدرسية . ولما استفهم خالي نافذ عن الطريق المؤدية الى مخيم النويعمة الذي يعرف أنه قريب من أريحا ، ظهرت الدهشة واضحة على وجوه متلقي السؤال ، فليس من عادة السياح ان يذهبوا الى هذا المخيم ، وخصوصاً في هذا الوقت من الليل . والحقيقة أن سؤال الخال عن هذا المخيم بالذات ادهشني انا نفسي. ولم اعرف الا بعد وصولنا الى المخيم ان خطة الرحلة وضعت على أساس ان نبيت فيه .

اقتحم الباص الذي خوضت دواليبه في وحل الازقة هدأة ليل المخيم الصغير وايقظ ضجيج القادمين سكانه النيام وهرع كثيرون منهم الينا . وكانت مفاجأتي كاملة حين عرفت أننا نحل في مخيم النويعمة ضيوفاً على الخال « ابو عدنان » ، هذا القريب العزيز الذي كان مختاراً لقرية دير الدبّان قبل أن يبتلعها طوفان التوسع الاسرائيلي في العام ١٩٤٨ ، وبقي

مختاراً لأهل القرية ذاتها بعد ان تحولوا الى لاجئين . ولك أن تتصور مقدار فرحتي بلقاء أبو عدنان بعد أن انقطعت اخباره عنّي طيلة السنوات الماضية حتى كدت انسى شكله. لقد اختار خالي نافذ أن نجيء الى هذا المكان لأنه يحبّ « أبو عدنان » ويقدر اريحيته ، ويعرف أنه سيسعد باستقبالنا وسيتدبر امر مبيت هذا العدد الكبير من الزوار الطارئين دون عناء. ولم يشأ خالي أن يخطر مضيفنا مسبقاً بقدومنا حتى لا يكلفه مشقة اعداد مائدة خاصة . والحقيقة أن الرجل المفاجأ بوصول هذا العدد الى داره بعد منتصف الليل لم يؤخذ بالأمر ولم يضطرب . وقد تصرف ابو عدنان تصرف قائد مدرب على مواجهة الظروف الطارئة . فغمر الجميع ببشاشته ومجاملاته الانيقة ، وادار عملية انزالنا جميعاً في داره والدور المجاورة دون أي خلل . في غضون دقائق ، ليس أكثر ، كنّا نحن المعلمين الثلاثة ، قد حللنا على الفرش النظيفة التي مدت لقعدتنا في مضافة داره ، وكان كل واحد من التلاميذ الخمسين قد حل في المكان الذي سيبيت فيه في الدور الأخرى. ولم نكد نخلع احذيتنا ونجلس على الفرش حتى حضر الشاي وعبقت في الجو رائحة الميرمية التي خلطت به. وقعد أبو عدنان ازاءنا هادئاً ، وادار علينا نظراته الودودة فيما دارت عبارات الترحيب التي خص كل واحد منا بواحدة منها ، فيما أخذ فراغ المضافة يمتلىء بوجهاء المخيم الذين هجروا مضاجعهم وجاءوا اكراماً لنا . كنا منهوكي الابدان دون شك ، الا أن دفء الضيافة انعش ارواحنا وادخلتنا نباهة « ابو عدنان » ولباقته في احاديث اختار لها من الموضوعات ما يفضي واحدها الى الآخر دون ان نحس بمضيّ الوقت. ورحت اصغي الى الرجل الذي لم تبدل السنون طبعه واستحضر في ذهني ما بقي في ذاكرتي عن رجل دير الدبان هذا وعن زياراته لنا عندما كنا في المسمية الصغيرة وعن معاملته لنا حين جئنا الى قريته لاجئين ، فلا اجد في ما استجد من سلوكه الا ما يؤكد الذكريات الطيبة التي احتفظ بها. وفجأة ، حمل فتيان من اخوة « ابو عدنان » طبلية كبيرة ونصباها وسط المضافة ، فادركنا ان مضيفنا يعتزم أن يقدم لنا طعاماً. كنا جميعاً جياعاً ، ولكننا لم نتوقع أن يكلف اي مضيف نفسه عناء اعداد الطعام لزوار يحلّون بعد منصف الليل دون سابق انذار.

ولا بدّ أن خالي نافذ قد احسّ بالحرج. وقد هتف : « الاكل لا لزوم له في هذا الوقت » . وكأنما كان أبو عدنان ينتظر اية اشارة ليطلق لسانه بالعتب على الخال ، وقد اختار ان يوجه الحديث الى الاستاذ عربي الذي يزوره لاول مرة : « قريبي نافذ ، الله يسامحه ، ظن أنه من الممكن ان نفوتها له ، فجاء بكم في وقت لا نقدر فيه ان نقوم بواجبكم . لن اقول الآن أكثر من هذا ، ولكن سيكون لي معه كلام بعد أن يرتاح. الآن تأكلون مما قسمه الله لكم ولهؤلاء الصغار. وغدا يكون غداؤكم جميعاً ، هنا ، حتى نستطيع ان نحضر ما يليق بمقامكم » . عندها ، اعترض الخال واعترض عربي ، وكانت لديهما الحجة الدامغة ، فنحن في رحلة وسنتجول في ارجاء الضفة فلا وقت للولائم. واستمع ابو عدنان بأناة شديدة الى الاعتراضات ، دون أن تهتز النظرة الثابتة التي يوجهها لمحدثيه ، ثم قال بنبرة من لا يأذن بمزيد من الاعتراض : « شرقوا وغربوا في بلاد الله ، ومصيركم ان تعودوا الى هنا لنلتقي على ما يقسمه الله » .

في غضون ذلك ، تعاون فتيان الدار فنقلوا الى المائدة عدداً كبيراً من الاطباق. ولم يلبث ان اصطفت على الطبلية أطباق متنوعة الالوان والحجوم. فيها الزيت والزعتر والزيتون بانواعه والالبان والاجبان واصناف السردين والطون واللحوم المحفوظة في العلب والبيض المسلوق المغمور بالزبدة والبيض المقلي بالسمن البلدي وما الى ذلك من المأكولات التي يمكن تحضيرها على عجل ، ثم دخل احد الفتيان حاملاً حزمة كبيرة من ارغفة خبز الطابون الذي لم أذقه منذ غادرنا فلسطين. ودعينا كما دعي كل من في المضافة الى المائدة . ولم نكد نتحلق حولها حتى دخل فتى آخر بابريق كبير مملوء بالحليب الساخن . ولامر ما تذكرت في تلك اللحظة بالذات جدتي الكبيرة خضرة. وهممت بأن اسأل عنها فسبقني ابو عدنان الى الكلام : « هل تذكر يا فيصل العنزة الشقراء التي اتعبتك وهربت منك في بيت جبرين ؟ ! هذا الحليب من ضرعها ، أنها عندنا ، هي ونسلها » . وغمرتني الذكرى ، وهمهمت : « جدتي خضرة » ، والتقط المضيف النبيه ما يشغل بالي ، ولكنه وجه الحديث لخالي نافذ الذي

سأل ، أيضاً ، عن الجدة ، فقال : « هي بخير. وهي تنتظر ان تراكما ، فيصل وأنت » . فأي دفق من الاشواق فجرته هذه العبارة ! لقد ازدردت بضع لقم على عجل . ثم نهضت دون استئذان . ودون أن أفطن الى اني بحاجة للاستئذان ، وفطن الخال ابو عدنان الى ما دفعني للنهوض على هذا النحو ، فاشار الى احد اخوته كي يصحبني الى حيث القى الجدّة الكبيرة.

كانت قاعدة في فراشها ، واستشعرت دخولي فقامت وفردت ذراعيها ، وتذكرت عمى الجدة الكبيرة فاندفعت نحوها واسلمت نفسي للحضن الحاني ، وطال التقبيل والتمسيد ، فيما أنا صامت وهي تقول : « يا ريحة مدللة ، دعني اشبع منك ! » . فلما شبعت منّي اجلستني وجلست بجانبي ، ولم تطرح اسئلة لكني تكلمت مجيباً على اسئلتها المفترضة فحدثتها عن ابنتها مدللة التي هي جدتي المقيمة في دمشق المشتاقة لها ، وعني وعن احفادها الآخرين . وعندما فرغت من الافضاء بكل ما عن لي سألت هي بنبرة فيها رنة حزن دفين : « لماذا لم تتزوج شفيقة ، ولماذا لم يتزوج احد اخوالك ، ماذا ينتظرون ! ؟ » . وقبل أن اهتدي الى الاجابة الملائمة دخل خالي نافذ ، ولا بدّ انه سمع السؤال ، فقد هتف قبل أن يطلق التحية : « سنتزوج عندما يلتم شملنا بك في البلاد » ، وهتفت الجدّة الكبيرة : « نافذ يا ولدي ، تعال اليّ ! » .

اخليت المكان لخالي نافذ الذي لم يفته ان يرمقني بنظرة صارمة كأنه يلومني لأني غادرت المائدة قبله ويحذرني من ان اتحدث امام الجدّة بما لا يليق. وكان أن صمتّ ، ثم احسست ان المجلس قد ثقل ، فانسحبت عائداً الى المضافة. هناك ، كان عربي قد انصرف الى النوم ، وكان الخال أبو عدنان وحيداً يعالج حطبات الموقد ليؤجج نارها ، وقد فرغ للتو من اعداد القهوة الجديدة. وهناك ، ادار ابو عدنان معي حديثاً ادركت انه كان يتحين الفرص الملائمة لإدارته. ومن حديث الرجل الحاني ، عرفت أنه منتسب الى حزب البعث العربي الاشتراكي. وقد أنشأ للحزب خليّة واسعة في المخيم ، وصار هو معدوداً بين وجهاء الحزب في المنطقة. كما عرفت ان هذا

الخال جاء الى دمشق عندما كنت انا فاراً من الاسرة اعمل في المصبغة وقد طلب ان يقابلني لكنهم لم يدلوه على مكان عملي. وقد ادهشني ان الرجل الذي امضى جلّ حياته بين دير الدبان ومخيم النويعمة يدرك موقفي على نحو سديد دون أن يسمع وجهة نظري ، وهو يفهم اسباب ضيقي بتزمت الاسرة : « تجري الدنيا جرياً وهم متشبثون بما تركوه في المسمية الصغيرة. انظر الى جدك ، عنده هذه العزوة من الشباب المتعلمين وامامه هذه الحياة العريضة في دمشق وهو ما يزال على حاله : سيف الدين الحاج أمين ، لا يريد ان يرى ان زمن الحاج امين قد ولى وان هذا هو زمن ميشيل عفلق واكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار ، زمن عبد الناصر ، زمن الراديو الذي ينقل اليك وانت في الغور ما يجري الآن في القاهرة . لو كنت مكان جدك في دمشق ، وعندي هؤلاء الاقمار المحيطون بي ، لكان غدائي مع وزير وعشائي مع وزير» . قال أبو عدنان هذا ، ثم القى عليّ نظرة حانية ، واضاف : « أنا افهمك . فيك نباهة ابيك ، رحمه الله ، وسماحة جدك سلمان ، وفيك الروح الساخنة التي كانت لجدك عبد المجيد قبل أن تطفئه الغربة. جدك هذا مغلوب على امره الآن ، لقد تكلمت معه بشأنك ، قلت له انكم ستخسرون الولد اذا لم تراعوا رغباته ، فقال لي : نافذ ، كلّم نافذ واقنعه ! كأني انا ابو نافذ وليس هو. وقد كلمت نافذ على كل حال ، وعنّفته فوضع كل اللوم عليك. نافذ رجل طيب ، لا تنس هذا ، ولا تنس انه يحبّك اكثر مما يجب اخوته. لكن الله جعل له طبعاً يابساً ، وانت خير من يعرف ، فلا حول ولا قوة الا بالله » . لقد ادهشني ان يكون هذا الرجل شبه الأمي قد استخلص عبرة الظروف المستجدة وكيّف سلوكه وفكره معها ، فيما عجز عن ذلك بعض من اعرف من كبار المتعلمين. كان امامي انسان مهندم بالزي الريفي الفلسطيني الكامل : الساكو والقمباز الصوفيين الفاخرين والحطة البيضاء المهيبة وعقال المرعز الاسود الذي يتوج الرأس ، وكنّا في جو المضافة التقليدي : الفرش والمنقل الكبير والبكارج المتراصفة على حوافّه ورائحة القهوة السادة وفواح حبّ الهال ، اما الحديث فكان حديث المثقفين . فمن اين جاء أبو عدنان بهذا ؟ وكيف واءم الرجل بين المخترة وعضوية حزب اشتراكي عصري. واتقن

القيام بواجبات الموقعين؟ لم يتركني ابو عدنان للاسئلة التي حامت في ذهني ، وسواء ادرك او لم يدرك طبيعة ما يشغلني ، فقد سألني : « هل انتسبت الى حزب البعث ؟ » ، فاجبته بما اشتمل على رأيي الايجابي في حزب البعث واسباب عدم انتسابي اليه ، وحدثته عن « عرب فلسطين » ودعوته الى استقلال العمل الفلسطيني. وقد اصغى ابو عدنان بانتباه كامل لشروحي المستفيضة ، وعندما فرغت من الشرح ، صمت هو لحظات قليلة ، ثم قال : « انت أفهم مما توقعت . لقد ذكرت اشياء هامة وسوف افكر فيها. لكني أسأل : لماذا لا يدخل امثالك حزب البعث ويقولون هذا الكلام داخل الحزب. فكر في هذا ! وسنتحدث مرة اخرى عندما ازور سوريا » .

في تلك الليلة ، نمت ساعة او ساعتين ، ثم ايقظتني جلبة الاستعداد لاستئناف الرحلة. قدّم مضيفونا وجبة فطور عاجلة فأكل من أكل. أما أنا فصابحت الجدّة الكبيرة وتناولت الفطور في حضرتها ، كوب قهوة ممزوج بحليب العنزة الشقراء ، ورأيت العنزة ذاتها في الزريبة ، ثم توجهت الى الباص.

وفي ذلك اليوم ، جلنا جولة طويلة ، جئنا الى القدس ، وزرنا المسجد الاقصى ومسجد عمر وكنيسة القيامة فاستعدت حرارة الذكريات عن زيارتي لهذه الاماكن بصحبة امي وانا طفل قبل أن نصير لاجئين . ثم جئنا الى بيت لحم فزرنا كنيسة المهد ، ثم الى الخليل فزرنا مسجدها ، وكانت هذه كلها اماكن اراها للمرة الثانية ، واستعيد مع الرؤية ذكريات الأيام التي كنا فيها ما نزال مواطنين في بلدنا . أما الناس في هذه الاماكن ، وبمقدار ما اتيح لنا أن نستقرأ اهتماماتهم ، فكانوا مشغولين بالاحداث الاخيرة التي شهدها الاردن مدفوعين في هذا التيار العربي القومي الذي ادت التطورات الى انتقاله الى العلن. وكانت آراء الناس موزعة بين الاعتقاد بأن الملك ذاته هو الذي سيقود مسيرة الاردن الى الالتقاء بمصر وسوريا والتعاون مع عبد الناصر والبعثيين او الحذر من ان يبدل الملك الاتجاه ، والتشبث ، بالتالي ، بضرورة تقوية احزاب المعارضة

وتجميعها في جبهة واحدة لضمان استمرار المسيرة. كان واضحاً ان شعبية الملك قد غدت في الذروة ، لكن شعبية الاحزاب لم تكن قليلة . وقد شغلني اكثر ما شغلني هذا الاتساع الكبير في شعبية حزب البعث . وادى حديثي مع الخال « ابو عدنان » حول انتسابي لهذا الحزب وما لاحظته بعد ذلك من مظاهر التأييد له الى بلبلتي ، فأنا اعيش في دمشق ، حيث قيادة الحزب العليا ومركزه الرئيسي ونفوذه المتزايد ، وادعو الفلسطينيين من ابناء اللاجئين فيها الى الابتعاد عن الاحزاب ، ثم اجيء الى هذه البقعة من فلسطين ، في اول زيارة لي بعد مفارقتها ، فأجد هذا التأييد الواسع للحزب وللقومية العربية بصورة عامة ، ولا أقع على من يفكر باستقلال العمل الفلسطيني عن العمل العربي القومي . ولم يبق هذا بغير تأثير في نفسي ، فقد نبت ذلك الشك الذي قدر له أن ينمو بمضيّ الوقت حول صواب موقفي ، واجج في نفسي تلك المشاعر التي اعتدت ان اتحايل عليها والتي كانت تجذبني نحو البعث.

وعندما عدنا الى مخيم النويعمة بعد الظهر ، وفاء لوعد خالي نافذ للخال ابو عدنان بالمجيء من اجل الغداء ، كان مضيفنا قد اعدّ كل ما يلزم لتحويل حضورنا الى احتفال كبير. فقد دعا الى تناول الغداء معنا مئات الناس ، فكان منهم وجهاء آل الحوراني القاطنين في اريحا والمخيمات المحيطة بها ونشطاء الاحزاب من البعثيين والقوميين والشيوعيين ، ومدير مدرسة المخيم ومعلموها وكل من له مكانة خاصة في المحيط. وبعد المناسف وصواني الحلوى العديدة التي التهمها الحشد ، تحول الاحتفال الى مهرجان حقيقي ، فتحدث ابو عدنان عن البعثيين وتحدث غيره عن الاحزاب الاخرى ، وتكررت عبارات الترحيب بنا كما تكررت التعهدات بمواصلة المسيرة من اجل تحقيق الوحدة العربية واحكام الطوق العربي على اسرائيل وتحرير الوطن المغتصب. وكان لا بدّ ان يتحدث واحد منّا ، وقد اراد ابو عدنان أن يتحدث خالي نافذ ، غير ان الخال ابى وقدم شريكه عربي. واضطر هذا الموالي لحزب الشعب ان يرتجل كلمة تناسب المقام والجوّ وان يخفي بالتالي مشاعره ضد البعثيين والقوميين والشيوعيين .

واردنا بعد ذلك ان نواصل الرحلة حيث كان من المقرر ان نتوجه الى عمان ، غير ان الموجودين في الاحتفال من آل الحوراني تشبثوا بنا واصروا على القيام بالواجب ، والواجب يعني عندهم وليمة جديدة لم يقبلوا أي اعترض منّا عليها . وهكذا ، انتقل الباص بنا من مخيم النويعمة الصغير الى مخيم عقبة جبر . وكان في الانتظار هناك حشد آخر من الناس ، بعضهم جاء بدوافع عائلية ، فيما جاء بعضهم بدوافع سياسية ، واتى كثيرون بدافع الفضول ، وحده. وهناك ، تكرر ما حدث في النويعمة ، مناسف وصوان ، وخطب ، وقريبات واقرباء جاءوا للتحية ، ومناقشات اظهرت لي مرة اخرى التباين الواضح بين ما الزم نفسي به وما يندفع الناس نحوه . ولم نفرغ من كرم الضيافة ودفء الحفاوة الا بعد أن تقدم الليل. وقدر لي ان اقطع الطريق من اريحا الى عمان دون أن ارى منها الا القليل الغامض مما تكشفه انوار الباص في عتمة الليل . وفي عمان ، آوانا فندق بقية الليل ، ثم اندفعنا في الصباح الى الشوارع. كان اليوم يوم جمعة ومعظم المحالّ مقفلة ، وبالرغم من ذلك لم تكن الشوارع خالية. وكأن الناس الذين طال غيابهم عن انشطة الشارع قد وجدوا في الانفراج الديمقراطي المتحقق فرصة لتعويض ما فاتهم. فكنت ترى في كل ناحية مظاهرة صغيرة او كبيرة ، وفي كل ركن جماعة تتحاور حول موضوعات الساعة. أما بعد صلاة الجمعة ، فقد انتظمت المظاهرات الضخمة : حشود ويافطات ، وشعارات عديدة ومتنوعة ، مكتوبة ومهتوفة . وقد بارينا أكبر المظاهرات ، وهي التي خرجت من المسجد الحسيني وضمت اشتاتاً من الناس من مختلف الفئات والاعمار ، وهم يهتفون للوحدة العربية والحرية وتحرير فلسطين ويندددون بالاستعمار والصهيونية والامبريالية ، ويرددون اسميّ جمال عبد الناصر والملك حسين ، ويطالبون بتقوية البلد وتسليح الجيش بالسلاح السوفياتي ، ويدعون الى انصاف الفئات المحرومة وتلبية حقوق العمال والفلاحين . لم يكن تنظيم المظاهرة على الدرجة من الاحكام التي الفناها في دمشق الخبيرة في التظاهر. ولم تكن لدى الهتافين مهارة تأليف الأهازيج التي تحوي الشعارات بالدرجة من الاتقان التي يتمتع بها نظراؤهم في دمشق. بالرغم من ذلك ، كانت المظاهرة

على العموم منتظمة وبدت هتافاتها واضحة. وبقيت المظاهرة منتظمة لبعض الوقت ، ثم حدث ان برز بين الجمهور ناس ظهروا فجأة وفردوا يافطات كانوا يخفونها في طيات الملابس ، ورددوا شعارات تشتم الجميع .

قبل ظهور هؤلاء المستفزين ، كانت قوات الامن تباري المتظاهرين بدوريات راجلة او محمولة في عربات ومصفحات عسكرية . وكان رجالها في حالة استنفار تدل عليه الاسلحة التي يحملونها وازياء الميدان التي يلبسونها ، الا أنهم لا يتدخلون في شؤون المتظاهرين. اما بعد ان ظهر المستفزون وسمعت هتافاتهم. فقد انقلب كل شيء رأساً على عقب. بدأ الأمر بأن طلب رجال الامن من المتظاهرين ان يتفرقوا فوراً ، ثم باشتباكاتهم مع الممانعين ، وانتهت بتلك المطاردات التي شهدتها الشوارع الرئيسية والفرعية والتي ذكرتني بالمطاردات التي الفتها أيام حكم الشيشكلي في سوريا. وقد جرينا مع أوائل من جروا قبل أن تحتدم الاشتباكات وتلعلع اصوات الأعيرة النارية ، واتجهنا ناحية باصنا الذي تركناه ، في شارع جانبي صغير خلف المسجد الحسيني ، واحتشدنا فيه منتظرين الفرص المواتية للتحرك. ومن هناك ، راقبنا بقية المعمعة الى أن تمت السيطرة على الشوارع لقوات الأمن وتم فرض نظام منع التجول حتى اشعار آخر.

في تلك الظروف ، لم يبق امامنا الا أن نغادر عمان ونلغي بقية فقرات اليوم الاخير في رحلتنا . وقد تفاهم الاستاذ عربي مع ضابط الشرطة الذي تراقب جماعته المنطقة ، فمشت امامنا سيارة جيب قادت باصنا الى خارج المدينة ، ثم انطلق الباص باقصى سرعته على الطريق المفضي الى الحدود.

رويت لك حتى الآن اهم وقائع الرحلة ، وتجنبت ما يتصل منها بمعاملة نافذ لي اثناءها لأني اردت ان افرد لها مقطعاً خاصاً ، نظراً لتأثيرها على مجمل علاقتي بخالي. واغلب الظن انك لن تحتاج الى معرفة التفاصيل حين أقول لك ان الخال مارس ما يفرضه لنفسه من سلطة عليّ باقبح صورها ، فراقب حركاتي وسكناتي طيلة الوقت ، وتدخل في كل شيء

بفظاظة ، فلم يراع أننا في رحلة للمعرفة والمتعة ، او اننا بين التلاميذ الذي ادرسهم واحتاج للاحتفاظ بهيبتي بينهم ، او اننا بين غرباء لا يعرفون ما بيني وبينه من مشاكل ، او بين اقرباء يعدّون منزلتي ومنزلته متساويتان ويحبونني بمقدار ما يحبونه ويحترمونني بالمقدار ذاته ، أيضاً. كان يضايقه أن أهزج مع التلاميذ حين يهزجون ونحن في الباص ، فيرسل نحوي نظرات منذرة يراها الآخرون ، فاذا لم التقطها او لم استجب لها فوراً ، كان لا يتورع عن ان يصرخ ويأمرني بالكفّ عما يسميه عبث الصبيان الذي لا يليق بمعلم. وكان يتضايق حين انخرط في حضرته في حديث مع مستقبلينا او مضيفنا ويبلغ ضيقه لي درجة الغليان حين أعبّر عن آراء لا تتسق مع آرائه ، وينفجر غضبه حين اخالفه في الرأي. وكان في هذه الحلات كلها يزجرني صراحة كي اكف عن الكلام ، فالصغير لا يتكلم حين يتحادث الكبار. اما حين اسهو فألج باباً او اغادره قبله او اسلم على انسان قبل ان يسلم عليه هو او اجيب على استفهام وجه الينا جميعاً بوجوده ، فهذه كلها من مظاهر قلة الادب والتحلل من اللياقات الاجتماعية. واذا غبت عن عين الخال لشأن او غيره دون إذن صريح منه يتوجب علي أن اطلبه أياً كانت الظروف ، فلا بد اني اتعمد الاختفاء لغرض مشين. وقد تكرر ذلك كله من الخال ، حتى لاحظ كل من احتك بنا اثناء الرحلة اني لا اتمتع حتى بالهامش الضئيل من الحرية المتروك للتلاميذ. ولكي يتضح لك الوجه الآخر للصورة ، علي أن أقر بأني لم الزم نفسي أثناء هذه الرحلة بمراعاة نزوات الخال بالمقدار الذي كنت افعله من قبل ؛ فقد تجاهلت اشارات الخال الزاجرة على الدوام ؛ أما حين كان ينتقل من التلميح الي التصريح ، فكنت اجد في اغلب المرات الوسيلة الملائمة لوقفه عند حدّ ، كأن ابتسم موحياً بأني لا آخذ كلامه على محمل الجدّ ، او اتلفت حولي بحركات تعني اني اعد الكلام موجهاً لاحد غيري ، او امضي في الحديث غير آبه بمقاطعته لي. وهكذا عدنا من الرحلة بأسوأ مما كنّا عليه حين بدأناها.

وكانت خمسة شهور قد انقضت دون ان ازور دمشق. وعندما انفجرت

الطبيعة من حولنا بمظاهر الربيع فانتعش كل شيء وظهرت طزاجته واشتد التوق الانساني الى العلاقات الحميمة ، استحكم احساسي بالضيق في هذه العزلة المفروضة عليّ في فيق ، فعزمت على كسر العزلة ايا كان الثمن. جربت في البداية أن يتم ذلك بمعرفة خالي ، فذكرته بأن الوقت قد حان كي اقدم طلب الاشتراك في امتحانات الشهادة الثانوية ولا بد اذن من ذهابي الى دمشق . فأجاب هو بأنه حسب حساب الأمر وكلف من يقوم بذلك قبل أن أذكره به ، وان ليس لديّ ما اخشاه من هذه الناحية ، ما دام عندي هذا الخال الذي يحرص على مصلحتي اكثر من حرصي عليها. قال الخال هذا بنبرة من يتوقع ان اشكره على حرصه ، غافلاً عن حقيقة ان ما اضيق به ، أكثر من أي شيء آخر ، هو هذا الحرص بالذات.

بعدها ، وضعت خطتي للسفر الى دمشق دون علم الخال ، ونفذت الخطة بالتعاون مع صاحبي البقال الشامي الذي لم يعد يخفى عليه ما بيني وبين خالي من جفوة . أبلغت « ابو سليم » رغبتي في السفر وافهمته اني استطيع أن أغادر بعد ظهر الخميس ، فقط ، اي بعد أن يغادر خالي القرية . وكانت السيارات في العادة تتجه الى الحمة في هذا الوقت ، اما السيارات التي تعود منها الى دمشق فنادرة ، فطلب مني ابو سليم أن أظل على استعداد لاستفيد من أية فرصة طارئة ان لاحت . وحدث أن صاحب سيارة خاصة من ارباب العائلات التي تتعامل مع الدكان مرّ بها يوم الاربعاء ، وطلب ان يهيئوا له البضائع التي يأخذها لدمشق في اليوم التالي ، فرجاه أن ينقلني معه الى دمشق بعد ان اكد له أني شاب مؤدب ولن يسوءه ان يصحبني مع افراد اسرته. وقد تلقيت البشارة مساء الاربعاء فهيأت نفسي للمغامرة المواتية. ولكي لا افوت على صاحبي الرقيب المجتهد درسه الاسبوعي طلبت منه أن يجيء الي ظهر الخميس فور رحيل خالي لننجز الدرس قبل مغادرتي . واتفقت مع البقال على أن تأخذني السيارة من المدرسة. وتم كل شيء النحو المرسوم. وفي حوالي الخامسة بعد الظهر ، اخترق خلوتي مع الرقيب بوق السيارة الملحاح ، فخرجت الى الطريق وودعت رقيبي الممتن لي ، وانضمت الى ركاب السيارة الفخمة .

وفي دمشق ، امضيت ليلة ليست كالليالي. فقد ذهبت فور وصولي الى هايل في منزله ، واطلعته على وضعي وضيقي وتفكيري بالخلاص ، ثم عرضت له انطباعاتي عن الرحلة الى الاردن واستدنت منه بعض النقود. ومن منزل هايل ، انتقلت الى منزل فايز ، ثم زرت واياه اصدقاء آخرين ، فتجمعت شلة السهر ، وذهبنا جميعاً الى كازينو سلوى القائم عند نهاية شارع بغداد على اول الطريق الى القطاع ، فاكلنا وشربنا وسمرنا على هوانا حتى اغلق المكان ابوابه في الثانية بعد منتصف الليل. وبعدها ، أخذنا سيارة اجرة وزرنا ذلك المكان الذي لا يزوره امثالنا الا خفية ، ودفعنا بعض الليرات وظفرنا بالمتعة العاجلة التي لا توفر ظروفنا لنا ما هو احسن منها ، ثم قررنا ان نعود الى منزل فايز البعيد مشياً على الاقدام ، لا لشيء الا رغبة مني في أن أفعل ما ليس مألوفاً. وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحاً حين بلغنا المنزل ، فقررت ان انام ثلاث ساعات فقط ، حتى أكون في المرآب في وقت ابكر من الوقت الذي يجيء فيه خالي فاتدبر امري بحيث اعود الى فيق قبل أن يعود هو اليها. وهذا ما جرى بالفعل ، فتمت المغامرة دون مشاكل. وقد شجعني نجاح المغامرة الاولى على تكرارها. وتمكنت من زيارة دمشق مرتين اخريين دون أن ينكشف الامر. وكنت أظن ان هذه الفرصة التي ابحتها لنفسي سوف تخفف من ضيقي بالعزلة ، لكن الذي حدث أنها اججت توقي الى أجواء العاصمة والاصحاب وقوّت تعلقي بها. ولو جاريت مشاعري لما رجعت الى فيق. غير أن مسحة من التعقل تغلبت على مشاعري هذه ، والزمت نفسي بقرار حاسم : ان احتمل كل شيء حتى اظفر بالشهادة الثانوية واحصل على عمل دائم يحررني نهائياً من الحاجة الى الاهل ويأذن لي بالاستقلال الحقيقي. وقد بتّ على قناعة بأني لن استقلّ حقاً الا اذا تيسر لي الدخل الذي يغنيني عن معونة الآخرين.

عندما توصلت الى هذا القرار ، كان خالي وشريكه قد اعلنا عن تنظيم دورة للدراسة الصيفية في المدرسة ، وسجلا اسماء الراغبين في الاشترك فيها وقبضا منهم الرسوم . وقد اقام الخال حسابه للدورة على أساس ان

اذهب الى دمشق لاداء الامتحانات ، فقط ، ثم اعود الى فيق فاشرف على الدورة واكون المعلم الوحيد فيها ، بينما يحظى هو وشريكه بالعطلة الصيفية الطويلة. ولو كانت علاقتي بخالي عادية لتوجب أن أبلغ اليه قراري بعدم العمل معه بعد حصولي على الشهادة الثانوية كي يتدبر امور الدورة قبل فوات الأوان. غير ان ابلاغ هذا القرار الى الخال . في الظرف الذي كنا فيه ، كان معناه أن تقوم الدنيا من حولي لا تقعد ، فاحتفظت بسرّي مؤثراً دواعي السلامة على دواعي الاستقامة ، خصوصاً لأن الخال رتب ما رتّبه دون أن يأخذ رغبتي بعين الاعتبار. ثم وقع الحادث الذي انهى علاقتي بالمدرسة ابكر مما قدرت . كنّا انذاك في أوائل أيار / مايو ١٩٥٧ ، وقد اتممنا تدريس المنهج المقرر وشرعنا في مراجعة الدروس تمهيداً للامتحانات . وقد قضيت ليلة الخميس / الجمعة في دمشق ووصلت في الصباح مبكراً ، كالعادة ، الى المرآب كي تحملني السيارة الى القنيطرة قبل مجيء الخال اليه. ولأمر ما ، كان خالي قد جاء هذه المرة مبكراً هو الآخر ، وكان بصحبته بعض اخوته الصغار . وفي اللحظة التي رأيته فيها ، كان الخال متجهاً الى مكتب الادارة فلم يرني . أما الذي رآني فكان واحداً من مصاحبيه الصغار. لمحني هذا الصغير وانا أدخل السيارة فاندفع نحوي بعفوية الطفل المشتاق إلي وامكن ان نتبادل كلمات قليلة قبل أن تنطلق السيارة. وهكذا ، انكشف امري. وفي الطريق الى القنيطرة ، توجست رد الفعل المتوقع وهيأت نفسي للمواجهة المحتومة ، ولم أكن شديد الاسف على كل حال . ساعرف فيما بعد أن خالي جاء الى المرآب مبكراً ليحجز مسبقاً لسفره في الباص فيضمن حصوله على المقعد الاثير له وراء السائق تماماً ، وأن الصغار كانوا بصحبته لأنه دعاهم ليقدم لهم طبق الكنافة الشهير الذي يقدمه محل مهنّا القريب من المرآب. ولما عرف الخال اني كنت في المرآب وغادرته للتو نسي ضيقه بركوب السيارات الصغيرة وركب أول واحدة منها متجهة الى القنيطرة وتبعني.

وكنت ما أزال في مرآب القنيطرة أتدبر امر سفري المبكر الى فيق حين وصلت السيارة التي تقل خالي وهبط منها ليقابلني وجهاً لوجه ، وقد

طفح الحنق من كل شيء فيه. لم يكن الخال قد هيأ ما يقوله لي في هذا الموقف ، فانفجر انفجاراً ، كلاماً ، وحركات ، وزعيقاً دون أن يفصح عن شيء بعينه سوى الاستياء . وعندما امكن ان يقول عبارة مفهومة ، هددني الخال بفضيحة مجلجلة ، وتوعدني بخراب البيت والتشريد والجوع. ولم اعرف كيف اهتديت في هذا الوضع الحرج الى قراري دون أن أستفزّ أو أجاريه في انفجاره . والذي حدث اني القيت نفسي في السيارة المغادرة الى دمشق وكنت آخر من تنتظر السيارة من الركاب ، فانطلقت للتو وابتعدت عن الخال الذي وقف مدهوشاً وتابع الزعيق . لقد نجوت من مواجهة لا تحلّ مشكلة ، غير اني لم اهتد الى الحل . وفي الطريق الى دمشق ، فيما الركاب من حولي يثرثرون باحاديثهم المألوفة ، كنت أنا غارقاً في همي ، فهل اعود الى منزل الاسرة وانتظر ما ستنجلي عنه الامور ، إم امضي في سبيل آخر واعاود رحلة التشرد ؟ شيء واحد لم افكر فيه ابداً ، ذلك هو العودة الى فيق.

١٨

حب ابنة الجيران تقطعه العودة إلى الجورة

وصلت الى دمشق قبل ان ينتهي بي التفكير الى قرار . ووجدتني قرب جامع تنكز حيث يخطب الشيخ علي الطنطاوي خطبة الجمعة ، وكانت مكبرات الصوت تنقل الاستعدادات للصلاة . واجتذبني شيء ما الى الاستماع للخطيب الشهير ، فانضممت الى حشد المصلين الذين يكتظ بهم الجامع واصغيت للخطيب الذي طالما بهرني قبل ذلك . كانت المقدرة الخطابية هي ذاتها ، والنبرة الأخاذة هي ذات النبرة ، وقد تطرق الشيخ لموضوعه الأثير ، ظلم الحكام للرعيّة وحق الرعية في مواجهة الظلم ، لكنه حين انتقل من التعميم الى التخصيص ركز هجومه على الاختلاط بين الجنسين الذي تأذن به الحكومة في الجامعة ، وعلى حفلات السمر التي تقام في مدارس الطالبات ويدعى اولياء الامور من الآباء والامهات لحضورها سوية . واذ لم يعد لمثل هذا الحديث أن يشوقني فقد اصبت بخيبة أمل ، حتى إني غادرت الجامع قبل أن يتم الشيخ الخطبة . لكن هذه

الانعطافة الى الانشغال بغير همي العائلي افادتني ، فقد هدأت سورة النفس واسترخت الاعصاب وامكن ان افكر بطريقة منطقية . وحزمت امري على التوجه لمنزل الاسرة والدفاع عن سلوكي بنفسي.

فتحت جدتي الباب ، وكانت مفاجأتها بوصولي في هذا الوقت تامّة ، لكن لم يفتها ان ترحب بي وتغمرني بحنانها الذي طال اختزانه. وتجمعت الاسرة حولي. جاء الذين تحت وانضموا للذين فوق. وافضت أنا في الحديث ؛ أخرجت مخزوني بغير تحفظ ، وبسطت اسباب شكواي بافصح العبارات ، وعرضت قناعتي باستحالة البقاء مع الخال ، وطلبت ان اترك بسلام الى أن تنتهي الامتحانات. وقد اصغت الجدة لحديثي كله دون مقاطعة ، لكن تعابير وجهها نمت عن التفهم . وقاطعني الجدّ أكثر من مرة مستفهماً عن نقطة أو اخرى . ولسان حاله يقول : توقعت هذا. واحتفظ خالي عمر بصمت اللسان وجمود التعابير. وعقدت الدهشة ازاء جرأتي في الحديث على نافذ السنة الصغار وكورت وجوههم وابدانهم فقعدوا حولي صامتين وساكنين. وحدها ام عدنان ، هي التي أظهرت تأييدها لي بعبارات لا لبس فيها ورددت دون تهيّب ان سلوك نافذ لا يطاق. اما خالتي شفيقة فكانت تصغي لبعض الوقت ، ثم تنصرف لاعداد الشاي والقهوة وهي في الحالتين تبكي وتلعن العين الشريرة التي سممت علاقات الاسرة . والواقع أني احسست ، بعد أن أخرجت مخزوني كله ، بأني كسبت هذه الجولة على الأقل . حتى ان جدّي ، وهو الذي يتحرج من وضع نفسه في موقف يختلف فيه مع نافذ ، قال بنبرة باتة : « انشغل بدروسك ، واترك المسألة لي ، عسى أن يقضي الله امراً كان مفعولاً ! » وكان في نبرة الجدّ أكثر من الموافقة ، كان فيها تعهد بتوفير الهدوء لي من أجل الامتحانات.

والواقع أن الجدّ تدخل على نحو فعال هذه المرة . لم ينتظر خالي نافذ نهاية الاسبوع ، بل جاء في اليوم التالي. وروى الخال قصصاً تجاوزت حكاية سفري بدون اذن . فقد جمع الخال الحانق نتفاً من الشهادات في فيق حول سلوكي وركبّ هذه النتف المتفرقة بما يلائم فكرته عني . وكان مما

رواه الخال أن أصحابي الفاسدين في دمشق لم يتركوني لحالي في فيق ، بل كانو يستغلون غيابه هو فيجيئون الى القرية بسيارات خاصة وبصحبتهم نساء لا بدّ أن يكن مومسات فيأخذونني الى حيث لا يدري احد ، فأمضي الليل معهم في الفسق والفجور . كما روى الخال ان الامر بلغ باصحابي في المرة الاخيرة حدّ المجيء مع مومساتهم الى المدرسة ذاتها ، ولولا وجود الرقيب ، بالصدفة ، لما درى الا الله ما الذي كانت ستشهده المدرسة في تلك الليلة . وقال الخال اني اثرت في فيق ضيق الناس المحترمين باستهتاري بتعاليم الدين وبترديدي لاجتهادات تبيح المحرمات وباصراري على مصاحبة السفلة والساقطين من حثالة المجتمع. وأخذ الخال عليّ أني ضيعت الهيبة اللازمة للمدرسين باختلاطي بالتلاميذ دون تكلف وسماحي لهم بالتبسط في الحديث امامي والتدخين في حضوري . وكان الخال ، كما وصفته خالتي شفيقة التي نقلت لي فحوى حديثه ، يكاد ينفجر وهو يتحدث عن نكراني لجميله ورفضي لكل الفرص التي اتاحها لي كي اسلك سلوك خلق الله المحترمين . غير أن الجدّ الذي استمع الى روايات الخال بأناة لم يؤخذ بما فيها من تحريض ، كما لم يدخل في المناقشة حول صوابه من عدمه ، بل نطق بحزم وايجاز بما كان قد قرره مسبقاً : « ضيعنا على الولد سنة من دراسته لأننا أجبرناه على ما لا يريد ، ولا اسمح بأن تضيع سنته الثانية » . ولم يترك ابنه الاكبر الى ان حمله على التعهد بتركي وشأني من الآن حتى نهاية الامتحانات ، على ان يكون ، بعدها ، لكل حادث حديث. ولم اندهش حين عرفت ان خالي لم يطلب عودتي الى مدرسته في فيق ، فقد كنت واثقاً من انه ضاق بوجودي معه بمقدار ضيقي بوجوده معي ، ولم يعد حريصاً على هذه الشراكة.

و هكذا ، كسبت فترة سلام اتهيأ خلالها لامتحانات الثانوية العامة ، انا الذي لم اكن قد فعلت شيئاً يذكر في هذا المجال ، وفي زيارته في نهاية الاسبوع ، احضر لي خالي بنفسه كتبي وحوائجي الاخرى ، ولكنه احتفظ بموقفه الحانق مني فأبى أن يبادلني حتى التحية. وكان قد بقي ثمانية

أسابيع ، فقط ، قبل أن تبدأ الامتحانات ، فتوجب علي أن استغل الوقت بتمامه. وادرك الجميع حاجتي الماسة للوقت ، فلم يكلفوني بأية مهام تصرفني عن الدراسة ، وبدا لي أن هناك اتفاقاً بينهم على تجنيبي أية منغصات . وهكذا ، توفرت لي ساعات النهار والليل ، فصرت اخلو الى كتبي ، اتنقل بها بين المنزل والجامع الاموي الذي استعدت صلتي بأبهائه واجوائه المسعفة ، او اقصد هذا او ذاك من زملاء الدراسة القدامى حين احتاج لمعونة . وفي الشقة الصغيرة ، وفرت لي اجتهادات خالتي شفيقة ركناً استطيع ان استخدمه لوحدي. فقد كان في هذه الشقة سقيفة تعلو حجرة الحمام ولها نافذة تطل على الافضية والدور المجاورة. فوضعت خالتي في السقيفة سريراً صغيراً انام عليه واستخدمه مقعداً ، أيضاً ، فأنعزل بذلك عن جلبة الحركة الدائرة في الشقة. وقد طاب لي هذا المقام على ضيقه ، إذ أمن لي الهدوء اللازم للتركيز وابعدني عن مجرى الحياة اليومية ولبّى حاجتي المزمنة للتميز ، ونأى بي عن أية مراقبة.

وبوجود هذا المكان وما وفرته له خالتي من نظافة وترتيب وما وفرته لي انا نفسي من رعاية وعناية ، أخذت اوقات وجودي في المنزل تتطاول الى أن صرت لا امكث خارجه الا في أقل الاوقات. وهنا ، في هذا المكان الذي تصله بالخارج نافذة وحيدة ، اخترق قلبي سهم حبٍّ جديد. جاء السهم ، حقيقة ، من النافذة مثلما ارتدت سهامي الى الطرف الآخر عبرها. كان بامكاني وانا جالس على سريري في السقيفة ، او مستلق ، ان ارى بين ما أراه مشرقة دار مقابلة والطابق الثاني من مدرسة مكتّب عنبر المجاورة . وكانت هذه المدرسة قد تحولت الى مدرسة للاناث ، وفيها قسم داخلي تقيم فيه التلميذات القادمات الى المدرسة من خارج دمشق. ويقع مكان اقامة البنات في الطابق الارضي الذي لا أراه من النافذة ، اما الطابق الذي اراه ، وهو العلوي ، فيضم ، بما يواجهني ، صفاً طويلاً من حجرات التدريس التي تفرغ من طالباتها بعد الظهر وتظل معتمة طيلة الليل. اما المشرقة التي احدثك عنها فتشغل مساحة من الطابق العلوي للدار التي تقوم أمامي قبل المدرسة ويفصلها عن المدرسة المجاورة لها تماماً

حائط مرتفع بحيث لا يرى قاطنو الدار المدرسة ولا يراهم من فيها ، وهكذا كان متاحا لي أن أرى المشرفة وطابق المدرسة العلوي والذين يكونون فيهما دون أن يرى هؤلاء بعضهم البعض. وقد حدث ان بنتاً من القسم الداخلي صعدت الى حجرة دراسة لسبب أو لآخر بعد الظهر ، وتكرر ذلك منها ، ثم صعدت هي وتلميذات اخريات ووقفن في مواجهتي وهن يشرن نحوي. وتجرأت البنت ، مرّة ، فوجهت لي اشارة تحيّة ، فترددت لحظات ، ثم رددت التحية باشارة مني ، ففرت هي ومن معها جاريات الى الطابق الارضي. ثم تكرر الامر ، ولم يلبث ان صرنا نتبادل الاشارات بسهولة . ومع عجزي عن تمييز تقاطيع البنات الواقفات ازائي لبعد المسافة ، صرت اميز بينهن من اختلاف القامات والحركات والملابس. ووجدت العملية مسلية. فاستطبت العبث عل هذا النحو كلما تعبت من الدراسة. ويبدو أن امر فتى السقيفة اشتهر بين التلميذات فزاد عدد الصاعدات منهن الى الطابق العلوي واشتدّ امعانهن في العبث. ولم آخذ العملية في أي وقت من الاوقات على محمل الجدّ.

وفي ظهيرة احد الايام ، وكنت اترقب ظهور فتيات المدرسة ، وقعت عيني ، فجأة ، على فتاة جالسة في المشرقة . ولما كانت المشرقة قريبة فقد كان من الممكن أن أتبين هيئة الفتاة وتقاطيعها الى درجة لا بأس بها من الوضوح . كانت تلك صبية طويلة ورشيقة تكسو بدنها بثوب منزلي وتسرّح شعرها محلولاً على كتفيها ، وتمسك بيدها كتاباً ، وترسل ناحيتي عينين ثاقبتي النظرة. فلما ظهرت اولى فتيات المدرسة. وكانت اشدهن معابثة لي ، واشارت بالتحية ، لم املك ان اتجاهل تحيتها ، فرددت عليها وانا مدرك ان فتاة المشرقة ستظن اني اقصدها بالاشارة . وهذا ما جرى ، فقد ظنت فتاة المشرقة اني اتحرش بها ، فصرفت نظرها الى ناحية اخرى ، وتشاغلت بتقليب اوراق الكتاب ، ومضيت أنا في حديث الاشارات مع الفتاة الأخرى وامعنت فيه. وفجأة ، ندت عن فتاة المشرقة حركة جمدت اشاراتي ، فقد وقفت وقفة الغاضبة ، وخبطت الارض بقدمها خبط المحتج ، ثم نفرت بحركة ساخطة واختفت من المشرقة. لقد تصورت البنت أني ظللت طيلة الوقت اتحرش بها.

وكنت غارقاً في مراجعة الدروس في ذلك الوقت الذي يسبق غياب الشمس ، حين انذرني احساس غامض بأني مراقب فاطلقت عبر النافذة نظرة عجلى ؛ كان طابق المدرسة خالياً ؛ اما المشرقة ، فكانت عليها الفتاة ذاتها ، وكانت قد بدلت ثوب المنزل بواحد اكثر اناقة ، وجدلت شعرها ولفت الجديلتين خلف راسها بمنديل جميل ، وكان الكتاب في يدها هذه المرة ، أيضاً ، أما نظرها فكان مصوباً نحوي دون مواربة. ووجدتني منجذباً نحو هذه الفتاة انجذاباً جدّياً وراغباً في اكتساب ودّها رغبة طاغية. لماذا هي بالذات وليس أيا من الفتيات الأخريات ؟ سؤال لا أملك الاجابة عليه ومن الذي يملك ان يفسر العواطف التي تخمد او تلتهب في الظروف المعقدة التي كنت فيها ؟ المهم اني لوحت لفتاة المشرقة بتحية حميمة ، وأنها لم تفر هذه المرة وإن لم ترد على تحيتي. وقد اجج الامتناع عن الاستجابة رغبتي في الاتصال ، فلوحت باشارات جديدة مقرونة بالتعبير عن الرجاء. واحتفظت هي بوقارها ، وراحت تلتفت الى الكتاب تارة وتلتفت نحوي تارة اخرى. ورحت افعل الشيء ذاته ، فانقل نظري بين الكتاب والمشرقة. وفجأة ، سمعت صدى صوت قادم من الطابق الارضي لدار الفتاة ، كان ذلك دعوة لها من بعض اهلها كي تهبط اليهم. وقد استجابت هي للدعوة لكنها ، قبل أن تغادر المشرقة ، التفتت ناحيتي ولوحت لي بيدها تلويحة سريعة ، ثم ركضت واختفت.

كانت تلك هي فاتحة الحوارات التي رحت اديرها مع فتاة المشرقة. وبالرغم من انها حوارات لا تدور الا بالاشارات ، فقد تمكنا من تحقيق تفاهم سريع ، فخصصنا أوقاتاً نستغرق فيها كلانا في الدراسة ، وجعلنا بين هذه الأوقات استراحات بعضها طويل وبعضها قصير ، واخذنا نناقش شتى الموضوعات! وهكذا عرفت انها يتيمة ، مات أبوها وترك سبعة اولاد هي الانثى الوحيدة بينهم ، وان بعض اخوتها يملكون المنجرة القائمة في زقاق قريب ويعملون فيها بينما يذهب الآخرون الى المدرسة. كما عرفت انها تحضر لامتحانات الشهادة الاعدادية وعمرها ستة عشر عاماً. أما اسمها فقد عجزت كل الاشارات عن الافصاح عنه الى أن جاءت الى

المشرقة مرة وهي ترفع بيدها زهرة واحدة وتشير الى نفسها فاستخلصت أنه « زهرة » وسميتها بهذا الاسم.

لقد استقطب وجود زهرة اهتمامي ، الا أن فتيات المدرسة لم يغبن عن الصورة ، وقد نشأ عن وجودهن خلف زهرة دون ان تراهن وضع طريف. وكان هذا الوضع يتحول الى وضع محرج حين اضطر الى التحاور مع المشرقة والمدرسة في وقت واحد. ولكني ، في موقعي في السقيفة ، بقيت قادراً على أن أتدبر الأمر بحيث اتجنب الفضيحة. وكان بامكاني على كل حال ان استأذن في الانصراف الى كتابي كلما قارب الحرج حافة الخطر وان القى التشجيع على ذلك من الجانبين.

وبمضي الوقت ، صارت حواراتي مع زهرة اكثر انطلاقاً واشد حميمية ، ولم تفقد حواراتي مع بنات المدرسة طابعها الطريف. وطلبت من زهرة أن نتقابل ، فافهمتني ان هذا متعذر في الوقت الراهن ، كما افهمتني ان اهلها لا يسمحون لها بالخروج وحدها الا مع من يتزوجها ، ثم منّتني بأن تفكر بامر اللقاء بعد انتهاء الامتحانات حين تخف رقابة الأهل عليها. وكنت سعيداً بهذا كلّه ، وقد فتحت السعادة ذهني فصرت التهم الدروس التهاماً.

وكما يحدث في كل علاقة بين المتحابين ، كان لا بد أن تدخل الغيرة على الخط. بدأ ذلك حين ظهرت زهرة في المشرقة في لحظة كنت اتبادل فيها الاشارات مع فتاة في المدرسة. ولما استوضحت زهرة عما يجري ، جاءت اجابتي مضطربة بطبيعة الحال. فلما تكرر الامر في اليوم التالي ، ارتابت زهرة ، فجاءت بسلّم واطلت على الناحية الاخرى. وكان ان جافتني زهرة على الفور ؛ امتنعت عن الظهور على المشرقة ، فعانيت انا الأمرين ، وكانت معاناتي مضاعفة : فأنا مشتاق لها شوقاً يحرقني الى رؤيتها ، وأنا عاجز عن ايضاح الأمر. وقد دام اختفاؤها عن المشرقة ثلاثة أيام ، فعفت السقيفة وجوّها وعاودت التردد على الجامع الاموي ورحت امضي معظم اوقاتي فيه. وفي اليوم الرابع ، وحين صعدت الى السقيفة لاستراحة بعد الظهر ، كانت زهرة هناك ، عادت الى المشرقة ومعها كتابها ،

وكانت تقرأ فيه وهي واقفة ، فلما لمحتني جلست واولتني ظهرها ، ثم لم تلتفت ناحيتي بقية النهار. لقد اطار هذا السلوك صوابي ، لكنه فتح لي باب الأمل ، فبقيت في السقيفة في اليوم التالي ورحت اترقت ظهورها. وعندما ظهرت فتيات المدرسة امتنعت امتناعاً حازماً عن مبادلتهن الاشارات ، واكببت على الكتاب فيما ظللت أرمق الشرفة بين وقت وآخر. لم يذهب صبري هباء ، فقد اطلت زهرة بعد الظهر ، وكانت في الثوب الذي رأيتها فيه اول مرة وكان شعرها مسرحاً على كتفيها. ولم تولني زهرة ظهرها ، هذه المرة ، بل اتخذت قعدة مواربة فأيقنت أنها قادرة على أن تراني. وفي هذا اليوم وقع ما لم يكن في حسباني. فاكثر فتيات المدرسة اهتماماً بي ، وهي التي بلبلها امتناعي عن الاستجابة لاشاراتها ، قعدت قبالتي في ذلك الوقت وبدا واضحاً أنها تبكي. ويبدو أن زميلات لها افتقدن وجودها بينهن فصعدن اليها فوجدنها على هذه الحال ، واذ لحظن وجودي في النافذة اردن ان يعبرن عن شجبهن لموقفي ولم يكتفين بالاشارات فاطلقن السنتهن بالسباب. وما كان لي من موقعي في السقيفة ان اسمع الشتائم غير أن اصداء الضجيج انتهت الي. هذا الضجيج الذي تستطيع زهرة أن تسمعه بوضوح اجتذبها. فجاءت بسلمها واتخذت موقع المراقب. وقد اجتذب الضجيج ذاته مراقبة المدرسة فظهرت في الطابق العلوي وامرت البنات جميعهن بمغادرة المكان. وقد رأت زهرة هذا المشهد وسمعت بعض حواراته ، فهبطت عن السلم بأناة ، ثم عدلت وضع الكرسي الذي تجلس عليه بحيث جلست مقابلة لي. وشجعتني حركتها فعاودت اشاراتي الراجية. ولم تترك زهرة المشرقة يومها الا بعد أن لوحت لي بتحية مصالحة.

واذا كان دخول الغيرة على الخط قد فشل في الغاء هذه الصلة الحلوة بين النافذة والمشرقة . فإن ظهور العذول افلح في اقفال النافذة واخلاء المشرقة من زهرتها. كان هذا العذول هو الأخ الكبير للفتاة ، وقد تصادف ظهوره على المشرقة مع اللحظة التي كانت فيها زهرة تشير لي بيديها الاثنتين لتقول انها غفرت لي. رأيت هذا الأخ حين ظهر خلف اخته ، أما

هي المستغرقة في استئناف فرحها فلم تره ولم تحسّ بوجوده ولم تدرك حتى سرّ توقفي المفاجىء عن التلويح لها بالشكر. ولا بدّ أن الأخ الذي لم يلمحني الا بعد أن توقفت عن ارسال الاشارات قد اساء فهم موقف زهرة فظن أنها تتحرش بي دون رغبة مني. وكان آخر ما وصلني من تعابير هذه الفتاة هو صراخها الذي انتهت اليّ اصداؤه بينما كان اخوها المحنق يجرها جرّاً الى اسفل ويضربها. وقد كنت جباناً ، عليّ ان اقرّ بذلك ، فلم ابادر لعمل ما يوضح الصورة الحقيقية لعلاقتي بزهرة. لقد فكرت بمائة وسيلة اظهر بها شهامتي او اتقاسم معها اللوم على الأقل ، لكنني لم أتبع أياً منها. وفي كل مرة هممت فيها بالمبادرة لتصحيح الموقف ، كان شيء ما يلجمني في آخر لحظة. وكان يكفي ، على كل حال ، أن افكر بردود فعل أهلها وأهلي حتى تغيض الشهامة ولا يبقى الا التخاذل. وانتهيت الى ان اقنعت نفسي بأن نجاحنا في الامتحان هو الاهم بالنسبة لنا ، هي وأنا ، من أي شيء آخر . ورأيت ان تجاهل المشكلة سوف يسهم في ابقائها صغيرة فيتاح لنا جو أفضل للدراسة. ومنيت نفسي بأن اتسلح بشهامتي كلها واعالج المشكلة بعد النجاح.

بعد هذا الحادث ، صار ظهوري في السقيفة مجازفة . وقد فقد المكان جاذبيته الخاصة بعد ان غابت زهرة عن المشرقة. لم اعد اجيء الى سقيفتي الا في اوقات النوم. وكان بين زملاء الدراسة واحد ربطتني به صداقة وثيقة هو خالد ذكرى ، وقد تعززت هذه الصداقة منذ تعرفت اسرتي على اسرته وراحت الاسرتان تتبادلان الزيارات . وابو خالد ، وكنيته ابو وليد نسبة لابنه البكر ، وهو محمد عبده ذكرى ، كان في فلسطين معلماً في احد المدارس الحكومية ، ثم لجأ باسرته من قرية الراس الاحمر القريبة من صفد ، حيث كان يدرّس ، الى دمشق وصار معلماً في مدرسة حكومية في دمشق واهتم بتعليم ابنائه الاناث والذكور ، فحصل واحد منهم وهو أكبرهم على الشهادة الثانوية ووجد وظيفة معلم في الكويت وصار يساعد الاسرة بجزء من دخله ، فتحسنت احوال الاسرة وانتقلت من المنزل الذي استأجرته الى منزل أحدث واوسع اشترته شراء.

وكانت الاسرة تستقبلني في منزلها وتعاملني معاملة واحد من افرادها ، خصوصاً لأن علاقتها الوثيقة باسرتي اتاحت لها أن تطّلع على وضعي بالتفصيل فتشفق عليّ وتبذل جهدها لاحاطتي بالعطف والمودة اللذين افتقدهما. وكان لخالد اخت من جيلنا هي سلوى ، وكانت ، مثلنا ، تحضر لامتحانات الشهادة الثانوية ، وقد اختارت الفرع الادبي الذي تختاره معظم البنات بالرغم من أنها واجهت مصاعب في دراسة قواعد اللغة العربية وآدابها. وقد الفت سلوى أن تستعين بي ، بين وقت وآخر ، بوصفي ضليعاً في اللغة ، والفتُ أن اساعدها بحماس بوصفنا اصدقاء وتعبيراً عن امتناني للاسرة الطيبة ولأن هذا النوع من المساعدة يوفر لي الاحساس بالتميز. وبعد حادث السقيفة ، زرت الاسرة ، وكانت قد عرفت بعودتي من فيق وتوقعت هذه الزيارة. واتضح ان سلوى بحاجة الى مساعدتي لها بعد أن لم يبق على موعد الامتحانات سوى اسابيع قليلة. وكنت أنا بحاجة الى مساعدة خالد لي في بعض المواد ، هو الذي يدرس الفرع العلمي. واقترح خالد ان ننظم امورنا بحيث نلتقي في منزلهم فنذاكر دروسنا ونتعاون . وتحمست اسرة خالد للاقتراح ، وكانت لطفية الابنة الثانية للاسرة اكثر الجميع حماساً لأنها كانت تحضر لامتحانات الشهادة الاعدادية ولأن وجودنا الى جانبها مفيد لها. وانضم الينا صديقنا المشترك وزميل الدراسة ، نعيم أبو غيدا ، الذي يسكن في الجوار. وخصصت الاسرة لهذا الحشد من التلاميذ اوسع حجرات المنزل ووضعتها في تصرفنا ليل نهار ، كما وضعت الأم نفسها في خدمتنا ووزعت عطفها على الجميع بالتساوي وتولت تأمين ما يلزم لراحتنا وأكلنا دون كلل. وتحولت الحجرة ، كما أطلقنا عليها مستعيرين الوصف المعروف ، الى« دار علم وأدب» ترعاها ربّة الاسرة ام وليد بحنانها الذي لا ينضب ويحيطها ابو وليد بسلوكه المؤدب وتفهمه العميق لحاجات الشباب المنصرفين الى تحصيل العلم.

وهكذا ، صرت أجيء الى منزل آل ذكرى مع اشراقة الضوء في الصباح الباكر ، اقطع المسافة من مكتب عنبر الى بستان الحجر ماشياً فأصل الى الصحب وقد استيقظوا ، وقد انعشني المشوار الطويل ، ولا أعود الى منزلنا

إلا في وقت متأخر من المساء. وصارت ل « دار العلم والأدب» وللشلة التي تستخدمها شهرة خاصة ، فانضم اليها زملاء دراسة آخرون. وزاردت الاعباء على ربّة الدار دون أن يصدر عنها ما يشير الى انها متضايقة من كثرة الاعباء. والحقيقة أن وجودنا مع بعض ، في هذا الجوّ المفعم بدفء الرعاية ، قد ساعدنا جميعاً ، فكنا نذاكر بجدّية ونتبادل المعلومات وننصرف الى هذا وذاك من الواجبات طيلة اربعة عشر ساعة في اليوم على الأقل ، دون أن نحسّ بالاجهاد ودون أن نفتقر الى المتعة.

وفي ما يخصني ، بين الجميع ، وجدت في كنف آل ذكرى ، وفي ظل العلاقات الودية التي تربطهم ببعضهم ، الجوّ الذي افتقده في اسرتي ، فزاد تعلقي بهم ورحت اتصرف بوصفي ، حقاً ، واحداً من اعضاء الاسرة ، واتصرف مع الجميع ، صغاراً وكباراً ، على هذا الاساس. وقد اتسم سلوك الاسرة كلها ، وخصوصاً سلوك راعيتها وراعيها ، باريحية ظاهرة وكرم لا حدود له ، حتى أن خالي نافذ استثنى هذه الاسرة بالذات من حملته الدائمة على الصفديين ، وغض النظر عن علاقتي الخاصة بها ، هو الذي يرتاب بأي شخص اقيم معه علاقة . اما خالد فقد تطبع بطباع ابيه وأمّه منذ نشأته ، فكان حفيّاً باصحابه ودوداً في التعامل معهم. وقد الفنا ، هو وأنا ، ان نتعامل كأخوين متحابين. وكما لا بدّ ان تفهم ذلك بسهولة ، كنت أنا احوج منه الى هذا النوع من التعامل ، وكان هو يدرك حاجتي فيخصني بمزيد من ودّه . وقد حاولت ان اجتذب خالد الى تنظيم «عرب فلسطين » فلم افلح ، فقد كان صلداً في رفضه الانتماء لأي تنظيم ، لكنه كان يعرف كل شيء عن نشاطاتنا ولا يعترض عليه. وباستثناء الحوارات السياسية التي كنّا نختلف فيها ، تفاهمنا على كل شيء. ولا شك في أن الاسابيع التي امضيناها معاً في التحضير للامتحانات وفي التقدم لها قد عززت تفاهمنا فضلاً عن انها قوت احساسي بجميل خالد واسرته عليّ. وبعد التحضير الجادّ ، في هذا الجوّ الملائم ، ذهبت الى الامتحانات بروح طيبة وثقة عالية . وبانتظار ظهور النتائج . كنت واثقاً من اني سانجح.

لم ينفرط عقد الشلّة بعد الفراغ من اداء الامتحانات ، وكل ما في الأمر أننا وجهنا نشاطنا المشترك في اتجاه آخر. واذا كنت قد فشلت في اجتذاب خالد الى التنظيم ، فقد فشلت ، ايضاً ، في اجتذاب اي شخص آخر من اعضاء الشلّة اليه. واما هم فقد نجحوا في اجتذابي انا الى المشاركة في واحد من انشطتهم . كان نعيم أبو غيدا يهوى لعبة كرة القدم. وكان في الشلّة شخص آخر من سكان بستان الحجر هو احمد اصبهاني يهوى اللعبة ويتطلع الى أن يحترفها. وكان الاثنان قد اجتذبا خالد وآخرين من سكان الحيّ ، فشكل هؤلاء فريقاً والفوا ان يتدربوا في فضاء في الحيّ سوّي ليكون ملعباً ويتنافسوا مع فرق الاحياء الأخرى. وقد اجتذبوني الى ملعبهم الذي استأنفوا نشاطهم فيه بعد الامتحانات ، ثم لم ألبث ان اصبحت ، على نحو ما ، المسؤول عن الشؤون الادارية للفريق ، ووجدتني منغمساً في اجواء اللعبة ، فصرت احضر التدريبات في ملعب الحيّ وانتقل مع الآخرين الى الملاعب البلدية كلما اقيمت عليها مباريات المحترفين. وأتذكر ان هذا الفريق لم يلبث أن شكل فريقاً ضم الاخوة الصغار لاعضائه. واتذكر من بين هؤلاء من غدوا نجوماً مشهورين في اللعبة ، فقد كان منهم فؤاد أبو غيدا الذي سينتقل الى مصر ويصير من نجوم الكرة وهو اخو نعيم ، كما اتذكر مروان كنفاني ، وهو اخو غسان كنفاني وصديق فؤاد ، وهو الذي سيصير اشهر حارس مرمى في العالم العربي ، في أواخر الستينات واوائل السبعينات. واتذكر مرة ذهبنا فيها الى الملعب البلدي لنشهد مباراة يشترك فيها فريق الجيش السوري ، وكان في عداد نجومه عدد من اللاعبين الفلسطينيين ، وكان هذا يزيد من حماسنا له وحرصنا على حضور مبارياته كلها وتشجيعه. وعلى طرف الملعب ، خلف المرمى ، وقبل ان تبدأ المباراة ، وحين كان اعضاء الفريقين المتباريين يتمرنان داخل الملعب ، خطر لبعض اعضاء فريقنا ان يتمرنوا فاقاموا مرمى وجعلوا مروان حارساً له وراحو يتناوبون اطلاق الكرة نحوه ، يومها لفت اداء مروان الصغير في صده الكرة نظر مدرب فريق الجيش ، فترك فريقه واقترب من ركننا وراقب مروان بانتباه ثم تقدم ناحيته وحيّاه وانبأه بثقة تامة بأنه سيكون حارس مرمى عظيماً اذا اخلص للعبة وواظب على التمرين.

الاهتمام بكرة القدم عرفني على شخص هو واحد من اطرف من عرفت في حياتي كلها ، انه من كنّا ندعوه الاستاذ اكرم الحسيني الذي كان مشهوراً في اوساط الرياضيين في سوريا ، وخصوصاً بين الذين يتابعون نقل مباريات كرة القدم في الراديو. قدم الاستاذ اكرم من القدس لاسباب نجهلها ، وعمل مدرساً لمادة الرياضة البدنية في عدد من الثانويات دون أن يعرف عنه انه يمارس لعبة بعينها ، واغلب الظن انه كان لاعب كرة قدم في شبابه. وكان الاستاذ اكرم حين عرفته كهلاً ظاهر البدانة بطيء الحركة ، مثلما كان بطيء الكلام حين يتحدث في المجالس الخاصة ، وكان الرجل ، الى ذلك ، سكيراً يبدأ الشرب فلا يكف عنه الا بعد أن يبتلع كومة من زجاجات البيرة. وبالرغم من هذه الصفات ، كان هذا الرجل المع من عرفت سورية في الخمسينات في مجال وصف المباريات الرياضية لمستمعي اذاعة دمشق ، أو الاذاعة السورية كما كانت تسمى. فما أن يجلس هذا الرجل امام المذياع في المنصة المخصصة للمذيع حتى يتحول عيّه في الكلام الى انطلاق مدهش فيفيض في تقديم وصف لمجريات المباراة يسحر المستمعين ويشدهم الى الراديو فلا يغيبون عنه لحظة واحدة . وكان ، في وصفه للمباريات ، يتحدث باللهجة المصرية فيتقن الحديث اكثر مما يتقنه المذيعون المصريون الشهيرون. وفي تفسيره لاصطناعة اللهجة المصرية ، كان الاستاذ اكرم يقول أن الاذاعة تصل الى عدد من البلدان العربية غير سورية ، والناس في هذه البلدان تفهم اللهجة المصرية اكثر مما تفهم أية لهجة أخرى. أما المدهش في أمر الاستاذ اكثر من أي شيء آخر. وهو ما اكتشفناه منذ صرنا نجلس بجانبه على المنصة حين ينقل المباريات ، فهو قدرته الفذة على تأليف وقائع مباراة من عنده لا تصلها بالوقائع التي تجرى امامه على ارض الملعب الا أقل الحقائق. كان الاستاذ اكرم في اليوم الذي يتوجب عليه فيه أن ينقل مباراة ، يشرب حتى يرتوي فينطلق على سجيته وتتفتح آفاق مخيلته ، فيؤلف المباراة من أولها الى آخرها ، بصرف النظر عما يجري في الملعب ، ولا يلتزم ، مما يجري أمامه ، الا بما يتعذر اغفاله ، مثل بداية المباراة ونهايتها واوقات تسجيل الاهداف او الوقوع في الاخطاء الكبيرة . وكان مستمعو الاستاذ اكرم يستمتعون بحديثه دون أن

يتسنى لهم مطابقة وقائع الحديث مع وقائع اللعب. وقد ظل هذا هو شأن الاستاذ وتعلق المستمعون به طيلة الخمسينات. فلما عرفت سورية التلفزيون وكان الرجل قد كبر وترهل ، لم يجرؤ على اعادة الحكاية امام المشاهدين الذي يرون ما يجري ، ولم يتمكن من التواءم مع هذه الوسيلة الجديدة ، فغاب عن الميدان. وفي الوقت الذي تعلقت فيه باللعبة ، كان من افضال الاستاذ اكرم عليّ وعلى أصحابي انه أتاح لنا دخول الملاعب بصحبته فلم ندفع اثمان التذاكر.

في ذلك الوقت ، كان الجوّ العام في سورية مشبعاً بالدعوة الى الوحدة مع مصر. لقد تحولت هذه الدعوة الى تيار كاسح اجتذب اغلبية الناس في سورية ، بمن فيهم الذين لا تتفق الوحدة مع مصالحهم. واظهر الفلسطينيون ، بالذات ، حماساً زائداً للوحدة فاق حماس الآخرين جميعاً. وفي الجدل المزمن بين مقولتين ، طغت مقولة « الوحدة هي الطريق لتحرير فلسطين » على المقولة المعاكسة « تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة » . وبدت دعوتنا في عرب فلسطين الى تميز الشخصية الفلسطينية واستقلالها كأنها امعان في التجديف ضد التيار العارم. وقد أثر هذا الجوّ على عدد من مؤسسي التنظيم واعضائه فزعزع قناعاتهم الاولى واجتذبهم الى الدعوة الوحدوية ، وانت تعرف اني كنت واحداً من هؤلاء. ولم يكن أي منّا قد بلغ الدرجة من الوعي التي تؤهله لتجاوز ثنائية الدعوتين وتعارضهما وادراك الصلة الديالتيكية بين التحرير والوحدة دون جعل احداهما في تضاد مع الأخرى. وفي الفراغ الذي تيسر لي بعد الامتحانات ومع استمرار الهدنة التي نظمها جدّي بين وبين خالي ، كثرت روحاتي الى مكتب حزب البعث والاماكن التي ينظم الحزب فيها نشاطاته وعرفت ، أيضاً ، الطريق الى مكتب مجلة « الرأي » التي تنطق باسم حركة القوميين العرب. وتوزعت مشاعري وقناعاتي بين الجانبين ، مع ميل اكيد الى البعث. كان وجود عدد كبير من الفلسطينيين بين القوميين العرب يجذبني اليهم ، ولكن اشتراكية البعث وانشطته الملموسة في الحياة السياسية كانت تجذبني اكثر. واذا كنت قد بقيت في عرب

فلسطين ، فبتأثير علاقاتي الشخصية بزملاء التنظيم ، وفي المقدمة هايل ، وكذلك انيس وصبحي ، واستجابة لاحساس غامض يهمس لي بأن ما يدعو اليه التنظيم ليس خطأ كله ولا بدّ من ان تكون هناك صيغة صحيحة توفق بين الدعوتين.

كان تديني قد بهت . ويمكن القول ان تعلقي بالاجواء الدينية التقليدية كان قد انتهى في ذلك الوقت . لم يحدث هذا ، بالطبع ، دفعة واحدة او بتأثير عامل وحيد ، فقد ابتعدت عن أجواء المتدينين بالتدريج ، وتضافرت عوامل عدة في اجتذابي الى اجواء أخرى. ولعلي لا ابالغ ولا اقع في خطأ اذا قلت لك ان هذه العوامل جميعها تندرج في حزمة واحدة عنوانها التعارض بين استغراقي في متطلبات الحياة العملية ، الشخصية والعامة ، وعجز الموروث الديني الذي تلقنته عن تقديم التفسيرات العقلية المقنعة لما اواجهه في هذه الحياة. والملاحظة التي يمكنك الاهتداء اليها بسهولة ان معظم المتدينين ينتمون الى الاوساط التي تعيش حياة منتظمة او رتيبة. وقلما يقع المرء على متدينين حقيقيين في الاوساط التي تعيش حياة مضطربة وتواجه ظروفاً متفجرة ، الا اذا كان هؤلاء من المنافقين. وأيا كان السبب فقد بدأ مشوار البعد عن اجواء المتدينين مع بداية انخراطي في اجواء الحياة المعاصرة وهمومها. ففي الاجواء الجديدة . وفي مواجهة متطلباتها المتشابكة رحت انهج نهج التفكير العقلي والمستقل الذي يتعارض مع ما يتطلبه التدين من تسليم باحكام لاءمت زماناً قديماً ولم تعد ملائمة لهذا الزمان. وقد قطعت مشوار الابتعاد خطوة خطوة. وتمت الخطوة الاولى منذ اقتنعت بأن معظم رجال الدين الذين يقيمون من انفسهم سدنة على تعاليمه وعقائده لا يمثلون بسلوكهم ما يبشرون به هم انفسهم تمثيلاً صحيحاً ومستقيماً ، لقد كانت قوة المثال ، في هذا المجال ، طاغية التأثير على الفتى الحساس الذي كنته فانتهيت ، اول ما انتهيت ، الى الفصل بين الدين ورجاله الذي يدعون تمثيله . ثم تمت الخطوة الثانية حين اقتنعت بضرورة الفصل بين الدين كعبادة توفر للانسان الامان الروحي الذي يحتاج اليه وبين التعاليم التي رسمها الفقهاء في وقت من

الاوقات بما يلائم متطلبات الحياة في زمنهم والتي يصر رجال الدين اليوم على ان يتبعها ناس هذا الزمان. ثم قطعت الخطوة الثالثة حين انتهيت الى الاقتناع بأن العبادة ذاتها شأن يخصّ الانسان الفرد وربّه فلا يجوز لمخلوق أن يتدخل فيه او يجعل منه معياراً لتقييم مكانة الآخرين او اخلاقهم. هذه القناعة توصلت اليها بعد أن عاينت بالتجربة ان كثيرين ، ممن لا أخلاق لهم وممن يتسمون بالنفعية والانتهازية ولا يتورعون عن إيذاء الآخرين ، يواظبون على اداء الصلوات الخمس ويتشددون في الالتزام بالفرائض الدينية الأخرى ، في حين أن ثمة كثيرين غير متدينين يسلكون سلوكاً مستقيماً لا غبار عليه.

وبالابتعاد عن اسر الموروث الديني ، ثم باصراري على اخضاع كل امر للمحاكمة العقلية دون تقديس مسبق ، قطعت بقية الخطوات .

في ذلك الوقت ، كان الاستاذ عبد المجيد حنونة الذي احتفظ بصلاته القديمة باسرتي يتردد علينا للزيارة . ولعلك تتذكر ان هذه الفلسطيني من اهل الفالوجة كان مديراً لمدرسة المسمية في فلسطين حين انتسبت اليها وكان ، قبل ذلك ، صديقاً لوالدي. وقد اكتشفت بعد اللجوء ان الاستاذ عبد المجيد كان عضواً في حزب البعث وصار في دمشق واحداً من الدعاة النشيطين للحزب في أوساط الفلسطينيين. وقد حاول هذا الداعية ان يجتذب اخوالي الى حزبه ، فصده نافذ الذي لا يحبّ الاشتراكيين ، وتمنع عمر الذي يكره العمل الحزبي وينفر من الانشطة السياسية. ولم يكتف غالب بالرفض ، بل امعن في التشنيع على البعثيين واتهم الاستاذ عبد المجيد بأنه لا يلتزم بالبعثيين الا لأنهم يحمونه في الوظيفة الحكومية التي يشغلها ، والتي لم تكن الا وظيفة معلم مدرسة. وكانت لغالب ، هو الذي لا تؤهله طبيعته لأي عمل حزبي او جمعي ، طريقة فظة في الحديث عن الاحزاب ، وكان يهاجمها جملة وتفصيلاً ولا يستثني من هجومه اي واحد منها ، فالاحزاب ، عند غالب ، كلّها عميلة للاجنبي ، الشيوعيون عملاء للسوفيات والقوميين العرب للاميركان والبعثيون للانجليز ، وكذلك الاخوان المسلمون والتحريريون والقوميون السوريون. اما

البرجوازيون فعملاء تتوزعهم هذه الجهات. وبفشله في اجتذاب أخوالي الكبار ، لم يبق امام الاستاذ عبد المجيد الا أن يضع أمله فيّ أنا. والحقيقة أن هذا الرجل المثابر على الدعوة للبعث راقب تطوراتي عن كثب ، سواء تطوري الفكري او علاقتي بالاسرة ، وابدى تفهماً لسلوكي في كل الحالات. ولا بدّ ان هذا الحزبيّ القديم قد لاحظ ميلي الطبيعي الى المظلومين وتعلقي الزائد بالقضية الفلسطينية . فراح يركز في حديثه معي على دعوة الحزب الى الاشتراكية واهتمامه الكبير بفلسطين ، ويضرب على هذين الوترين الحساسين ، باستمرار.

وكان بين محرري مجلة « الرأي» واحد من قادة حركة القوميين العرب في ذلك الوقت ، اسمه عدنان ، وقد نسيت اسم عائلته ، ولأمر ما اولاني عدنان هذا اهتماماً خاصاً ، وكان يتفرغ ساعات طويلة لمناقشتي كلما زرته . كنت معجباً بحماس الشاب الذي يكبرني ببضعة سنين وبأخلاقه ، وبما بدا لي من استغراقه كلية في شؤون الدعوة لعقيدته . وكان عدنان ، الى هذا ، حفيّاً بالآخرين مهذباً في تعامله معهم واسع الصدر في حواره مع من يخالفه في الرأي ، فتميز بهذا عمن عرفت من اقرانه في الحركة ممن اتصفوا بالفظاظة وضيق النفس في التعامل مع المعارضين. وبالرغم من تعلقي بعدنان واعجابي بسلوكه . فقد كنت اجد دائماً ما اعترض عليه في افكاره. كان التعصب القومي الذي يسم عقيدة الحركة يذكرني بالتعصب الديني الذي انفر منه. وكان نفور الحركة من الاشتراكية ينفرني من الحركة. أما الهوس الزائد بعبد الناصر ودفاع القوميين العرب الاعمى حتى عن السياسات التي يقرّ هو نفسه بأنه أخطأ فيها ، فكانا يغيظاني غيظاً شديداً. كنت أحب عبد الناصر كما يحبّه الجمهور كله ، ولكني انظر اليه كواحد من البشر معرض للخطأ مثلما هو قادر على اتيان الصواب ، ولا استسيغ هذه النظرة التي تجعله في مقام إله منزه عن الخطأ. ومع وجود هذا الخلاف واحتداد الحوار بشأنه احياناً ، ظلت علاقتي بمكتب « الرأي» شبه يومية ما دام عدنان فيه. ثم رحل عدنان عن دمشق ، فخفّت العلاقة ، وان ظلت لي تلك العلاقات التي توثقت

في ما بعد ، مع فضل النقيب وبلال الحسن وتيسير قبعة وزكريا ابو سنينة وداوود رحمة وعدد آخر من مجايليّ من شبّان الحركة .

وفي الفترة التي أمضيتها في انتظار نتائج الامتحانات ، ومع ما قمت به لتحديد صلتي بمراكز العمل السياسي في المدينة ، رحت أتفحص فرص الحصول على عمل دائم وافتش عمن يمكن أن يساعدني في الظفر به . وكانت أوفر الفرص المتاحة لامثالي هي وظيفة معلم في مدارس الاونروا. فقد كان قسم التعليم في الاونروا يستخدم في كل سنة عدداً لا بأس به من الحاصلين على شهادة التعليم الثانوي. وكانت شواغر عدة تتوفر في كل سنة بسبب التوسع في استحداث المدارس والصفوف وبسبب الاستقالات ، وذلك لأن عدداً من المعلمين في مدارس الاونروا كانوا يعدون وجودهم في مدارسها فرصة لاكتساب الخبرة اللازمة التي تؤهلهم للحصول على وظائف معلمين في دول الخليج برواتب أعلى ، فكانوا يستقيلون بعد سنتين أو ثلاث من العمل مع الاونروا مفسحين المجال للجدد من امثالي . وكان مدير التعليم في الاونروا، في سورية ، هو الاستاذ عبد المنعم حسن. ومن محاسن الصدف ان هذا الرجل الذي يملك ان يوظفني كان حسن السمعة يشهد الكل بنزاهته ، كما كان صديقاً لاسرتي وصديقاً لعدد آخر من الناس الذي اعرفهم ومطلعاً ، بمقدار او آخر ، على أوضاعي. كان الاستاذ عبد المنعم محسوباً على حزب التحرير الاسلامي الذي نشأ في اوائل الخمسينات واجتذب عدداً من الشبان الفلسطينيين المتدينين ، ولكنه بحكم عمله في تلك الهيئة الدولية لم يكن يجهر بانتمائه لاي حزب ، وكان معروفاً بأنه لا يعادي احداً ولا يحابي احداً. فكان املي إذن كبيراً بأن أفوز في المنافسة على الوظيفة دون أن يتأثر مدير التعليم بسمعتي كمفارق للأجواء الدينية ومناكف لأهلي. وقد وضعت حسابي على هذا الاساس ، وركزت جهدي في هذا الاتجاه.

ثم اعلنت نتائج الامتحانات. وكانت المفاجأة القاسية ان اسمي لم يظهر بين اسماء الناجحين فيها. ولست بحاجة ، بعد ، لأن اصف لك كيف كان رد فعل خالي نافذ ، هو الذي كان يترقب النتيجة لكي يقرر

مصيري. ومجمل القول أن حنق الخال عليّ بلغ ذروة لم يسبق لها مثيل، ولم ينفع اي تدخل في اطفائه. والخال نفسه هو الذي قالها هذه المرة صريحة ومجلجلة : « لا عيش لك في هذا المنزل ! » . فعل الخال هذا فور اعلان النتائج، وقبل ان تعرف التفاصيل ودون أن يتضح ما اذا كنت راسباً رسوباً نهائياً أو أن امامي فرصة في الدورة الثانية للامتحانات. ولم اجد ما يحملني على التشبث بالبقاء في المنزل، فغادرته للتوّ، وتوجهت من جديد الى الجورة. وكان سمير النقيب، صاحب الجورة، كعادته حفيّاً ومتفهماً، ثم انه كان بحاجة لي مع حلول الصيف الذي يكثر فيه العمل في المصبغة. وهكذا، حصلت على الظروف التي توفرت لي في المرة السابقة : المأوى ووجبة الطعام وسكاير المرجان الرخيصة. ولم احتجّ الى تبديل هذا الوضع عندما اطلعت في اليوم التالي على تفاصيل النتيجة. لقد اتضح اني حصلت على مجموع علامات كبير يؤهلني للنجاح لو لم تقل علاماتي في مادة واحدة عن العشرين في المائة. وكان معنى هذا ان اعيد الامتحانات في هذه المادة بعد عشرة اسابيع، انها، اذن، هذه الجغرافيا اللعينة التي بلبلت ترتيباتي، فعليّ ان استعد لها. ولا بدّ، في غضون ذلك والى أن انجح ثم احصل على عمل دائم، من أن أبقى في الجورة.

١٩

نلت الوظيفة وفاتني الانتساب إلى الجامعة

كنت هذه المرة على يقين من ان بقائي في الجورة مؤقت ، وان لم ادر كم سيطول ، وتصرفت على هذا الاساس . ولأني كنت قد صرت أكثر خبرة وأقلّ حياء في التعامل مع الآخرين ، فقد وضعت بعض الشروط المسبقة ، فكان منها ان تحددت ساعات عملي بحيث لا تزيد عن السادسة مساء ، وبحيث يكون لي الحق في مغادرة المكان كلما تعلق الأمر بالحاجة الى البحث عن عمل دائم . وقبل أبو وليد شروطي ، لا لأنه صديقي ، فقط ، ولا لأنه ادرك اني بحاجة لبعض الوقت كي استعد للامتحان القادم واؤمن عملي ، بل ، أيضاً ، لأنه يعرف اني انجز من عمل الدكان في الساعة الواحدة ما يحتاج اي أجير غيري الى ساعتين لانجازه ، وتصرف ابو وليد ، بالاجمال ، انطلاقاً من حرصه على تمتين علاقة الصداقة معي والحفاظ عليها في المستقبل اكثر من الحرص على أي شيء آخر ، فعاملني بندّية تامة وحرص شديد ، فلم يقع من جانبه ما ينفرني .

وبعودتي الى الجورة ، عادت اللقاءات والحوارات السياسية الى هذا المكان. واستعادت الجورة الجوّ الحامي الذي انعكست فيه الاجواء السائدة في البلاد المتجهة الى التوحيد مع مصر والمنخرطة في خصومات وصراعات مع عدد كبير من الاطراف العربية والدولية والتي ينشغل جمهورها ، بفئاته المتعددة ، في هذه المواضيع. وكان متحاورو الجورة باغلبهم من المؤيدين للوحدة ، وانّ اختلفت درجة الحماس بين مؤيد دون تحفظ وآخر يرغب في أن يقترن قيام الوحدة ببعض الشروط. فكان ابو داوود ، وهو على العموم رجل قليل الكلام ، من الفريق الثاني . وكان لا يدلي الا بملاحظات قليلة اثناء الحوار ، الا ان ملاحظاته كانت كافية للتدليل على موقفه ، فهو يرى أن سورية حققت درجة متقدمة من الديمقراطية تفوقت بها على مصر وتمثلت أكثر ما تمثلت بحيوية التجربة الحزبية فيها. ومع حرصه على القول ان الأمر لا يعنيه مباشرة فهو غريب عن البلد ، كان أبو داوود مستاء لأن عبد الناصر يشترط حل الاحزاب السورية كافة قبل إتمام الوحدة كما كان يؤكد أن الاصوب لنجاح الوحدة ذاتها ان تبيح مصر من جانبها نشاط الاحزاب بدل الغائه في سورية. اما الحاج نجدت فكان له شأن آخر وكان موقفه من المسألة معقداً. فمما لا شك فيه أن الحاج نجدت كان مع الوحدة ولم تكن قضية الديمقراطية التي يثيرها ابو داوود مستحوذة على اهتمامه . ولكن الحاج كان متأثراً بشيء آخر ، او قل بشيئين اثنين آخرين. فإن خصومات سورية المحتدمة مع السعودية ودول الخليج الاخرى ، وهي خصومات اججها ميل سورية الى التعاون مع هذه البلاد ، ادت الى تضاؤل في العلاقات التجارية معها ، فقلت فرص العمل امام الرجل الذي يرتبط عيشه بنقل البضائع الى هذه الدول . ثم ان الحاج كان يعرف الاجواء المحيطة باخيه الغنيّ المتنفذ ويراقب ما يدور في هذه الاجواء مراقبة دقيقة. وكان الحاج يرى أن اغنياء البلد يظهرون تأييدهم للوحدة. لا لشيء الا لعجزهم عن الوقوف في وجه التيار المندفع نحوها ، لكنهم يضمرون اسوأ النوايا إزاءها. وكان الحاج يؤكد أن هؤلاء الاغنياء سوف يستثمرون رغبة عبد الناصر في منع نشاط الاحزاب مؤملين ان يشجعوه على الاصطدام مع الشيوعيين والبعثيين الذين يتسع

نفوذهم في سورية وهم يعولون على مقدرة عبد الناصر ، ذي الشعبية الواسعة ، في القضاء على دعاة الاشتراكية هؤلاء ، لكي يخلو الميدان لهم بعد ذلك فيتحكموا في البلد بعد أن يتخلصوا من اعتى خصومهم . ولم يكن الحاج نفسه يحبّ البعثيين او الشيوعيين ، لكنه كان يتخوف من مغبّة الصراع الكامن الذي يعتقد ان البلاد ستشهده ، ويتخوف ، أكثر من ذلك ، من انتصار الاغنياء الذين ينتمي أخوه اليهم ونجاح خطتهم في دفع الاشتركيين والناصريين الى التطاحن . أما الآخرون في الجورة ، ابو وليد واصدقائي من المتعلمين وأنا ، فكنّا نصغي الى هذه التحفظات لكننا لا نقيم لها وزناً كبيراً . كان ما يدفعنا الى تأييد الوحدة هو الحلم برؤية دولة العرب القويّة الكبرى ، ولا يشغل بالنا ، بعد ذلك ، أن هذه الدولة ديمقراطية او غير ديمقراطية. بل ان « أبو وليد » كان في مناقشته للتحفظات يندفع الى حدّ المطالبة بوضع كل الامور في يد عبد الناصر وحده. كان ابو وليد مؤيداً ، على نحو ما ، لفكرة المستبد العادل التي راجت في تلك الايام ، وكان يكرر الحجج التي يلتقطها من افوه المدافعين عن هذه الفكرة ، ويجزم بأن الديمقراطية لا تليق بالعرب ، ويؤكد على أن أمة العرب بحاجة الى مستبد عادل يقود نهضتها ويدفعها دفعاً الى توحيد بلدانها. وكان ابو وليد يرى ان كل ما في عبد الناصر يؤهليه للعب هذا الدور ، وليس على المخلصين للوحدة الا أن يطيعوه . شخص واحد من متحاوري الجورة كان يجهر بمعارضته للوحدة جملة وتفصلاً ، ذلك هو سائق الضابط السوري القومي المتقاعد ، كان هذا السائق يسخر صراحة من حماسنا للوحدة العربية ويحنق حين نواجهه بحججنا وينذرنا بأن الوحدة ان قامت فانها لن تدوم.

أما الزبائن الذين يترددون على الجورة بين وقت وآخر ، وهم على العموم من ابناء الفئات الميسورة ، فكانوا يصغون الى نتف من حوارنا الصاخب دون أن يتدخلوا فيه ، ويحتفظون على وجوههم بتعبيرات غامضة وابتسامات لا يبين مغزاها على وجه اليقين.

وفي الشارع ، كان الجمهور الواسع متعطشاً للخلاص من الوضع الذي

يحيط به والثأر من كل المهانات التي تعرض لها الوطن على ايدي حكامه البرجوازيين. وكان الجمهور يرى في عبد الناصر رمزاً للكرامة الوطنية ويرى في الوحدة الكماشة القوية التي ستحيط باسرائيل وتلجم قدرتها على العدوان.

في غضون ذلك ، بقي علي ان اواصل العمل في غسل الملابس وكيّها ، واتابع البحث عن فرص العمل الدائم واتهيأ لامتحان الجغرافيا القادم. ومع تجدد آلام المفاصل واشتدادها ، صعب علي أن اواصل المبيت في الجورة ، وتوجب علي أن أبحث عن مكان اقامة يدخله الشمس والهواء الطازج. وقد اهتديت الى حجرة في منزل طيني في طرف المدينة على اول الطريق المؤدية الى برزة فاستأجرتها ، وكانت تلك واحدة من ثلاث حجرات يضمها المنزل المتواضع. ولم يكن في المنزل ماء أو كهرباء ولا حتى حمام او مرحاض. كل ما في الامر ان الحجرة ، بخلاف الجورة ، كانت فوق الارض. وان الشمس كانت تشوي طينها طيلة النهار. وكانت الحجرة هي المأوى الذي أجيء اليه في الليل واغادره في الصباح الباكر فيوفر لي مضجعاً امدّ جسدي عليه براحته. لقد حلّ وجود هذه الحجرة ، اذن مشكلة النوم ، لكنه لم يحل مشكلة مذاكرة الدروس او استقبال الأصحاب الذين بقي عليّ ان أزورهم دون أن اتمكن من دعوتهم لزيارتي. والحقيقة أني اهملت التحضير للامتحان مع انتقالي الى هذه الحجرة. وحتى حين تسنى لي ان امضي بعض ساعات يوم الجمعة في المنزل ، فقد انجذبت الى مخالطة الجيران الطيبين الذين اكتشفت انهم يشغلون حجرتيه الاخريين. ثم جاء الفرج على يد فايز ، وكان فرجاً واسعاً في حقيقة الأمر. فقد اكتشف فايز مكاناً مدهشاً نستطيع أن نذهب اليه في أي وقت نشاء ، ولم يكن هذا المكان أقلّ من فيلاً فخمة قائمة وسط بستان من اجمل بساتين الفاكهة في غوطة دمشق ، على الطريق المؤدي الى جرمانا. وبوجود هذه الفيلا التي تتوفر فيها وسائل الاقامة المريحة كلها حلّت مشاكلنا جميعاً في ذلك الصيف الحاسم. ولا بدّ انك متشوق لمعرفة الطريقة التي وجد فيها فايز هذه اللقية النادرة ، فاليك بيان الأمر ، مع أنه

أشد بساطة من ان يثير الدهشة. كان لفايز جار من أهل الطيرة، رجل عجوز عرك الحياة وعركته وخبر طيبها وشرّها، ثم انتهى الى نوع من التدين الذي يريحه هو نفسه دون أن يجعله متعصباً ضد اي سلوك آخر. وكان أبو عادل يعمل ناطوراً للبستان الذي تقع فيه الفيلا. وكان اصحاب البستان يستخدمون فيلتهم هذه في الايام التي يهربون فيها من صخب المدينة وينشدون الراحة او الخلوة ويتركونها، في ما عدا ذلك، في رعاية الناطور الذي يثقون به ثقة تامة. ثم حدث ان غادر اصحاب الفيلا البلاد لسبب لم نتشدد في استقصائه، وان بدا لنا انه سياسي، وتركوا أمرها كليّة لناطورهم الأمين وتركوا له المال اللازم لرعايتها لتظل جاهزة لاستقبالهم حين يتمكنون من العودة. وكان فايز قد نجح في اكتساب ود جاره « أبو عادل » فلما شغرت الفيلا دعاه هذا لاستخدامها من أجل الدراسة عندما يشاء. وهكذا، رحنا نلتقي في هذه الفيلا، فايز وأنا واصحاب آخرون يحضرون مثلنا للامتحانات، كل مساء، وكان وجودنا يؤنس الرجل العجوز ويسعده، فهو يوفر الرفقة في هذا المكان المنعزل، ويتيح له التعرف على زهرة شباب البلد، كما كان يقول.

انطبعت شخصية هذا الرجل في ذهني انطباعاً قوياً بحيث يصعب ان يمحى. كان ابو عادل في الطيرة مزارعاً وصياداً وفي اوقات الثورات كان مشاركاً نشيطاً فيها، اما في اوقات الركود فقد عرف طريقة الى اماكن المتع في عكا ويافا وحيفا وعاين مباذلها جميعاً. لما فقد ابو عادل هذا كلّه دفعة واحدة وأرغمه اللجوء على الاستكانة في منزل للسكن المشترك في حيّ اليهود في دمشق، عجز الرجل المنكوب عن تفسير اسباب نكبته، ثم انتهى الى التسليم بأن كل ما يقع في الدنيا انما يتم بارادة الرب الذي ينطلق في سلوكه وتدابيره عن حكمة خاصة يعجز الخلق عن استكناه طبيعتها. وكان ابو عادل يعزو لارادة الرب ما هو حسن وما هو سيء مما يشهده الناس، ويرى ان للخالق في ما يقدم عليه اسباباً تخصه هو وحده وتكون عادلة في كل الاحوال حتى حين يراها الناس على غير ذلك. وكان هذا الرجل على يقين من ان ما نراه سيئاً او ضاراً سيتكشف عن طبيعة

خيره لو عرفنا سره ، علماً بأن الرب يحتفظ بالسر لنفسه ، ولا يبقي للمخلوق الا ان يقبل ما يراه. وبمعتقدات كهذه المعتقدات ، كفّ ابو عادل عن لوم احد من الناس ، فالفاسدون من الناس فسدوا لأن للربّ غاية وراء فسادهم ، فلا يجوز ان نتورط في لومهم لأنا بهذا نقف ضد الارادة الربانية.

وكان للرجل طريقة متميزة في عرض آرائه .فهو يعرض اعقد الاحكام بثقة توحي بأنها بديهيات بسيطة غاية البساطة ، فيما يعرض الاشياء البسيطة على نحو يوحي بأنها غاية في الغموض ، ويحيط اقواله في كل الحالات بايهامات تترك لدى السامع انطباعاً بأن محدثه تمكن من التوصل الى تفسيرات سرية لا يتوصل اليها غيره . واذا استقصيت « ابو عادل » عن الخفايا التي يوحي حديثه بأنه يعرفها ، فلن ينكر معرفته بالخفايا ، لكنه سيقول لك بوضوح إنه ليس في حل من الافشاء بالاسرار الربانية.

وكنّا نجدنا منجذبين الى الدخول في حوارات مع هذا الرجل البسيط الذي يسربل نفسه بالاسرار ؛ كنّا نتعمد ان نفرض امامه حالات خارقة ونطلب منه شرحاً لها وفق نظريته. وبكلمات اخرى ، كنّا نستدرج الرجل الى الحوار لعله يقع في ما يظهر عدم تماسك هذه النظرية. ولكن الايقاع بهذا الرجل لم يكن سهلاً أبداً ، فالتسلح بطرفي المسألة ، اليقين البسيط والسرّ الذي يعرفه الرب وحده ، يبيح له أن يخوض في أي موضوع دون ان تزعزعه المتناقضات . كنّا نورد حالة شخص فعل الافاعيل ، كذب وغش وسرق وقتل ، ونسأل « أبو عادل» : كيف يمكن ان يكون في هذا خير وأن يتم بارادة رب العالمين ؟ ! فما كان ابو عادل يضطرب او يتلجلج ؛ كان يزوغ بعينه كأنه يستلهم مصادره الخفيّة ، ثم يتحفنا بتفسير . وقد ذكرت له مرة حالة الابله الذي عرفته في الجامع الاموي والذي اسمه « سوّست» ، وكان هذا الأبله عجوزاً تامّ البله يمضي نهاره في الجامع متنقلاً من ركن الى آخر ، او في الاسواق المحيطة بالجامع ، تصحبه قذارة بدنه وثوبه الفضفاض الذي لا يتبدل ولا يغسل. وما كان الابله يفعل شيئاً سوى مناكفة الآخرين او مواجهة مناكفاتهم ، ثم تساءلت : لماذا يتعمد الربّ ان يجعل

مخلوقاً من مخلوقاته تائها وأبله وقذراً ومزعجاً وان يكون في الامر خير لأحد؟ يومها أدلى ابو عادل بواحد من اطرف آرائه الباقية في ذهني ، فعل ذلك بعد ان اكتسى وجهه بسماحة تظهر ان الرجل مقدم ، من أجل خاطري فقط ، على البوح بسر خطير ما كان ليبوح به لولا اعزازه الشديد لي ورغبته في اقناعي وحرصه على تحريري من شكوكي التي لا لزوم لها. فالبلهاء ، كما شرح ابو عادل. هم المخبرون السرّيون الذين ينقلون الى السماء التقارير عن احوال الناس ، وهم مأمورون بالتظاهر بالبله حتى لا يثيروا الريبة فيأمن الناس لهم ويتصرفوا امامهم دون تحفظ.

وقد ذكرني ابو عادل ، وهو يبسط رأيه هذا ، بما يفعله مخبرو أجهزة الامن ، حين يكون الواحد منهم ضابطاً في الجهاز فيتزيّا بزي درويش ، او يقف وراء بسطة لبيع الخضار ، او يظهر للناس بمظهر ريفيّ ساذج ، ولا يبدو على حقيقته اثناء القيام بوظيفته ابداً. واسترسل ابو عادل في ضرب الامثلة التي من هذا النوع لكأنه مطلع ، فعلاً ، على أحوال مخبري السماء والارض ، وسألني بعد ان ظن أنه اطفأ شكوكي : « هل تعرف انت اين يذهب سوست في الليل ؟ » ، وكان عليّ ، وانا أتصور الاجابة التي يقودني ابو عادل للاقتناع بها ، ان اوقن بأن الابله يذهب بعد ان يهجع الناس الى حيث يقدم تقريره الى ربّ السماء ،

وكنّا قد اكتشفنا في قبو الفيلا مستودعاً منسياً للخمور فسطونا ، بالطبع ، على قنانيه . فعلنا ذلك اولاً بأول ، وظننا ، في البداية ، ان من الضروري ان نخفي الأمر كي لا ينزعج ابو عادل .فصرنا نحمل القناني الى السطح ونتظاهر بالحاجة الى الراحة من عناء الدراسة فنقصف دون اضاءة بعيداً عن عيني الناطور. لكن الرجل ظهر على السطح ذات مساء وتقدم نحونا بخطواته المتئدة وحيانا بنبرته الودودة المألوفة وجلس معنا ، فلما لاحظ اننا كففنا عن الشرب قال ببساطة : « أكملوا ما بدأتم به ! » ، ولما تيقن من اننا عدنا الى الشرب هتف بالنبرة الخاصة التي يستخدمها حين يفسر الاشياء الغامضة : «شفتم ! ؟ اراد الله ان يوفر لكم الانبساط ، فألهم اهل الفيلا ان يتركوا الكثير من القناني في القبو» ، وشجعتني

ملاحظته فقلت ساخراً : « والهمك انت أن تغض الطرف عن سرقتنا لها» ، فلم يؤخذ بسخريتي ، بل قال بصوت عميق : « يفعل الله ما يريد ، فمن انا حتى اعترض على ارادته ! ».

وبالرغم من توزع اوقاتي على مشاغل عدة ، لم يخل الامر من متع اخرى ، غير متعة الحوار مع ناطور الفيلا ، اتيحت لي في ذلك الصيف الذي تحررت فيه مرة اخرى من رقابة الاهل. وقد بدأت اكتب الشعر في تلك الفترة ، لا لأني انست في نفسي موهبة شعرية ، بل لأني اعتقدت بأن من عانى الهموم التي عانيتها وكانت لديه القدرة اللغوية على التعبير لا بد ان يصير شاعراً . كنت في البداية اخلو بنفسي في الليل او النهار في ركن ما منزو واعتصر نفسي اعتصاراً ، فافلح في نهاية المطاف في صياغة ابيات موزونة ومقفاة . ثم صارت العملية اقلّ ايلاماً واكثر سلاسة وصار بالامكان ان اكتب قصيدة تعجبني وتعجب اصدقائي. وشاع الأمر بين الاصدقاء. فجاءني منهم من يطلب ان اعد قصيدة غزل ليهديها الى محبوبته. واتذكر ان خالد ذكرى كان ممن طلبوا قصائد الغزل. وكان خالد قد علق فتاة مسيحية اسمها نادية ، تعرف عليها في الحي الذي اعمل فيه ، في احدى زياراته لي ، وكنّا هو وأنا نتمشى في شارع حلب عندما وقعت عينه عليها قريباً من منزلها ، فخصها بعبارة ملاطفة فأجابته بابتسامة ، وانتهى الى الاعتقاد بأنها تحبّه ، فأحبّها . هذا الحبّ استتبع ان نجتمع ، نحن اصدقاء خالد ، صباح كل احد قرب دار الفتاة وننتظر خروجها مع امها في مشوارهما الاسبوعي الى الكنيسة ، فنسير قريباً منهما ونتحدث بصوت عال متيحين لخالد ان يوجّه رسائله غير المباشرة للفتاة ، ثم ندخل الكنيسة ونهدأ الى ان تتم مراسم الصلاة لنعاود الكرّة في مشوار العودة. ولما ظفر خالد باول قصيدة مني ، تجرأ واندس بين الحشد في لحظة ولوج باب الكنيسة ودسّ القصيدة المكتوبة بخط يدي في يد فتاته ، وكان ان نفعت هذه القصيدة ، اذ ان خالد تلقى رسالة جوابية حارة. وتكرر الأمر الى ان فطنت ام الفتاة لزعرنات اولاد المسلمين الذين هم نحن ، ولم تعرف الأم من منّا بالضبط هو المتعلق بابنتها ، فشكتنا ،

جملة ، الى الخوري. وكان أن نوّه الخوري في موعظته بوجودنا في الكنيسة واستنكر استغلالنا لها لغير الغرض الذي اقيمت من اجله. فعل الخوري هذا بصورة غير مباشرة ودون ان يشير الينا ، ولكننا ظننا أن كل رواد الكنيسة عرفونا ، فاختفينا للفور ولم نعاود الكرة. وخفت انا من ان تقع القصائد في ايدي اهل الفتاة وهي مكتوبة بخط يدي فاعلق في المشاكل ، فانسحبت من القصة كلها وتوجب على خالد ان يدبر شؤونه ، بعد ذلك ، بغير شعر.

مازن النقيب وهو الأخ الاصغر لصاحب الجورة سمير ، فطن هو الآخر لمقدرتي الشعرية. وكان مازن مهووساً بكتابة الاغاني لمطربي الاذاعة ومستعداً لعمل اي شيء كي يقبلوا واحدة من اغانيه ، لكنه لم يفلح في تقديم اغنية مقبولة ، فهو لا يعرف الاوزان ولا يتقن قواعد اللغة وعباراته ، على العموم ركيكة. واهتدى مازن اليّ بين كثيرين حاول ان يحصل على مساعدتهم لكتابة اغنية. كان مازن يدعوني الى الاماكن الفخمة التي لا يسمح لي دخلي بالجلوس فيها ، وكان يبذخ في الانفاق فيطلب افخر انواع العرق وأغلى الأطباق ، وحين تعمّ النشوة يبدأ بحثّي على الكتابة ، فيقدم الفكرة فاصوغها انا موزونة ومقفاة الى ان يتم له ما يعده قصيدة. وكلما رفضوا في الاذاعة واحدة من هذه القصائد. كان مازن يعاود الكرّة معي فيتسنى لي ان استمتع ببذخه من جديد. فلما تكرر رفض الاذاعة للقصائد التي نكتبها عل هذا النحو ، خطا مازن خطوة جديدة ، فطلب منّي أن أعطيه قصائد مما اكتب لنفسي دون تدخله ، وقال انه سيقدمها لأصحابه في الاذاعة باسمي. فتحمست ، بالطبع ، لهذا العرض ، وانتقيت عدداً وفيراً من القصائد الغزلية والوطنية وسلمتها لمازن ، ورحت احلم باجواء الشهرة التي ستتوفر لي عندما يذاع اسمي في الراديو وابالغ في استحضار الاوهام حتى انني تصورت ان شهرتي ستفوق شهرة احمد رامي ذاته . وجاءني مازن بعد ايام ، وقال انهم في الاذاعة تسلموا القصائد ووعدوا بدراستها ، فسلمته دفعة جديدة كنت قد اعددتها في تلك الايام ، واتسعت آمالي وكبرت الأوهام فتصورتني وانا أبز احمد شوقي وافوقه شهرة.

في غضون ذلك ، امكن أن أحلّ المعضلة مع مادة الجغرافيا ، فظفرت بالشهادة الثانوية ، وصار عليّ أن اركز جهودي على امرين : الانتساب الى الجامعة والحصول على الوظيفة الدائمة. كان الوقت الذي خصصته الجامعة لتسجيل الذين نجحوا في الدورة الثانية من الامتحانات قصيراً ، فصار علي أن اتدبر الأمر في غضون أيام قليلة. لم يكن التعليم العالي أيامها مجانياً ، ولا كنت املك المال الكافي لدفع الرسوم المطلوبة ، وكانت هذه ، اذا حسبنا رسوم التسجيل والقسط الاول ، تبلغ مائة وخمسين ليرة ، وكنت بحاجة الى خمسين ليرة اخرى كرسم لاستخراج الوثائق العديدة المطلوبة من اجل التسجيل. وكان لا بدّ اذن ان استدين ، فمن الذي يُدين اجير دكان لا يزيد دخله الشهري عن اربعين ليرة مبلغاً كبيراً مثل هذا المبلغ ؟ . لقد اقرضني ابو وليد ما يعادل اجرة شهر مقدماً ، وكان هذا هو كل ما قدر عليه الرجل الموكل بعائلة كبيرة والمطالب بالانفاق على عدد كبير من التلاميذ من ابناء العائلة . وتضافر الحاج نجدت وابو داوود فجمعا لي ما اكمل المبلغ الى مائة ، فشرعت في استخراج الوثائق حتى استكملتها وحملت مبلغي ورحت اجوب من مكان لآخر بحثاً عمن يقرضني مائة ليرة.

كان هايل من سوء حظي خارج البلد ، وقد خجلت من ان اتوجه الى احد اعمامه القادرين على اقراضي ، في غيابه. وعزّ عليّ ان أتصل باهلي في تلك الظروف ، أنا الذي لم أزرهم طيلة الصيف. وعزّ عليّ ، بالتالي ، ان اقصد اياً من معارف أهلي. وسأتعبك معي لو رويت لك كل ما فعلته بهدف الحصول على الليرات المائة . فيكفي ان تعرف ان الابواب كلها اقفلت لسبب أو لآخر كأنما بفعل فاعل . وانتهى الوقت المحدد للتسجيل ، دون ان اتمكن من الانتساب للجامعة .

اما الوظيفة ، فكان قسم التعليم في الاونروا قد استوفى حاجته من المعلمين الجدد من بين الناجحين في الدورة الاولى. وكانت المدارس قد استهلت العام الدراسي. ولم يبق لي الا ان انتظر شغور مكان بالصدفة. لقد تقدمت بالطلب اللازم وارفقته بالاوراق اللازمة. وحصلت على وعد

بأن يأخذوني للعمل عندما يتوفر اول شاغر في احدى مدارس الاونروا ، وما كان بمقدور احد ان يحزر متى سيتوفر هذا الشاغر.

كان البحث عن وظيفة اخرى يتطلب وقت فراغ طويل. فالعملية مضنية حين تأخذ في الحسبان العدد القليل من الوظائف المعروضة وضخامة الباحثين عن وظائف . ولم يكن بمقدوري ان اجد مثل هذا الوقت دون ان يؤثر الامر على التزاماتي في الجورة ، فكان عليّ أن اوازن بين هذا وذاك ، واعتمد على حسن تفهم صاحب الدكان. وكانت مشاعر هذا الرجل موزعة بين استفادته ، كرب عمل ، من وجودي في دكانه ورغبته ، كصديق لي ، في أن احصل على عمل أفضل. وكان ابو وليد يطلقني لحاجاتي خارج الدكان ، تارة ، دون تذمر ، ولا يملك ، تارة اخرى ، ان يمنع نفسه من التذمر.

طرقت ابواباً عدّة ، ونشدت مساعدة ناس كثيرين كي يزكوني لدى القادرين على التوظيف ، وحصل لي سمير على بطاقات توصية من زبائنه المتنفذين. وزودني الدكتور ممدوح حقي ، وهو الذي درسني الادب العربي في المدرسة واستقبلني في داره كصديق ، ببطاقات توصية عديدة منه. وبذل الاستاذ نمر المصري ، من موقعه كمسؤول في مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين ، جهوداً دؤوبة لمساعدتي . لكن ، وسائطي كلها كانت أقل نفوذاً من أن تؤثر على اصحاب القرارات. وكان من المتعذر الحصول على وظيفة خارج الاونروا دون واسطة فعالة. والفعالية ، في هذا المجال ، لها مفهوم محدد : أن يكون المتوسط لك قادراً على تقديم خدمة مقابلة لمن يوظفك .

وأتذكر مرة حملت فيها بطاقة توصية من الدكتور ممدوح حقّي الى محافظ دمشق يزكيني فيها الدكتور لوظيفة في المحافظة. يومها اصلحت شأني بقدر ما استطيع ، فحلقت شعري ، ولمعت الحذاء ، ولبست البذلة ووضعت ربطة العنق على قميص ابيض منشى الياقة ، وفعلت كل ما اقدر عليه لابدو في مظهر لائق. وبهذه العدّة ، توجهت الى مكتب المحافظ جاهداً في أن أحيط نفسي بمظاهر الأهمية. واستقبلني سكرتير المحافظ ،

وحمل البطاقة الى سيّده ، وعاد ليقول لي : « ارجع الينا بعد أيام » . ولم انصع لهذه العبارة التي اعرف مغزاها معرفة تامة ، بل تشبثت بضرورة رؤية المحافظ للتو ، وقلت للسكرتير ان لديّ ما أبلغه الى رئيسه وجهاً لوجه ولن انصرف قبل أن أراه. وفي النهاية ، أذن لي ان أرى المحافظ بعد ساعات من الانتظار. وقد استقبلني الرجل من وراء مكتبه وهو جالس بنظرة رازتني وقدرت قيمتي ، ثم قال مصطنعاً الحاجة الى التذرع بالصبر : « ما الذي تريد ان تقوله لي » . ووجدتني مدفوعاً لقول كل شيء بجرأة وانطلاق ، فحدثته عن حاجتي للوظيفة وثقتي بأني أهل لها واستعدادي للتفاني في العمل ، وذكرت ما قاله لي الدكتور حقي في وصف المحافظ من انه رجل متفهم ، وقلت اني تشبثت بمقابلته معولاً على تفهمه وليس على الواسطة التي ارسلتني له. لقد لاحظت ان الرجل الذي بدا برماً بحديثي في البداية انتهى الى الاصغاء الي بانتباه ، بل انه صرف سكرتيره ودعاني الى الجلوس وطلب لي قهوة. وقد تركني الرجل لافرغ كل ما في جعبتي ، ثم قال ، وهو يرسل لي نظرة خلت من الاستهانة : « تدهشني جرأتك ، وتعجبني هذه الفصاحة ، ولذا فاني سأتكلم بصراحة كما تكلمت أنت».
وكان في ما قاله لي هذا المحافظ درس حفظته منذ ذلك الوقت. فقد اقرّ الرجل بأنه لم يشغل الوظيفة التي هو فيها الا لأنه خدم ويخدم الذين وفروها له ، « الدنيا هكذا ، حكّ لي فأحكّ لك ! فما الذي يملك الدكتور حقي ان يفعله لي ان وظفتك بناء على وساطته ، بصراحة : لا شيء ! وهو حتى ليس عضواً في حزبنا». واقر المحافظ بأن لديه فعلاً شاغراً يلائمني ، لكنه ذكر لي ان عنده خمسة اشخاص مرشحين لهذا الشاغر وقد جلب كل منهم توصية من ناس متنفذين ، « فكيف تريد ان اتخطاهم واوظفك ، انت الذي تجيئني بتوصية من الدكتور الذي لا هم له الا شتم الحكومة ! » . وفي ختام المقابلة ، وقف الرجل وقال لي بمودة : « سلم لي على الدكتور ممدوح وقل له : اني اقرأ كتبه واقدرها ، وسوف ازوره لاحدثه عن كتابه الاخير عن الامير عبد القادر الجزائري . وخذها نصيحة مني واسترح : لن تجد وظيفة في الدولة بوساطة مثل هذه الوساطة ! » .

وأتذكر زيارة اخرى قمت بها ، هذه المرة ، لادارة الشركة الخماسية مزوداً ببطاقة توصية موجهة لمسؤول في هذه الادارة ، اغلب الظن انه كان مدير الموظفين . كان صاحب البطاقة رجل اعمال مرموق من زبائن الجورة. وكان سمير قد الح على هذا الرجل في الرجاء حتى يسند طلبي للحصول على وظيفة في الشركة. وعندما جئت الى الادارة استقبلني المسؤول المقصود بشيء من الاهتمام. وقال ان سعيد بك ، وهذا هو اسم صاحب البطاقة ، قد كلمه بشأني . فتفاءلت كثيراً . وكتب المسؤول ورقة ناولني اياها ووجهني الى حيث ينبغي ان اذهب لاستلام العمل ، فشكرته باطناب وحملت ورقتي وخرجت متعجلاً قبل ان اعرف ما فيها ، الا ان فرحتي غارت عندما قرأت هذه الورقة ، لقد وجهني هذا المسؤول الى مراقب عمال لأنضمّ الى ورشته كعامل مبتدىء بأجر مقدراه ليرتان ، وكانت تلك هي الورشة التي تتولى صبغ القماش بالالوان. وتوقعت ان يكون في الامر سوء تفاهم ، فرجعت الى ذلك المسؤول وراجعته في الأمر مبيناً اني ارغب في الحصول على وظيفة ادارية تلائم شهادتي الثانوية ، فنظر اليّ الرجل بدهشة انسان وجيه تقدم صعلوك لطلب يد ابنته ، وقال غير ملزم نفسه حتى باخفاء استهانته بي : « وظيفة ادارية لك ؟ من انت حتى تطلب وظيفة ادارية في الشركة الخماسية ! سعيد بك طلب منّا ان نشفق على حالك ، وها أنت تتبغدد ، صحيح ان اهل الحياء ماتوا!» ، ثم نتش ورقته من يدي ومزّقها بعصبية ، وهتف وهو يشير لي ناحية باب الخروج : « لماذا لا تنتظر حتى يشغر منصب رئيس الجمهورية ، انه سيشغر قريباً ، على كل حال ! » .

اقبل الخريف بزوابعه ، ثم حلّ المطر والبرد. وكنّا قد كففنا عن استخدام الفيلا منذ انتهت الامتحانات ، فلم يبق لي الا الاقامة غير المريحة في الحجرة الطينية والتوتر الذي يهصر اعصابي ليل نهار. وساءت حالتي النفسية واشتدت عليّ آلام المفاصل ، وتركزت بؤرة الالم في المفصلين اللذين يصلان الفخذين بالحوض ، فصرت امشي بصعوبة وقد فقدت استقامة القامة. ومع أني احتفظت بصلاتي بمن يتوسطون لايجاد وظيفة

لي فقد قللت من زياراتي لهم. منذ بتّ اشعر اني اثقل عليهم بحاجتي التي لا يجدون لها حلاً. استثنيت من هذا الاستاذ نمر المصري . فهذا الانسان المتفهم ، المفرط في الأدب ، ما كان يضيق بمراجعة طلاب الحاجات له ابداً ولا يستاء من الحاحهم. وقد دأبت على أن ازور الاستاذ نمر بانتظام ، وكنت اطلعه على كل ما يجد لي من عروض وخيبات أمل. وفي واحدة من زياراتي لمكتبه وقد بسطت له آخر محاولاتي الفاشلة ، قال الرجل ان لديه ، هو شخصياً ، ما يعرضه علي ، واذا كان قد تردد في عرضه حتى الآن فلأنه امل في أن أظفر بشيء افضل. وحين قلت اني صرت مستعداً لقبول اي شيء يحررني من العمل في الجورة الذي لا يلائم صحتي ، تشجع الاستاذ نمر واظهر ما بحوزته.

كانت المؤسسة العامة للاجئين تقدم شيئاً من العون للمدارس التي يتعلم فيها ابناء الفلسطينيين في الاماكن التي لا يشكل هؤلاء فيها عدداً كافياً يحمل الاونروا على افتتاح مدرسة لهم. وقد اتضح ان هناك قرية على الطريق الذي يصل دمشق بدرعا اسمها « الدلي » حيث يعيش بعض الفلسطينيين . وقد الفت المؤسسة ان تساعد مدرسة هذه القرية بمعلم واحد تدفع المؤسسة أجره. وفي العام الذي كنّا فيه ، ارسلت المؤسسة المعلم الموعود لكنه ترك لأن ظروف العمل لم تلائمه ، فالمكان شاغر ومن الممكن ان احلّ فيه فوراً. شرح الاستاذ نمر هذا كله بنبرته الهادئة ، ثم صمت لحظة وقال : « اخشى الا يلائمك العمل انت الآخر».

ولما ابديت دهشتي ازاء ملاحظته ، هو الذي يعرف اني اجتهد للحصول على وظيفة معلم ، قال ان المعروض ليس وظيفة وليس لدى المؤسسة ميزانية لوظيفة معلم ، ولكنه عمل ضئيل الأجر. فالمؤسسة تدفع لمن ترسله الى المدرسة مائة ليرة شهرياً وتسجل المبلغ بوصفه هبة يتلقاها المعلم تصرف من ميزانية معونات الطوارىء ، فلا يترتب لصاحبها اية حقوق عمل من أي نوع. ولأن الانظمة تحدد سقفاً لا يجوز للهبات التي تمنح لشخص واحد أن تزيد عنه ، فالعمل مؤقت. هنا ، وقد لاح شيء ما

ملموس ، تشبثتُ بالعرض ، وقلت لمحدثي أني اقبل هذا العمل ، ورجوته ان يؤمنه لي. ولم يؤخذ الاستاذ نمر بحماسي ، بل واصل الحديث بنبرته الهادئة : « عليّ ان اكرر ، انت لا تعرف الدلي ، ليست هذه مكاناً للعيش لمن الف العيش في دمشق ، واحسن دورها ليست أفضل من الحجرة التي تقيم فيها. ثم ان استمرار العمل غير مضمون ، فقد تنضب هبات الطوارىء في اي وقت فلا يظل عندنا ما ندفعه لك » . لكنني كنت قد تعلقت بالفرصة السانحة ، فما عاد لأي تحذيرات ان تثنيني عنها. ولما تيقن الاستاذ نمر من أني موافق بالرغم من كل الشروط ، قال العبارة التي يستخدمها عندما يحزم امره : « على بركة الله » . واصدر تعليماته باعداد الاوراق اللازمة. وعندما تمت الاوراق وسلمني اياها ، قال الاستاذ نمر : « اذهب الى الدلى ، ولتكن هذه تجربة لك ! » . ثم تعهد بأن يتابع طلبي لدى الاونروا بنفسه ، « فالعمل عندهم أضمن ، والراتب معتبر » .

بعد يومين من هذا الحديث ، كنت محشوراً في الباص المتجه الى درعا وانا ألملم ثيابي حول بدني اتقاء لبرد الصباح الخريفي الذي يتسرب من اسفل المقاعد ويقلق هجعة الركاب الذين تحمل وجوههم بقايا النوم. وعند نقطة خالية على الطريق ، توقف الباص وهتف السائق : « الدليّ » ، فادركت اني انا المقصود ، وتساءلت مندهشاً : « اين هي هذه الدلي ! ؟» ، فاشار السائق الى تبّة على مبعدة كيلومتر من الطريق لا تكاد تظهر وسط الضباب الذي يلفها وقال : « هي هناك ، على التبّة » ، وبدا برما ازاء ترددي ، فتعجلت النزول من الباص قبل ان اتيقن من وجود شيء على تلك التبّة . كانت الريح تعصف في السهل المفتوح عل كافة الأرجاء ، وتعبث بالمطر المنهمر فتسفع وجهي بالبرودة والرذاذ . وكنت احمل حقيبة غير كبيرة فجعلتها فوق رأسي لأتقي المطر ، ورحت ابحث عن بداية الدرب المفضي الي تلك التبة اللعينة. وبعد بحث طويل ، وقعت على ما يمكن ان يكون درباً للمشاة غمر الوحل المجلل بالماء معالمه فكاد يخفيها تماماً. وخوضت في الوحل فغاص الحذاءان فيه حتى امتلأ بالماء والطين فتعذر عليّ متابعة الخطو بهما فخلعتهما وحملتهما بيد فيما بقيت ممسكاً

بالحقيبة باليد الأخرى. وتابعت التخويض حافياً بعد ان شمرت ساقيّ البنطلون الى الركبتين ، واكملت المشوار. وعلى هذا النحو ، دخل المعلم الموفد من مؤسسة اللاجئين الى قرية الدلي ، موحلاً ومبلولاً تقطر ثيابه بالماء كأنه خارج لتوه من مغطس ، ومرتجف الاعطاف من البرد. ووجدتني ازاء قرية صغيرة ، مستكينة ، وهادئة ، وقد خلت ازقتها من أية حركة ، ولم تظهر من علامات الحياة فيها الا ادخنة متفرقة تنفثها كوى صغيرة هنا وهناك في بعض الدور. وميزت بين دور القرية واحدة كبيرة ومسيّجة بسياج من الحجارة البازلية غير المسواة ، فقدرت أنها المدرسة ، فتوجهت اليها ، وكنت قد صرت الى اسوأ حال يمكن ان يبلغها وافد جديد. واستقبلني مدير المدرسة بأريحية وشت بأصله الريفي العريق ، ورحب بي ، وكرر الترحاب وهو يأمر باعداد الشاي ، ثم كرره ثانية وهو يقدم لي الشراب الدافىء. وعندما لاحظ المدير أن هذا كلّه لم يحسن من حالي كثيراً حملني على الجلوس بجانب المدفأة التي يتقد حطبها وانتقى حطبات كبيرة اضافها الى المدفأة وراح يؤجج النار . وفي غضون ذلك ، تناقشت مع المدير بشأن عملي واقامتي ، وانتهى الامر بأن استأجرت بمعرفة هذا المدير حجرة للاقامة ، وتحدد عملي بأن ادرّس مادتي اللغة العربية والتاريخ لثلاثة من صفوف المدرسة الخمسة واشغل بقية ساعات العمل بتدريس مادة الرياضة البدنية.

يقيناً انني لو لم آت الى هذا المكان من الجورة لما طقت العيش فيه ، ولما وجدت في هذه القرية المنزوية أية متعة. اما وقد جئت بعد ان عانيت ما عانيت من هموم ومشقات ، فقد بدت لي الاقامة في الدلي محتملة تماماً ، بل انها لم تخل حتى من المتع. وكانت تلك هي المرة الاولى التي اعيش فيها على هواي تماماً واجد وقتاً كافياً للراحة والاسترخاء والانصراف الى الامور التي ينصرف اليها الخالون دون مشقة ، ولم يكن هذا بالشيء القليل ولا كانت بهجته قليلة في نفسي.

وبالرغم من ان اقامتي في الدلي لم تطل ولم ارجع اليها بعد ذلك ، فقد تركت هذه القرية الواقعة على تخوم حوران من ناحية دمشق وفي

نفسي انطباعات لا تمحى . وما ازال اتذكر تفاصيل كثيرة عن حياتي في الاسابيع الستّة التي قضيتها فيها. كانت الحجرة التي دفعت عشر ليرات اجرة شهرية لها واحدة من حجرتين تضمهما دار يسكن في حجرتها الثانية رجل وزوجته وبضعة اولاد. وقد احاطني اهل الدار بعناية لا يعرفها الا من عرف تلك الظروف التي لا يقع فيها الفلاح بسهولة على مستأجر مرموق وقادر على دفع عشر ليرات بتمامها دون تسويف او مماحكة. والحقيقة اني كنت بالنسبة لاهل الدار جاراً عزيزاً لمجرد أني المعلم الذي يعلم الاولاد ، فلما اكتشفوا ، الى هذا ، اني اتعامل مع الآخرين بالحسنى ولا ادقق في مسائل الانفاق واني اكافىء كل خدمة يتطوعون بأدائها لي مكافأة مجزية ، تصرفوا معي على اساس اني كنز وقعوا عليه فلا بدّ لهم من احاطته بأتمّ الرعاية.

وكان لربّة الدار معي شأن فاق هذا كلّه ، فقد وجدت فيّ ، الى ما تقدم ، الشاب الذي يفتنه دفء الانوثة وتجتذبه اللفتات الحميمة ، فاستثمرت ذلك على احسن وجه تستطيع فيه انثى مقتدرة ان تأسر فتى قليل التجربة. كانت لخديجة ، وهذا هو الاسم الذي ساطلقه على ربة الدار ، شخصية سافرة القوة ، من الصنف الاقتحامي الذي لا يستفيد من الفرص المتاحة ، فحسب ، بل يبتكرها ، أيضاً . ولم تكن خديجة متزمتة حين يتعلق الأمر بالاخلاق ، ولا كان زوجها من النوع الذي يزجر زوجته او يستطيع ايقافها عند حد. وقد لفت سلوك خديجة نظري منذ اللحظة الاولى التي رأيتها فيها. وعندما تسلمت الحجرة ، وضعت هذه المرأة المتجهة نحو الثلاثين من عمرها نفسها في خدمة الفتى الذي دخل دارها للتو ؛ فجلبت له الحطب الى الموقد واشعلته وراحت تتدفأ هي بناره وتدعوني لاتدفأ أنا الآخر ؛ ثم لاحظت ان ثيابي ما تزال مبتلة فاقترحت علي ان استبدلها بأخرى جافة ؛ وفتحت هي حقيبتي ، وانصرفت الى تأمل محتوياتها وهي تعلق عليها مظهرة اعجابها بهذا وذاك مما فيها. ولما استخرجت منشفة الحمام فردتها خديجة ثم تلفعت بها ودعتني لان انظر اليها وهي تميد بجسدها داخل المنشفة ، ثم رأت ان من الافضل ان استحم قبل تبديل الملابس ، ولم تنتظر موافقتي ، بل شرعت في تسخين الماء

ودعتني الى الاستحمام. وعندما قلت لها اني ساستحم حين تخرج هي من الحجرة ، توجهت الى الباب ببطء ، ثم وقفت ازاءه والقت علي نظرة مست اعماقي حتى لقد كدت ادعوها الى المكوث معي ، ثم ردت الباب وراءها بأناة ، وهتفت وهي في الباحة : « ناديني عندما تحتاج اليّ ! » . والواقع اني لم أجرؤ على مناداتها. الا انها لم تلبث ان جاءت من تلقاء نفسها. وكان اول ما نطقت به عندما لاحظت اني بكامل ملابسي : « تحممت وحدك ، الله منك ! اردت ان افرك لك ظهرك » .

وفي المساء ، بعد ان رجعتُ من المدرسة ، جاءت خديجة اليّ ، واحضرت العشاء وتعشت معي . كانت قد خلعت ثوب النهار الاسود الفضفاض ، وارتدت ثوباً ليلياً زهريّ اللون التف على جسدها المتماسك وابرز مفاتنه ، ولفت شعرها المغسول والممشط حديثاً بمنديل جمع الشعر خلف الرأس وابرز الجبين واتاح للوجه ان يظهر كامل استدارته. وقالت خديجة فور قدومها ، بنبرة تجعل التعابير تبطن اكثر مما تكشف ، إن زوجها ذهب للتعليلة عند بعض الاصحاب وانها جاءت لتؤنسني في وحدتي في ليلتي الاولى في القرية. قعدت خديجة قبالتي على الفراش الذي مدته وسوته بنفسها ، واتخذت وضعاً يبيح لها ان تظل دائبة الحركة ، فتتكور وتثني ساقيها وتحني جذعها باتجاهي ، او تقعد على عجيزتها وساقاها مثنيان داخل الثوب وهي تحتضنهما معاً بذراعيها ، او تسترخي فتمد ساقيها على راحتهما وتسند جذعها الى الوسادة ؛ تفعل ذلك فتنتقل من وضع الى آخر حسب ايقاع الحديث ، وتطلق بنظراتها وتعبيرات وجهها وتحركات اعطافها المطواعة اشارات تومض فتوقد الرغبة ، او تبهت فتطفئها ، وتبقيني في كل الأحول مشدوداً اليها دون توقف.

قالت خديجة بعد ان اطمأنت الى انها مسيطرة عليّ ، وكانت قد انتقلت الى الوضع الذي مال فيه جذعها نحوي : « لماذا لم ترد ان افرك لك ظهرك ؟ » . ولم يكن هذا سؤالاً محدد الأفق ، بل كان من الجليّ أنه مفتاح لآفاق بعيدة الغور ، ولم أهتد الى الاجابة التي لا تلقيني في المجهول ولا تقفل الباب ، فترددت لحظات بذلت هي خلالها قعدتها فاستندت الى

الوسادة ومدت ساقيها واخذت تحرك قدميها يميناً وشمالاً. ثم قلت أنا متعمداً المواربة : « لست معتاداً على هذا » . فلم تعلق هي بشيء. بل مالت بجذعها على قدميها واخذت تدلك اصابع القدمين واحداً واحداً.

وفي المساء التالي ، جاءت خديجة اليّ بعد ان فرغت من تناول العشاء الذي اعددته بنفسي ، واظهرت على الفور عتباً ليناً : « اكلت وحدك ولم تدعني الى زادك ، هذه واحدة عليك ! » . فاربكني عتبها بالرغم من عدم قسوته ، واعلنت استعدادي لدعوتها الى الطعام في اي وقت تحدده هي ، فضحكت وقالت : « باكراً ، تجلب ما تريد وانا أطبخه ، فنأكل معاً » ، فقلت : « غداً الخميس ، سأذهب الى دمشق ، لا بدّ من ذلك » ، واذا بها تتخذ ذلك الوضع الذي تحتضن فيه ساقيها ، وتسند ذقنها على الركبتين وتنظر لي نظرة مديدة دون ان تتفوه بشيء. واستنتجت ان لدى هذه الانثى ما تريد قوله ، ومنيت نفسي بأن تفصح بنفسها عن الرغبة التي لا أجرؤ أنا على الافصاح عنها ، وتعجلت الامر فسألتها عما يختفي خلف هذه النظرة ، فانتقلت الى وضع آخر بحركة سريعة فجلست جاثية على ركبتيها وامسكت خدي وعركته ، ثم قالت بنبرة تتفجر فيها الانوثة : « لي حاجة عندك ، لكني اخاف ، كيف اقول ، اخاف ان تستثقلها » . وكنت لحظتها على استعداد لتلبية أية حاجة لهذه المرأة المستحوذة علي ، وسبق نظري لساني في الافصاح عن هذا الاستعداد. وما كان ادهى تلك المرأة ! فقد نهضت واقفة فانتصبت القامة امامي باستقامة تامة ، ثم اسبلت جفونها موحية بأنها تتجنب مواجهتي النظر ، وشدت ثوبها الى اعلى فكشفت عن فخذين فاتنين فتنة لا قبل لي بمقاومتها وقالت لافتة النظر الى الكلسون الحريري ذي الطراز الحديث : « هل ترى هذا ، لا يعرفونه عندنا وليس عندي غيره ، اريد ثلاثة منه». واجتاحت حركة هذه المرأة ترددي وتحرجي وتهيبي ، ولم اعد ، بعد ، الا شهوة متقدة تبحث عن الارتواء ، فاحطت وسطها المكشوف بذراعيّ وشددتها الي ، واستكانت هي لحظات جاست كفاي خلالها في تضاريس اليتيها المشدودتين واستحوذت شفتاي على بطنها وتمسح خداي بالزغب الذي لم تجتزه آلة الحلاقة . وعندما حاولت ثني الجسد لحمل خديجة على

الاضطجاع ، نترت هي وسطها الى وراء بحركة متملصة دون ان تنفلت من ذراعي ، ومسدت شعري باصابعها ، ثم امسكت بيديّ وفكّت الطوق عن وسطها وبقيت ممسكة بهما لحظات اخرى ، اتيح لي خلالها ان اجوس بشفتي انحناءات الفخذين ، ثم فحّت : « ليس الآن ، زوجي والاولاد ! » واسدلت ثوبها ، ومضت.

جلبت لخديجة ، بالطبع ، ما طلبته ، وفي الاسبوع التالي ، جلبت اشياء طلبتها واشياء لم تطلبها. وظل شأنها معي على حاله ، تجيء فتَعرض وتُعرض ، تكشف عن بعض مفاتنها وتتيح لي أن اتملاها وأتحسسها ، ثم تمضي. وانتهيت الى ان اتعبني هذا الحال واهلك أعصابي ، فقررت ان احزم امري مع خديجة وان اتحرر من التطوح بين الامواج ، فإما على البرّ او وسط اللجّة.

وفي مرة عدت فيها من دمشق وقد جلبت لها حاملتين للصدر واحدة حمراء والثانية بيضاء ، بناء على طلبها ، لم انتظر حتى تجيء هي الى حجرتي لاخذ الهدية كالعادة ، بل حملتها اليها وهي في حجرتها مع الزوج والاولاد وقدمت لها اللفافة وجعلتها تقرأ في نظري اني غاضب ، وانصرفت الى حجرتي رافضاً دعوتهم لي للمكوث معهم. كنت واثقاً من أنها ستجيء اليّ وستقدم عرض فتنة آخر بحجه أخذ رأيي في ملائمة الحمالات لمقاس صدرها ، والواقع أنها جاءت ، لكنها لم تحضر الحمالات ، بل احضرت ماء سخنته في حجرتها ، وقالت بنبرة من لها دالّة تامة علي : « ستستحم بعد السفر ، وسافرك ظهرك هذه المرة حتى لو ابيت ذلك ! » . ووجدت في عرضها شيئاً يبيح لي ان انفذ خطتي في حسم الامر. فلم اعترض. خلعت ملابسي عدا الكلسون ، واتجهت الى الركن الذي استحم فيه ، وجلست على المقعد الخشبي الواطيء المعدّ للاستحمام ، وشرعت في العملية متعمداً الا أظهر اهتمامي بوجودها وقد تابعت هي حركاتي كلها وهي صامتة ، ثم قدمت نحوي ، وشمرت عن ساقيها ، وقعدت بجانبي ، وراحت تفرك ظهري وسألت : «لماذا لا تخلع الكلسون» ؟ فقلت بايجاز وبنبرة باردة : «هذا شأني ، لا

دخل له بالظهر» فلم تعقب بشيء» ، بل ولينت حركات فرك الظهر حتى صار لها طابع المداعبة ، فنحيت يدها بحركة تعمدت ان يكون فيها شيء من الفظاظة ، وسألت هي : « ما لك هل يؤذيك فركي ؟ » ، فقلت محتفظاً بالنبرة الباردة : «فركت لي ظهري ، فشكراً ! هذا يكفي وزيادة » هنا ، كفت خديجة عن الفرك ، ووقفت ازائي مبقية ثوبها مشموراً وكاشفة عن الفخذين ، لكنني تجاهلت وجودها ولجمت نفسي عن النظر الى المفاتن المعروضة امامي . وكررت هي سؤالها بنبرة قلقة هذه المرة : « ما لك ؟» فقلت دون ان تتبدل نظرتي الباردة : « مالي ؟ انك ترين ، انا استحم».
ولا بدّ ان استمرار تجاهلي لخديجة قد ساءها ، او قل انه اربكها ، وقد اسدلت ثوبها فجأة ، وابتعدت عني ، ثم وقفت في منتصف الحجرة خلفي ، فتماسكت ولم انظر ناحيتها وتشاغلت بمتابعة الاستحمام الى ان سمعت وقع خطواتها وهي تغادر الحجرة وصوت الباب وهو ينصفق وراءها غادرت خديجة الحجرة محنقة ، وكان هذا اكثر مما اردت ، لكن ما اردته تحقق ، فلا بدّ انها أدركت اني لن اقبل ان أظل اتطوح في منتصف المسافة بين الشهوة والارتواء وان عليها ان تحسم الامر ، هي الأخرى. وقدرت انها سوف ترجع ، او قل ان هذه كانت هي رغبتي واني توقعت ما يلائم هذه الرغبة ، فانحلّ التوفز الذي كبلت نفسي به حين اصطنعت الجفوة ، وهدأت . ثم قمت بحركة اردت منها ان تشعر خديجة بأني ما أزال ساهراً بعد استحمامي فتحزر أني انتظرها ، فاوقدت بابور الكاز ونفخته بحيث يبلغ صوته اعلى درجاته ، وهيأت الشاي بأمل أن نشربه معاً. لكن وقتاً طويلاً مضى دون ان تجيء خديجة. وكنت اتنصت الى الحركات التي تصلني من حجرتها واقيم حساباتي عن مجيئها من عدمه في ضوء تفسيري للاصوات التي التقطها. وانتهى الامر الى ان هدأ كل شيء على الجانب الآخر دون ان تطل خديجة ، فقمت من مجلس انتظاري ونظرت الى الحجرة الاخرى فأدركت ان النور فيها قد أطفيء ، لقد ناموا . واسقط في يدي واحسست بالقهر ، وشئت ان اقوم بأي شيء وفطنت لابريق الشاي الذي لم اكن قد شربت شيئاً من شايه ، فوجدت انه قد برد ، واردت ان اسخنه على نار المدفأة فظهر لي أنها أنطفأت منذ وقت طويل

ولم يبق امامي الا ان الجأ الى الفراش فتمددت فوقه واسلمت نفسي للافكار والهواجس ، ثم احتواني النوم في نهاية المطاف.

لم اعرف كم مضى علي من الوقت منذ غفوت . ثم حدث ما قطع نومي وحملني على ان اعبر ذلك الفضاء الغامض الذي يعيد النائم الى عالم الصحو ، فاحسست بأن خديجة ممددة بجانبي ، وكان صدرها ملتحماً بظهري . و ذراعاها يطوقان جذعي ويشدان عليه ، وكانت اناملها تنغمس في لحم الصدر وتعبث بالشعر النامي عليه. وعندما تيقنت من اني لا احلم فاستدرت لاواجهها وابادلها العناق ، ادركت انها لا ترتدي شيئاً سوى حمالة الصدر ، وادركت هي أني فطنت لوجود الحمالة فقالت بمرح مهموس : « لم اعرف كيف افكها فجئت اليك كي تفكّها لي » ، ثم هتفت : « انها الحمراء ، لبستها خصيصاً من أجلك » .

بعد تلك الليلة ، لم تطلب خديجة مني ان اجلب لها اي شيء ، ولم تقبل ان اجلب لها شيئاً من تلقاء نفسي ، ولم تتعرّ في حضرتي الا حين نكون في الحجرة المظلمة وسط الفراش ، وكان عليها في كل مرة ان تنبئني بما اذا كانت الحمالة التي عليّ ان افكها هي الحمراء ام البيضاء.

أما في المدرسة فقد جرى كل شيء دون مشاكل . كنت ادرّس مواد اتقنتها واجد متعة في تحبيب الصغار بها. ثم ان البرد والمطر الذي ظل يسح معظم الايام اعفياني من الحرج الذي كنت ساتعرض له في دروس الرياضة البدنية. فلم يكن في المدرسة صالة للالعاب ولا ملاعب من اي نوع. ومع البرد والمطر تعذر اخراج التلاميذ الذين لا يرتدون الاّ الهلاهيل الى الباحة المكشوفة لاداء التمارين . وهكذا لم اتعرض لأي امتحان في هذا المجال ، ولم يقدر لاحد ان يكتشف مقدار جهلي فيه. وكان مدير المدرسة رجلا طيباً على العموم ، فقد منذ زمن طويل طموحه الى المعالي التي يتطلع اليها الناس حين يكونون في مقتبل العمر ، وعلمته خيبات الامل المتعاقبة ان يستسلم لما هو فيه ويقبل بالمرتبة التي تحققت له كمدير مدرسة ريفية بسيطة ، دون ان تتعقد شخصيته او تجعل منه شخصاً ساخطاً على الحياة وما فيها ، كما يحدث لكثيرين من امثاله. وكان

المعلمون الآخرون جميعهم من المعلمين الوكلاء الذي لا يعرف واحدهم كم سيطول بقاؤه في هذا العمل ، فلم تتوفر ، اذن ، تلك الظروف التي يتنافس فيها العاملون في مجال واحد فتتولد بينهم اسباب البغض والتجافي . واذ كنت الفلسطيني الوحيد بين المعلمين وكان الآخرون مشوقين لمزيد من المعرفة في الشأن الفلسطيني ، فقد تيسر لي ان انخرط في احاديث جادة وان امضي اوقات الفراغ في ما هو مفيد ، كما تيسر لي ان اشعر ، أيضاً ، بالتميز ، انا المتابع للامور الساخنة في هذا الجوّ الذي يتسم ، على العموم ، بالركود.

والحقيقة اني بدأت آلف وضعي مع ثقتي بأن كل شيء فيه مؤقت. وقد سبب لي هذا التآلف بعض البلبلة ، اذ خشيت ان احبّ ما أنا فيه ، فإذا جاء وقت انتزاعي منه فسأجد الامر صعباً وسأتألم لفقد ما أحب ومن احب. وكان أشد ما يلبلني هو هذه العلاقة التي تطورت مع خديجة ، فالمرأة المتزوجة التي تكبرني في السن والتي لا يكاد يجمعني بها مما هو مشترك الا متعة الفراش ، بدأت تتعلق بي على نحو ينذر بابتعاد علاقتنا عن حدود المغامرة ، ولم اجرؤ على ان افاتحها ببلبالي ولا ظننت بأنها ستفهمني لو بسطت لها هواجسي . وهكذا تركت الامور تمضي كما هي ، مقدراً ان هذا كله لن يلبث ان يختفي ، ووراكناً الى هذا التقدير.

ومهما يكن من أمر فإن هذا كله لم يستمر طويلاً ، ففي نهاية الاسبوع السادس لاقامتي في الدلي ، وكنا قد صرنا في النصف الثاني من كانون الاول / ديسمبر ١٩٥٧ ، وجدت في انتظاري ، في دمشق ، الرسالة المتوقعة : لقد حان دوري للالتحاق بالعمل الموعود في الاونروا. ابلغ الاستاذ نمر اليّ هذه الرسالة ، وقال ، وقد زيّن وجهه بالابتسامة التي تنبثق من اعماقه كلما كان بصدد اسعاد احد : « ستعمل في البطيحة وهي منطقة يبدأ بها الغور المحاذي لنهر الاردن ، وتقع عند مصب هذا النهر في بحيرة طبريا » . واراد الاستاذ نمر ان يزيدني ايضاحاً ويصور لي من هذه المنطقة ما يشجعني على قبول الاقامة فيها. وهكذا عرفت ان البطيحة تشكل سهلاً خصيباً تحفه مياه النهر والبحيرة من جانبين وتنحدر اليه مياه

الامطار من جانبيه الاخرين اللذين تكتنفهما المرتفعات وتتفجر في وسطه عشرات الينابيع . كما عرفت ان اهل هذا السهل يستنبتون الخضار في مواسم مبكرة مستفيدين من دفء المنطقة ويزرعون الموز ويصطادون السمك من النهر والبحيرة. ثم قال الاستاذ نمر ان سكان المنطقة هم خليط من السوريين اهل البطيحة وفلسطينيي الغور الذين لجأوا اليها منذ العام ١٩٤٨ ، وتوقع ان تستهويني الاقامة بين هؤلاء الناس ، وانهى كلامه بلفت نظري الى انني ساعيش على حدود الوطن الذي اغتصب وسأتمكن من رؤيته كل يوم : « ستكون أمامك طبرية ، البحيرة ، والبلدة ، وستراهما كلما مددت نظرك ناحية الغرب » .

لقد اثار هذا كلّه اهتمامي . اما الشيء الاساسي فتمثل لي وقتها في ظفري بالعمل الدائم والراتب الذي سيحررني من الحاجة الى اي معونة ، وسيوفر لي أن استقل بشؤون حياتي استقلالاً تاماً . وقد ادركت ان ما يلزم لانطلاق خطواتي في الحياة بثبات قد تحقق ، وقد صار المجاز ما تبقى مرهوناً بارادتي وعزيمتي ، وكانت الحياة قد شحذتهما بمسنّات قاسية فصارتا على امضى ما يكون.

وتوفر لي اسبوع بكامله قضيته في دمشق كي اتهيأ للحياة الجديدة التي كنت مقدماً عليها. والحقيقة اني وجدت الكثير مما ينبغي ان اقوم به حتى اتمكن من السفر الى البطيحة ، فامتلأ الاسبوع بنشاطات متصلة. وقد امكن ان أعد الاوراق اللازمة لاستكمال اصدار قرار التعيين واحصل من المخابرات العسكرية على اذن الاقامة في المنطقة الحدودية التي تقع فيها البطيحة. كما امكن ان اجول على اصدقائي الكثيرين فأودعهم واتزود بتمنياتهم الطيبة.

وفي واحدة من جولاتي على الاصحاب ، قادتني قدماي الى مقرّ حزب البعث العربي الاشتراكي وقد عزمت على مقابلة الاستاذ عبد المجيد حنونة لابلغ اليه ما استجدّ على حياتي من تطورات . وكان مقر الحزب قد صار في ظل الاستعدادات الجارية لتوحيد سورية ومصر واحداً من اهم مراكز النشاط السياسيّ في المدينة ، فالوفود القادمة من مختلف انحاء

سورية والاردن ولبنان تؤمه ليل نهار، والاجتماعات التي يعقدها قادة الحزب وزوارهم تتواصل بلا انقطاع ، والمتحدثون والمتناقشون يصولون ويجولون دون هدوء. وكانت حجرات المقر وباحته مكتظة بمن فيها ، وقد فاض الحشد عن طاقة استيعابها فانتشر في الزقاق الممتد امام المقر والذي يصله بشارع الصالحية. وقد استقبلني الاستاذ عبد المجيد ، وهو المشغول كغيره بما لا تدري من شؤون ، بمودة واهتمام ، واظهر ابتهاجه بظفري بالوظيفة الدائمة . ثم قال الاستاذ ببساطة كأنه يريد ان يتمّ امراً سبق ان اتفقنا عليه : « الآن ، انت في الثامنة عشر ، ولديك هذه الوظيفة فلست بحاجة لأحد ، انه انسب الاوقات كي تنضمّ الى الحزب فلا يتهمك احد بالانتهازية » . وقلت ، مأخوذاً بالجوّ وبالحجة التي ساقها محدثي : « ليس عندي ما يمنع ذلك. كل ما في الامر ان عليّ أن اخبر اصحابي في عرب فلسطين ، انت تعرف ، رافقتهم كل هذه السنين ، ولا يجوز ان اتركهم دون ان يعرفوا » . والتقط هو الموافقة التي اشتملت عليها اجابتي ، فامسك بيدي وشق لنا طريقاً وسط الزحام ، الى ان وقف ازاء نافذة مفتوحة على الباحة وخاطب شخصاً عبرها فاعطانا هذا الشخص طلب انتساب للحزب. وفي زاوية في الباحة امكن ان نجد فيها فسحة ملائمة للوقوف ، ملأ الاستاذ عبد المجيد الطلب بخط يده ، ثم اخذ توقيعي عليه ، وقال : « سأقدمه مع التزكية ، وسيتصلون بك لتحديد موعد حلف القسم » .

كان ذلك في الاسبوع الثالث من كانون الاول / ديسمبر ١٩٥٧. وكانت دمشق قد تحولت الى بركان يغلي بالمشاعر القومية العربية ، واصبحت الدعوة لتوحيد مصر وسورية طاغية بحيث لا يمكن لاي شيء ان يقف في وجهها . وكان حزب البعث المدفوع بعقيدته الوحدوية العربية وبضغط الجمهور الذي اجتذبته زعامة عبد الناصر ، قد انتهى الى القبول بشروط عبد الناصر للوحدة ، كلّها ، واصبح الحزب في سورية اكثر الاحزاب شعبية. وفي نهاية الاسبوع توجهت الى المرآب الذي اعرفه ، وحملتني سيارة الاجرة الصغيرة بين ثمانية ركاب الى بلدة القنيطرة التي اعرفها والتي توجب عليّ ان أمر بها في تنقلي بين دمشق والبطيحة.

كتب صدرت للمؤلف

□ الرواية

١- **المحاصرون** ، دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٣ .

٢- **بير الشوم** ، بيروت : دار الكلمة ، ١٩٧٩ .

٣- **سمك اللجّة** ، دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٢ .

□ الدراسات

١- **الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤ - ١٩٧٤ ، دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية** ، بيروت ، مركز الابحاث م .ت .ف ١٩٨٠

٢- **العمل العربي المشترك واسرائيل ، الرفض والقبول ، ١٩٤٤ - ١٩٦٧** ، نقوسيا : شرق برس ، ١٩٨٩ .

٣- **جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨ - ١٩٤٨** ، نيقوسيا : شرق برس ، ١٩٩٠ .

□ الشهادات

١- **دروب المنفى ، الوطن في الذاكرة** ، دمشق : دار عيبال ، ١٩٩٤ .

تنويه وشكر

اسهم في نشر هذا الكتاب تبرع شخصي من السيد عبد المجيد شومان

الصعود إلى الصفر

«. . . فاجأني رد فعل رب العمل مفاجأة كاملة، واشعل في نفسي كبرياء الطفولة المجروحة، وأوقد فيّ حس التمرد على ذل الحاجة، دفعة واحدة. ثم بلغ حنقي حداً تعذر عليّ معه ان ابقى صامتاً، حين شتم الرجل المهتاج اهل فلسطين متهماً اياهم بالتفريط ببلادهم في معرض اتهامه لي بالاهمال. وهببت في وجه الرجل، مستنكراً صفعته وشتائمه، ورحت ابكي، فيما انا اواصل الصياح. ويبدو ان رب العمل المعتاد على رضوخ الاجراء له فوجيء بثورة الطفل وجرأته على رد الشتيمة له، فانهال عليّ ضرباً باطرافه الاربعة، وفقد السيطرة على نفسه.»

«الصعود الى الصفر» هو الجزء الثاني في سلسلة شهادات فيصل حوراني الملحمية الطويلة، والتي تحمل عنوان «دروب المنفى». وفي هذا الجزء يتابع المؤلف تسجيل شهادته لمسيرة شعبه بعد تشريده من وطنه، واستقراره في وطن جديد، من خلال روايته لسيرته الذاتية، فجاءت هذه الشهادة مزيجاً من القص الروائي والوصف التاريخي، لأحداث عاشها المؤلف او كان شاهداً عليها.

ولفيصل حوراني، بالاضافة الى الابحاث والدراسات والمقالات الصحفية، ثلاث روايات هي : المحاصرون (١٩٧٣)، وبير الشوم (١٩٧٩)، وسمك اللجة (١٩٨٢)، والجزء الاول من شهاداته « دروب المنفى» بعنوان « الوطن في الذاكرة» (١٩٩٤).

الناشر
دار سندباد للنشر
ص .ب : ٩٤٠٦٣١ عمان ١١١٩٤ الاردن
تلفون: ٦٨١٠٠٧، فاكس: ٦٩٩٣٥١ ٦ ٩٦٢

Sindbad Publishing House
P O Box: 940631 Amman 11194 Jordan
Tel: 962 6 681007, Fax: 962 6 699351